

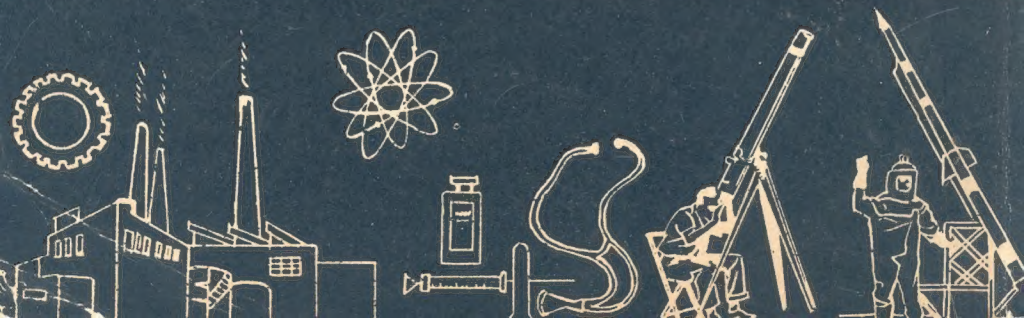


الكشف العلمي

تأليف : د. م. ستيرنر

ترجمة : أحمد محمود سليمان

مراجعة : د. محمد جمال الدين الفندي



العلم للجميع

العدد ٥

سلسلة نشر نصف شهرية عن

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر

وزارة الثقافة

مشار والتحرير :

سميرة الكيلاني

صلاح جلال

محمد رواش الحديب

محمود مسام حسن

المترجم :

أسامة أمين الخولي

الكشف العلمي

تأليف : د. م. ستيرنر
ترجمة : أحمد محمود سليمان
مراجعة : د. محمد جمال الدين الفندقي

- ماهي اللدائن ؟
- ماهي المضادات الحيوية ؟
- ماهوالتانون العلمي ؟
- لماذا نرتاد الفضاء ؟
- كيف اكتشفت الكهرباء ؟

تقديم

كان العلم حتى وقت حديث يدرس في معاهد التعليم وفي كل مكان آخر سواها على أساس واقعي • وكان المدرس يعتبر أنه قد أدى واجبه حينما يكون قد شرح الفواهر ، وأثبتها ، وربطها بنظرية مقبولة معقولة • ونتيجة لذلك يكون الأمر من وجهة نظر التلميذ قد اتخذ مظهر الانتهاء •

وهذا الاتجاه الذي لا يتلاءم مع أى فرع من فروع المعرفة الحقة لا يتلاءم بوجه خاص مع الفرع من المعرفة الخاص بالطبيعة والذي يسمى ((العلم)) ، وذلك لأن العلم مثله مثل أى نوع من أنواع المعرفة له أسس ثابتة وطيدة فى الماضى • ان الشخص الذى يشتغل بالعلم انما يشتغل نفسه بمعرفة انحدرت اليه من أسلافه ، تماما كما يفعل المحامى أو كما يفعل رجل الدين • وإذا كانت مادة المعرفة العلمية تتطور وتتمو بدرجة أسرع من الشرائع القانونية أو الدينية ، فان ذلك يكون أدعى لمعرفة شئ عن أحوال تغيرها ونموها • ومن الممكن ان يتم هذا فقط عن طريق دراسة تاريخها ، فالعلم ما هو الا نتاج حيوى يمكن ايضاح طبيعته الحقة فقط بتتبع قصة تطوره، مثله فى ذلك كمثلى النتائج الأخرى لأوجه النشاط الحيوى • ان الماضى والحاضر وحدة لا انفصام لها •

ومع ذلك فليس عمليا أن تقتصر على تدريس قصة العلم خلال التاريخ فحسب • ان التعليم الآن منظم ، ونظام الدراسات المتجانسة أكثر ارضاء للنفس ، من جهة لأن الظروف الحالية للتعليم المعملى التجريبى لا تتلاءم بسهولة مع الشرح التاريخى ، ومن جهة أخرى فانه من غير المرغوب فيه اطلاقا أن نصرف ذهن التلميذ عن الحقيقة الجوهرية التى تتلخص فى ان العلم فى جوهره يختص بالبرهان المباشر لا بالحوار الذى يعور حول هذا البرهان •

اننى اندفع حيث تدفعنى الحقائق بقوتها
اذ لا سسريد لى التزم بكلماته

هورس

ان هذين البيتين للشاعر الرومانى هورس(١) قد أوجزا ايجازا
مناسبا جدا اتخذ شعارا لأول جمعية علمية فى بلادنا « لا تقديس لكلمة
انسان » *

ان تعليم التاريخ فى ذات طبيعته لا يمكن أن يقترن باقامة البرهان .
وانى لأرى أنه من الحكمة لهذا السبب أن نفصل التساويخ عن التعليم
التجريبى ، وانه من الأخرى أن نقوم بتدريس تاريخ العلم كفرع مستقل
بداته من أن نربط بين التساويخ والعلم . اننا نحتاج لكل منهما بدرجة
متساوية . وربما يحين الوقت الذى توجد فيه طريقة مرضية لربط
الاثنين سويا . وحتى يحل هذا الوقت فانه من شأن مؤلفات كمؤلف
الدكتورة تيرنر أن تقف حائلا دون انكاس العلم منجبرا الى الحالة
العفائية التى ما زال معرضا كل التعرض لأن يتخلدها .

شاوكر سنجر

(١) الشاعر والهجاء الرومانى الشهير (٥٥ - ٨ ق.م) واسمه الحقيقى فلاكوس كوينتوس
موريشيوس ، وكان صديقا لفيرجيل ، وقد اكتسب شهرة خالصة بهجاءاته وانشائيه
وأغانيه .

(المترجم)

مقدمة

لقد حاولت في هذا السفر أن أبين كيف نمت بعض نواحي معرفتنا العلمية الحالية ، وانحصرت معالجاتي لهذا الأمر في النقاط العامة • وكلما دنوت من الأزمنة الحديثة كلما اقتضى الأمر إيجازاً أوفى • وقد اقتضب عدد الأسماء المذكورة إلى أضيق الحدود الممكنة • ومن الواجب اعتبار هؤلاء الرواد الذين ذكرت أسماءهم أمثلة نمطية لعصرهم ، لا أن يؤخذوا على أنهم هم الذين أسهموا بمفردهم في كشف معين •

وانى لمدينة في اعداد هذا الكتاب لكثير من الأصدقاء لاسانهم الى كثيرا من المعونة القيمة • لقد وجد الأستاذ شارلز سنجر ، ومسر سنجر وقتنا لقراءة المخطوط ونقده وسط دورة محاضرات شاقة •

وعلى أن اعبر عن امتناني فوق ذلك للأستاذ سنجر لتقديم هذا الكتاب ، بينما تكرمت مسر سنجر ووضعت تحت تصرفي نتائج بعض أبحاثها عن نقولا الكوزوى • وقرا الدكتور ايفور هارت المخطوط بأجمعه وأعانني بكثير من النقد القيم • وملا الى يد المساعدة في نقاط خاصة كل من المستر روبرت ستيل ، والدكتورة ليلي ميستر ، والأنسة فرانسز كولينز ، والأنسة مود وليمز ، والدكتور روبرت ديس ، والمستر ر. ه. ريت • ، وقد تكرم الأستاذ فراكنيرجر أستاذ علم الأنسجة بجامعة كومنسكى في براتسلافا فأمدنى بالصور الدقيقة المجهرية التي تضمنتها لوحات الفصل الحادى عشر • وساعدنى المستر أ. أ. اليس من المتحف البريطانى مساعدة كبيرة فى اختيار وسائل الايضاح •

وانى لمدينة بشكر خاص لزوجى لنقده القيم ولنصيحته وتشجيعه •

د • م • تيرنر

مقدمة الطبعة الثانية

إنشاء أعداد هذه الطبعة الجديدة قمت بإجراء بعض التنقيح في الفصل العاشر والحادي عشر والثاني عشر ، وأعدت كتابة الفصل الثالث عشر مضيئة اليه فيما عدا القسمين الأخيرين منه • أما الفصلان الرابع عشر والخامس عشر فهما جديان كل الجدة • واني لمدينة بالكثير للأنسنة جويس رجبى وللدكتور ايفور هارت لمعاونتهما لى فى بعض النقصات الخاصة • وللدكتور أ • آسشورت أندروود مدير المتحف الطبى التاريخى فى وكومب لوضعه تحت تصرفى المواد التى استقيت منها وسائل ايضاح لهذه الطبعة • واني لمدينة كذلك باطبيب تشكراتى للمسترن • ا • ج • رولينز المستشار العلمى للمشرفين على صالة العرض القومية وذلك من أجل الصورة الاشعاعية السينية لرأس رجل رسمها الفنان أنتونيللو •

د • م • تيرنر

مقدمة الطبعة الثالثة

ان المدى الذى وصل العلم اليه الآن فى تشكيل حياة الناس ، وافكارهم أدى الى الرأى القائل بأنه من الواجب أن يكون للعلم نصيب فى تاريخ الحضارة • وبذلك يجد له مكانا فى البرامج المدرسية •

وقد أتت المطالبة بهذا من أولئك الذين يراودهم الأمل فى أن مثل تلك الدراسة سوف يكون من شأنها أن تهىء لغير العالم بعضا من الادراك للعلم ، كما تكون تدريبا مفيدا لأولئك الذين يميلون الى الاستهانة بمساهمة انجزه الماضى من أعمال مجيدة •

وبمثل هذه الأفكار التى دارت فى خلدى نطقت كتابى الأول فى تاريخ العلم ، واضفت فصولا الى بعض الموضوعات الكثيرة التى يصادفها القارئ العادى الآن فى كل مكان •

د • م • تيرنر

الفصل الاول

نظرة إلى الوراء

١ - بعض مميزات التفكير في القرون الوسطى

تصور لحظة أنك تعيش في انجلترا في القرن الثاني عشر ، وأنتك مهما كانت مهنتك ستتشرب آراء معينة ، ونظرة معينة الى الحياة من أولئك الناس الذين تعيش بينهم - أنك ستتطلع الى الماضي باحثا عن الحكمة والحقيقة ، وحينما تطرأ مسألة فانك ستبحث عما قاله قدامى المؤلفين بصدددها ، وتصديق دون جدال ما قالوه . وستتولاك الحيرة وتصدم لو أنك سمعت عن رجل عالم يقوم بإجراء تجارب ، ولن يطرأ على بالك إطلاقا أن تقوم باكتشاف أمر بنفسك .

ان حكمة الماضي التي لا قت مثل هذا التبرجيل خلال القرون الوسطى كانت غالبيتها مستمدة من مؤلفات اغريقية معينة وجدت طريقها الى أوروبا المسيحية . ولكن تلك المؤلفات تداولتها ترجمات عدة وتسربت اليها أخطاء حتمية فكثير من المؤلفات الاغريقية الأصلية ترجمت الى السريانية^(١) أو العبرية ، ثم بعد ذلك الى العربية ، ثم الى اللاتينية . ولم تكن هناك آلات طباعة في تلك الأيام ، فكان لا بد من نسخ كل كتاب باليد . وعلى ذلك فان النسخ وإعادة النسخ المستمرين جعلوا أخطاء الترجمة أشد فحشا . ونتج عن ذلك أن المؤلفات العلمية الأولى التي وصلت أوروبا المسيحية كانت تختلف اختلافا بينا في معناها عن أصولها الأولى . وعلاوة على ذلك لم تكن كل مؤلفات الكتاب القدامى ميسورة أقط . ونتيجة لذلك وبصرف النظر عن أخطاء الترجمة والنسخ فان مفكرى القرون الوسطى لم يكن لديهم الملم تام بعلوم الماضي .

أما الآن فان العلم لا يمكن أن يتلقفه جيل من جيل آخر أو تتلقفه حضارة جديدة من حضارة قديمة كما يتلقف الانسان طرودا محزما تحزما

(١) لغة سوديا القديمة وهي لهجة من لهجات اللغة الآرامية .

(الترجمة)

أنيقاً ، اذ هناك تغير مستمر . ان بعض مظاهر العلم القديم تتعلق بأذهان الناس أكثر من غيرها حتى تصل الى درجة الابتذال ، كما يزداد اهتمام الناس ببعض الأفكار ويتجاهلون أخرى ، ولذلك فكل جيل يضيف شيئاً الى المجموع الأصلي أو يسقط شيئاً منه . وبهذه الطريقة نشأت في العصور الوسطى بعض معتقدات كانت عبارة عن نسخ محرفة جداً للمعلومات القديمة الأصلية . فمثلاً كان الانسان يعتقد من أزمان متوغلة في القدم أنه من الممكن التنبؤ بالقدر من ملاحظته للنجوم ، وكان يظن أن هذا صحيح على الأخص فيما يتعلق بالعظماء في الأرض . اذ كان الناس يعتقدون أن السموات نفسها تلفظ نارا اعلاناً عن موت الأمراء . وبهذه الطريقة نشأ العلم المعروف بعلم التنجيم . وقد ارتبطت تعاليم التنجيم في القرون الوسطى ببعض نظريات الفلاسفة الاغريق عن الكون . وبهذه الطريقة اكتسبت تلك التعاليم مهابة خاصة . وقد ظل هذا التنجيم المضطرب في الحقيقة موضوعاً مبعجلاً بين الموضوعات الدراسية حتى وقت متأخر من القرن السابع عشر .

ولم تكن هناك في القرون الوسطى أية فكرة عن التخصص كالفكرة التي لدينا الآن . فلم يكن يتخصص العالم في دراسة حياة النبات ، أو في فرع من فروع الرياضيات ، أو في لغة ما . انه كان يدرس العلم ككل . ولذلك فان أولئك الذين كانوا يعتبرون أنفسهم فلاسفة كانوا يطيلون التأمل في المؤلفات القديمة ، ويضعون كتباً فيما يظنونه العلم كله ، وحاولوا اعطاء أوصاف تامة للكون وللطبيعة البشرية وللحياة الأخرى . وكانت روح الاستقصاء الجريء منعقدة انعداماً كلياً في تلك الايام - فمثلاً كانت المخطوطات التي تصنف دقائق بعض النباتات تنسخ ويعاد نسخها ، وتكرر أخطاؤها مرة تلو المرة . على الرغم من أن مجرد ملاحظة للحظات قليلة كانت كافية لأن تظهر للكتاب أنه كان مخطئاً .

وكانت التعاليم التي تتناسب مع تفسير الكتب المقدسة والتي يقوم بها كبار رجال الكنيسة منزهة عن النقد . وكانت قيمة العلم من أجل العلم أقل من قيمته كمعوان على توكيد مكارم الأخلاق .

فعلم الحيوان مثلاً في تلك الايام المظلمة كان يتمثل في مجموعة من القصص العلمية والقصص الخرافية في كتاب الدواب ، الذي صنف في القرون الأولى من العصر المسيحي . وفي هذا المؤلف الغريب بقصصه عن العنقاء التي ترتفع من النار دون أن يمسها أذى ، والبيجة التي تغذي صفارها بدماء قلبها ، والجواد ذي القرن الواحد أو الأونيقرور كانت تختلط فيه البيانات سواء كانت صحيحة أو محرفة بأمثال توضيحية من الكتب المقدسة . وكان الناس يصدقون هذا كله ، كما كانت هذه القصص الخرافية تنتقل من جيل الى جيل دون أن يرتاب أحد في صحتها .

وعلى ذلك فإن النظرة العامة في القرون الوسطى لم تكن تحمل في طياتها أى تشجيع لدراسة منظمة للطبيعة ، تلك الدراسة التى تطلق عليها كلمة « العلم » • ولذلك فعلى الرغم من أن علماء القرن الثانى عشر والثالث عشر الذين يطلقون عليهم اسم « المدرسين » كانوا ممتازين فى الجدل ، إلا أنهم فى نظرتنا أفسدوا كل حججهم لأنهم كانوا يحاولون دائما أن يجعلوا استنتاجاتهم تتلاءم مع ما وصل اليه أرسطو الفيلسوف الأغريقى العظيم من نتائج ، حيث كانت عقيدتهم الثابتة أن كل شئ قاله كان صحيحا • ومع ذلك فقد كان عليهم أن يتراجعوا مرة ثانية إذا لم تتفق الاستنتاجات مع بعض النواميس الكنسية ، وقيموا الحجة على أن أرسطو كان يقصد أمرا آخر •

ومثل هذه الطريقة ، طريقة النظر الى الوراء لم يكن لها أن تؤدى اطلاقا الى بحث تقدمى عن الحقيقة • وكان العلم يعتبر فى واقع الامر شيئا له أشياء الماضى ، شيئا يستحق الاكتناز لا شيئا جيا من الواجب أن تهين له أسباب النمو • وقد ساد هذا الاتجاه قرونا حينما كان العلم فى يد القلة ، وكانت الكتب المطبوعة غير كافية ، وكانت غالبية الرجال والنساء يقضون كل حياتهم فى نفس المدينة أو القرية • ولكن هذه الأحوال أخذت تتغير فى الأيام الأخيرة من القرون الوسطى ، إذ أخذت تتحطم عزلة القرى المكثفة ذاتيا ، وعزلة السيد فى قلعته ، كما أخذت الثروة تتداولها الأيدى وبدأ الناس يكثرون من الأسفار ، كما بدأ الشيايب ذو الإدراك البسيط من الذين كانوا حبساء أوطانهم يصقلون أذهانهم باحتكاكهم بأقوام من أماكن بعيدة ، وحدث تبادل للأفكار وبدأ الناس ينظرون الى العالم بعيون جديدة •

٢ - الكيمياء القديمة

هناك عمليات كيميائية يرجع تاريخها الى الماضى السحيق • فاستخلاص بعض المعادن من خاماتها وحرق الفخار وطلاؤه بالخزف ، وصناعة الزجاج والميناء واستخراج صبغة جميلة تسمى بالقرمز الصورى (١) من أنواع معينة من الحار • كل هذه الطرق كانت معروفة قبل المسيح بمئات السنين

وكانت مثل هذه العمليات فى حاجة الى صناع مهرة • ولكنه مما يؤسف له أن اكتساب المهارة وادخال التحسينات على الطرق الفنية لا تطابق هوى عند جميع الناس ، فالرغبة فى الثراء وحصول الانسان على شئ من لا شئ موجودة باستمرار بين الجنس البشرى •

(١) نسبة الى مدينة صبور •

وكان الناس فى القرون الأولى من تاريخنا نهبا لتلك الرغبات كما نحن اليوم . وقد حدث أن عضد الاعتقاد السائد فى تلك الأيام أن المادة كلها مكونة من أربعة عناصر : التراب والهواء والنار والماء علاوة على عدم وجود معلومات منظمة عن تركيب المواد أهدافا تبدو لنا أهدافا شديدة السخف ، تلك الأهداف التي كانت تتمثل فى تحويل المعادن غير النفيسة مثل الحديد والرصاص الى ذهب ، وفى إيجاد أكسير الحياة وهو سائل سحري من شأنه شفاء كل ما يصيب الانسان من أمراض . وكان هذا الفن فن تحويل المعادن غير النفيسة الى ذهب يدعى بالكيمياء ، وتندرج كيمياء العصور الوسطى بأجمعها تحت هذا الاسم (١) .

وكان المبدأ القائل بأن العالم مكون من أربعة عناصر والذي كان يعتبر أساسا لمعتقدات الكيمائي راجعا فى الغالب الى أرسطو الذى قال متتبعا خطى ما سبقه من رجال الفكر أن هناك أربع صفات أولية : جاف ، ورطب ، وبارد ، وحار . وكان مفروضا أن تكون هذه الصفات العناصر أو الجواهر الأربعة : التراب ، والهواء ، والنار ، والماء باتحادها فى ازدواجات معينة . وعلى ذلك كان الناس يخلعون على الماء صفة البرودة والرطوبة ، وعلى التراب صفة البرودة والجفاف ، وعلى الهواء صفة الحرارة والرطوبة ، وعلى النار صفة الحرارة والجفاف ، وكان المفروض أن يتكون ما على الأرض جميعا من هذه العناصر . وكان الناس يظنون أن السموات وهى ثابتة لا تتغير تتكون من عنصر خامس ألا وهو الجوهر «٢» .

(١) تكثر الإشارة فى أدب تلك العصور الى الكيمياء . وهناك بعض اشارات ظريفة من شكبير كقوله فى قصة الملك جون الثالث :

ان الشمس المجيدة

تقوم وهى فى مجراها بدور الكيمائي

اذ تحول بنورها المنبعث من عينها البهية

الأرض المقيمة الغليظة الى ذهب يراق

وكقوله فى قصة يوليوس قيصر فى المنظر الأول من الفصل الثالث :

ان ملامح وجهه التي قد تبهر هيبا فنيا

تتحول بالكيمياء النفيسة الى فضيلة ووسامة .

(٢) ان هذه المعتقدات كثيرا ما تفتى بها الشعر . فمثلا يقول ميلتون فى شمسره عن الخليفة :

هذه العناصر الصعبة المراس من تراب وماء ونار وهواء

حولت الى مستقراتها المديدة بعد ذلك

وهذا الجهر الأبرى السماء

ارتفع الى الملا زائرا بأشكال جميلة .

تبلورت واستدارت وتحولت الى ما نرى من نجوم

وحينما ترجمت المؤلفات الأفرقية الى اللغة العربية اتخذت دراسة الكيمياء طابعا جديدا هاما بين علماء الاسلام من القرن السابع حتى القرن العاشر « ١ » . وكان هناك بين الكيميائيين كما يجب أن نتوقع ، أفاقون ودجالون . ولكن بعضهم كان يعتقد مخلصا في تحويل المعادن غير النفيسة الى ذهب وكرسوا حياتهم للبحث عن حجر الفيلسوف « ٢ » الذي كان يظنون أنه سيحقق هذا الغرض . وأدى بهم هذا البحث الى اجراء تجارب عدة . ونتج عن ذلك أنهم ألوا بتجارب مثل التصعيد ، والتقطير ، واذابة المحاليل ، وعملية التبلر . كما أن المهارة التي اكتسبوها أدت الى تحضير عديد من المواد مثل البوريك ، و كربونات الصوديوم واليوتاسيوم ، وكبريتات الحديدوز وكبريتات الخارصين ، وفوسفات الصوديوم النشادرية ، وكذلك عدة أكاسيد وكبريتيدات وسبائك . والحقيقة أن علم الكيمياء وليد دراسات علماء الكيمياء القديمة .

وكان لزاما على علماء الكيمياء القديمة في محاولاتهم التي بذلوها لتحويل المعادن الى ذهب أن يضعوا خطة يسرون على هداها ، ولذلك توسعوا في نظرية العناصر الأربعة حتى تتضمن تفسيراً مقنعا لنشأة المعادن . واعتقادا منهم أن العناصر الأربعة نفسها : التراب ، والهواء ، والنار ، والماء قابلة للتحويل ، ظن بعض هؤلاء الكيميائيون أن المعادن والفلزات تتكون من (١) دخان ترابي هو عبارة عن ماء تحول الى نار ، (٢) من بخار مائي هو عبارة عن ماء تحول الى هواء . وكانوا يظنون أن أول هذين العنصرين نشأ الكبريت منه ، وأن الزئبق نشأ من العنصر الثاني . ولو كان كل من الكبريت والزئبق على درجة تامة من النقاوة ، واتحدا سويا بالنسبة الصحيحة ، لكانت النتيجة كما كانوا يعتقدون هي الذهب ولكن اذا لم يكن كل من الكبريت والزئبق على درجة تامة من النقاوة ، فانه يتكون عن ذلك كما كانوا يظنون معادن أخرى مثل النحاس أو الرصاص أو الحديد . ولذلك كان من أهداف الكيميائيين القدامى تحضير كل من الكبريت والزئبق في حالتها النقية . وكان الهدف الثاني تنقية المعادن غير النفيسة بقدر المستطاع . وكانوا يأملون نتيجة لذلك الحصول على الذهب باضافة الكبريت والزئبق بالنسب الصحيحة . وبالتالي فقد أدى هذا بالكيميائيين القدامى الى عمليات تجريبية لانهاية لها ، على الرغم من أن رغبتهم لم تتحقق قط .

(١) كثير من الكلمات المستعملة الآن في الكيمياء من اصل عربي مثل قلوب والامبيق (أداة كيميائية قديمة) ، وكحول .

(٢) كان غالبا ما يطلق عليه الأكسي الرابى ، وكان يقترن اسمه أحيانا باسم أكسي الميساة .

وكان من السهولة التامة وضع نظرية الزئبق والكبريت موضع الاختبار التجريبي . وقد قام بهذا « جابر (١) » الكيميائي العربي في القرن العاشر ، ولكنه حينما سخن الكبريت والزئبق سويا لم يحصل على ذهب ، ولكنه حصل فقط على كبريتيد الزئبق الذي يدمى زنجفر . وعلى ذلك فان النظرية لم تطابق الحقائق . وكان على جابر حينئذ ان يعدل النظرية او يبندها كلية . ولكنه لسوء الحظ تمسك بها ، وتحاول على المازق الذي وقع فيه بادعائه ان الكبريت والزئبق اللذين تتكون منهما المعادن ليسا هما نفس الكبريت العادي والزئبق العادي اللذين نقابلهما في الحياة العامة . وقد سببت مثل تلك الآراء بليلة كبيرة في دراسة الكيمياء . والحقيقة ان نظرية كثير من الكيميائيين القدامى الى الامور كانت نظرية نصف سحرية . وقد شعروا بأنهم بغموضهم كانوا يتحفظون على اسرار مهنتهم . وكانوا يخفون جهلهم وراء ستار من التمتعة بالتعاون وهم يراقبون أوانيهم وهي تغلي ، وكانوا يشعرون براحة ورضا باستعمالهم كلمات طويلة لا يدركها أحد .

ومن دواعي ارتباكهم أنه لم تكن لديهم فكرة ما عن المادة النقية كما نعرفها اليوم . وكان ما يهتمون به في المادة انما هو مظهرها لا وزنها ولا حجمها . والحقيقة في نظر الكيميائيين القدامى أن المسائل التي يشبه الماء انما هو ماء ، أو على الأقل نوع من الماء . وكان المعدن ذو البريق الأصفر نوع من الذهب . وكان الكثيرون يعتقدون مخلصين أنهم قد حصلوا على ذهب اذا استطاعوا تغيير لون النحاس من أحمر الى أصفر أثناء قيامهم غير جادين بتجارب استخدموا فيها احدى المواد الكيميائية التي كانوا يحتفظون بها على أرففهم .

وقد افترض هؤلاء الكيميائيون دون ما سند لاقتراضهم هذا أن النار مطهر عظيم وأنها تفتت الأجسام الى عناصرها ، ولذلك كانوا دائما يبدعون بتسخين مخاليطهم الى أقصى درجة ممكنة في محاولاتهم الحصول على المواد النقية . وترينا جميع الصور التي رسمها هولبين الأصغر ، وبيتر بريغل الأكبر ، واسسترا دانوس ، وتبنيير لورش الكيميائيين القدامى الكيميائيين محاطين بمكثفات - ٢ - ، وهياكل ، وأواني ، وقدور يلهبون النار بمنافخ عظيمة أو يرفعون مخاليطهم فون النار (شكل ١) .

(١) يقصد بذلك جابر بن حيان

(المترجم)

(٢) قارورات ذات اعوجاجات خاصة

(المترجم)

(شكل ١)
الكيميائيون القدامى فى عملهم
من لوحة خشبية فى متحف ستيليريا
نابليس (بازل ١٤٩٧)



ويجب ألا ننسى أن الكيميائيين القدامى كانوا مزودين بقدر كبير من المعرفة ، ولكنها معرفة لم تكن منسقة • انهم لم يجروا اختبارات دقيقة على نظرياتهم ، كما لم يتبعوا طرقا خاصة فى أبحاثهم • ولذلك كانت معلوماتهم معلومات تجريبية محضة (١) • ولم يكن من الممكن إجراء دراسة علمية لخواص المواد حتى يتسع علمهم لدرجة تزيهم الموضوعات التى كان من الواجب تكريس أبحاث خاصة لها • وكانت تتطلب مثل هذه الدراسة وزنا دقيقا للأمور وبحثا عن العلاقات العددية • ولكن الاتجاه العام للقرون الوسطى كان يشجع التصنيف أكثر مما كان يشجع القياس •

ومع ذلك كان هناك تقدم علمى فى ميادين كثيرة قبل حلول القرن الثالث عشر ، وإذا كان الفلك قد أصبح من مدة طويلة موضوعا مقسورا من مواضيع الدراسة بين العلماء العرب ووصلت الترجمات العربية للؤلفات الرياضية والفلكية الاغريقية أوربا قبل نهاية القرن الثانى عشر • وبدأ الناس يعرفون مبادئ علم الجبر وحساب المثلثات ، وأخذت الأعداد العربية تحل محل الأعداد الرومانية الثقيلة الظل • وقبل حلول القرن

(١) يتضمن فن الطهى كثيرا من المعلومات التجريبية ، وتزود الطاهية بقدر كبير من المعلومات عن خواص المواد المستعملة فى الطعام أو يمكنها أن تقدر تقديرا صحيحا تأثير الحرارة عليها ولكن معرفتها هذه ليست مما يمكن أن تسمى معرفة علمية •

الثالث عشر أصبح فن استخلاص المعادن العادية من خاماتها أمراً شائعاً • ولا بد أنه كان هناك قدر كبير من المعلومات التجريبية عن الميكانيكا حتى صار من المستطاع الوصول الى تلك الدرجة البديعة من الهندسة المعمارية في تلك المدة • وكان القرن الثالث عشر في الحقيقة عصر نهضة علمية ، وقد بدأ روجريكون (١٢١٤ - ١٢٩٤) رسول الطريقة التجريبية عمله في منتصف هذا القرن •

٣ روجريكون

ان المزامم التي تصف بيكون كرائد من رواد الكشوف العلمية كثيراً ما يولغ فيها بمبالغة كبيرة • ومع ذلك فمما لا ريب فيه أنه أسهم بمساهمات مبتكرة في المعرفة العلمية وعلى الأخص في علم البصريات ، فقد وبه مثلاً أن قطعاً كروية من عدسات حارقة من شأنها أن تجعل الحروف الصغيرة تظهر كأنها كبيرة • وكان من رأيه أن مثل تلك القطع يمكن استخدامها لمساعدة أصحاب النظر القاصر • وقد ظهر استعمال النظارات بعد موته مباشرة ولا دليل لدينا على أنه صنع تلسكوبا أو مجهرًا ، ولكنه في الحقيقة تنبأ تنبؤاً غير صريح بتلك الآلات • إذ أنه تحدث عن إمكان استعمال عدسة لكي تظهر الشمس والقمر والنجوم كأنها متدلية الى أسفل •

ان أهمية بيكون بالنسبة لنا تنحصر في استقلال نظره الى الأشياء وفي تعليقه أهمية كبيرة على قيمة التجريب المباشر ، وفوق كل ذلك في ادراكه لعدم جدوى طرق (العلماء المدرسين) لاكتشاف الحقيقة • وكان بيكون جريئاً بدرجة أنه في عصر اضاع فيه العلماء الذين بلغوا أعلى قمة من الشهرة وقتهم في مجادلات لا نهاية لها حول معنى تعبيرات مثل المادة والصورة استنكر كثيراً من هذه المجادلات التي لا طائل تحتها • ولكن نضائحه وتعليماته لم تجد أذناً صاغية ، وذلك لأن الذين حطموا التقاليد في القرن التالي وبحثوا عن الحقيقة سالكين سبيل التجربة الدقيقة الوعرة لم يكونوا هم الفلاسفة والعلماء المعترف بهم ، ولكن كانوا هم الفنانين والعلماء المغمورين •

٤ - أول كتب مطبوعة

ان ظهور الكتب المطبوعة في أوروبا حوالى منتصف القرن الخامس عشر هو أحد العوامل الرئيسية التي تفرق بين العصور الوسطى والعصور الحديثة • وكانت الكتب لا يقتنيها الا القليل من الناس عندما كانت تطبع على ورق مصنوع من مادة غالية مثل الرق ، ولذلك كان

الحصول على كميات كبيرة من الورق اول الضروريات اللازمة لانتاج الكتب على مدى واسع .

وكان المصريون في العصور القديمة يكتبون على سيقان ورق البردى المجففة بعناية والتي كانت تنمو على ضفاف النيل . وكان سكان بيرجاموم في آسيا الصغرى اول من ارى الناس طريقة اعداد جلود الحيوانات التي كان من الممكن الكتابة عليها . واصبحت الجلود المعدة بهذه الطريقة تعرف بالبرشمان أو الرق ، وظلت حتى القرن الرابع عشر هي المادة الرئيسية المستعملة في اوروبا للكتابة عليها . وكانت الطباعة وطيدة الاركان في الصين قبل حلول القرن الحادى عشر . ولم يمض زمن طويل بعد ذلك حتى صنع العرب في اسبانيا الورق بتقطيع الياض السكان وخطها بالماء وعجنها حتى تصير لبابا ، وفردها الى افوخ ثم تركها لتجف . وانتقلت الصناعة من اسبانيا الى ايطاليا وشاعت في القرنين الرابع عشر والخامس عشر بدرجة ان استعمل الورق بدلا من الرق في المخطوطات .

وبمجرد ان اصبح الورق ميسورا بدا ان الطباعة أصبحت امرا لاشك فيه تبعا لذلك . حقيقة كان ميذا صناعة تصميمات بارزة على قطع مسطحة من الخشب أو المعدن ممارسا من عصور متناهية في القدم ، وكانت تستعمل تلك القطع الخشبية في العصور الوسطى اختاما توقع بها حروف الاسماء الاولى ، ولطباعة صور على القماش ، وطباعة كتب مصورة بأكملها . ولذلك كان الانتقال من حفر صور مجسمة الى صفحات كتابية امرا بسيطا . وكانت اولى الكتب المطبوعة الكتب الروشمية ، كما كانت تدعى عبارة عن صفحات مطبوعة بواسطة قطع خشبية محفورة حفرا تاما ، مثلها بالضبط مثل الكتب المصورة المطبوعة برواشم الخشب . وكانت عملية حفر روشم خشبي جديد لكل صفحة من صفحات الكتاب عملية شاقة عسيرة . وكان مما يوفر الوقت توفيرا كبيرا جدا ان تكون هناك كمية من الرواشم لكل حرف من الحروف الهجائية ، وتضم هذه بعضها الى بعض لتكوين الكلمات المطلوبة . ويطلق على هذه العملية عملية الطباعة بواسطة الحروف المتحركة (شكل ٢) . وليس هناك تاريخ معين يحدد لنا متى اخترعت حروف الطباعة المتحركة في اوروبا ، ولكن اكبر من يدعى شرف هذا الاختراع هو « جوتنبرج » الذى نشر انجيلا مطبوعا بواسطة حروف الطباعة المتحركة حوالى سنة ١٤٥٤ .

وقد روعى في اول كتب مطبوعة أن تكون شسبيةة بقدر الامكان بالكتب المنسوخة باليد ، وبالفعل كانت ترسم اقل اول الامر الحروف

الأولى فى بدء كل فصل باليد . وحاول رجال الطباعة الأول الاحتفاظ بسر الطرق التى كانوا يتبعونها ولكن ذلك لم يكن فى حيز الامكان ، اذ سرعان ما ظهر هناك رجال طباعة فى مناطق أخرى فى ألمانيا ، وهولندا ، وإيطاليا . وفى سنة ١٤٧٦ أنشأ كاستون مطبعته الشهيرة



(شكل ٢)

آلة طباعة برجل يصف الحروف وآخر يديرها ، بريشة دانس ماكابر ، ليون ١٤٩٩

فى وستمنستر . وكان معنى ظهور الكتب المطبوعة أن أوروبا بدأت حياتها من جديد . ومن ذلك الوقت فصاعدا لم يعد العلم فى يد القلة ولكن قدر له أن يصبح تراثا عاما للجماهير .

٥ - الدنيا الجديدة

ان بعضا من مظاهر حياتنا اليوم يمكن ارجاعها الى الوقت الذى اوجد فيه كولومبس والبحارة العظام المخاطرون الآخر اتصال أوروبا بالعالم الجديد والشرق الأقصى لأول مرة . وترجع نشأة بعض المميزات الأخرى الى التجارة البرية التى كانت موجودة بين إنجلترا والمسن المستقلة مثل جنوة ، والبندقية ، وAntwerp ، ونورمبرج فى أواخر القرون الوسطى . وقد قابل تجارنا أثناء رحلاتهم أناسا من أمم أخرى ، وعادوا لا بخرائر فاخرة وذهب وتوابل فحسب ، بل بتعبيرات جديدة طعمت لفتنا بها ، وبيدور أفكار جديدة تاصلت فى التربة الانجليزية . ان نهضة البشرية ، كما يصح لنا أن نقول ، إنما هى تحقيق للشبوة التى نقول :

« كثيرون سيسلكون فجاج الأرض ذهابا وإيابا ويتسع نطاق المعرفة » .

وقبل حلول القرن الثالث عشر كان هناك طريق مفتوح بين أوربا وآسيا . وقد عاش في تلك الأيام سيد من البندقية يدعى ماركو بولو ، كان رحالة كبيرا وخطيبا مفوها ، امتدت رحلاته الى الصين . وكان طريقه الذي يسلكه يمر عبر فلسطين والصحاري الفارسية وشمال الهند والتبت . ومذكراته مملوءة بأوصاف فياضة لغابات غريبة ومدن جميلة وثروة لا حد لها . وقد تركت قصص رحلاته التي استغرقت أكثر من ثلاثة أعوام أثرا في الأدب الرومانتيكي للجيل التالي وساعدت على إثارة حب المخاطرة ، السكامن في النفس البشرية باستمرار ، مما نتج عنه في النهاية اكتشاف العالم الجديد .

وكانت تتم الرحلات قديما على ظهور الجياد أو الإبل عبر طرق قد يجد الإنسان فيها غريبا على علاقة ودية معه يهديه الطريق . ولكن أي دليل كان لدى الرحالة المخاطرين الذين كانوا يركبون البحار ؟ كانوا أول الأمر يهتدون بالنجوم ، ولكنه يبدو أن استعمال أحجار المغناطيس لظهار الاتجاه في البحر كان معروفا من تاريخ يرجع الى القرن الحادى عشر . وكان الضرر البين للاعتماد على النجوم أن الأرصاد كان لا يمكن القيام بها الا فى الليالى الصافية كما كان لا يمكن القيام بها نهارا قط . وفى القرن الثالث عشر بين روجر بيكون أول رجل علم انجليزى كيف أن مغناطيسا معلقا يتخذ اتجاها شماليا جنوبيا تقريبا . ومن ذلك أصبح المغناطيس المعلق ، أو البوصلة أداة لا يمكن الاستغناء عنها فى الملاحة ، ويركب هذا المغناطيس تركيبا مناسباً على بطاقة تبين الجهات المختلفة .

وحيث أن فلاسفة الاغريق كانوا قد بينوا أن الأرض مستديرة ، فلما أصبحت مؤلفاتهم معروفة فى القرون الأخيرة من العصور الوسطى بدأ الناس يفكرون على أساس أن الأرض كروية ، ولكن لم تكن لديهم أية فكرة عن مساحة اليابس ومساحة الماء على سطح البسيطة ، وأدت بهم رحلات ماركو بولو الطويلة الى أن يفكروا أن آسيا تشغل حيزا من الأرض أكبر بكثير مما تشغله فعلا . ودار بخلد بعض الناس أن سباحة بسيطة لا تستغرق الا أياما قليلة غربا فيما وراء أعمدة هيرقل (١) قد تؤدي بهم الى شواطئ آسيا ، ومن هناك الى ثروة جزائر الهند .

(١) جبل طارق .

(المتوجم)

ولكن شخصا فكر فى القيام برحلته تفكيرا جديا قبل الاقدام عليها . لقد أعد نفسه للقيام برحلة بحرية طويلة ، ثم أبحر غربا الى أبعد ما أمكنه دون أن يبحث عن مكان يتوقف فيه أثناء الطريق . كان هذا الشخص هو كريستوف كولومبس الذى نسب اليه مجد أول اكتشاف للدنيا الجديدة .

وفى ابريل ١٤٩٢ وقع العقد المشهور الذى أعطى كولومبس بمقتضاه حق امتلاك الأراضي باسم اسبانيا . وفى السادس من سبتمبر غادرت سفنه جزائر كنارى . وفى اليوم الثانى عشر من اكتوبر رسسا على شواطئ جزائر الهند الغربية رافعا راية اسبانيا عليها . وكانت هذه أول رحلات كولومبس . وقبل عودته الى أوروبا اكتشف جزائر أخرى من جزائر الأربخيل . ومن احدى هذه الجزائر أرسل الى فيردناند وايزابلا مخبرا اياهما أنه علم من مؤلفات روجر بيكون بما قاله الاغريق من أن الأرض مستديرة . وعلى هذا فعلم الاغريق الذى تداوله الناس خلال القرون الوسطى هو الذى أدى الى اكتشاف الدنيا الجديدة .

وكانت الضجة التى أثارها أنباء اكتشاف أرض مجهولة حافزا لأناس آخرين للبحث عن اكتشافات جديدة . فمثلا فى سنة ١٥١٩ أبحر ملاح برتغالى يدعى ماجلان من اسبانيا فى اتجاه جنوبى غربى مارا بالمضيق الخطر الذى يحمل الآن اسمه ، ودلف من هناك الى المحيط الهادى واستمر يسير غربا لمدة تزيد على ثلاثة شهور ماخرا عيذاب المحيط الهادى الشاسع الخالى متحملا هو ورجاله مصاعب لا حد لها من الجوع والمرض . وهناك قتل ماجلان بواسطة الوطنيين . وفى النهاية وبعد مضي ثلاث سنوات من بدء الرحلة وصلت الى اسبانيا احدى السفن الخمس التى أبحرت أصلا من هناك ، وأقل من نصف البحارة بعد أن اتموا أول رحلة بحرية كاملة حول الأرض .

٦ - حركة احياء العلوم

ما الآثار المباشرة لاكتشاف قارة جديدة شاسعة ورحلة بحرية ناجحة حول العالم ؟ أدرك الناس أولا خطأ الجغرافية التى كانوا يتعلمونها طيلة حياتهم . لقد كانوا أغرارا للدرجة بعيدة المدى جدا . وادركوا ان الوقت قد حان للبدء فى أن يفكروا بأنفسهم . كما راوا أيضا الفرصة مواتية أمامهم للحصول على مواد خام من وراء البحار . وعلى ذلك فقد فتحت أمامهم طرق تجارية جديدة الى الهند عبر الاطلنطى وحول ساحل افريقيا ، وقلت أهمية الطرق البرية للشرق ، أما موانئ اسبانيا وفرنسا وانجلترا والأراضي المنخفضة فقد ازدادت أهميتها .

كما ان تكوين المستعمرات وأراضي الاستيطان في البلاد الجديدة هيا فرصة للكثيرين للاستزادة من ثرائهم ومن معرفتهم كذلك . وحمل الملاحون معهم السكر والفواكه الى أوطانهم ، كما عاد التجار حاملين النباتات الطبية التي عثروا عليها . وبذلك الطريقة جلبوا الى أوروبا عرق الذهب الذائع الصيت ولحاء الكينا « الذي تصنع الكينا منه » . واستعمل الطباق علاوة على استعمال مدخني البيب له عقارا مخدرا قبل ان يعرف الأثير والكلوروفورم بمدة طويلة .

ولكن لم يكن الكشف الجغرافي فقط هو الذي فتح آفاقا جديدة للبشر ، إذ كانت هناك أعمال أخرى تتسم بروح المخاطرة والجرأة تبشر بغنائم وفيرة ، فقد بدأ الإنسان يرتاد بحار المعرفة التي لم ترتد بعد . لقد كانت اللاتينية هي لغة المتعلمين في أوروبا خلال العصور الوسطى بأكملها ، أما الأفريقية القديمة وأديها فكانتا غير معروفتين تقريبا في الغرب . ومع ذلك فقد أحس الناس باحياء العلوم الأفريقية في السنين الأخيرة من القرن الرابع عشر ، وأوائل القرن الخامس عشر . وهذا الاحياء هو الذي يطلق عليه : بعث العلوم القديمة أو النهضة . وقد جعل الأدب الأفريقي القديم الناس ينظرون الى الحياة نظرة جديدة ، نظرة أكثر حرية وبهجة من ذي قبل . ولقيت حركة احياء العلوم الأفريقية حافزا قويا بعد سقوط القسطنطينية في يد الأتراك عام ١٤٥٣ ، إذ جلب المهاجرون الذين تقاطروا زرافات كثيرا من المخطوطات الأفريقية ومن ماثورات العلم الأفريقي .

ونتج عن نشأة الأفكار الجديدة استقلال جديد في الرأي ، واندلع لهيب الشكوك الكامنة التي ظلت تساور الناس أمدا طويلا ، وجاهر الناس علنا بعدم إيمانهم بها ، كما أعان انتشار الكتب حرية الرأي وبدأت طباعة أعداد كبيرة من الكتاب المقدس . وحينما استطاع الناس قراءة كلمة الله بأنفسهم ، اشتدت تيارات النقد الخفية للسلطة التي دامت قرونا . وأخذ الناس في جميع أنحاء أوروبا يدرسون صفحات الكتاب المقدس المطبوعة ، ويكونون آراء خاصة بهم في أمور عقائدية كانوا لا يسمعون عنها حتى ذلك الوقت الا من شغاه الوعاظ فحسب . وعلاوة على انتقال الأنباء بسرعة أكثر عن طريق الكلمة المطبوعة ، فقد خلت من التحريفات التي كانت تحدث بانتقالها عن طريق الرواية الشفوية . فمثلا وقف أهالي ألمانيا على الجدل الذي احتدم بين البابا ومارتن لوتر بسرعة ، وذلك لأن نسخا مطبوعة من النشرات وزعت في جميع أنحاء البلاد ، واستطاع الكثيرون بذلك الوقوف على مضمون النزاع .

وكان من الظاهر وقت النهضة أن الحوادث الهامة تتزاحم بعضها فوق بعض . ولم تكن إعادة دراسة اللغة الاغريقية القيام بترجمات أكثر دقة فحسب ، بل ان انشاء المطابع كان معناه امكان نشر نسخ من تلك الترجمات الدقيقة في جميع انحاء أوروبا . ان بدور العلم يجب أن تنشر في كل مكان لتهيأ لها الفرصة لأن تغرس في ارض طيبة . ولقد غرست هذه البذور عن طريق الكتب المطبوعة وآتت في الحقيقة محصولاً وفيراً .

الفصل الثاني

نشأة العلم الحديث

١ - ليوناردو دا فنشى

أن النظرة الجديدة الى الحياة وتقدير ميزة الجمال اللذين اتسمت بهما النهضة أحدثتا احياء للفن ، وبدأ الفنانون العظام فى ذلك العصر : ديور ، وميكل انجلو ، وروفائيل يدرسون الجسم الانسانى دراسة أكثر دقة . لقد نظروا بعين جديدة الى قسما وأحجام صناعة التماثيل القديمة ، وبدأوا يتدعون لأنفسهم . ولكنهم وجدوا أنهم يحتاجون لى بصوروا الجسم البشرى بكل تعقيداته الى أن يعرفوا مواضع العضلات المعقدة وهيئة التركيب العظمى الذى تكسوه . وبمعنى آخر كانوا فى حاجة الى معرفة بعض من علم التشريح . ولذلك بدأ الفنانون يمارسون عملية التشريح ، وشغف بعضهم شغفا كبيرا بدراساتهم لدرجة أن أدت بهم هذه الدراسة الى ما وراء المستلزمات المباشرة لفنهم . وقد تزعم هؤلاء الفنانين ليوناردو دا فنشى (١٤٥٢ - ١٥١٩) الذى تعتبر قوة ذكائه الخارقة اليوم مدعاة دهشة دائمة .

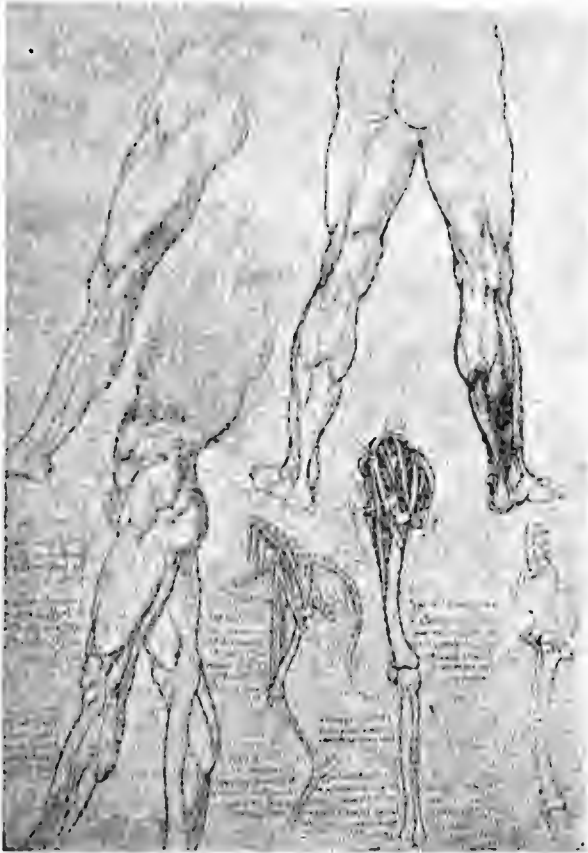
وكان ليوناردو يتمتع لدرجة غير عادية بحب استطلاع لا حد لها ، وهذه اول صفة ضرورية لرجل العلم . وقد أدى به هذا الى أن يتناول امورا مختلفة المدى من مسائل تتعلق بتشريح الانسان وعلم وظائف الأعضاء الى مسائل تتعلق بالهندسة العملية . وكان يتسم فى هذه الدراسات كلها بجرأة تؤدي به الى القيام بتجارب خاصة به . وحينما كانت نتائجه لا تتفق مع بيانات الكتاب القدامى كان يعيد التجارب ويتحقق من نتائجها ، وبعد ذلك يلتزم بالإجابة التى أعطتها له الطبيعة ، ولم يحاول ليوناردو القيام بتفسيرات تامة للعالم كما فعل كتاب القرون الوسطى . أن اتجاهه كان اتجاه علميا ، إذ أنه اعتمد على الملاحظة ، وعلى ادراكه أن المعرفة إنما تمتد فحسب الى الاماد التى تؤدي بنا اليها الملاحظة .

وكان نشاط ليوناردو المتعددة النواحي مثار دهشة . وأدى به شغفه بتحركات الناس والحيوانات الى القيام بدراسة للعضلات والمظام ، وتسجيل ملاحظاته بواسطة رسوم دقيقة كما أدى به شغفه بمشكلة الطيران الى شراء طيور محفوظة في أقفاص ثم اطلاق سراحها لمشاهدة الحركات الأولى لأجنحتها . وأخذ يفكر في امكان صناعة أجنحة صناعية للإنسان . ولقد بلغ في الحقيقة تمكنه من المبادئ الميكانيكية مبلغا جعله يحاول اختراع طائرة . وأدت به أوجه نشاطه كرسام الى دراسة خواص الأصباغ واستقصاء قواعد المنظور ، وأدرك أن المناظر المألوفة للمنظور انما ترجع الى الصورة التي تتلقاها العين . وكان هذا حافزا له على دراسة مسار الضوء الداخلى للعين وتركيب العين ذاتها . واستعمل ليوناردو أيضا مواهبه العظيمة في ميدان المسائل العملية ، اذ شغل منصب مهندس حربي في حكومة ميلان ، وكان يستشار في مسائل كتوفير الماء للزراعة ، والطرق المثلى للاستيلاء على مدينة محصنة . كما كان يصمم المباني ويكتب قصصا مسلية قصيرة للمسرح ، وله تحف رائعة في النقش والتصوير ومع ذلك استطاع ان يعزل نفسه عن العالم مستغرقا استغراقا تاما في المسائل العلمية التي كان فيها رائدا لا منازع له . ان نتائج تجارب ليوناردو العلمية لم تنشر في كتب ، ولكنه أودعها مذكراته ، وأوضحها برسوم توضيحية بريشته المبدعة (لوحة رقم ٢) .

وعلى الرغم من أن مؤلفاته ظلت كتبها مخطوطة ، فان ذلك لم يقف حائلا دون أن يكون له أثر على معاصريه وكانت الثقافة الإيطالية أثناء حياته على درجة كبيرة من السمو . كان الأمراء هم حماة الفنون والعلوم ، وكانت الحياة في المدن الإيطالية تساعد على انتشار الآراء الجديدة وشغلت أفكار هذا الرجل الغريب ليوناردو التي كانت تختلف اختلافا بينا عن أفكار زملائه بال عقول أخرى بدرجة كبيرة . وتعتبر أعمال ليوناردو في الحقيقة المثل الأعلى لأبحاث الروح البشرية التي تتسم بالجرأة والمخاطرة التي تميز بها هذا العصر ، والتي كانت بشيرا بنهضة العلم الكبرى التالية ، ولكنها لم تكن هي المثل الوحيد .

٢ - نشأة علم التشريح الحديث

ظل الناس مثاث عديدة من السنين يتساءلون عما كتبه المؤلفون القدامى حينما كانوا يرغبون في معرفة وظائف أعضاء الجسم ، وبدلا من تشريح حيوان للوقوف على كيفية تنظيم أعضائه كانوا يفضلون ان يتقبلوا معلومات طبيب من الامبراطورية الرومانية لمع اسمه في القرن الثاني يدعى جالين . وقد ظلت مؤلفات جالين المرجع المعتمد في الطب



رسم الأطراف من مذكرات ليوناردو
يوضح شكلان من التشكل السفلي علاقته بين عظام رجل إنسانية وعظام رجل جواد

والنشریح أكثر من ألف سنة ، وهى تحتوى على تسجيلات معينة لبعض ملاحظات هامة ، ولكنها تحوى أيضا كثيرا من الأفكار الخيالية بدرجة كبيرة والتي تنبؤ عن أسسنا اليوم . لقد ذكر مثلا أن وظيفة الكبد هى تحويل المادة الغذائية فى الأمعاء الى دم وتحويل هذا الدم طبقا لمبدأ غامض سماه الروح الطبيعية . لقد افترض أن الدم ينتقل بعد ذلك الى القلب حيث يستقبل الهواء القادم من الرئتين ويتشبع بروح ثانية ، الروح الحيوية . وكان يعتقد أيضا أن الدم ينتقل الى المخ لى يتلقى هناك أعلى الأرواح جميعا ، ألا وهى الروح الحيوانية ، أو نسمة الروح . وافترض جالين وجود انحسار وانسياب للدم ، ولكن لم تكن لديه فكرة عما نعرفه اليوم بالدورة الدموية . وكان من رأيه أن الدم ينتقل من الجانب الأيمن للقلب الى الجانب الأيسر له خلال مسام الحناجر الفاصل بينهما . ولم ير انسان قط هذه المسام فى الحناجر القائم فى قلب أى حيوان . ونتيجة لذلك كان من رأى جالين وأتباعه أن تلك المسام صغيرة جدا بدرجة لا تسمح برؤيتها ، وهو قول لم ينقض حتى اخترع المجهر .

وقد لقيت تعاليم جالين تبيحلا كبيرا بدرجة أنه حينما بدأت الجامعات فى تدريس بعض المعلومات الطبية للطلبة ، كان أساتذة التشريح يجلسون فى مقاعد تشبه المنابر ويقرأون للطلبة من مؤلفات جالين بصوت عال . وكان الخدم أثناء ذلك يقومون بالتشريحات ، ولم يكن هذا تعليما تجريبيا بأى معنى من المعانى ، وذلك لأن التشريحات كانت تمارس لا بفكرة اكتشاف أى شيء ، ولكن لمساعدة التلاميذ فقط على تذكر ما قاله جالين . وكان ليوناردو هو أول من ناقش تعاليم جالين ، اذ بين أن الهواء لا ينتقل من الرئتين مباشرة الى القلب ، وذلك على تقيض ما ذكره جالين . وفحص ليوناردو القلب ذاته ، وقام بعدة تشريحات واكتشف عمل الصمامات التى تقع عند جذور الشرايين الكبيرة وهى خارجة من القلب (لوحة رقم ٣) وبرهن على أن هذه الشرايين تسمح للدم بأن يمر فى اتجاه واحد فقط . ولذلك فقد اقتررب جدا من ادراك الدورة الدموية على الرغم من أن ذلك لم يوضح تمام التوضيح إلا بعد ذلك بأكثر من مائة عام .

واراد ليوناردو أن يؤلف كتابا دراسيا عن التشريح ، ولكن هذه المهمة كانت من نصيب باحث آخر أندرياس فيسالييس من بروكسل . (١٥١٤-١٥٦٤) . تعلم فيسالييس أولا فى جامعة لوفين ، وبعد ذلك فى باريس ولم يكن طالبا مكيا على دروسه . وقد أظهر تيرمه صراحة من التعليم الذى كان يتلقاه ، ورغب فى أن يقوم بتجارب بنفسه بدلا من أن يصفى

الى الكلمات المقتبسة من جالين . ووصل الى علمه ان مثل هذه الفرص مهيأة في بادوا ، ولذلك عزم على ان يدوس هناك .

وجد فيساليس ميدانا واسعا للعمل التجريبي في بادوا التي كانت وقتئذ مركزا عالميا كبيرا للعلم ، وفي اثناء دراسته وجد خطأ كثير من نظريات كل من ارسطو وجالين ، فبدأ يرتاب في كل شيء ذكره ، ولذلك وضع كل اقوالهما موضع الاختبار من جديد بواسطة تجارب دقيقة ، واكتشف في نفس الوقت حقائق جديدة لنفسه .

وبعد عمل استمر اربعة اعوام اكمل فيساليس كتابه العظيم المسمى « تركيب الجسم البشرى » الذى نشر في بازل عام ١٥٤٣ . وقد احتوى هذا السفر على اكتشافات مسجلة بدقة عن تركيب الجسم وتقييمه قيامه بعمله ، واشتمل على وسائل ايضاحية بدبعة ، كما بدلت عناية كبيرة في اعداده (لوحة رقم ٤) ولاقى الكتاب نجاحا كبيرا . وبعد ذلك بانتهى عشر سنة اقتضى الامر طبعة ثانية . وفي هذه الطبعة كان فيساليس أكثر جرأة مما كان في الطبعة الاولى ، اذ أعلن بصراحة عدم موافقته على كثير من آراء جالين ، على الاخص ذلك الرأى القائل بأن هناك مساما في الحاجز الفاصل في القلب ، وقد بينت تعاليم فيساليس أن الآراء يجب أن تكون مؤسسة على أدلة أصيلة لا على مراجع من مراجع الماضى . وقد جعل عمله الناس ينظرون الى دراسة الجسم البشرى نظرة جديدة كل الجدة ، تعد في الحقيقة بدء نشأة علم التشريح الحديث .

وكان عمر فيساليس وقت نشر كتابه العظيم تسعة وعشرين سنة فقط ، ولكنه اغرى لترك عمله في بادوا ليصير طبيب قصر الملك شارل الخامس . وبعد ذلك انتهى عمله كرجل علم . ولكن عمله سرعان ما أتى ثماره . وحينما وقف أطباء وجراحو أوروبا على نتائج أعماله ادخلوا تحسينات في طرق علاجهم . ومن سوء الحظ أن الحاجة كانت ملحة فقط لعمل الجراح اثناء حروب القرنين السادس عشر والسابع عشر تلك الحروب التي استفرقت أمدا طويلا . ولكن المعلومات الجديدة خففت على الأقل من آلام الجرحى نوعا ما .

٣ - بواندر علم فلك جديد

ونشر كذلك في السنة التي ظهر فيها كتاب فيساليس عن الجسم البشرى كتاب من بناء الكون بواسطة موظف بولندى يدعى كوبرنيكس (١٤٧٣ - ١٥٤٣) عنوانه : دورات الأجرام السماوية ، طبع في



رسم قلب مشرق لليونانودو



ملحة عنوان كتاب
فيساليس العظيم الذي نشر عام ١٥٤٣

نيرنبرج عام ١٥٤٣ . وقد قطع هذا الكتاب وكتاب فيساليس كل صلة بالماضى وفتحا آفاقا جديدة من آفاق البحث والاستقصاء . ويمكن أن يقال ان عام نشرهما يعد بدا لنشأة العلم الحديث .

وكانت غالبية العلماء الذين كانوا يعيشون فى عام ١٥٤٣ متحاملين بالفعل ضد كل من هذين الكتائين حتى قبل الاطلاع عليهما . وسرعان ما سرت اشاعات ان كتاب فيساليس يلقى شكوكا على تعاليم جالين . أما فيما يختص بمؤلف كوبرنيكس فانه اشتمل على الفكرة المناهضة للعقل وهى ان الأرض تدور حول الشمس . وقد بلغ من تعصب علماء ذلك العصر ومحافظتهم أن كوبرنيكس الذى كان يتولى مركزا مسئولاً بصفته راعيا على جماعة من الأساقفة فى كاتدرائيته خشى من نشر كتابه كاملا . انه لم يتلق نسخة كاملة منه الا فى فراش موته وقد بلغ من الكبر عتيا .

ومع ذلك فيمكننا أن ندرك اتجاه العلماء فى تلك الأيام ، وذلك لأنه حينما بدأ الناس يقرأون هذين السفرين ويناقشونهما شعروا بأن معتقداتهم قد قوضت من أسسها ، وأنه كان هناك خطر من تداعى البناء كله . ونتيجة لذلك هب الناس ثائرين وتحدثوا عن فيساليس كمدع مغرور سمخ جو أوروبا . أما فيما يختص بكوبرنيكس فقد ضمه القبر من قبل ، وكلما قل الحديث عنه كلما كان ذلك من الأفضل . ولذلك تجوهلت نظريات كوبرنيكس أول الأمر ، ولم تدع بين الطبقات المتعلمة فى العالم الا بعد مضى سنين . ولكن المتعصب بدأت حينئذ ، ولسكى ندرك هذا يجب علينا أولا أن ننظر الى الوراء عبر القرون الماضية .

فكر لحظة فى أرضنا هذه ، انها كانت تبدو لأولئك الذين كانوا يفلحون الحقول من شروق الشمس الى مغربها انها مسطحة وأن الشمس تجرى فوق رؤوسنا يوميا من الشرق الى الغرب . وكذلك قبة السماء المرصعة بالنجوم كانت تبدو للراقيى السموات انها تدور حولهم كل ليلة . وكان العلماء يعتقدون حقا انها تفعل ذلك ، وتخليلوا ان الأرض تقع وسط فضاء كروى هائل ، وظنوا ان الكرة التى يتكون منها الحد الخارجى كانت تدور حول الأرض مرة كل أربع وعشرين ساعة . وقد ذكر أحد عظماء المفكرين القدامى فيثاغورس (الذى عاش من حوالى ٥٧٢ - ٤٩٧ ق. م) ، الذى كان يرى أن الكرة هى أكثر الأشكال كمالا ، أن الأرض والشمس والقمر يجب أن تكون كروية الشكل . وهذه الفكرة ، فكرة بسيطة تركيب السموات ووصولها الى درجة الكمال ، لقيت أيضا تعظييدا أكبر من أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م) ، اذ كان يرى أن القوس التام إنما هو دائرة ، ومن ثم فان الكواكب تتحرك فى دوائر ، وكان

من رآه ان الشمس والنجوم والكواكب بلغت درجة الكمال وانها لا تتغير
وانها تدور بانتظام دائما حول الأرض الثابتة .

وفي القرن الثاني من العصر المسيحي - رتبت المعلومات والنظريات
الموجودة عن الكون بواسطة بطليموس أحد أهالي الإسكندرية الذي ذاع
صيته بين عام ١٢٦ وعام ١٦٦ م (١) . لقد كان من رآه أن الأرض ثابتة
كروية الشكل تقف معلقة في الفضاء وسط الكون ، وتتحرك الشمس والقمر
والنجوم حولها في أفلاك دائرية . وكان اعتبار أرضنا مركزا للأشياء
جميعها مما يرضى الغرور البشري . وزيادة على ذلك فإن فكرة أرض
ثابتة تتلائم مع ادراك غير ناضج ، وكان في طوق العلماء دائما أن يلتجئوا
الى مرجعهم أرسطو . ونتيجة لذلك فقد حدث أن جميع من أعطى
الموضوع بعضا من التفكير كانوا على استعداد أن يقسموا بشرقهم مجازفين
أن الشمس والقمر والنجوم تدور حول الأرض .

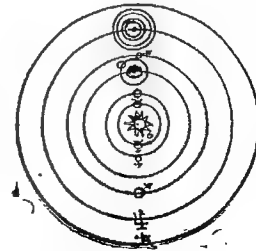
وقد اعتمدت الكنيسة في القرون الأخيرة من العصور الوسطى
النظام البطليموسى ، وعلى ذلك أصبح جزءا من العقيدة الدينية ،
واعتبر كل مرتاب في هذه النظرية زنديقا . وزيادة على ذلك فإن فكرة
دوران الأرض حول الشمس واتخاذها مركزا لدورانها كانت فكرة تثير
إلبلة كبيرة ، ذلك لأنها لم تعد تجعل الجنس البشرى يحتل مركز وسط
الخليقة ، بل مجرد سكان لأحد الكواكب الصغيرة . ونتيجة لذلك
فحينما بدأ الناس يسمعون عن نظرية كوبرنيكس الجديدة لم يشعروا
بان ديانتهم قد هوجمت فحسب ، بل أحسوا أيضا بصدمة عنيفة في
تقديرهم لذاتهم . ولذلك بذلت السلطات أقصى ما لديها لاختعاد الأفكار
الجديدة .

كيف عن كوبرنيكس أن يجد نظرية أقلقت بال الجنس البشرى ؟
انه ادرك أولا أن تغير الليل والنهار من المستطاع تفسيره تفسيراً مستساغاً
بافتراض أن الأرض تدور حول محورها ، كافتراضنا سواء بسواء أن
الأرض ثابتة وأن الشمس تدور حولها . وكان من رآه ثانياً : أن معنى
نظرية الأرض الثابتة والسماء العظيمة الدائرة ، طبقاً للنظرية القديمة
أن المحيط الهائل للسماء يجب أن يدور بسرعة لا يمكن أن يصدقها العقل

(١) لاحظ رجال الارصاد ومنهم بطليموس نفسه قبل هذا أن الكواكب لا تتحرك بانتظام
عبر السماء ولكنها تبدو أحيانا أنها تمارد السير في مداراتها . وقد نجح بطليموس في
تمثيل هذه التحركات بافتراضه أن الكواكب تتحرك في دوائر لا حول مركز ثابت ، ولكن
حول مركز يتحرك هو نفسه في دائرة . وقد أبقى بطليموس الحركات الدائرة جزءا جوهريا
من خطته . وبواسطة طريقته التي تدل على الذكاء على تحركات الكواكب تمليلا مرضيا .

لكى تدور السماء مرة حول الأرض كل أربع وعشرين ساعة ، ورأى أن معنى هذه السرعة الهائلة أن الدائرة القصوى للكون تكون عرضة لخطر التمزق .

ولم يكن كوبرنيكس ممن يجرون التجارب ولم يتيسر الدليل العملى لتعريض نظريته فى عصره . ومع ذلك فقد استعاض عما كان ينقصه من التجربة بقوة استدلال خارقة . وكان يجب عليه مثله مثل أى عالم رياضيات آخر أن تكون لديه طريقة دقيقة لعرض الحقائق . وكان يرى أن نظريته أوجدت طريقة بسيطة خالية من التعقيدات الهندسية للنظرية القديمة (شكل ٣) .



(شكل ٣)
نظام الكون طبقا لكوبرنيكس من كتاب نظام
الكون لجاليليو
(لندن ١٦٩٩)

وعلى الرغم من أن النظرية الجديدة كانت متباعدة تماما عن النظرية القديمة إلا أن كوبرنيكس لم يتحرر تماما من المعتقدات السائدة ، إذ لا يفعل ذلك إلا العدد القليل من الناس . فمثلا كان مازال متمسكا بفكرة أن الحركة لابد لها أن تتم فى دائرة ، وكان مازال يعتقد أن النجوم مثبتة فى كرة عظيمة . وعلى ذلك كان مازال يعتنق نظرية القرون الوسطى أن الكون محدود فى حجمه . ولكن هذه البقايا من المعتقدات القديمة لم تكن ذات أهمية ، إذ أن قيمة نظرية كوبرنيكس كانت فى أنها أمدت الناس بوجهة نظر جديدة ، وهياأت للناس أساسا للبحث مثلها فى ذلك مثل أية نظرية أخرى جديدة . وقد بدأ الناس من ذلك الوقت فصاعدا يرصدون السموات بحماس متجدد ، واندفع الفلك الحديث سائرا أقدمًا فى طريقه .

٤ - افكار جديدة عن الكون

على الرغم من أن تغير الافكار الذى أوجد الدافع صوب فلك جديد كان راجعا فى غالبته الى كوبرنيكس ، إلا أنه من الممكن اقتفاء أثره الى أبعد من ذلك بكثير . فقد ذكر فيثاغورس أن الأرض ليست ثابتة ،

ولكنها تدور حول محورها كالخدروف الدائر (١) وذكر أريستارخوس من أهالي ساموس الذى ذاع صيته حوالى ٢٨٠ ق م ، والذى ربما كان أعظم علماء الرياضسيات الاغريق أن الأرض لاتدور حول محورها فحسب مسبة بذلك تتابع الليل والنهار ، بل تدور أيضا دورة سنوية حول الشمس .

ومع ذلك فقد طمست هذه النظريات بسبب تعاليم أرسطو ، فغمرها النسيان خلال تلك القرون الطويلة التى اتخذها الناس فيها امامهم الوحيد الذى يهتدون به . ومع ذلك فقد أوجدت حركة احياء العلوم الاغريقية فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر سبلا من الأفكار الجديدة .

ووضع كوبر نيكس الخطوط الرئيسية لنظريته أثناء اقامة قصيرة فى إيطاليا درس خلالها كثيرا من المؤلفات الرياضية الاغريقية . ولكنه من المهم أن نلاحظ أنه قبل نشر مؤلف كوبرنيكس بقرن وجد احد الكرادلة العلماء من أهالي كوزا (١٤٠١ - ١٠٦٤) يدعى نيقولاس نظريات تخالف بدرجة غريبة العقائد المسلم بها عن الكون . ولم ينزل نيقولاس أرضنا فقط عن عرشها كمركز متوسط للكون ، ولكنه رأى أيضا أن الكون يمتد الى ما لا نهاية ويحتوى على الوف مؤلفة من النجوم بعضها ذات أحجام هائلة وكان يعتقد أن كثيرا من هذه النجوم شمس تحوطها كواكب . وكان من راية أنه ربما كانت هناك عوالم أخرى يسكنها أناس احياء . ولذلك كان تصوره يختلف اختلافا شاسعا عن تصور فلاسفة القرون الوسطى .

ويبدو أن نيقولاس الكوزوى كان اول رجل منذ العصور القديمة استخدم الوزن كوسيلة لاكتشاف حقائق عن الأشياء التى تكتنفه . وترينا سجلات تجارية أنه أدرك فكرة القياس ، ولم يقنع بمجرد التأمل فى النتائج التى حاكتها تخيلاته .

ولذلك لم تكن نظرياته عن الكون تخيلات فارغة ، على الرغم من أنه لم تكن لديه وسائل لاختبار نتائجها . وكان موقنا أن الأرض تتحرك ، اذ قال : لقد فكرت طويلا فى أن الأرض ليست ثابتة ولكنها تتحرك كما تتحرك النجوم الأخرى . ورأى أن الأرض تدور حول محورها كل يوم وليلة . وعلاوة على ذلك فحيث أنه تصور العالم عالما لا حدود له ، فلم يفكر فى مركز له ، اذ قال : لا يمكن أن يكون هناك مركز أو محيط ، وذلك لأن المشاهد حيثما وجد فى الكون يبدو له كأنه فى مركزه .

(١) الخدروف هوما يسمى بالنحلة التى يلعب بها الأطفال .

ومن العجيب أن وجهات النظر هذه لم تؤد به إلى الاضطهاد بتهمة الزندقة . أن صفته الكهنوتية ونفوذه القوى لم يكونا لينفذه من قبضة محاكم التفتيش ، إذ ربما لم يقرأ كتبه أولئك الذين كانت السلطة بيدهم . والأكيد أن نيقولاس الذي كان نصيراً سياسياً قوياً للباباوية لم تصادفه معارضة ما ، بينما كان على تلميذه جيوردانو برونو (١٥٤٨ - ١٦٠٠) أن يواجه الموت بعد ذلك بمائة عام من أجل آرائه .

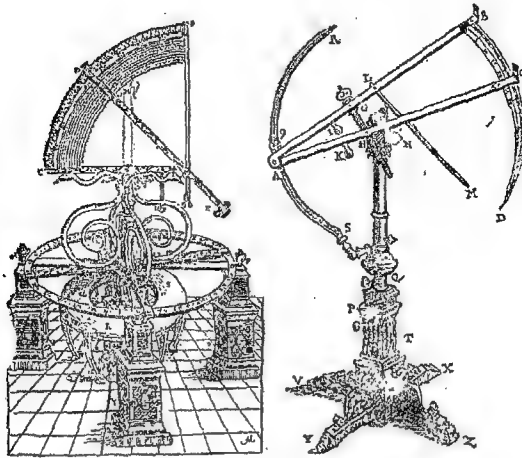
وقد ردّد برونو السيء الطابع آراء نيقولاس الكوزي عن الكون اللانهائي معتقداً كذلك أنه كان لا نهائياً في الزمن وأنه وجد منذ أبدية مطلقة . وكان يفكر في الله على أنه الحقيقة الجامعة التي تسيطر على الكون كله بما فيه دنيانا . أما بخصوص ذلك الجزء من الكون الذي يتكون من الأرض والكواكب والشمس فإن برونو كان من أنصار تعاليم كوبرنيكس ، متحدياً بذلك عقائد الكنيسة الرسمية ، وكان برونو غير لبق في التعبير عن آرائه . ومن المحتمل أن منجهته هي التي أودت به . . . وبعد أن تجول كثيراً في أوروبا قبض عليه وقدم للمحاكمة ، وحرق فوق سارية في روما . وقد احتفظ التاريخ بتلك الكلمات التي تفوه بها أمام تلك المحكمة القاسية : « ربما تكونون أنتم الذين تحاكمونني في وجه أشد مني أنا الذي تدينونه » .

وقضى برونو أثناء أسفاره بضعة سنوات في إنجلترا ، وأخرج مؤلفاته الرئيسية في لندن باللغة الإيطالية . وكانت لندن إحدى المدن القلائل في ذلك العصر التي كان من الممكن إجراء المناقشة فيها في جو حر نوعاً ما . وكانت جماعة العلماء الذين استقبلوا برونو ملينين أماماً تاماً بالإيطالية ، كما كان كثير من مواطنيه يعيشون في لندن في ذلك الوقت . وطبعت كتبه ونشرت سرا خوفاً من محاكم التفتيش . ومع ذلك فقد كانت ذات أثر عظيم في نشر الأفكار الجديدة في إنجلترا .

٥ - أساس الفلك القائم على أعمال الرصد

وضعت أسس علم الفلك الحديث من ناحية اعتمادها على الأرصاد بواسطة رجلين متباينين أشد التباين في أخلاقهما ومواهبهما : أحدهما تيكو براهي (١٥٤٦ - ١٦٠١) رجل أرصاد مدقق ولكنه لم يكن عالماً من علماء الرياضيات ، والآخر جوهانز كيبلر (١٥٧١ - ١٦٣٠) الذي لم يكن رجل أرصاد ، ولكنه كان عالماً رياضيات واسع الخيال ، وقد عهد إليه تيكو بنسجلات أعماله التي أنعمها في حياته ، أن يكملها منهم كان يكمل الآخر .

وتتلخص الخدمة الكبرى التي أسداها تيكو في بناء الفلك الحديث في مثابرتة على رصد السماء بصبر وجلد ليلة بعد ليلة مدى عشرين عاما . انه عاش الكامير ناسك على احدى الجزر التي تبعد عن ساحل الدانمرك . ولم يحتج عمله الى سباحات من الخيصال بل الى مشابرة ودقة فحسب . وكانت الآلة من أبسط الأنواع ، ولم تكن التلسكوبات قد اخترعت بعد . لم يكن لديه إلا عيونه ليراقب بها السماء ، واستعمل لقياس الارتفاعات الزاوية للكواكب ربعا معدنيا مرقما بدرجات مثل المنقلة مجهزا بذراع متحركة وضوابط مشاهدة (شكل ٤) . وكان يجدران وسقف مرصده فتوب يستطيع من خلالها مشاهدة جزء من السماء . وزودتنا أرصاده التي كانت أدق وأكمل أرصاد بوشرت حتى عصره بسجلات عن مواقع الكواكب في فترة استغرقت عشرين سنة . وعلى الرغم من ذلك فان هذه النتائج كانت تبدو له كمجموعة لا معنى لها من الأرقام ، ولم تكن لديه فكرة ما على أنها حينما توضح توضيحا صحيحا سيكشف عنها السكبي .



(شكل ٤)

أجهزة استعمالها تايكو براهي

ومن حسن الطالع أن المفسر الصحيح كان قريب المال . لقد كان له افتنان بالأعداد . ومع أنه كان عالم رياضيات مدربا إلا أنه كان صوفيا في قلبه ، وكان يحاول باستمرار أن يجد معاني خفية في الأعداد . وقد كان يقضى أياما محاولا أن يجد بعض الاتساق في مجموعة أعداد يبدو

انها وجدت اعتباطا ، ولذلك كان خير من يعهد اليه بالصفحات المحكمة التي دبجها تيكو والتي كانت تحتوى ما توصل اليه من نتائج .

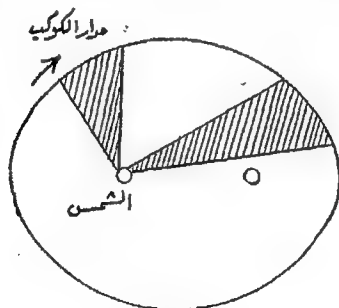
وشغل كيبلر منصب عالم رياضيات فى بلاط الامبراطور رودلف الثانى فى براغ عدة سنين . وكان الامبراطور كثير من الناس فى عصره يؤمن بالتنجيم . ولذلك استخدم كيبلر فى مراقبة السماء واختباره بالمستقبل . وكان كيبلر نفسه يظن أن هناك شيئا من الحقيقة فى علم التنجيم ، وكان التنجيم فى نظره يعتبر على الأقل حليفا لعلم الفلك ، وهذه الخاصية فى خلال كيبلر هى التي أدت الى ما قام به من عمل جليل ، اذ من المؤكد أن الطريق الى الحقيقة أحيانا مايقع وسط الخطأ .

وكان كيبلر على يقين أن الله خلق الكون طبقا لخطة هندسية محكمة . ولذلك فان بساطة نظرية كوبر نيكس اعتبرت أن هناك سنت كواكب : المشتري ، والمريخ ، والأرض ، وزحل ، والزهراء ، وعطارد . فقد سأل كيبلر نفسه : لماذا كانت الكواكب ستا ؟ وبعد عمليات رياضية كثيرة وصل حسيما ظن الى دليل هندسى على أن الموجود من الكواكب انما هو ست فقط . ولم يكن هذا التطابق دقيقا على الإطلاق . وكان لابد من نسخ هذه الفكرة عندما اكتشفت كواكب جديدة فيما بعد . ولكن بالنسبة لـ كيبلر نفسه فان هذا الكشف المزعوم سبب له من الفرح أكثر مما سببه له كل ما قام به من عمل قيم فيما بعد . لقد ظن أنه وجد نظاما واتساقا فى هذا الكون العجيب ظل مجهولا حتى ذلك الحين . وكانت هذه البهجة حافزا له على مواصلة العمل بعزم لايلين . وهاهو ذا يقول : ان السرور البالغ الذى تلقته من هذا الكشف لايمكن التعبير عنه اطلاقا بكلمات تقال . اننى لم آسف على وقت ضاع أبدا ، ولم أمل عملا ، ولم أتهرب من مشقة تكبدتها فى القيام بالأعمال الحسابية . لقد قضيت أياما وليالى أمد وأحسب حتى أستطيع ان ارى هل تنفق فرحتى مع نظرية كوبر نيكس أم هل يتلاشى طربى فى الهواء الأجوف .

٦ - قوانين كيبلر

شعر كيبلر أنه لا بد أن يكون هناك بعض الاتساق البسيط فى البيانات التي تلقاها عن تيكوبراى ولذلك فانه اتبع طريقة أخرى وضعها فى محك الاختبار ليرى هل صحيحة أم لا . لقد حاول أن يجد هل النسبة بين الوقت الذى يأخذه الكوكب ليدور حول الشمس وبين بعده عن الشمس هى نفس النسبة فيما يختص بجميع الكواكب . ولكنه وجد أن الأمر ليس كذلك . حينئذ حاول أن يعرف هل نسبة مربع الوقت والمسافة واحدة بالنسبة للجميع ، وهكذا . وفى النهاية بعد أن ظل يعمل طويلا فيما

يختص بما وصل اليه من نتائج عن مواقع كوكب المريخ فى أوقات السنة المختلفة ، وجد أنه لو مد خط وهمى من الشمس الى المريخ ، فإن هذا الخط يمر فوق مساحات متساوية فى الأوقات المتساوية (شكل ٥) . وكانت هذه فى الحقيقة علاقة صحيحة بسيطة أدخلت السرور على قلبه .



« شكل ٥ »

توضيح أول قانون كبلر

١ - مدار الكوكب بيضاوى

٢ - الخط الواصل من الكوكب الى الشمس يقسّم فى مستوى المدار مساحات متساوية فى ازملة متساوية

وبعد ذلك أخذ يفكر فى المسارات التى تتخذها الكواكب فى رحلتها حول الشمس . ان الأرقام التى أعطاهها براهى كانت تدل بوضوح تام على أن المريخ لم يكن باستمرار على نفس المسافة من الشمس . وعلى ذلك فإذا كان الفلك الذى تدور فيه دائريا ، فإن الشمس لا يمكن أن يكون مركزها هذه الدائرة . وقد أقلقت هذه الحقيقة باله لدرجة كبيرة ، اذ أنها توحى بوجود كون غير متناسق . وهناك مخرج من هذا المأزق ؟ لقد قام بمحاولات كثيرة . وفى النهاية طرأت له فكرة أن المدار لابد أن يكون بيضاويا تقع الشمس فى بؤرتة (شكل ٥) . وكانت هذه النتيجة تتفق مع الوقائع ، على الرغم من أن كبلر نفسه شعر أن هذه النتيجة التى وصل اليها لم تكن تقريبا فى عظمة تلك النتيجة الجليلية وهى مرور الخط الوهمى الممتد من المريخ الى الشمس فوق مساحات متساوية فى الأوقات المتساوية . ومع ذلك فإن ما وصل اليه من نتائج أجبره على أن يعتبر أفلاك الكواكب بيضاوية لا دائرية ، كما ظل الناس يعتقدون قرونا عديدة .

ومع ذلك فإن عمله لم يكن قد انتهى بعد ، فقد حاول أن يجد العلاقة بين بعد الكواكب عن الشمس وبين زمن دورته حولها ، أو بمعنى آخر بين

الكوكب وسنته واخيرا وبعد أن صادف فشلا كثيرا ، وجد فيما يختص بالكواكب جميعا أن مربع الوقت يتناسب تناسبا طرديا مع مكعب متوسط المسافة من الشمس . وفي استطاعتنا الآن تلخيص نتائجه فيما يلي : -

١ - تدور الكواكب جميعها حول الشمس في أفلاك بيضاوية تقع الشمس في بؤرتها .

٢ - الحظ الذي يربط الكواكب بالشمس يمر فوق مساحات متساوية في الأوقات المتساوية .

٣ - بالنسبة لجميع الكواكب يتناسب مربع الوقت تناسبا طرديا مع مكعب متوسط المسافة من الشمس .

وتعرف هذه النتائج الثلاث بقوانين كيبلر . انها تلخص النتائج التي وصل اليها بعد مئات من الملاحظات وتصنيفها في تعبيرات عامة موجزة . ويسمى مثل هذا التلخيص بالقانون العلمى .

وقد استعمل نيوتن قوانين كيبلر القائمة على مشاهدات براهى فى نظرية الجاذبية . ويعطى هذا لنا مثلا عن توابط عمل عديد من العقول التى تميزت بها العصور الحديثة ، ويعد دليلا على انتهاء النظرة التى سادت القرون الوسطى . وكان كيبلر نفسه يقف فى مفترق الطريق (١) وقام بأبحاثه خلال السنين الأولى للقرن السابع عشر فى وقت كان ما زال الناس يظهرون مواطنيهم باسم الدين . واضطر أن يدافع عن والدته حينما وجهت اليها الشعوذة ، ولم يتحرر هو نفسه من أغلال الروح التى سادت القرون الوسطى . ومع ذلك كانت نتائجه مقدمة لعصر جديد من التفكير ، ووضع ازدهار العلم بعد ذلك فى القرن السابع عشر أقدامنا فى الاتجاه الذى نرتاده الآن .

(١) انه من المتع لنا أن نذكر أن القانون الثالث لكيبلر قد أعلن فى مؤلف عنوانه : التجانس العالى » الذى صدر فى أوجسبرج عام ١٦١٩ « ، وأهدى للملك جيمس الاول . وقد قرأ للملك المؤلف بشغف عظيم ، ودعى كيبلر للحضور الى انجلترا ، ولكنه لم يقبل الدعوة على الرغم من الحياة المملوءة . بالتعصب التى كان يحياها فى وطنه .

عمل جاليليو

١ - باكسورة اعماله

بينما كانت مسألة تحركات الكواكب تشغل بال كيبلر ، كان جاليليو (١٥٦٤ - ١٦٤٢) مؤسس الفيزياء الحديثة مشغولا ببحث مسألة تحركات الأجسام على الأرض . وكان نبوغه العظيم واضحا وهو شاب . وذات يوم وهو فى الكتدرائية فى بيزا لاحظ التآرجحات البسيطة لأحد مصابيح المعبد الكبير ، فما كان منه الا أن وقت (١) التآرجحات مستعينا بنبضه ، إذ لم يكن هناك وقتئذ ساعات مناسبة . ومما أثار دهشته أنه على الرغم من أن تلك التآرجحات كانت فى سبيلها الى الزوال ، الا أنها كانت دائما تستغرق نفس المدة . وهذه الآن حقيقة معروفة لدى الجميع وتمكننا من صناعة ساعات البندول . وصنع جاليليو الذى ابتدأ فى هذا الوقت يدرس الطب آلة بندولية صغيرة مفيدة لتوقيت نبض المريض على أساس مشاهداته فى كتدرائية بيزا . ولكن جاليليو لم يتابع دراساته الطبية طويلا ، إذ استمع ذات يوم الى محاضرة فى الرياضيات شغف بها لدرجة أنه قرر أن يجعل من الرياضيات موضع دراسة له طيلة حياته . وقد بدأ بدءا طيبا ، وبسرعة صار أستاذا للرياضيات فى بلدته بيزا مسقط رأسه .

٢ - تجاربه على الأجسام الساقطة

وجد جاليليو نفسه وسط مجموعة محافظة كبيرة من زملائه فى بيزا . كانوا يعتبرون ارسطو حجتهم فى جميع أمور الفلسفة والتاريخ الطبيعى ، ولم يدر بخلدهم قط أن يقوموا بتجارب بأنفسهم . ونتيجة لذلك جللهم العار حينما بدأ جاليليو الصغير يعلن شكوكه فى تعاليم ارسطو ويقوم بتجارب لحساب نفسه .

(١) حسب الوقت الذى تستغرقه .

لقد ذكر أرسطو أن الاجسام تسقط على الأرض بسرعة تتناسب تناسباً طردياً مع أوزانها ، فثقل يبلغ وزنه عشرة أربال يسقط بسرعة تتعادل عشرة أمثال السرعة التي يأخذها ثقل وزن رطلا واحداً ، وهكذا دواليك . وظل الناس يؤمنون بهذه القول الذي كتب حوالي ٣٥٠ ق.م مدة ألفى عام تقريباً . ويبدو أن الناس لم يرتابوا قط في صدق هذه الآراء ، لأنها كانت تبدو مقنعة جداً ، وكثيراً ما كانوا يلاحظون الريش وقطع الورق ترفرف وهي هابطة ، بينما كانت قطع الحديد تسقط بسرعة محدثة دوياء . وعلاوة على ذلك كان الناس جميعاً يؤمنون بما قاله أرسطو .

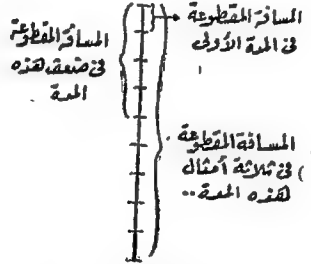
ومع ذلك سأوردت جاليليو الشكوك مدة طويلة فيما يتعلق بهذا القول وقرر وضعه موضع الاختبار التجريبي البسيط . ولذلك تسلسل برج لينينج وأخذ معه ثقلاً وزن عشرة أربال ، وثقلاً وزن رطلا واحداً ، وأسقط الثقليين فاصطدما بالأرض سوياً . وكانت هذه التجربة التي قام بها عام ١٥٩١ في الحقيقة هي الضربة القاضية التي وجهت لعلم فزياء أرسطو . وعلى الرغم من ذلك ، فإن أساتذة جامعة بيزا الذين كانوا مجتمعين لمشاهدة التجربة أبوا أن يصدقوا أعينهم ، ورجعوا ليطلعوا على موضوع سقوط الاجسام في مؤلفات أرسطو .

ولكن جاليليو سار في طريقه غير آبه بعدم موافقة الآخرين . وشرع يعمل ليجد كيف تسقط الاجسام على الأرض - أى بأية نسبة رياضية تتحرك . لقد أدرك طبعاً أن الاجسام الساقطة تتحرك بسرعة متزايدة - أى أن سرعتها تتزايد باطراد . ولكن سرعة جسم ساقط سقوطاً طليقاً كانت سريعة بالنسبة له بدرجة لم يكن في استطاعته أن يقدرها . ولذلك قاس الوقت (١) الذي تأخذه كرة معدنية مستديرة ملساء لتتدحرج هابطة فوق سطح أملس مائل ميلاً بسيطاً . واقتنع بأدى الأمر أن سرعة هبوط جسم فوق سطح مائل هي نفس سرعته وهو ساقط سقوطاً طليقاً من ارتفاع مساو لارتفاع هذا السطح .

وأجرى جاليليو تجارب مستخدماً زوايا انحدار مختلفة ، ووجد أنه حينما كان يضاعف الوقت ، لم تكن المسافة المقطوعة ضعفاً بل كانت ٢٢- أى أربعة أمثال المسافة الأولى ، وأنه حينما يثلث الوقت كانت المسافة ٣٣- أى تسعة أمثال المسافة الأولى . وبمعنى آخر وجد أن المسافة المقطوعة تتناسب طردياً مع مربع الوقت . ورأى أنه يجعله المستوى أشد انحداراً

(١) لم يكن جاليليو ساعة يد أو ساعة حائط مناسبة أو لذلك قاس الوقت بجعل الماء ينساب من سطل به ثقب وكان بعد ذلك يزن الماء المنساب ، وكان هذا الوزن يعطيه تقديرًا للوقت .

يقترب من الظروف التي تكتنف الجسم الهابط هبوطا طليقا • وقد أستنتج
استنتاجا في محله أن نفس القانون : تناسب المسافة المقطوعة تناسبيا
طرديا مع مربع الوقت : ينطبق على مثل هذا الجسم • (شكل ٦)



شكل ٦
توضيح قانون جاليليو للأجسام الساقطة

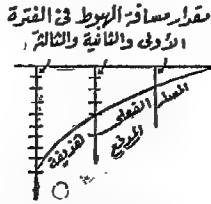
٢ - أول قانون من قوانين الحركة

ان أول تجارب جاليليو على السطح المائل أرته أنه حينما ينزلق جسم متحدرا على سطح مائل ، فانه بعد ذلك يندفع صاعدا سطحا آخر الى ارتفاع يساوى تقريبا ارتفاع النقطة التي بدأ منها مهما كان من شأن هذين المنحدرين • وقد أستغلت هذه الحقيقة في الطرق اللووية في الجبال والمرتفعات ، وفي السكك الحديدية الصغيرة في ملاعب الملاهي ، وأراضى المعارض • والارتفاع النهائي الذى تستطيع العربات الجبلية أن تصل اليه لا يعادل اطلاقا وبالضبط الارتفاع الأسمى ، اذ أن هناك باستمرار بعض الاحتكاك • وقد أدرك جاليليو المقاومة الاحتكاكية وذلك لانه اذا ترك جسم ينزلق الى أسفل أحد المسطحات ووصل هذا الجسم الى قاعدة مسطح مستو ، فانه يجرى الى الأبد بسرعة ثابتة لولا وجود المقاومة الاحتكاكية ، اذ بمجرد أن يبدأ الجسم المتدحرج فانه لا يحتاج الى قوة لتجعله يستمر في تحركه • وهذا أمر واضح للغاية ، ولكن التوصل الى معرفته كان يعد بحق نقطة تحول في تاريخ علم الميكانيكا •

وكان الناس حتى عصر جاليليو يعتقدون أنه من اللازم دفع جسم أو جذب به باستمرار لكي يستمر في حركته • ومع ذلك فقد توصل جاليليو الى أن استعمال قوة اضافية ليس ضروريا للحركة ، ولكنه ضرورى فقط لتغيير الحركة • ولذلك فان الكواكب لا تحتاج الى دفع مستمر • وتستمر الأشياء الطليقة في التحرك مع الأرض ولا تختلف عنها • وقد زاد نيوتن

على هذا المبدأ ووضحه (١) ، ولكن المؤكد أن تعاليم جاليليو تضمنت هذا المبدأ .

واستعمل جاليليو هذا المبدأ في معالجته مشكلة المسار الذي تتخذه قذيفة المدفع بعد أن تترك فوهته . وكان قد بدأ استعمال البارود والمدافع قبل هذا الوقت ، ولذلك كانت هذه المسألة ذات علاقة بالطرق الحربية العملية . وقد عالج جاليليو المشكلة بالطريقة الآتية : لقد تصور أن قذيفة المدفع تنطلق بسرعة واتجاه معينين ، ولكنها في اللحظة التي تكون فيها طليقة في الهواء تبدأ في السقوط بتعاجل (٢) مثلها في ذلك مثل غيرها من الأشياء الساقطة . وتحقق من أنه بعد مرور دقيقة واحدة تتوقف حالة القذيفة على عاملين : (١) سرعتها واتجاهها الأصليين (٢) المسافة التي قطعتها في سقوطها منذ بدء تحركها . وبما أن جاليليو كان على علم بأن المسافة المقطوعة بسرعة ثابتة تتناسب طرديا مع الوقت ، وأن مسافة السقوط تتناسب طرديا مع مربع الوقت ، فقد أوضح جاليليو أن قذيفة المدفع يجب أن تكون قوسا تنطبق كل هذه النسب عليه انطباقا دقيقا . ويدعى مثل هذا القوس بالقسط المكافئ (شكل ٧) .



مسار قذيفة مدفع منطلقة أفقيا
« شكل ٧ »

ولم يبق جاليليو طويلا في بيزا ، فالرجل الذي يبرز زملاءه بدرجة كبيرة لا يكون محبوبا قط . ان الانتقادات التي جهر بها والتعبيرات التي

(١) قوانين الحركة لنيوتن :

(أ) كل جسم يبقى على حالته من السكون أو الحركة المنتظمة في خط مستقيم ما لم تؤثر عليه قوة تغير من حالته .

(ب) معدل التغير في كمية الحركة لجسم يتناسب طرديا مع القوة المؤثرة ، ويحدث ذلك في اتجاهها .

(ج) لكل فعل رد فعل مساو له في المقدار ومضاد له في الاتجاه .

(المترجم)

(٢) سرعة مطردة الزيادة .

(المترجم)

لا لباقية بها عن أرائه جعلت له أعداء كثيرين . وفي النهاية صار وجوده في الجامعة غير محتمل ، ولذلك استقال وقبل استاذية الرياضيات في بادوا .

٤ - بادوا

كانت محاضرات جاليليو في بادوا انتصارات أحدثت أثرا بليغا ، وذاع صيته في الآفاق . وعلاوة على محاضراته الرسمية كان يكتب أبحاثا عن التحصينات الحديثة ، وكانت تستشيريه حكومة البندقية في طرق رفع المياه وتوزيعها ، وكتب رسالة شارحا « القوى الميكانيكية » أو ما نسميها الآن بالآلات مثل الميزان ، والبكرة (شكل ٨) واللولب والتروس . وكانت



(شكل ٨)

رسم توضيحي قديم لبكرة ، من مجموعة وسائل ديكارت

(فرائدكفوت ١٦٩٢)

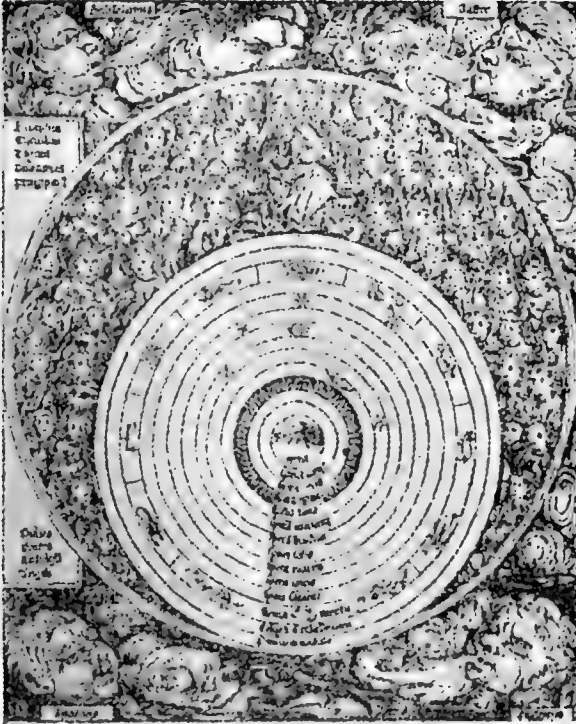
تستعمل مثل تلك الآلات في رفع الأثقال ورفع الماء من الآبار في العصور القديمة قبل الكشف عن المبادئ الميكانيكية التي تضمنتها . وكان جاليليو ملما بمبادئ الروافع التي عرفت منذ زمن أرشميدس (٢٥٠ ق.م) لقد توصل الى معرفة حقيقة لاحظها ليوناردو وآخرون أيضا ، وهي أنه على الرغم من أن الرافعة تمكننا من رفع جسم ذي وزن ثقيل بواسطة قوة صغيرة في نهاية ذراع طويل ، إلا أن هذه القوة الأصغر يجب أن تتحرك خلال مسافة أطول نسبيا . وهذه الملاحظة أوجزت في العبارة التالية ما يكتسب في القوة يفقد في السرعة . وكان التعرف على هذا المبدأ هو أصل قانون الطاقة الذي تطور تطورا تاما بعد ذلك بقرنين .

٥ - تجارب بالتسكوب

توقفت دراسات جاليليو فيما يختص بالميكانيكا فجأة فقد تالت نجم جديد في السماء عام ١٦٠٤ ، وأثار هذا شغف الناس جميعا ، وأصبح



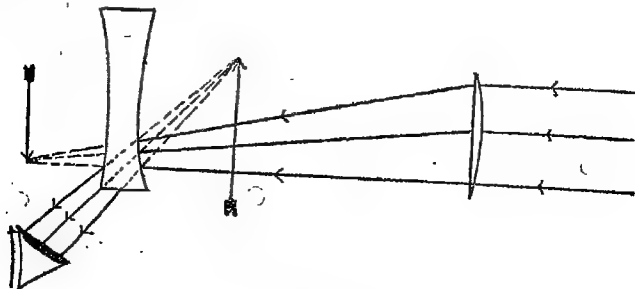
تشریح الجسم من كتاب تركيب الجسم البشرى
نشر كتاب فيسالييس هذا فى بازل عام ١٥٤٣.



رسم توضيحي للمفهوم الكون في المصور الوسطى من السجل التاريخي لتاريخ عام ١٤٩٢

هناك اهتمام مباشر بالفلك • وحضرت جموع حاشدة محاضرات جاليليو ، وكان كل هؤلاء متلهفين أن يعلموا شيئا عن هذا الجسم الجديد الذى بدأ فى السماء ، وهى هذا فرصة طيبة لجاليليو لطقن أنصار أرسطو الذين كان من رأيهم باستمرار أن السماء لا تتغير تبعا لما قاله استاذهم ، ولكن هذا كان تغييرا بالفعل •

وسرعان ما تيسرت لجاليليو حجج أقوى ، فقد سمع إشاعة أن صانع نظارات هولندى تمكن من صنع زوج من العدسات بطريقة تجعل الأشياء البعيدة تبدو أقرب وأكبر حجما • وقد جعلته هذه الشائعة يعمل فكره • وكان يعرف بطريقة غامضة كيف تجمع العدسة أشعة الضوء التى تسقط وسرعان ما حصل على بعض العدسات ، ونجح فى صنعته آلة أحسن بكثير من الآلة الأصلية ، وادعى جاليليو أن منظاره ، كان يكبر الأجسام التى على بعد خمسين ميلا بحيث تبدوا كأنها على بعد خمسة أميال فقط



(شكل ٩)
المبدأ الذى بنى عليه جاليليو تلسكوبه

(شكل ٩) • وقد ذاعت قصص عديدة فى الخارج عن هذه الآلات الجديدة (١) حتى تلقى جاليليو أمرا ملكيا لعرض آله على الدوج (٢) ، وأعضاء مجلس شيوخ البندقية • تسلى هؤلاء الوجهاء أعلى برج فى البندقية ونظروا خلال التلسكوب فكان ثوابهم أن شاهدوا السفن قادمة من بعد على صفحة الماء ، تلك السفن التى كانت ما زالت غير مرئية للناس الموجودين أسفل منهم •

(١) أعلنت عجائب تلسكوب جاليليو على العالم فى أول جريدتين مطبوعتين عرفهما الناس • وقد طبعت هاتان الصحيفتان فى ١٦٠٩ فى استراسبرج وأوجسبورج على التتالى •
(٢) والى البندقية • (المترجم)

وسرعان ما وجد جاليليو أن تلسكوبه زود عينيه بقوة جديدة ، وضو به الى منطقة السماء المعروفة بنهر المجرة ، فشاهد حشدا من النجوم . ونظر الى القمر ورأى به جبالا وأودية وبدأ له كأنه عالم كعالمنا . وذات ليلة صافية ١٦٠٩ كان ينظر من خلال تلسكوبه الى كوكب المشتري ، ومما أثار دهشته أنه رأى عدة أجرام صغيرة بالقرب من المشتري في صف . وكان لا يمكن رؤيته هذه الأجرام اطلاقا بالعين المجردة . لاحظ في ليال متتالية ورأى أنها كانت تغير مواقعها بالنسبة لبعضها البعض . وعلى الفور طرأت على ذهنه فكرة أن للمشتري أربعة أقمار تدور حوله ، بالضبط كما للأرض قمر يدور حولها . اذن فهناك أجسام تدور حول جرم مركزي ، نموذج مصغر للمجموعة الشمسية كما فكر فيها كوبرنيكس . ياله من كشف .

لقد فكر جاليليو بالفعل مليا في أنظمة محتملة في الكون ، وأعلن في رسالته لكيبلر أنه من المؤمنين بنظام كوبرنيكس . ومع ذلك فقد كان من واجباته الرسمية في بادوا شرح النظام البطلمي القديم المعقد . ومضى بعض الوقت قبل أن يعترف صراحة بإيمانه بالنظرية الجديدة . وكان لزاما على المرء في تلك الأيام أن يكون حريصا في التعبير عن الآراء التي تناهض السلطات . ألم يهلك من قبل جيوردانو برونو بحرقه حيا على سارية ، وذلك بسبب آرائه عن السماء المخالفة لتعاليم الكنيسة ؟ ولكن جاليليو كان يضع ثقته في عينيه ، وكان يشعر وتلسكوبه تحت تصرفه أن لديه وسيلة يستطيع بها أن يحقق صدق نظرية كوبرنيكس البالغة الأهمية .

وكانت هناك حجة غالبا ما قامت ضد نظرية كوبرنيكس، وهوانه اذا كان كوكب الزهرة الذي هو أقرب منا الى الشمس يتحرك بحقا حول الشمس افيجب أن نرى وجهه بأكمله أحيانا مضاء بنور الشمس، ونرى أحيانا جزءا منه فقط . وبمعنى آخر يجب أن تكون للزهرة أوجه كاوجه القمر .

ولكن كوكب الزهرة اللامع ، نجمة الصباح والمساء ، كان مظهرها لا يتغير باستمرار . ونتيجة لذلك ، فإن الرجال القلائل الذين عن لهم في وقت من الأوقات أن يتدبروا الأمر استنتجوا أن هذه كانت حجة قوية ضد نظرية كوبرنيكس . ولكن جاليليو أتى بتلسكوبه في تلك الآونة ، وراقب الزهرة عدة أسابيع على فترات وما أطره أن رأى الزهرة مرة تبدو كالهلال ، ثم بدت بعد ذلك في حجم نصف القمر ، وبعد ذلك بدأت كدائرة كاملة من نور . ولكن الزهرة كانت تبدو باستمرار للعين المجردة بشكل لا يتغير . وكانت هذه حجة قوية في صالح نظرية كوبرنيكس ،

ولكن بعض الأساتذة القدامى أبوا أن يستعملوا فى مشاهداتهم تلسكوب جاليليو ، وحاول آخرون أن يحدضوا ما قد راوه بأعينهم .

ولذلك كثر أعداء جاليليو ، انه لم يثر حق أساتذة الجامعة المحافظين فحسب ، بل أثار حق الكنيسة أيضا . وشعرت السلطات الحاكمة أنه كان زنديقا ، وألقيت الخطب الدينية ضده ، ولكنه استمر مسع ذلك فى دراساته . وكانت خطوته التالية هى تصوير تلسكوبه ناحية الشمس ، معلنا أنه شاهد بقعا مظلمة بدت كأنها تتحرك من يوم الى يوم عبر الكرة الملتهية . وزاد ذلك من قلق أنصار أرسطو كثيرا ، وبدأ استعدادهم فى الكنيسة يشيرون الآراء ضده فى روما . وفى سنة ١٦١٥ استدعاه البابا لشرح وجهة نظره . استقبله البابا استقبالا حسنا للغاية . وكانت المقابلة مقابلة ودية ، ولكنه مع ذلك فرض حظرا عليه الا ينشر أى مزيد من آرائه .

٦ - أمجد أعمال جاليليو

أكمل جاليليو بعد حوالى خمسة عشر عاما من عودته من روما أعظم مؤلف له عن النظريتين الكبيرتين اللتين تفسران نظام الكون (١) . وكان قد وعد من قبل ألا يتناول النظرية الكوبرنيكية بالشرح والتبيان . ولذلك أعلن أن الكتاب كان شرحا غير متحيز لكل من النظريتين البطلمية والكوبرنيكية .

وصيغ هذا الكتاب على هيئة مناقشات بين شخصين من أنصار هاتين النظريتين المتضاربتين ، وبين شخص ثالث كان يوجه أسئلة اليها .

وحيث ان جاليليو كان مؤمنا بنظرية كوبرنيكس ، كان من المستحيل عليه لذلك أن يظل غير متحيز . انه لم يستطع تفادى جعل المناقشات تؤدي الى التنديد بمغالطات الجانب الآخر وكان ذا تهكم لاذع . ومن سوء الطالع أنه أجرى الحجج العقيمة لأنصار النظرية البطلمية وحتى حجة أدلى بها البابا نفسه ، على لسان سيمبليكيوس ، وهو شخص أخرق استخدمت ملاحظته كأحليل للتنديد الواضح بأنصار النظرية الكوبرنيكية . وكانت الرقابة مفروضة على الكتب فى تلك الأيام . ومن المحتمل أن الرقيب البابوى لم يستطع فهم كتاب جاليليو ، أو على الأقل لم يقرأه يتعمق ، وذلك لأنه نشر فى عام ١٦٣٢ . وقد استقبلته الطبقة المتعلمة فى العالم بترحاب ، ونوقش من جميع وجوهه فى جميع الأوساط . ولكن أعداء جاليليو راوا أن الفرصة قد سنحت لهم الآن . لقد دعى الى روما ، وكان عليه أن يظهر أمام محاكم التفتيش .

(١) حوار بين اثنين حول نظام العالم ، طبع فى فلورنس عام ١٦٣٢

ماذا كان جرمه ؟ لم يكن جرمه الوحيد أنه ذكر أن الأرض تدور حول الشمس . ان اتجاهه الكلى كان من شأنه أن يعزز العقائد الراسخة ، فبدلا من اعتبار العلم تراثا مقدسا يتوارثه عصر عن عصر ، أخذ جاليليو يقوم بالتجارب لنفسه . وعلاوة على ذلك فإنه وضع النتائج التي وصل اليها العقل البشرى موضع المناهض لسلطة الكنيسة . واعتبرت حججه ضد النظرية البطلمية كتهجم على النظام التام التي تتعلق جميع العقائد به . ومن المؤكد أن جاليليو لم يكن لبقا ، وأنه قد خالف أوامر الكنيسة ان لم يكن حرفيا فروحيا . وقد أجرم أيضا في جرحه كبرياء البابا . واعتبر شخصا خطرا ولذلك قدم للمحاكمة .

وأنه لما يثير الشجى أن تفكر فى شخص كجاليليو ، شخص كبرى مهمل ، جاثيا يطلب التوبة . لقد أجبر أن يستنكر النظام الكوبرنيكى . وقد كان لمحاكم التفتيش تلك القوة الكبيرة ، ولكنها لم تكن لديها قسوة تقضى بها على تيار الروح الجديدة التى سرت فى العالم - روح الاستقصاء التى كانت لاتزال سارية فى دماء جسد جاليليو الواهن ، والتى شغلت بال خلفائه فغيرت نظرية البشرية كلها .

وكان من أعظم الخدمات التى أسداها جاليليو للعالم تمييزه الواضح بين ما يمكن أن يقاس وما لا يمكن أن يقاس . ومن الأمثلة التى ضربها لذلك أنه من الممكن أن نقيس حجم شيء ونقدر وزنه والسرعة التى يتحرك بها ، ونعبر عن هذا كله بالأعداد . ولكنه أوضح أنه لا يمكننا أن نعبر بالأعداد عن رائحة أى شيء ، أو مذاقه ، أو لونه ، أو أى شيء آخر من الآثار التى تتوقف على حواسنا . وقد شغل رجال العلم أنفسهم منذ زمن جاليليو بشكل . متزايد بالوزن والقياس والتعبير عن النتائج بالأرقام . وحينما كانوا يتمكنون من تقدير ما كانوا يتحدثون عنه كانوا يستطيعون موازنة نتائجهم بنتائج الباحثين الآخرين . وكانوا يسجلون تلك النتائج لاستخدامها فى المستقبل ويستعملونها فى اختبار الآراء المختلفة .

وبالتدرج سار المبدأ القائل بأن العلم إنما هو قياس يؤثر فى جميع فروع دراسات الطبيعة . وأنانا لمدنيون بذلك المبدأ لجاليليو .

وعاش جاليليو بعد محاكمته فى فيلته القريبة من فلورنس فى عزلة المبجلة . ولكن عقله الزاخر لم يهدأ له بال قط . اذ على الرغم من أنه قد حرم عليه نشر أية مؤلفات أخرى فى مناصرة النظرية الكوبرنيكية ، الا أنه مع ذلك جمع نتائج أبحاثه الأولى عن الأجسام الساقطة وضمناها رسالة فى الحركة كانت أساس علم الديناميكا كله .

لقد بدد جاليليو طاقاته دون اكتراث . وأثرت الرحلات الشاقة الى روما والمتاعب التى صادفها فى محاكمته على بنيته الضعيفة تأثرا بالغا ،

وأصيب في سنيه الأخيرة بالعمى . وفى ذلك الوقت زاره جون ميلتون (١) ، وكان اذ ذاك شابا فى مقتبل قواه يستمتع بمباهج الشعر (٢) وكان جميع زواره يعلقون على حالة جاليليو الهرم الأعمى وصفاء ذهنه الذى كان يخلب لبهم . ولكن النهاية كانت وشيكة اذ قضى جاليليو نحبه عام ١٦٤٢ . ومع ذلك فان عمله لم ينته ، ففي السنة التى مات فيها جاليليو ولد فيها اسحق نيوتن ، الذى قدر له أن يسير بالعمل الذى بدأه جاليليو الى نهاية مجيدة .

(١) شاعر انجليزى يعد الشاعر الانجليزى الثانى بعد شكسبير .

(المترجم)

(٢) كتب ملتون عن تلسكوب جاليليو فى الجنبه المفقودة .

الفصل الرابع

انتاع عصر التجربة

١ - أسس علم المغنطيسية

كان المعروف زمن الاغريق القدماء أن الكهرمان يكتسب خاصية اجتذاب الأجسام الخفيفة اليه مثل الريش وقطع الصوف عند ذلك ، وأن هناك مادة معينة فى الأرض فى قدرتها اجتذاب قطع الحديد . وكان يطلق على هذه المادة لفظ « الحجر المغنطيسى » وبعد ذلك أطلق عليه « المغنطيس » الذى اشتق اسمه من اسم مغنيسيا « فى الاغريق حيث كانت هذه المادة توجد بكميات كبيرة . ثم صار المغنطيس يعرف باسم « حجر الطريق » بالنسبة لاستعماله للدلالة على اتجاه الطريق . ويشير حجر المغنطيس فى استعماله الحالى الى اكسيد الحديد الذى يتكون طبيعيا والذى يسمى بالمغنطيط (١) .

وكانت الخاصية الحقيقية الوحيدة للمغنطيس المعروفة للقدماء هى قوة جذبها للحديد ، ولكن يعرور الوقت حاله الناس حوله عدة اقايسى خرافية . ومما افترضته هذه الاقايسى أن حجر المغنطيس يفقد ميزته فى حال وجود الثوم ، أو أحجار الماس ، ولكن كان المعتقد امكان عودة قوة جذبها باستخدام دم ماعز فى الوقت المناسب . وكان من المفروض أن لحجر المغنطيس خواص طبية ، وكان يوصى به بوجه خاص لعلاج النقرس . وقد توارث الأجيال كثيرا من هذه الاقايسى المدهشة التى تستهوى السذج فيصدقونها .

وقد عرف فى القرون الأخيرة من المصور الوسطى أن قطعة الحديد التى مضطت باحتكاكها بحجر مغنطيس تأخذ اتجاهها شماليا جنوبيا تقريبا لو ثبتت فى محور بحيث يمكنها ذلك من التحرك بحرية فى مستوى افقى . وكانت تستعمل أحجار المغنطيس هذه ، كما قد رأينا لارشاد

السفن فى البحر . وأحيانا كان المغنطيس بدلا من تثبيتته بمحور ليتأرجح
يوضع فى فتجان خشبى طاف فى قدح مائى . وهناك رسم لمثل هذا
المغنطيس الطافى فى احدى مذكرات ليونارد دافنشى . ولكن مثل هذه
الدراسات المبكرة لم تتابع أكثر من ذلك حتى انتهى القرن السادس
عشر تماما .

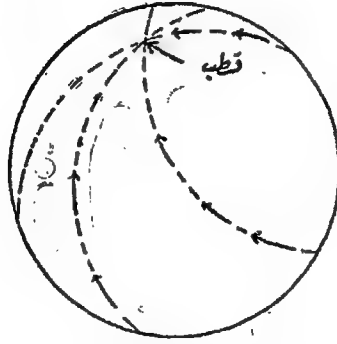
ويرجع تاريخ الدراسة العلمية للمغناطيسية فى الحقيقة الى إيام
وليم جيلبرت (١٥٤٠ - ١٦٠٣) . وقد درس هذا الرجل العظيم الطب
فى كامبردج ، وبعد ذلك مارس هذه المهنة فى لندن حيث عمل كطبيب
للملكة الياصابات . وفى فترات فراغه من واجباته كطبيب للقصر قام
جيلبرت بالأبحاث البالغة الأهمية التى اكسبته لقب أبى المغنطيسية .
ويبدو أنه كان شديد الاخلاص لليصابات . ويخبرنا أحد مؤرخى الجيل
التالى بإشارة لبقّة قائلا : لقد بلغ اخلاصه للملكة حدا جعله يموت
فى السنة التى ماتت فيها عام ١٦٠٣ ، كما لو كان غير راغب أن يبقى
حيا بعدها .

وقد دون جيلبرت قصة تجاربه فى كتاب نشره عام ١٦٠٠ (١)
أوضح فيه أن الأرض نفسها ماهى الا مغنطيس . وكان هذا أول كتاب
علمى هام طبع ونشر فى إنجلترا . وفى احدى تجاربه الأولى اخذ جيلبرت
قطعة مغنطيس وجعلها على شكل كروى ، ثم وضع ابرة حديدية على
المغنطيس ، وأمسكه بيده ، فلاحظ أنه تآرجح أول الأمر حول مركزه ثم
استقر . رسم خطا بالطباشير على المغنطيس لتحديد موقع الأبرة . ثم
أمسك بعد ذلك بالحجر فى وضع مختلف وحدد الاتجاه الذى استقرت
فيه الأبرة . وبعد أن كرر هذه العملية عدة مرات ، وجد مغنطيسه مغطى
بعدد من الخطوط الطباشيرية التى يمكن توصيلها سسويا لتكون دوائر
مثل خطوط الزوال على الكرة الأرضية . وقد شوهد تقاطع هذه الدائرة
فى نقطتين متقابلتين على المغناطيس سماها جيلبرت اقتفاء لكاتب أقدم منه
« القبطين » (شكل ١٠) .

وبعد أن اهتمدى جيلبرت الى القطبين بهذه الطريقة ، وضع المغنطيس
على كوب خشبى وجعله يطفو فى قدح من الماء . وقد لاحظ أن القدح
أخذ يتأرجح حول محوره ثم استقر فى النهاية . وكان الخط الموصل
للقطبين فى اتجاه شمالى جنوبى . وعلى ذلك استطاع أن يميز طرف

(١) كان عنوان الكتاب : المغنطيس والاجسام المنقطعة والمغنطيس الكبير ، الأرض (لندن

المغناطيس الذى يتجه شمالا باستمرار . ووجد بجعله مغناطيسين يطفوان أن الاقطاب التشابهة تتنافر ، بيد أن الاقطاب المختلفة يجذب بعضها بعضا .

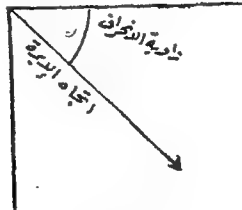


(شكل ١٠)

توضيح تجربة جيلبرت بالمغناطيس الكروى ظهرت فيه الابرّة في عدة مواضع

وصنع جيلبرت أيضا آلة صغيرة مفيدة تتكون من قطعة حديد ممغنطة شكلها كشكل السهم ومركبة في مجور كائبة البوصلة الصغيرة التى نستعملها الآن ، واستطاع جيلبرت بمساعدتها أن يجد أى القطبين هو القطب المتجه شمالا باستمرار ، أو مايعبر عنه بالقطب الشمالى على سبيل الايجاز لاية قطعة من قطع المغناطيس .

وكان من المعروف فى زمن جيلبرت أنه لو ركبت ابرة ممغنطة بحيث يمكنها أن تدور فى مستوى رأسى يقع فى اتجاه شمالى جنوبى فانها تتخذ أوضاعا مختلفة فى الأماكن المختلفة على سطح الكرة الأرضية (شكل ١١) . وقد شوهد أن القطب الشمالى للابرة فى خطوط العرض



(شكل ١١)

زاوية الانحراف

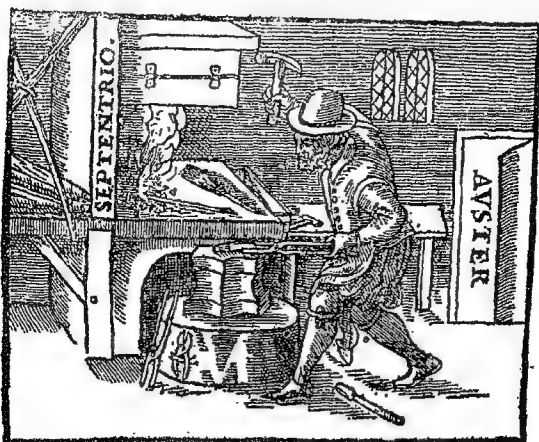
الشمالية ينحرف نحو الأرض . ووجد أن زاوية الانحراف الواقعة بين الإبرة والمستوى الأفقى تبلغ ٧١° فى لندن فى تلك الأيام ، وأن الزاوية تكبر كلما اقتربنا من القطب الشمالى ، وكلما اقترب المشاهد من خط الاستواء كلما نقصت .

وقام جيلبرت بدراسات مماثلة على نطاق ضيق بأحجار مغناطيسية كروية الشكل ، ووجد أنه إذا ركبنا إبرة تركيبا مناسباً فإنها تتخذ فيما يختص بالمغناطيس موضعا مطابقا لزاوية الانحراف على الأرض « أن هذا الانحراف العجيب » كما قال « لدلالة واضحة على طبيعة الأرض المغناطيسية العظيمة » .

هنا بنا نعود لحظة الى البوصلة . لقد كان معروفا حتى قبل عصر جيلبرت أن الاتجاه الذى تتجه نحوه إبرة البوصلة ليس هو الاتجاه الشمالى الجنوبى بالضبط كما حدده المقياس الفلكى . أنه ينحرف عن ذلك الخط ، وتعرف الزاوية التى بين الاثنين الآن بزاوية التغير أو الميل . وكان صانعو البوصلات يعملون حسابا لهذا الانحراف . وقد اعتادوا فى عصر جيلبرت أن يجعلوا بطاقة الاتجاه الموضوعة تحت الإبرة منحرفة انحرافا بسيطا . ولكن الانحراف يتغير من مكان الى مكان على سطح الكرة الأرضية ، وعلاوة على ذلك يحدث فيه تغير بسيط من سنة لآخرى ، بحيث أن التصحيح الذى كان يجرى كان تصحيحا مطيا يلبث الا وقتا قصيرا فحسب . وفى عصر اليصابات كانت المعلومات الخاصة بهذا الموضوع قليلة جدا بدرجة أن مشكلة الانحراف المغناطيسى أقلقّت الملاحين بدرجة كبيرة . وطن جيلبرت حينما أدرك هذه المصاعب أن إبرة الانحراف يعول عليها أكثر من البوصلة العادية . وقد وجد بواسطة أحجاره المغناطيسية الكروية الشكل أن الخطوط التى توصل الأماكن التى يتساوى فيها الانحراف تتفق مع خطوط العرض . ولذلك ظن أن إبرة الانحراف من شأنها تمكين الملاحين من رسم خرائط لخطوطهم الملاحية . ولكن حينما وضعت هذه الطريقة موضع التجربة وجد أن هناك تغيرات كبيرة فى مقدار الانحراف فى الأماكن التى تقع على خط عرض واحد ، ولذلك اضطر أن ينبذ هذه الفكرة . وبمرور الوقت أدخلت تحسينات على تركيب البوصلة ، وكان لا يزال عدد الرواد المخاطرين الذين يمخرون عباب البحر فى ازدياد . ونتيجة لذلك أصبحت مقادير الانحراف معروفة فى عدد كبير من الأماكن . ولذلك كان فى استطاعة الملاح إجراء التصحيحات فى مقادير الانحراف من واقع خريطته الملاحية ، ويرسم تبعاً لذلك خط سفينه الملاحى بدرجة دقيقة نوعا .

وعلى الرغم من أن جيلبرت ذاع صيته غالبا بالنسبة لما قام به فى المغناطيسية ، إلا أنه قام بعدة دراسات هامة تتعلق بخواص الأجسام

المكهربة • ونحن مدينون بنفس كلمة الكهرباء لجيلبرت • وقد استخدم هذا الاسم لوصف الآثار الغريبة التي شاهدها عند ذلك فى الكهرمان . والكلمة الإغريقية للكهرمان هى : اليكترون ، وهذه الكلمة نفسها مشتقة من كلمة : اليكتور : ومعناها سساطع • ولاحظ جيلبرت أن قوة جذب الأجسام لا يختص بها الكهرمان وحده ، ولكن هناك موادا أخرى لها نفس الخاصية مثل الزجاج • ولاحظ أن الأجسام المكهربة تفقد قوتها حينما توضع قرب لهب ، وأن التجارب التي تجرى على الأجسام المكهربة لا تؤدي إلى نتائج دقيقة فى الأيام الرطبة ، وهى حقيقة معروفة تمام المعرفة للطلبة اليوم • ولكى يوضح جيلبرت التكهرب صنع جهازا بسيطا مكونا من مؤشر خفيف مركب فى محصور بحيث يتمكن من الدوران بسهولة • كان يجذب حينما تقترب منه الأجسام المكهربة ولذلك كان يستخدم ككاشف بسيط للتكهرب •



(شكل ١٢)

تصوير جيلبرت لحداد يعمل على سندانه • هذا الشكل يوضح كشف جيلبرت انه اذا وضعت قطعة حديد محمية فى اتجاه شمالى جنوبى وقررت فانها تصبح ممغنطة (من كتاب المغنطيسية)

وبين دفات كتابه فى المغنطيسية ، نجد بيانات واضحة عن حقائق مشاهداته • فمثلا دون جيلبرت انه لو قطع مغنطيس الى نصفين فانه يتكون له قطبان فى المواضع التي كان خامدا فيها من قبل • ويوضح لنا أيضا كيف ان قضيبا من حديد محمى ذا اتجاه شمالى جنوبى يصير ممغنطا حينما يطرق بمطرقة (شكل ١٢) • ويقرر فى وصفه لهذه

التجارب ولتجارب أخرى ماشاهده بالضبط وكان فى ذلك حريصا على الا يستخلص أية استنتاجات او يعطى أية إيضاحات لا أساس لها .

ويعد عمل جيلبرت فى الحقيقة مبدأ عصر التجريب بمعناه الحديث . لقد رسم لنفسه طريقة محددة للاستقصاء ، وهى الدراسة التجريبية لخواص المغنطيسات والطبيعة المغنطيسية للأرض . انه لم يحاول أن يصف العلم كله كما فعل كتاب القرون الوسطى . وهذا التحديد الذى يفرضه الانسان على نفسه هو من خصائص الاتجاه الحديث . وانه لدو مغزى ان سنة ١٦٠٠ التى شهدت نشر مؤلف جيلبرت العظيم ، هى نفس السنة التى شهدت استشهاده بورونو فى روما . ومما يريح بالنا بعض الشيء أن ندرك أنه على الرغم من أن انجلترا فى ذلك الوقت كانت متخلفة عن ايطاليا ثقافيا بدرجة كبيرة ، إلا أن روح الاستقصاء الجديدة ازدهرت فى جوها الأكثر حرية ، وأن رجال العلم على الرغم من أنه كان ينظر إليهم أحيانا بعين الريبة ، كانوا يعاملون بروح من التسامح ، وكان بعضهم كجيلبرت يتمتع برعاية ملكية (١) .

٢ - اكتشاف الدورة الدموية

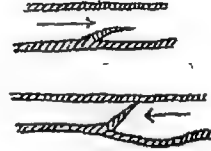
إن مبادئ القياس التى دافع عنها جاليليو فى بادوا دفعا مجيدا ظهرت ثمارها فى مؤلفات من قصدوها من بلاد كثيرة . لقد صارت بادوا مركزا دوليا للعلم ، إذ فتحت أبوابها للطلاب من جميع المذاهب الدينية ، وما زال فى الامكان أن نرى فى فناء جامعها أوسمة الشرف البطولية لبعض مشاهير الرجال الذين تعلموا هناك . وبين هذه الأنواط نوط الطبيب الانجليزى وليم هارفى (١٥٧٨ - ١٦٥٧) الذى زاول مهنة الطب فى لندن بعد دراسته فى كامبريدج ، وفى بادوا بعد ذلك ، وأصبح طبيبا فى مستشفى سانت بارتلميو . وسرعان ما بدأ بعد ذلك عددا من الأبحاث اهتمت خلالها الى كشفه العظيم - الدورة الدموية .

وأول مفتاح لهذا الكشف أتى من مدرس هارفى فى بادوا ، الذى بين له أن هناك صمامات فى الأوردة تسمح بانسياب الدم إلى اتجاه واحد فقط . وهذه الصمامات انما هى قلابات تفتح كالباب حينما ينساب الدم مارا فى اتجاه واحد ، ولكنها توصد باى انسياب فى الاتجاه المضاد

(١) انه من المتع أن نلاحظ أن بورونو الذى قام بأجد اعماله فى انجلترا تعرف على جيلبرت . ومن المحتمل أن وجهات نظر بورونو وصلت الى جاليليو من طريق كتابات جيلبرت .

(شكل ١٣) . وقد أوضح هارفى لهذه الصمامات أنه لا يمكن أن ينساب الدم ذهاباً وإياباً فى نفس الشرايين ، كما كان الناس يعتقدون حتى ذلك الوقت .

رشكل ١٣)
كيف تسمح الصمامات فى الأوردة للدم
بالانسياب فى اتجاه واحد فقط

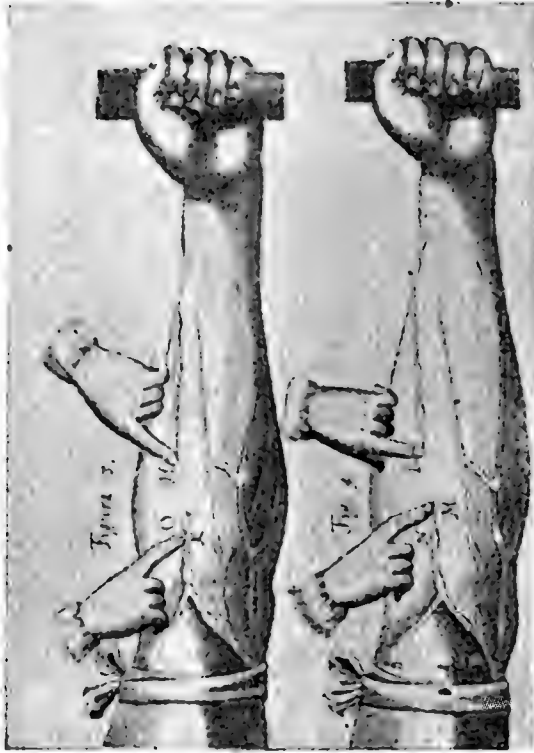


وعلاوة على ذلك فقد كان قد تعلم مبادئ انسياب السوائل من جاليليو . ولذلك فإن هارفى عالج انسياب الدم من وجهة النظر الميكانيكية ، معتبرا القلب كنوع من أنواع المضخات .

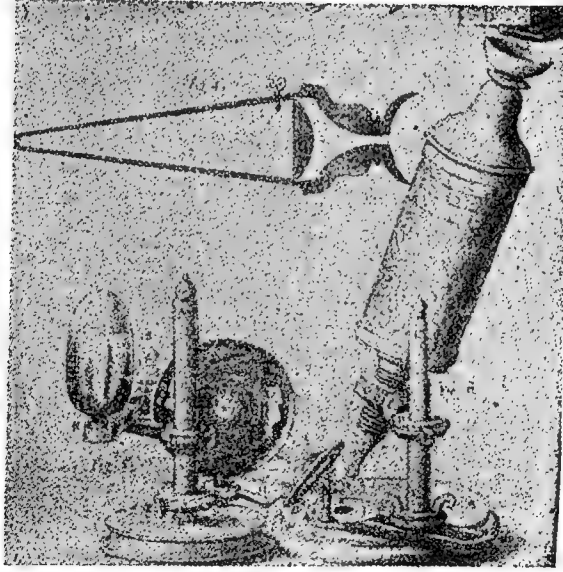
وبخبرنا هارفى أن هدفه كان اكتشاف الحقائق عن طريق الفحص الواقى ، وليس من كتابات الآخرين . لقد راقب حركات قلب الحيوانات الحية بما فيها ذكور الضفادع ، والضفادع والثعابين ، والأسماك الصغيرة والسرطانات البحرية ، والجنبرى ، والقواقع ، والمحار وكذلك قلوب الحيوانات ذات الدم الحار . واستنتج هارفى من مثل هذه الدراسات استنتاجا صحيحا أن نبض القلب يحدث عندما يتقلص القلب ، وأن هذا التقلص يدفع بالدم الى الخارج . وقد تأكد من هذا من مشاهداته لتكوين القلب نفسه .

وبعد ذلك درس هارفى انسياب الدم فى الأوردة . وكانت إحدى تجاربه تتعلق فى ربط السواعد العليا لأشخاص أحياء بضمادات (لوحة ٧) . ونتيجة لهذا انتفخت الأوردة وسهلت رؤيتها .

وعند ضغطه بأصبعه على إحدى الأوردة فى اتجاه بعيد عن القلب وجد أن هذا الجزء من الوريدبقى خاليا من الدم . وقد أراه هذا بوضوح أن الأوردة تسمح فقط للدم بالانسياب خلالها صوب القلب . وقد لاحظ الدارسون قبله وعلى الأخص ليوناردو الصمامات فى الشرايين الكبيرة التى يسرى الدم فيها خارجاً من القلب . وشاهد هارفى أيضا هذه الشرايين واستنتج وهو على صواب فيما ذهب اليه أن تلك الصمامات تسمح بانتقال الدم من القلب فحسب . وعلى ذلك أدرك أن انسياب الدم



تجارب هارفي على سواعد اناس احياء مربوطة بشماعات

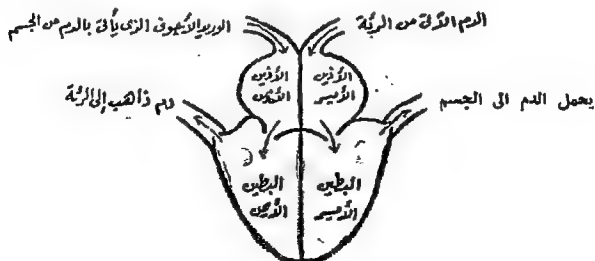


مجري هوك

كان الشيء المراد النظر اليه يوضع عند (م) حيث تمكن رؤيته من عدة زوايا . وكان هو
يستعمل مع ما حا للاضاءة . واستخدم الاناء الزجاجي الكروي (ن) والمعدة (ط) كبؤرة
لتجميع الاشعة

فى كل من الشرايين والأوردة يجب أن يكون مستمرا ، وفى اتجاه واحد فقط . وبعد ذلك أصبح الطريق مهيأ لاكتشاف الدورة الدموية .

وقد بين هارفى أننا لو افترضنا أن البطين الأيسر للقلب يحتوى على أوقيتين من الدم ، وأن معدل النبض ٧٢ فى الدقيقة فإن البطين الأيسر يخرج فى الدقيقة ٢×٧٢ أوقية دم ، أو $٣٠ \times ٢ \times ٧٢$ كل نصف ساعة . ولكون هذه الكمية الأخيرة أكبر من كمية الدم جميعها التى يحتوىها الجسم ، فقد استنتج أن الدم الذى يتكرر إرساله من القلب يجب أن يعود ثانياً إليه (شكل ١٤)



(شكل ١٤)

الدورة الدموية أثناء مرورها فى القلب حينما تقلص جدار البطين الأيسر يتدفق الدم خلال الصمامات إلى الشريان الكبير المعروف باسم الأورطة . وينتقل من الأورطة إلى شرايين أصغر تتفرع إلى أصغر منها حتى يصل إلى أوعية دموية تشبه الشعير ، وهى التى تعرف بالشعيرات . وينتقل من الشعيرات إلى الأوردة أكبر فأكبر حتى يصل إلى القلب عن طريق الوريد الكبير المسمى بالوريد الأجوف الذى يصب فى الأذين الأيمن .

ويمكننا تلخيص نتائجه كما يلى (١) أن النبض يتفق مع تقلص القلب (٢) يحدث النبض بواسطة امتلاء الشرايين بالدم (٣) لا توجد هناك مسام فى الحاجز الفاصل بين جانبي القلب (٤) ينتقل الدم من الجانب الأيمن إلى الجانب الأيسر للقلب عن طريق غير مباشر فقط بمروره أولاً خلال الرئتين (٥) الدم الذى تحتويه الشرايين والذى تحتويه الأوردة هو نفس الدم .

وبدا هارفى يوضح تلك المبادئ للمستمعين اليه فى الكلية الملكية للأطباء عام ١٦١٦ وهو العام الذى قضى فيه شكسبير . واستمر يقوم بهذا عمل سنوات . وأثناء هذه المدة أعاد فحص النتائج التى وصل إليها بأجرائه تجارب متكررة عليها . ولم يعلن عن اكتشافاته للعالم إلا بعد أغراء جاد من أصدقائه أن يفعل ذلك . وطبع مؤلفه فى فرانكفورت عام ١٦٢٨ تحت عنوان : بحث فى تشريح حركة القلب والدم .

وكان هارفى ذا خلق يتسم بالحرص والهدوء . لم يكن ككيبلر
تستخفه الفاظ التعظيم التى تطربه . ويندفع فى تيارها ، كما لم تكن له
الحمية النارية التى تميز بها جاليليو . لقد بلغ من رزائنه وهدوء مزاجه
أنه أثناء موقعة ادجهل جلس بهدوء تحت وشيع (١) مستغرقا فى قراءة
كتاب ، وكان فى ذلك الوقت يعمل طبيبا خاصا للملك شارل الأول . انه
انتقل فحسب من مكانه وواصل القراءة حينما سقطت قنبلة مدفع بجواره .
ان هذا المزاج انهادىء ، بالإضافة الى مهارته فى اجراء التجارب ، وتفهمه
تاملا لعناصر المشكلة ، مكنه من القيام بعمل رائع ينتزع حتى اليوم وبعد
مرور ثلاثة قرون الأعجاب من كل أولئك الذين يدرسون تلك الآلة
العجيبة ، الجسم البشرى .

٣ - اكتشافات المجهر

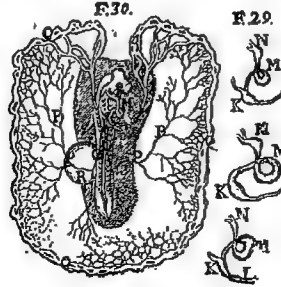
على الرغم من أن هارفى كشف حقيقة الدورة الدموية ، إلا أنه لم
يشاهدها قط ، اذ لم يكن لديه مجهر . ونتيجة لذلك لم ير انتقال الدم
قط من الشرايين الى الاوردة خلال الاوعية الدموية الدقيقة التى يطلق
عليها اسم الشعيرات . وبعد موت هارفى بأربع سنوات تمكن عالم تشريح
ايطالى يدعى مالبىفى (١٦٢٨ - ١٦٦٤) من وصف هذه الدورة الدموية
خلال الشعيرات ، واستخدم فى مشاهداته عدسة محدبة واحدة ، او
مجهرًا بسيطًا .

وكانت العدسات المحدبة معروفة من وقت طويل ، وكانت تستعمل
من أزمان قديمة شريحة من كرة زجاجية كعدسة حارقة . وكان معروفا
أن مثل تلك العدسات المسطحة وكذلك العدسات مكورة الوجهين من شأنها
تجميع أشعة الشمس وتركيزها فى نقطة . وكانت هذه النقطة تدعى بؤرة
العدسة . وأصبحت المسافة من هذه البؤرة الى العدسة تعرف باسم الطول
البؤرى أو البعد البؤرى للعدسة . واستخدمت القوة المكبرة للعدسة
المحدبة كمعين على الرؤية على شكل نظارات منذ القرن الثالث عشر .
ولكن سطوح تلك العدسات لم تكن مكورة الوجهين بدرجته متقنة . ولذلك
كانت غير مناسبة لفحص الأشياء الدقيقة .

ومع ذلك فحوالى منتصف القرن السابع عشر كانت طرق صقل
العدسات وجعلها ملساء قد تحسنت الى حد كبير ، وأصبح فى الامكان
مشاهدة الأشياء الصغيرة وتفصيلها بسهولة خلالها . وكان مالبىفى
يستخدم فى أبحاثه عدسة محدبة ذات بعد بؤرى قصير جدا . لقد

فحص رئة صفدعة ، وبذلك كان أول من شاهد الدم يسرى خلال شبكة من الشعيرات التي ينتقل بواسطتها الدم من الشرايين الى الاوردة ، ويعود فى النهاية الى القلب . وعلى ذلك فان مشاهدته هذه أكملت آخر حلقة فى سلسلة اكتشافات هارفى .

وكان مجهر مالبينى هو الذى مكّنه من ملاحظة الأطوار المختلفة التى يمر فيها جنين النقف (شكل ١٥) ، وفحص اجزاء الحشرات والتركيب الدقيق لبعض النباتات ، وأوضح ان الجلد يتكون من طبقات رقيقة ، كما كان أول من فحص التركيب التفصيلى للمخ ، والألياف العصبية .



(شكل ١٥)

الصورة التى رسمها مالبينى لتطور جنين النقف (الكتكوت قبل أن يلفس)

وأجريت دراسات هامة أخرى بواسطة أنتونى فان ليبونوك (١٦٥٢ - ١٧٢٣) (١) واستعمل مثله فى ذلك مثل مالبينى عدسات مقفدة ذات بؤرة قصير المدى ، واعتاد ان يصقل عدساته بنفسه . ولا بد أنه كان يقوم بذلك بشكل جيد جدا ، اذ ان مدى مشاهداته مدى يدمو الى الدهشة ، وكان أول من رأى الكرات الدموية ورسمها . لقد وصف الدم بأنه مكون من دقائق متناهية فى الصغر تدعى كريات ، تلك الكريات ذات اللون الأحمر فى معظم الحيوانات وتسبح فى سائل يدعو الأطباء مصلا ، وهذه الكريات هى التى تجعل حركة الدم ممكنة الرؤية . وحسب تقديره كانت المائة من هذه الكريات الصغيرة تعادل حين توضع جنباً لجنب قطر حبة رمل ، وعلى ذلك يعادل حجم حبة الرمل حجم كرية الدم مليون مرة (٢) وبملاحظة

(١) كان ليبونوك يشغل منصب ياور لحاكم ولاية دلفت . وقد استقرت ابعانه المهجرية مدة خمسين عاما .

(٢) اذ ان حجم الكرة يساوى $\frac{4}{3}\pi r^3$ ط تق ٣ أى حجم الكرية $\frac{4}{3}\pi \times (\frac{2}{3})^3 \times 10^6$

سيول الكريات المناسبة فى الأوعية الدموية الدقيقة استطاع لبيونهوك أن يتأكد من وجود الدورة الدموية فى عرف ديك حى ، وفى آذان أرنب ، وفى جناح خفاش . وفى ذيل ثعبان سمك .

وبالاستعانة بمجهره لاحظ لبيونهوك التكوين الدقيق لكثير من الأشياء الحية ، ففحص مثلا خنفساء الحنطة والدوديات التى تصيب الحبوب المخزونة ، ومكنه مجهره من أن يتكشف أطوار حياتها الأولى . وقد أعطى فى الحقيقة أوصاف يرقات كثيرة من أنواع الحشرات وبيض الدوديات . وكان المتقدم فى الوقت الذى ظهر فيه لبيونهوك أن الحشرات والحشرات كانت تنشأ ذاتيا من المادة المتحللة مثل اللحم أو الجبن اللذين أصابهما العفن، والحنطة المحفوظة فى المخازن. ولكن مشاهدات لبيونهوك اقنعتة ان هذا لا يحدث ، وقد بلغت به الجرأة أن أكد أن توالد الحى من الميت أمر مستحيل . ومع ذلك فلم يعترف بهذا المبدأ اعترافا عاما الا بعد الوقت الذى عاش فيه بزمان طويل .

وقد لاحظ بعض العمال القدامى ما اسموه بالديدان الحية الدقيقة فى اللحم المتعفن والمواد الأخرى ، ولكننا نعرف من أوصافهم أن ما رأوه لم يكن غير مجرد يرقات حشرية . ومع ذلك فيبدو أن لبيونهوك قد رأى فعلا تلك الصور الدقيقة من الحياة النباتية التى نسميها الآن بكتريا . انه يصف ما يسميه الحيونات (١) فى الماء واللحباب وطرطير الأسنان . ويمكننا أن نستنتج من أوصافه ورسومه أنه فعلا رأى أنواعا معينة من البكتيريا . ومن المدهش انه استطاع ان يفعل ذلك بالاستعانة بعدسة واحدة فقط . ومن الغريب انه على الرغم من أن دراساته حظيت باهتمام رجال العلم فى العالم ، الا أنها لم تتابع الا بعد أكثر من مائة عام بعد وفاته .

وقد أجريت دراسات هامة بالمجهر بواسطة راصدانجليزى ذى مواهب متعددة الجوانب يدعى روبرت هوك (١٦٥٥ - ١٧٠٣) وقد جمع نتائج دراساته فى مؤلف مشهور يدعى الميكوغرافيا (٢) . ويتضمن كل فصل فحص بعض الأشياء الصغيرة - بذرة ، سنبلة ، قطعة فلين ، خيط عنكبوت ، وهكذا . وكان هوك أول من لاحظ أن مواد كالفلين تتكون مثلها مثل أقراص العسل من صناديق متناهية فى الصغر أو خلايا كما نسميها الآن . وقد أثارت دراسات مالبيجى ، وليبيونهوك ، وهوك اهتماما عظيما كما فعلت دراسات جاليليو قبل ذلك بخمسين عاما تقريبا . وقد أظهرت العدسة فى كلتا الحالتين للناس موادا جديدة ، فقد اكتشف جاليليو

(١) مصغر حيوانات .

(٢) الكائنات الدقيقة .

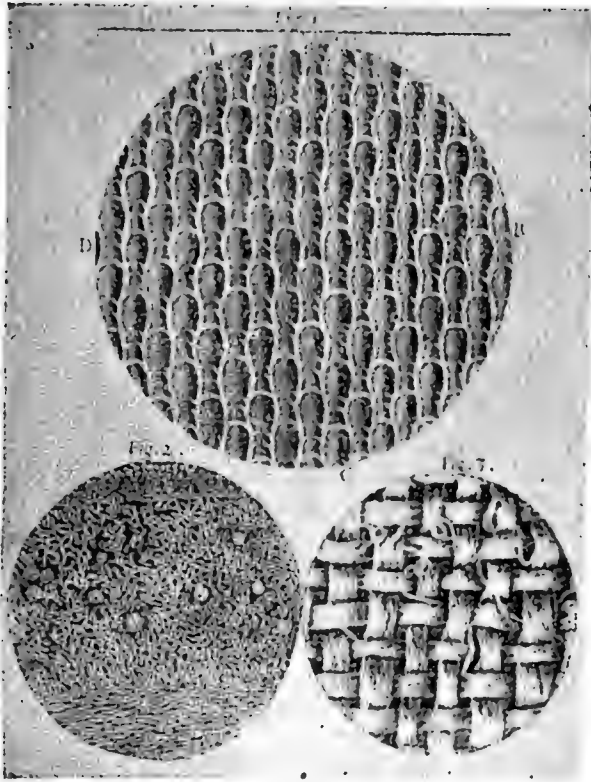
الاقطار الشاسعة التى تقع فيما وراء هذه الأرض أما مستخدمو المجهر الأول فقد فتحوا ميدانا جديدا ، ميدان الأشياء الصغيرة . وقد جعلت الأبحاث التى تمت بعد ذلك من المجهر آلة أكثر قوة بدرجة بعيدة المدى . وحينئذ تمكن الناس من أن يملؤوا الدور العظيم الذى تلعبه تلك الأشياء الدقيقة فى الحياة البشرية .

٤ - فيزياء الفسلاف الجوى

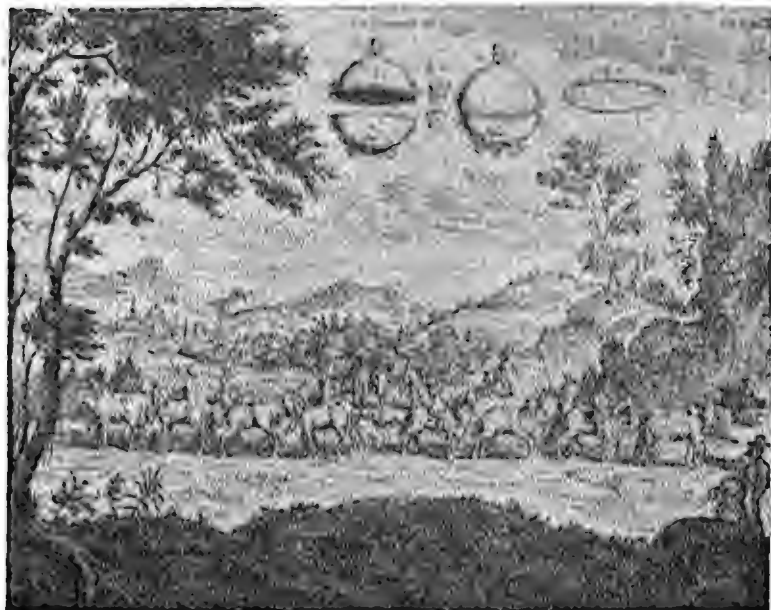
اننا ننتقل الآن لميدان مختلف جدا من ميادين النشاط حيث انتزعت اسراراً جديدة من الطبيعة بمجرد ان بدأ الناس يسلكون ميدان التجريب ، بدلا من تقبلهم آراء الماضى واعتبارها سنداً يرجعون اليها . ويلم كل انسان الآن بأن للهواء وزنا وضغطا . ولكن هذه الحقائق لم تكن قد اكتشفت فى أول القرن السابع عشر . وكان الناس مازالوا متأثرين بأرسطو الذى علمهم ان الطبيعة تكره الفراغ ، وان الهواء له خاصية الخفة الطبيعية بدلا من خاصية الثقل .

وعلى الرغم من أن هذه الآراء سادت قرونا فاتها لم تمنع الناس من استعمال الأجهزة الميكانيكية التى تعتمد بالفعل على ضغط الهواء . ومن أمثلة تلك الأجهزة المضخة الماصة الكابسة البسيطة التى مازالت تستعمل الى اليوم فى رفع الماء من الآبار . وقد لوحظ أنه لا يمكن رفع الماء من بئر شديد العمق الى القمة الا الى ارتفاع يبلغ حوالى ثلاثة وثلاثين قدما فقط . . . وقد بدأ ان هذا وضع حدا للثقة الطبيعية للفراغ . وأدت أبحاث تورشلى (١٦٠٨ - ١٦٤٧) الفيلسوف الايطالى الخاصة بهذه المشكلة الى اختراع البارومتر .

ادراك تورشلى أنه من الممكن رفع الماء حوالى ثلاثة وثلاثين قدما فى مضخة ماصة كابسة ، وأنه ليس من غير المناسب اطلاقا استخدام أنابيب بهذا الطول لذلك قرر اجراء تجاربه باستعمال الزئبق الذى تعادل كثافته كثافة الماء ثلاث عشرة مرة تقريبا . وكان فى استطاعته بذلك استخدام أنابيب يبلغ طولها واحدا على ثلاثة عشر من هذا الطول فى تجاربه . أخذ أنبوبة زجاجية طولها أربعة أقدام تقريبا ، وأغلق إحدى نهايتيها ، ثم ملاءها زئبقا ، ووضع أصبعه فوق نهايتها المفتوحة ونكسها فى حوض من زئبق ، ثم سحب أصبعه حينما أصبحت النهاية المفتوحة منغمسة انغماسا تاما تحت سطح الزئبق . لاحظ انسياب بعض الزئبق من الأنبوبة ، وبقي عمود من الزئبق بلغ ارتفاعه ثلاثين بوصة تقريبا (شكل ١٦) واستنتج ان هناك فراغا فوق الزئبق ، وهو ما نسميه الآن : فراغ تورشلى . . وأدرك أن عمود الزئبق ظل مرتفعا الى أعلى بسبب ضغط الهواء ، وأن التغيرات

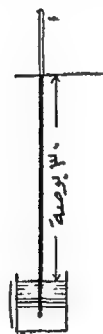


اشكال رسمها هولك لكانن حى كاس عشباً بحرياً وورقة زمار ، وقطعة قماش تحت المجهر



صورة نوحه للصلى نوحه ماجديسج . أوفول جيك يوحه تجرته امام الاميراطور
فردنند الثالث في ديجنسبيرج عام ١٦٥٤

التي تحدث في هذا العمود تدل على تغيرات في الضغط . وكان جهازه هذا هو في الحقيقة أول بارومتر وجد .



« شكل ١٦ »
تجربة نووشيلي

أما الخطوة التالية فقد اتخذها عالم الرياضيات والفيلسوف الفرنسي باسكال (١٦٢٣ - ١٦٦٢) الذي قام بتجربة مماثلة في مستويات مختلفة من الغلاف الجوي . لقد أجرى أول الأمر تجربة على قمة برج من أبراج الكنيسة ، ولكنه لم يلاحظ إلا اختلافا طفيفا في ارتفاع الزئبق ، وبعد ذلك اختار جبلا لاجراء تجاربه بدلا من برج الكنيسة . لقد نجحت التجربة هذه المرة ، إذ كان ارتفاع عمود الزئبق عند القمة أقل بكثير من ارتفاعه عند قاعدة الجبل . ونتيجة لذلك أثبت باسكال أن الضغط الجوي يقل كلما ارتفعنا الى أعلى .

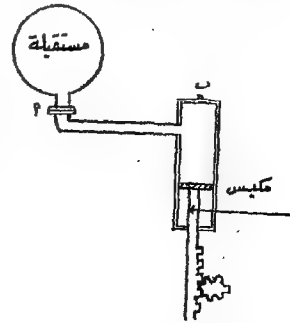
وفي أثناء ذلك كانت هناك تجارب تجرى في ألمانيا بواسطة أوتو فون جيريك (١٦٠٢ - ١٦٨٦) . وقد أثارت تجاربه اهتماما واسعا واعتبرت كمعجزات . صنع جيريك أول مضخة هواء مجدية ، تتكون من مكبس ومستقبل . وبمساعدها استنفذ أكبر ما يمكن من الهواء من نصفى كرة معدنيين قطرهما قدمين تقريبا الصقهما ببعضهما البعض ليكونا كرة تامة . وقد التصق نصفا الكرة المعدنيان سويا التصاقا تاما بواسطة الضغط الجوي لدرجة انه لم يكن في الاستطاعة فصلهما عن بعضهما البعض حتى حينما ربطت أربعة أزواج من الجياد في نصفى الكرة هذين واندفعت في اتجاهين متضادين . وبهذه الطريقة الدرامية أثبت جيريك الضغط الجوي في ريجنسبيرج سنة ١٦٥٤ أمام الامبراطور والحشود المجتمعة (الوحة ١٠)

وأجريت الأبحاث الهامة التالية فيما يختص بالغلاف الجوي بواسطة إدويرت بويل (١٦٢٧ - ١٦٩١) . لقد ولد بويل في إيرلنده وتعلم في

أكسفورد ولندن واشتغل هناك . وهو شخصية فاضلة من شخصيات القرن السابع عشر ، ويعود الفضل اليه في دراسات هامة . لقد سمع عن النتائج التي وصل اليها جيريك ، وضيع بمعاونة هوك الذي كان في ذلك الوقت مساعده في أكسفورد مضخة هوائية بعد أن أدخل تحسينات عليها (شكل ١٧) وبهذه المضخة أظهر بويل بوضوح أن للهواء وزنا . ونتيجة لذلك فهو شيء مادي . وقد استعمل مضخته في اجراء تجارب على صفار الحيات ، وهكذا بين أن الهواء ضرورى لوجود الحياة . واستطاع بويل بادخاله انبوبة بارومتر في مستقبلة أن يبين مقدار التفريغ الذي أحدثته مضخته ، وذلك بقياسه ارتفاع عمود الزئبق . وبذلك قدم دليلا آخر ضد المعتقدات القديمة أن الطبيعة تمقت الفراغ ، وأن الهواء لا وزن له .

(شكل ١٧)

أحد أنواع مضخات الهواء التي استعملها بويل . كان يفتح أولا صنبور ، ويفلق غطاء الفتحة ب ، ثم يحرك المكبس الى أسفل بواسطة تحريك مقبض ، فيدخل الاسطوانة هواء قادم من المستقبلة . وبعد ذلك يشاقق الصنبور ويفتح الغطاء ويحرك المكبس الى أعلى فيندفع الهواء خارجا من الفتحة ب . وتكرر هذه العمليات عدة مرات يزداد استنزاف الهواء من المستقبلة باطراد .



ومع ذلك فقد استمسك البعض بالآراء القديمة ، إذ أكد أحد ناقدى بويل أن ضغط الهواء ليس في استطاعته رفع عمود الزئبق الى علو ثلاثين بوصة . ولكن ارتفاع الزئبق انما تم بواسطة خيوط غير منظورة يمكن أن يحبسها المرء بأصبعه . وقد أدى دفاع بويل عن نظرياته ضد تلك الاعتراضات الخاوية الى أبحاث أخرى متعلقة بالهواء . وجد أنه حينما يتضاعف الضغط الواقع على كمية معينة من الهواء فإن حجمه ينخفض الى النصف ، وحينما يتضاعف ثلاث مرات فإن حجمه ينخفض الى الثالث ، وهكذا . لقد وجد أن الحجم والضغط يتناسبان تناسباً عكسياً في درجة الحرارة الثابتة .

وهذه النتيجة الهامة المعروفة بقانون بويل يعرفها كل تلميذ وتلميذة في بدء دراستهما المبادئ العلمية .

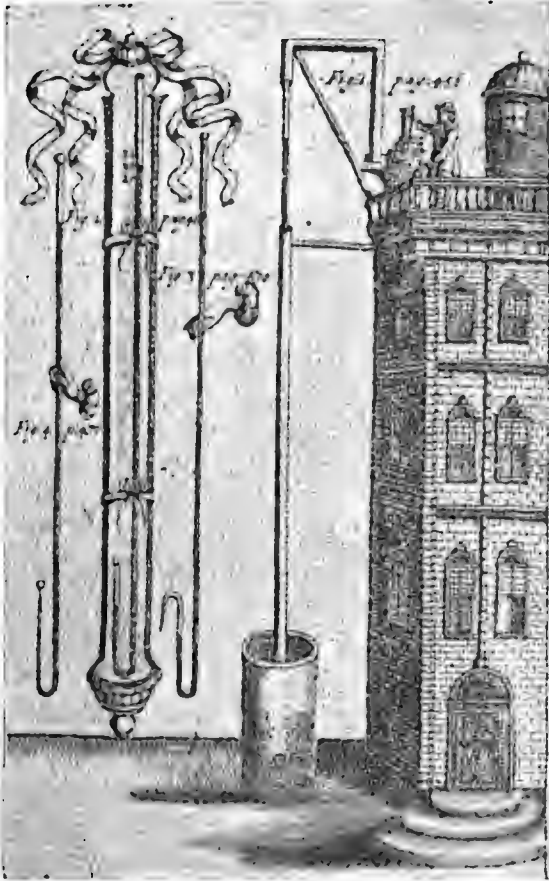
وفي إمكاننا أن ندرك الدهشة التي استولت على الناس عندما علموا أن الهواء الذي نتحرك خلاله بسهولة تامة ، والذي تسمح خلاله الطيور

بسرعة ، يمكن ان تكون له مثل تلك القوة التى يبلغ ضغطها الكلى على الجسم البشرى خمسة عشر طنا . ومع ذلك فان الطرق التى كان يسلكها رجال العلم لم يفهما الباحثون فى ميادين اخرى ، فقد دون بيبس مثلا فى مفكرته اليومية فى يوم اول فبراير ١٦٦٣ كيف ان الناس اعتادوا ان يسخروا بدرجة كبيرة من الفلاسفة لاضاعة وقتهم فى وزن الهواء ولكن الفلاسفة كانوا يقضون وقتهم فيما هو مفيد . وكانت النتائج التى حققوها أساس دراسة الغازات التى جعلت من الممكن اختراع القاطرة البخارية ، والتى دفعت بالناس قدما فى طريق كثير من الاستقصاءات المجدية .

٥ - مبادئ الكيمياء القائمة على أساس علمى

لقد رأينا كيف أوجت الأهداف التى كان يرمى اليها الكيميائيون القدامى ببعض الاستقصاء التجريبي عن تركيب المواد . وفى القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر صرف كثير من الكيميائيين نظرهم عن محاولتهم تغيير المعادن العادية الى ذهب ، وأنفقوا وقتهم فى تركيب الأدوية وتحضير عدد من المواد الجديدة التى ظنوا ان لها قيمة طبية . وكان من الضرورى تكرار المحاولات . وكانت النتائج فى الغالب نتائج فادحة الاثر اذ كانت تعطى سموم خطيرة لمرضى مسليعى البنية . وعلى الرغم من ان هناك كيميائيين من أوائل القرن السابع عشر قاموا بعمل تجريبى أكيد بعزلهم الغازات وقيامهم بقياسات محددة ، فان الغالبية كانت تعمل بخط عشواء بلا نظريات ثابتة خالية من التناقض تهديهم السبيل . وقبل هذا الوقت كانت نظرية الكبريت والزئبق القديمة قد اتخذت صيفا جديدة . لقد أصبح الناس يتحدثون عن المكونات الأساسية الثلاثة : الزئبق (النفس) ، والكبريت (الروح) والملح (الجسد) . وكانت مثل تلك الآراء سببا فى المزيد من الارتباك ، اذ كان المفروض ان هناك انواعا عديدة من الزئبق والملح ومعدن الكبريت . ويختلف معدن كبريت الحديد عن معدن كبريت الرصاص أو الخشب . وكانت الألفاظ فى الحقيقة تحمل معانى عديدة مختلفة : فكان لفظ الزئبق يطلق على المعدن البراق والمالوف ، وعلى العناصر المفروض أنها تكون المعادن جميعها ، وعلى مبدأ الميوعة أيضا . وفى مثل تلك الظروف لم يكن الكيميائيون فى الحقيقة يدرون عما يتحدثون .

وكانت اول خطوة نحو تنظيم تلك الآراء المشوشة هى تحديد معنى بعض عبارات معينة والالتزام بهذا التحديد . والخطوة التالية هى تنظيم دراسة للخواص قائمة بأجمعها على أساس سليم من التجربة . وقد اتخذت كلتا هاتان الخطوتان بواسطة روبرت بويل . وكان عنوان كتابه



تجارب بويل بالبارومتر
على اليسار بارومترا من النوع ذي السحاحات ، والأوسط منها محمل على منبئة
طقسية . وعلى اليمين تصوير تجربة بويل في دفع الماء بواسطة المص . ويدير مساعد
على السقف إحدى مضخات بويل الهوائية



صفحة عنوان الطبعة اللاتينية لكتساب بويل « الكيمائي الرتاب » عام ١٦٦٨
 تمثل الادكال الصغيرة في كلا الجانبين العناصر الاولى القديمة التراب والهواء والنار والماء
 والنسر ذو الرامبين في مجموعة الاشكال العليا للصفحة رمز عام استعمله الكيمائيون
 القدامى لتمثيل اكبر الحياة . الشمس والقمر هما الرمز ان العاقلان اللذان استعملهما
 الكيمائيون القدامى للذهب والفضة .

العظيم عن الكيمياء المطبوع فى لندن ١٩٦١ : الكيمائى المرتاب ، او الشكوك والمتناقضات الكيميائية الفيزيائية المتعلقة بالتجارب التى اعتاد الكيميائيون القدامى القليو العلم أن يحاولوا اثبات أن ملحهم وكبريتهم وزئبقهم هى المكونات الأساسية الحقيقية لجميع الأشياء (لوحه ١٢) . وقد بين بويل فى مؤلفه كيف تنهوى حجج الكيميائيين القدامى حينما تفحص فى ضوء التجربة والادراك السليم . وبعد أن هدم بويل الحجج القديمة عن العناصر الأربعة والمكونات الأساسية الثلاثة أعطى مفهوما واضحا للعنصر ، وبذلك وضع أسس علم الكيمياء الحديث .

وصاغ مؤلفه العظيم على هيئة أحاديث جرت على لسان شخصين : أحدهما يعتنق العقائد المشوشة لأنصار أرسطو كما بوضوحها الكيميائيون القدامى ، والآخر ألا وهو الكيمائى المرتاب يشك وينتقد مبينا عدم صحة الحجج التى يدلى بها الأول ، معبرا عن آراء بويل نفسه .

وبين بويل أن كثيرا من البراهين المزعومة التى تدل على أن المواد تتكون من العناصر الأربعة : التراب والهواء والنار والماء ليست براهين إطلاقا بل مجرد إيضاحات خاطئة . وعلى ذلك فقد اعتاد الناس أن يقولوا أن احتراق قطعة من خشب أخضر يبين أنها تتكون من العناصر الأربعة (١) النار التى تظهر على شكل لهب (٢) الماء الذى يطفى ويحدث حقيفا فى أطراف الخشب المحترق (٣) الهواء الذى يرى كدخان يرتفع الى قمة المدخنة (٤) التراب الذى يتخاف على هيئة رماد . وبعد ذلك تساءل بويل : أهناك دليل على وجود النار والتراب والهواء والماء فى الخشب قبل احتراقه ، وأى حق يخول لنا أن نزعّم أن تلك العناصر هى بالفعل أبسط من الخشب ذاته ؟

ثم يتساءل بويل اذا كان لدى الكيميائيين أى دليل حقيقى للزعم بأن النار هى الاداة الصحيحة العالمية لتحليل الأجسام المركبة ، ويصف بعد ذلك تجارب تدل بوضوح على أن المنتجات التى نحصل عليها بتسخين الخشب فى أناء مقفل تختلف اختلافا بينا عن المنتجات التى نحصل عليها من تسخينه فى نار مكشوفة . ويقول لقد كان ينبغى على الكيميائيين أن يعلنوا بوضوح وتحديد أكثر أية درجة من درجات حرارة النار ، وأية طريقة من طرق استعمالها تمكنا من أن نحكم أن القساما ما أحدثته النار إنما هو تحليل حقيقى .

ويشير بويل الى المكونات الأساسية الثلاثة المزعومة التى افترضها الكيميائيون القدامى بقوه : أنه من المستحيل تقريبا لأى شخص متزن أن يدرك معناها ، كما هو مستحيل عليهم أن يهتدوا الى أكسيريهم . ثم

تحداهم بأن يبينوا كيف يمكن استخلاص المكونات الأساسية المزعومة :
الكبريت والملح والزئبق من الذهب حتى ولو سخن الذهب لدرجة حرارة
عالية . ويصف كيف أن هذا ليس هو الحال مع الذهب فقط ، بل أن
كثيرا من المعادن لا تغيرها النار اطلاقا ، ويظل وزنها وهيئتها بعد التسخين
هو نفس وزنها وهيئتها قبل التسخين . ويرينا بويل أيضا كيف أنه
فى الحالات التى من المؤكد أن يحدث التسخين فيها تغيرات واضحة
فى مادة من المواد كيف أن النتائج عن هذا يكون غالبا ذا طبيعة مركبة ،
ولذلك فمن الغباوة أن نفترض أن النار هى المحلل العام للأجسام المركبة .

ولم يبين لنا بويل فقط كيف يقاوم الذهب فعل النار ، بل قدم
أيضا براهين مقنعة للقول بأنه عنصر . لقد بين مثلا كيف يمكن تكوين
سبائك منه بالاتحاد مع النحاس أو الفضة أو القصدير أو الرصاص ،
وكيف يمكن إذابته فى الماء الملكى (١) . ويمكن استعادته بعد أمثال تلك
التغيرات فى حالته النقية مرة أخرى . وعلى ذلك فقد أدى به هذا
الى ادراك مفهوم العنصر على أنه مادة نقية لا يمكن تحليلها الى أبسط
منها . ويقول : اننى أعنى بالعناصر مواد معينة موجودة على حالتها
الأولى ، ومكونة من مادة واحدة وغير مختلطة اطلاقا . ولكونها غير مكونة
من أجسام أخرى أو من بعضها البعض تتكون من أجزائها المكونة لها
جميع تلك المواد التى نسميها موادا مختلطة بدرجة تامة . ويضيف بويل
قائلا : انه لا مبرر لتحديد عدد العناصر بأربعة أو حتى خمسة أو ستة
أو أى عدد أكبر . ويقول متواضعا : انه قد يقوم باحثون أكثر مهارة منه
بتجارب قد تؤدي بهم الى كشف طرق لتحليل الأجسام المركبة الى
عناصرها الأولية ، وحتى الى تحليل المواد التى تبدو له أنها عناصر .
ولذلك فليس هناك شيء قطعى فى تعريف بويل للعناصر . ان القطع بأن
مادة معطاة هى عنصر أم لا يقوم طبقا لرايه على أساس تجريبى ، ولذلك
فرايه بخصوص العنصر هو فى جوهره نفس رأى الكيميائيين فى الوقت
الحاضر .

وفى اثنتين من مؤلفات بويل الأخيرة - تجارب جديدة عن العلاقة
بين اللهب والهواء (١٦٧٢) والشكوك التى تحوم حول الصفات الخفية
فى الهواء (١٦٧٤) - يرينا انه كان يعلم صراحة أن الهواء مزيج مركب
من عدة مواد ، وأن كلا من التنفس والاحتراق يتوقف على وجود مادة
معينة تستهلك فى كل من العمليتين . ويثبت أيضا وجود خصائص

(١) حمض النيتريك والهيدروكلوريك وهو يذيب الذهب والبلاتين . (المترجم)

طبيعية معينة للهواء والآثار التي تحدثها الحرارة على المواد المختلفة .
وتتميز بيانات بويل كلها فى هذه المؤلفات كما فى غيرها بالحذر والتحفظ .
وربما كانت أكبر خدمة أداها للكيمياء هى إصراره أن عالم الطبيعة ليس
بسيطاً ولكنه معقد بدرجة ساحقة . وأوضح أنه من الواجب علينا فى
دراسة الطبيعة أن نحذر الطريق السهل ، ونستعد للشك ولإعادة
الاختبار من طريق التجربة لكل ما نعتقد أنه صحيح . ويتسم أجد ما تم
من أعمال القرن السابع عشر بهذه الروح ، التى كانت أحد العوامل التى
أدت إلى الانجازات الفذة لتلك المدة .

٦ - فرانسييس بيكون والكشف العلمى

إن طريقة التجريب التى رآيناها تميز عمل كل من جليبرت وهارفى
وبويل وضحها فرانسييس بيكون (١٥٦١ - ١٦٢٦) توضيحاً أفاد
العالم كله .

لقد وضع طريقة كاملة للبحث العلمى . ومن رأيه أن حدة الذكاء
وقوته ليست ضرورية للبحث عن الحقيقة . إذ كل ما على الطالب أن
يفعله هو أن يتبع الطريقة . ويخبرنا بيكون أنه إن فعل ذلك فإنه سيصادف
نجاحاً ، مثله فى ذلك مثل رسام غير متمرن يمكنه رسم خط مستقيم
أن تزود بمسطرة جيدة . ويجب على الطالب أن يبدأ بذهن مفتوح ، ثم
يأخذ فى تجميع الحقائق ، والأمثلة المعروفة كلها ، كمجرد سرد دون
أى تأمل سابق لأوانه .

إن المستطاع الآن تجميع الحقائق دون تدبر سابق ؟ إن كل قارئ
للقصص البوليسية يعرف جيداً كيف يلزم ربط الأفكار للسلسلة
بعضها ببعض بتخمينات أو فروض ، وكيف أن فرضاً من فروض كتاب
القصص البوليسية قد يؤدى إلى نظرية تامة وإلى اكتشاف مزيد من
الحقائق ، وإلى توضيح الغموض التام توضيحاً كاملاً . إذن فما العلم
إلا دراسة منظمة للطبيعة . ومع ذلك فكلمنا كشف لفظ من الغاز الطبيعة
كلما ظهر هناك لفظ آخر ، وليس هناك من سبب لافتراض أنه سيحين
الوقت الذى سيشترك فيه رجل العلم دون أن يجد أمامه الغازاً يلزمه
حلها .

وقد نسى بيكون فى توكيده لأهمية تجميع الحقائق ، والحقائق
فحسب أن الخيال يلعب دوره فى إيجاد الفروض ، وأن الكشف العلمى
يستلزم فى حقيقة الأمر قدرة على الفصل فى الأمور ، وإن اختصار
الحقائق المشاهدة يتوقف على مقدار ما يعلمه المشاهد بالفعل . ونتيجة

ذلك فان عبارة « الحقائق كلها » عبارة لا معنى لها اذا أمعنا النظر فى الأمر . وشيئا آخر هو أن يكون جعل الكشف العلمى أمرا هينا بدرجة كبيرة . ولكن ما أوضحه ليس بطريقة الكشف اطلاقا ، ولكنه ايضا يقوم به مشاهد ما بعد أن يكون العمل الشاق قد انتهى . وانه لمن السهولة بمكان لبيكون أو لاي فرد آخر أن يبين خطوات قضية استدلالية ويظن كيف أن حقيقة تتولد من أخرى . ان الصعوبة انما هى انعدام الفكر بادىء الأمر .

وقد أعطت شهرة ببيكون كرجل . من رجال الأدب قوة لكلماته . وكان تأكيده لأهمية التجريب أمرا مفيدا . ومع ذلك فيجب أن نتذكر انه ليست هناك قواعد للبحث العلمى ، وأن القرار الفاصل الذى يؤدى الى اختيار الحقائق المشاهدة يمكن اتخاذه فقط بواسطة عقل هو بالفعل على بصيرة تامة بميدان الحقائق التى تمت الى الموضوع بصلة . وأن كشفنا يبدو لنا انه صدفة سعيدة انما يخطر فقط بذهن معد من قبل بواسطة المعرفة والنظام للتعرف على أهمية الأمور غير المتوقعة . ولقد قيل أن الصدف تحدث فقط لأولئك الذين يستحقونها . وهذا ما سوف نراه كلما واصلنا سرد قصتنا .

٧ - الأكاديميات العلمية

ولمساندة التقدم العلمى اقترح ببيكون أن الواجب يحتم اقامة قصور للاختراع تقوم فيها اعداد من العلماء بأبحاثهم طبقا للقواعد التى استنتها . ومن الواجب أن يقوم بمهام معينة كيلا لا يكون هناك تشابك ما . ويجب ان تنسق النتائج بحيث يؤدى هذا بسرعة الى عدم وجود شىء جديد فى حاجة الى الكشف .

ويبدو مثل هذا الاقتراح لازانا اليوم أمرا سخيفا . ولكنه ينطوى تحت تلك المبالغة نصيحة قيمة لرجال العلم ليتعاونوا . والدليل على أن تعاليم ببيكون وصلت الى غالبية العالم بسرعة هو طوفان الكتب التى صدرت فى منتصف القرن السابع عشر التى تعالج تقدم العلم . وقد

وضعت خطط كثيرة لإنشاء كليات وأكاديميات طبقا لآراء بيكون . وحتى ميلانن كتب عن ضرورة وجود أكاديمية كبيرة لنشر العلم على نطاق واسع للجميع . ولكن هذه الخطط كان لابد من اغفالها أثناء الحرب الأهلية . ومع ذلك ففي أثناء ذلك الوقت ، وقت الشغب وازقة الدماء ، أخذت جماعات من الناس الذين ربط بينهم حب مشترك للعلم يعقدون اجتماعات لمناقشة المسائل الفلسفية . وبهذه الطريقة كونوا نواة الجمعية الملكية .

وتوجد قصة نشأة الجمعية الملكية والمناقشات غير الرسمية الأولى مدونة في مقال كتبه أحد الزملاء المؤسسين للجمعية اذ يقول :

« أظن ان مكان نشأتها وتأسيسها كان في لندن حوالي عام ١٦٤٣ (ان لم يكن قبل ذلك) حينما كنت وآخرين نجتمع أسبوعيا ٠٠ حيث حرما (تجنبنا للانحراف الى محادثات أخرى ولبعض اسباب أخرى) كل المحادثات اللاهوتية والمحادثات الخاصة بأمور الدولة ، والأخبار (غير ما يخص عملنا الفلسفى) قاصرين أنفسنا على الأبحاث الفلسفية والأمور التى لها صلة بذلك مثل الفيزياء والتشريح والهندسة والفلك والملاحه والميكانيكا والتجارب الطبيعية . لقد تباحثنا هناك فى الدورة الدموية ، وصمامات الأوردة ، والنظريه الكوبرنيكية ، وطبيعة المذنبات ، والنجوم الجديدة ٠٠ وادخال تحسينات على التلسكوبات وصقل العدسات لهذا الغرض ، ووزن الهواء ، وامكانية أو عدم امسكانية وجود الفراغات ، ومقت الطبيعة لهذه الفراغات ، وتجربة تور شيلى التى اجراها على الزئبق ، وهبوط الأجسام الثقيلة ودرجات العجلة فيها ، مع أمور أخرى مماثلة . وبعض هذه كانت فى ذلك الوقت مجرد اكتشافات جديدة وبعضها لم تكن معروفة بشكل عام ومسلم بها كما هى الآن .

وكانت الاجتماعات تعقد بادية الأمر فى منزل فى تشيسبايد . والتحق روبرت بويل بالنادى بعد سنة من تأسيسه كأصغر عضو فيه . ولكن الكلية الفلسفية أو الكلية الخفية كما كان يسميها بويل سرعان ما اضطرت أن تفقد بعضا من أعضائها البارزين جدا ، اذ كان من أوائل التشريعات البرلمانية فى الأيام الأولى للكومنولث تشريع يقضى بتطهير الجامعات . وقد أقيّل بعض العمداء وعين بدلا منهم رجال يطمأن اليهم أكثر . وبهذه الطريقة كان على الكثيرين أن يتركوا أكسفورد ويرحلوا

الى لندن . وعلاوة على ذلك فبالنسبة لترقية أحد الأعضاء البارزين ليكون عميدا لكلية وادھام نشأ في أكسفورد فرع جديد للكلية الخفية . وسرعان ما بدأ كريستوفر رين (١٦٣٢ - ١٧٢٣) وهو رجل من رجال العلم ومهندس كنيسة سانت بول المعماري يحضر الاجتماعات . وحينما صار رين استاذ الفلك في كلية جريشام في لندن ، اعتاد الأعضاء ان يسافروا من أكسفورد ليستمعوا لمحاضراته الأسبوعية . وظلت فروع لندن ، وأكسفورد قائمة حتى عودة الملكية على الرغم مما تطلها من فترات توقف .

وفي يوم ٢٨ نوفمبر ١٦٦٠ حدث اجتماع هام في كلية جريشام بعد احدى محاضرات رين لمناقشة انشاء كلية للنهوض بالعلم التجريبي الرياضي الفزيائي ، واتخذت فيه مجموعة من القرارات . ثم بدأ أنه من المرغوب فيه أن تقوم الجمعية على أساس أكثر رسمية ، وقدم التماس بتكوين جمعية للملك شارل الثاني . وصدر المرسوم في ١٥ من يوليو ١٦٦٢ الذي بمقتضاه ارتقى النادي المتواضع الذي كان يجتمع أسبوعيا للتشاور والتباحث في النهوض بالعلم التجريبي حتى أصبح الجمعية الملكية . وأعلن الملك نفسه المؤسس لها .

لقد أصبح تحصيل العلم تحت هذه الرعاية الملكية هو الأسلوب السائد . وانضم الى الجمعية كثير من الوجهاء الذين لا عمل لهم مدفوعين الى ذلك بمجرد حب الاستطلاع ، وكثيرا ما بلغ حماسهم درجة جعلتهم يندفعون في حكمهم . وعلى ذلك فبالاضافة الى الأبحاث ذات القيمة العلمية كانت الاجتماعات كثيرا ما تشغل بمناقشة قصص سياح مقتضية وافكار خيالية جدا . وبهذه الطريقة كانت الجمعية الملكية مثار السخرية ، وعلى الأخص من قلم سويقت (١) اللاذع . وبعد خمسين سنة تقريبا من تأسيس الجمعية كتب سويقت في أسفار جليفر عن أكاديمية كان أساتذتها العلماء مشغولين باستخلاص أشعة الشمس من الحبار والقضاء ووضعها في قوارير لتستعمل فيما بعد ، وبعضهم كان يحاول تحويل الثلج الى بارود ، وبعضهم يحاول بناء بيوت مبتدئين من الأسقف نازلين الى أسفل منتهين بالأسس .

ولم يكن سويقت هو الصائد الوحيد للأخطاء ، فقد خشي الكثيرون أن تكون التجارب الجديدة ذات أثر ضار بالدين معطلة للتعليم . ولكننا

(١) أديب انجليزى (١٦٦٧ - ١٧٤٥) اشتهر بهجاءاته اللاذعة ، وقصائده التورية ، وإحاديثه . ومن أشهر مؤلفاته أسفار جليفر ، ومعركة الكتب ، وحديث خرافة .
(المترجم)

لسنا فى حاجة الى أن نناقش المعارضة التى لقيتها الجمعية فى أيامها الأولى ، اذ ينتقد باستمرار كل ما هو جديد من الدنيا التى تدهلها الدهشة . وسرعان ما تبينت القيمة الحقيقية للجمعية الملكية فى العمل الجماعى لأعضائها ، وفى الطريقة التى شجعت بها رجال العلم القادمين من القارة الأوروبية ، وبخدماتها فى كثير من مطالب الحياة اليومية .

وعلى ذلك ففى خلال سنين قلائل من تأسيس الجمعية قامت بأبحاث من الغازات التى تنساب أثناء استخراج الفحم من المناجم . ونتيجة لذلك قلت مخاطر الموت لعمال المناجم بدرجة كبيرة . وكذلك بحثت فى اجتماعات الجمعية مشاكل الناجم المغمورة . ومن المناقشات التى دارت تكونت التصميمات الأولى لآلة ضخ بخارية ذات اثر فعال .

وكذلك نشرت الجمعية أبحاثا هامة عن حركة المد والجزر ، وهو موضوع ذو أهمية كبيرة ، وذلك لأن السفن التى كانت تحمل شحنات كبيرة كان فى استطاعتها دخول موانينا فقط عند ارتفاع المد . ولذلك كان من الضرورى معرفة أوقات تغيرات المد والجزر اليومية لصالح التجارة . وكانت هناك مشكلة أخرى من مشاكل الملاحة ، ألا وهى مشكلة معرفة خط الطول . ولمعرفة هذا كان الناس فى حاجة الى وسيلة دقيقة لمعرفة الوقت . ولم تعرف الساعات الموثوق بها ، الكرونومترات ، الا بعد ذلك بمائة عام . ومع ذلك فقد قامت الجمعية الملكية بأعمال قيمة كثيرة فى تمهيد الطريق لقياس دقيق للوقت ، وكان الفضل فى اختراع ساعة البندول راجعا الى عضو هولاندى يدعى كريستان هيجنز (١٦٢٩ - ١٦٩٥) .

ويعتبر انشاء الجمعية حدثا على أكبر جانب من الأهمية فى تاريخ العلم . ان اجتماعات الزملاء جمعت بين الباحثين فى مختلف الميادين ، وكان تبادل الآراء فى حد ذاته ذا قيمة لتقدم العلم . وظهرت النشرة الرسمية فى الجمعية الملكية ، المقررات الفلسفية ، لأول مرة ١٦٦٥ . وسرعان ما در بيع المجلدات للزملاء والجمهور ربحا طيبا . وكان توزيع نشرة المقررات ذا أهمية كبيرة للعلم فى انجلترا والخارج . وقامت المراسلات الخارجية الرسمية بما يمكننا أن نسميه بعملية الاعلام الخاصة بالجمعية الجديدة . وقد منح أناس ممتازون من القارة درجة الزمالة ، ونشرت مؤلفاتهم بواسطة الجمعية الملكية . وبهذه الطريقة وقف العالم على أبحاث مالبينغى وليبونوك .

وقد أنشئت أكاديميات علمية متنوعة فى القارة أثناء الفترة التى نحن بصدددها . ولم يحل عام ١٦٠٣ حتى كانت قد أنشئت فى روما

أكاديمية الأوس(١) وأوقفت هذه الجمعية اجتماعاتها بعد ادانة جاليليو أشهر أعضائها ، وأعيد تكوينها بعد ذلك . وأسس تلامذة جاليليو في فلورنس أكاديمية دل شيمنتو المشهورة (١٦٦٧) وفي سنة ١٦٦٤. أسست أكاديمية نيرنبرج . وفي فرنسا ألف العلماء جمعية سرية لمناقشة المسائل الفلسفية . ومن هذا البدء البسيط نشأت أكاديمية العلوم التي أنشئت رسميا سنة ١٦٦٦ (لوحة ١٣) . وقد أبقت الأكاديميات العلمية في القارة العلم حيا وسط التدميرات التي سببتها حرب الثلاثين عاما حينما اجتاحت ألمانيا الجيوش الأسبانية والنمساوية والفرنسية والسويدية ، في الوقت الذي دمرت الجامعات فيه كما دمر كل شيء آخر . وفضلا عما أدته الأكاديميات من خير خلال السنين الأولى من انشائها ، فانها تعد مبدئ ذلك التعاون بين رجال العلم من مختلف الأمم الذي أقام الصرح الهائل للعلم الحديث .



أقدم صورة لاجتماع جمعية العلماء
عند الاجتماع في أكاديمية العلوم في فرساي عام ١٦٧١ • ويمكن أن ترى في الصورة مفسدة
الهواء التي اخترعت حديثا بواسطة بويل ، ومجهرًا ذا ثلاث قوائم ، وتلسكوبا ، وعاكسا
مقعرا ، وميقات تربيعة ، وأجهزة كيمائية



ديكارت على مكتبه
صورة غلاف مجموعة رسائل ديكارت (فرانكفورت عام ١٦٩٢)

١ - طرق رياضية جديدة

حينما بدأ كيبلر ، وجاليليو عملهما كان ينقصهما كثير من الطرق الموفرة للوقت التي تبسط حساباتنا اليوم . فعلى الرغم مثلا من أن الأعداد المرببة كانت قد حلت من زمن طويل محل الأعداد الرومانية المعقدة ، فإن عمليتي الضرب والقسمة كانتا عمليتين مملتين . وانخفض الوقت الذي كانت تستلزمه الحسابات انخفاضا كبيرا بفضل استعمال اللوغاريتمات . وكان الفضل في استعمال اللوغاريتمات يرجع الى عالم رياضيات اسكتلندي هو جون نابيير (١٥٥٠ - ١٦١٧) . وقد صارت النتائج التي وصل اليها وكذلك جداول اللوغاريتمات الأولى معروفة للعالم عام ١٦١٤ . وسرعان ما بسطت اللوغاريتمات بعد ذلك الاستعمال العملي بواسطة هنري بريجس (١٥٦١ - ١٦٣٠) الذي كان يعمل بالتعاون مع نابيير . ومن الممتع أن نلاحظ أنه على الرغم من أن كيبلر كان يقضى ساعات عديدة مضية في حسابات شاقة في سنته الأولى ، إلا أنه استعمل اللوغاريتمات في مؤلفه الذي نشر عام ١٦٢٠ والذي أهدها لنابيير . وعلاوة على ذلك فقبل موت كيبلر بأربع سنوات شرح طرق نابيير في رسالة له أقبل الناس على قراءتها في ألمانيا ، وبهذه الطريقة ساعدت على ذبوع طرق الحساب الجديدة في القارة .

وعلى الرغم من أن المبادئ التي سار عليها نابيير كانت تتطلب معرفة تامة بالرياضيات فقد كان من الممكن لأي شخص ذي ادراك بسيط أن يستعمل اللوغاريتمات . ولذلك لا تعثرينا الدهشة أن وجدنا أن اللوغاريتمات سرعان ما استعملت في عمل أداة نافعة هي الأداة المعروفة بالمسطرة الحاسبة التي يمكن قراءة العمليات الحسابية عليها دون اجراء عملياتها (١) وزياد على ذلك بدأ استعمال العلامات العشرية حوالي

(١) المسطرة الحاسبة مألوفة لنا في المصانع والمصارف .

الوقت الذى استعملت اللوغاريتمات فيه . ولذلك فقد كان فى حوزة العلماء كل الوسائل الدقيقة لتوضيح النتائج التى كانوا يصلون اليها ، وطريقة سريعة لاستخراج النتائج الحسابية .

وشاع استعمال الرموز الجبرية ، والالام بالمعادلات فى السنين الاولى من القرن السابع عشر . وكانت هندسة اقليدس مستعملة من زمن طويل ، ولكن النتائج كان يعبر عنها بعبارات مسهية . ولذلك فقد حدث تقدم عظيم حينما استعملت الطرق الجبرية فى الهندسة لأول مرة بواسطة الفيلسوف الفرنسى ديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠) .

وقد استخدم ديكارت (انظر لوحة ١٤) طريقة بمقتضاها ثبت موضع نقطة فى مستوى حينما تكون أبعادها من خطين أو محورين معروفة وتسمى هذه الأبعاد احداثيات النقطة ، ويعبر عنها عادة بحرفى س ، ص . وكانت هذه الطريقة تطبيقا لنظام تحديد موقع النقطة على كرة بواسطة دوائر الطول والعرض ، وهى طريقة كانت معروفة منذ القدم . ولكن الذى استجد فى معالجة ديكارت للمسألة هى ادراكه أن العلاقة بين احداثيات جميع النقط الموجودة على قوس يمكن التعبير عنها بمعادلة جبرية بسيطة . مقتضبة . وعلى ذلك فإن الدائرة التى نصف قطرها خمس وحدات ومركزها فى نقطة تلاقى المحورين يمكن تمثيلها بالمعادلة $x^2 + y^2 = 25$. وكذلك فإن الخط المستقيم الذى يكون احداثى أى نقطة عليه هو دائما ثلاثة امثال الاحداثى الآخر يعبر عنه بمعادلة $y = 3x$. وبهذه الطريقة صور ديكارت المنحنى على أنه نتيجة لنقطة تتحرك تستوفى شروط معينة يمكن أن يعبر عنها بواسطة معادلة جبرية . وعلى العكس صور المعادلة على أنها طريقة سليمة للتعبير عن خصائص المنحنى . وكان هذا الاستعمال للجبر فى الهندسة سلاحا قويا فى يد رجل الرياضيات ، اذ مكّنه هذا من معالجة وحل مسائل كانت من قبل مستعصية عليه . وعلاوة على ذلك فإن طريقة الاحداثيات التى من شأنها أن ترى العين بسهولة العلاقة بين الكميات المتغيرة قد طبقت كثيرا فى حياتنا اليوم فى الطب ، والاحصاءات ، وشئون التأمين ، وأسعار الفائدة ، وفى العمل اليومى الرتيب للمشتغلين بالعلم والهندسين العاملين وصانعى السفن كذلك .

وباعتبار الخطوط والمنحنيات رسوما يمكن تتبعها بواسطة نقط متحركة تستوفى الشروط المبينة فى المعادلات أدخل ديكارت فكرة الحركة الى الهندسة . وتوسع بعد ذلك فى فكرة النقط المتحركة حتى شملت السطوح التى تتكون من سطوح متحركة ، والأجسام الصلبة المكونة بواسطة دوران الأشكال الهندسية . وظهرت للوجود طريقة حسابية

جديدة ، حينما يدل رجال الرياضيات جهدهم لحل أمثال تلك المشاكل .
وتعرف هذه الطريقة « بالتفاضل » . وكان الفضل الأكبر في ابتكارها
يرجع الى نيوتن (١٦٤٢ - ١٧٢٧) ، وللفيلسوف الألماني والكتاب
السياسي « ليبنتز » (١٦٤٦ - ١٧١٦) .

والتفاضل كما يدل عليه معناه هو طريقة حسابية ، وهو كذلك نوع
من الاختزال . انه يهيء لنا وسيلة حل عدد هائل من مسائل الهندسة
والميكانيكا التي تتعلق بالكميات المتغيرة باستمرار . وحينما تكون هناك
كيتين مرتبعتان ببعضهما البعض ، بحيث أن تغيرا في احدهما يحدث
تغيرا في الأخرى ، فان كل كمية يقال انها دالة الأخرى ، وعلى ذلك فان
حجم الكرة هو دالة نصف قطرها ، وذلك لأنها تتناسب مع مكعب نصف
القطر . والمسافة التي يقطعها الجسم الساقط دالة الوقت الذي يأخذه في
السقوط ، وذلك لأنها تتناسب مع مربع الوقت . وكذلك فحينما يملا
المطر برميل ماء كبير تدريجيا ، نستطيع بواسطة التفاضل اذا شئنا أن
نجد عمق الماء في أية لحظة معينة . وعلى العموم فان التفاضل يهيء
لنا وسيلة اكتشاف كيفية تغير الدالة بتغير السكمية التي تتوقف عليها .
وما هذه الا احدى أنواع المسائل العديدة التي يمكننا التفاضل من حلها .

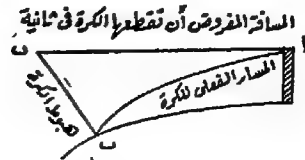
وقد احتدم جدل كثير حول مسألة ابتكار التفاضل . وقف فلاسفة
القارة في صف ليبنتز ، ووقف الانجليز في صف نيوتن . ومما يؤسف
له ان مثل تلك المنازعات نشأت في اللحظة التي بدأ فيها رجال العلم
في جميع أنحاء أوروبا يتعلمون العمل سويا . ومن المظنون أن كلا من
نيوتن ، وليبنتز وصلا الى آرائهما كلا على حدة ، وأن نيوتن كان هو
الأسبق في هذا الميدان . وعلى الرغم من ذلك فقد نشرت النتائج التي
وصل اليها بعد نشر نتائج ليبنتز . وقد تطلبت طريقة الرياضيات
الجديدة لغة جديدة ورموزا عديدة جديدة . وكانت رموز ليبنتز أدق
وأسهل من رموز نيوتن ، وهي في الحقيقة الرموز التي نستعملها الآن .

٢ - مشكلة الجاذبية

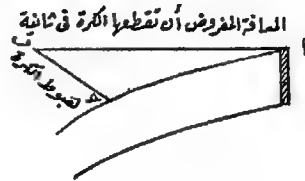
لم يأت القرن السابع عشر بطرق رياضية جديدة فحسب ، ولكنه
أتى أيضا بتوضيح مشكلة متوغلة في القدم ، ألا وهي مشكلة الجاذبية .
وتبعنا لأراء أرسطو تحدث الناس كثيرا ولازمان طويلة عن مواد ذات
ميل طبيعي للتحرك الى أسفل صوب مركز الأرض ، وعن مواد خفيفة
يميل طبيعي للتحرك الى أعلى صوب السماء . وقيل أن مواد المجموعة
الأولى كانت تسقط بسبب ثقلها ، وأن المواد الأخرى ترتفع بسبب
خفتها . ولكن لم يكن هذا سوى وصف ما يشاهده الإنسان بالفاظ
متباينة . وبقيت المشكلة كما كانت من قبل . وقد خطا جاليليو الخطوة

الأولى فى معالجة مشكلة الجاذبية حينما اكتشف كيف تسقط الأجسام أى طبقا لأى قانون رياضى تزداد سرعة الجسم أثناء سقوطه . وخطا جاليليو أيضا الخطوة الثانية حينما تحقق أن الأجسام المتحركة اذا تركت لنفسها تستمر فى الحركة الى الأبد فى خط مستقيم ان لم تؤثر عليه قوة ما . وفى حالة قذف أى شئ فى الهواء فقط أوضح أنه « يهبط » مسافة معينة كل ثانية مثله فى ذلك مثل أى جسم آخر هابط ، وأن مسيره النهائي يتوقف على سرعته الأصلية واتجاه القذف به ومقدار هبوطه فى الثانية .

والآن دعنا نطبق مبادئ جاليليو على حالة كرة كريكت قذفت أفقيا من فوق قمة تل (شكل ١٨) . وبمجرد أن تصبح الكرة حرة الحركة تبدأ فى الهبوط . ونعرف من مقاييس سرعة سقوط الأجسام أن الجسم الساقط ، اذا فاضينا عن المقاومة البسيطة التى يتسبب فيها الهواء ، يكون قد هبط فى نهاية الثانية الأولى ١٦ قدما عما كان عليه عند نقطة بدء تحركه . وعلى فرض أن أ ب هى المسافة التى تكون الكرة قد قطعها فى الثانية الأولى لو لم يكن هناك جذب لها صوب الأرض . واذا افترضنا ان المسافة ب ١ = ١٦ قدما ، ففى هذه الحالة تصطدم الكرة فعلا بالأرض عند أ ب ، ويوضح الخط المنقط مسارها (شكل ١٨) .

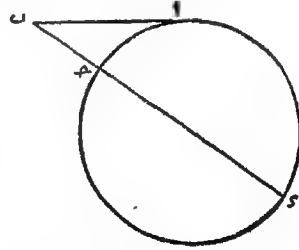


(شكل ١٨)
جذب الأرض لكرة الكريكت



ولنفترض الآن أن الكرة قذفت بسرعة عظيمة بدويرة انه بعدد هبوطها ١٦ قدما فى الثانية الأولى تكون فى نقطة حـ ، وهى نقطة ترتفع عند سطح الأرض قدر ارتفاع أ . وحينئذ تستمر فى سيرها فى الثانية الثانية كما لو أنها كانت قد قذفت من حـ بنفس السرعة الأولى ، وهكذا .

ونتيجة لذلك فإن كرتنا للكريكت تستمر فى دورانها حول الأرض دون أن تصطدم بها إطلاقاً . وحسبة بسيطة (شكل ١٩) نرى أن سرعة الكرة يجب فى هذه الحالة أن تكون حوالى ٩ ميل فى الثانية ، أو قدر سرعة القطار السريع بثلاثمائة مرة .



(شكل ١٩)

حساب سرعة كرة كريكت دائرية حول الأرض
 $ب ا = ب ح \times ب د$ (هندسيا)
 $ب ح = ١٦$ قدما ، ويمكن اعتبار $ب د$ يساوى
 قطر الأرض تقريبا . ومن ذلك نجد أن المسافة
 التى تقطعها الكرة فى الثانية هى ٩ ميل

ونحن نعلم الآن أن قمرنا مستمر فى دورانه حول الأرض ، ويأخذ حوالى ثمانية وعشرين يوما فى دورته . ونعلم أيضا أن أرضنا وغيرها من الكواكب تدور باستمرار حول الشمس . الا يسدو احتملا أن الأرض تجذب القمر ، وبذلك تجعله يتحرك دائريا حولها ؟ ومن المحتمل أيضا أن الشمس تجذب الأرض والكواكب الأخرى . أن مثل هذه الامكانيات تدور بخلد الشاب استحق نيوتن فى عزلته فى بيته فى لنكولنشير ، بينما كان الوباء الكبير يكسح لندن . وقد ارسل نيوتن من كامبردج مع غيره من الطلاب الى بلادهم خوفا من اندلاع المرض . وعلى ذلك كانت لديه فترة من فراغ فرضت عليه . وفى أثناء تلك الفترة الهادئة من الفراغ عالج مسائل ربما كانت اعظم المسائل اثرا فى تاريخ العلم كله .

٣ - محاولة نيوتن لحل المشكلة (١)

بينما كان نيوتن فى كامبردج مازال شابا صغير السن ، قسرا كتابات جاليليو وأعجب بها . وكان على المام بهندسة ديكارت . وكان بالفعل قد استنتج جزئيا طرق التفاضل التى اطلق عليها طريقة الفروق ولذلك كان رأسه زاخرا حينما ابتدا يفكر - كما يخبرنا - فى الجاذبية التى تمتد الى فلك القمر . وسرعان ما وضع هذه الفكرة موضع الاختبار الحسابى .

(المترجم)

(١) يعنى بذلك مشكلة الجاذبية

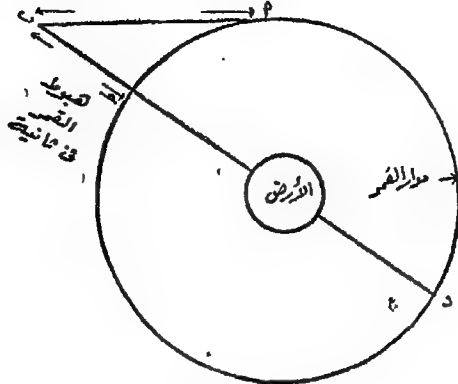
ويبلغ بعد القمر عن الأرض ٢٣٨٨٥٧ ميلا أو قدر نصف قطر الأرض ستين مرة تقريبا . ويدور القمر دورة حول الأرض في حوالي ٢٨ يوما . وعلى ذلك فمن الممكن حساب سرعة القمر بسهولة . وإذا ناقشنا المسألة كما فعلنا قبلًا أمكننا أن نجد المسافة الواجب اجتذاب القمر إليها لإخراجه عن خطه المستقيم وجعله يتحرك في دائرة مثله بالضبط كمثل كرة الكريكت التي افترضناها . وعلى ذلك نجد أن القمر لا بد أن يهبط ٠.٠٤٤ ر قدما في الثانية الأولى (شكل ٢٠) وهذا أقل بدرجة كبيرة من الـ ١٦ قدما في حالة كرة الكريكت ، وهذا ما يجب أن نتوقعه حيث أن القمر أبعد عن الأرض بعدا شاسعا جدا ، إذا قوون بكرة الكريكت . وتكون النسب كالآتي :

$$\frac{(\text{نصف قطر مدار القمر حول الأرض})}{(\text{نصف قطر الأرض})} = \frac{١٦}{٠.٠٤٤} = ٣٦٠$$

أي

$$\frac{(\text{نصف قطر مدار القمر})}{(\text{نصف قطر الأرض})} = \frac{\text{سرعة الهبوط على سطح الأرض}}{\text{سرعة الهبوط على سطح القمر}}$$

المسافة المفروضة أن يقطعها القمر في ثانية



(شكل ٢٠)

جذب الأرض للقمر

بما أن ب أ = ١٦ ر قدما في الثانية الأولى استطعنا أن نحسب هبوط القمر في ثانية بحد الذي يساوي ٠.٠٤٤ ر قدما

وعلى ذلك فإن قوة الجذب تنقص كلما زاد مربع المسافة ، أو بمعنى آخر تقل قوة الجذب متناسبة في ذلك تناسبا عكسيا مع مربع المسافة .

وحينما أجرى نيوتن تجاربه مستخدما هذه التقديرات أول الأمر ، لم تكن التقديرات الميسورة لنصف قطر الأرض ولبعد القمر دقيقة . ونتيجة لذلك لم يجد التطابق التام الذى بيناه آنفا . وفوق ذلك أدرك أن هناك صعوبة كبيرة فى تطبيق مثل تلك الاعتبارات على حالة الأرض والقمر . وعلى الرغم من أن الأرض هائلة اذا قورنت بحجر ، إلا أن نيوتن شك فى أن لديه ما يبرر معالجته للأرض كنقطة فى وسط فلك القمر ، وإن القمر كنقطة تدور حولها . ونتيجة لذلك صرف نيوتن النظر عن تقديراته ، وأرجأ المشكلة . ووجه عنايته بضع سنين لدراسة الضوء . وكانت أبحاثه فى هذا الموضوع كافية بمفردها أن تضعه فى الصف الأول من رجال العلم .

٤ - نظرية نيوتن فى الجاذبية

بعد أن بدأ نيوتن معالجته لمشكلة الجاذبية توصل رجل أرساد فرنسى الى تقدير جديد لنصف قطر الأرض ، وأعلن نتائجه فى اجتماع الجمعية الملكية . عندئذ فتش نيوتن عن مذكراته القديمة وأخرجها . وبتطبيق هذا التقدير الجديد وجد تطابقا أفضل بكثير عن ذى قبل ، ولكنه لم ينشر ما وصل اليه من نتائج ، إذ كان لا يزال غير مقتنع ، لأن نظريته لم تكن قد تكاملت أركانها تماما . وعلاوة على ذلك فلم تكن لديه الرغبة فى جعل هذه النتائج معروفة للعالم ، إذ أن آراءه فى علم البصريات قد أدخلته فى مناقشات غير سارة ، وكان نيوتن رجلا هادئا مسالما تسبب له الخلافات البسيطة ألما حادة .

ومع ذلك فلم يستطع اخفاء النتائج التى وصل اليها فى الجاذبية زمنا طويلا ، إذ بدأت المشكلة تناقش من جميع الجوانب . ففي عام ١٦٧٣ ظهر مؤلف هام لعالم هولاندى ، كريستيان هيغينز . ووصل هيغينز غير ما وصل اليه من نتائج هامة أخرى الى النتيجة المشهورة اليوم ، وهى أنه اذا تحرك جسم فى دائرة نصف قطرها r بسرعة v ، فإن التغير فى السرعة فى اتجاه المركز فى كل ثانية أو ما يسمى بالعجلة هى $\frac{v^2}{r}$.

وبما أن افلاك الكواكب بيضاوية لا تختلف الا اختلافا بسيطا عن الدائرة فكتقريب مبدئى احتسب هيغينز وآخرون مدارات الكواكب كدوائر ، وأثبت أن هذه النتيجة الأخيرة تربطها بقانون كيبلر الثالث يتكون منها

قانون القوة الذى يجعل الكواكب تتحرك طبقا لقانون التربيع العكسى (١) ولكن بما أن الدائرة هي نوع معين من الشكل البيضاوى ، فان هيجينز وغيره من الزملاء فى الجمعية الملكية بدأوا يتساءلون اذا كان قانون التربيع العكسى المستمد من قانون كيبلر الثالث يمكن أن يتماشى مع قانونه الأول القائل بأن مدارات الكواكب بيضاوية الشكل ، وقد بدا أن الصعوبات الرياضية كانت صعوبات لا يمكن التغلب عليها ، ولذلك اتصلوا بنيوتن يسألونه رايه فى الموضوع . وحينما سئل : أى مسار يتخذه جسم حينما يجذبه جسم ضخيم بقوة يتناسب تناقصها تناسباً عكسياً مع مربع المسافة أجاب على الفور انها تتخذ مساراً بيضاوياً ، لقد كان قد توصل الى حل للمشكلة قبل ذلك بعامين ، ولكنه لم يستطع فى تلك اللحظة العثور على مذكراته . ولكنه سرعان ما جمسع كل عملياته الرياضية السابقة ونجح فى اكمال نظريته كلها .

وعالج نيوتن أولاً المشكلة العامة ، ألا وهي مشكلة اجتذاب جسم ضخم لآخر ، وبرهن على أن كرة ضخمة تجذب كرة أخرى ، كما لو كانت الكتلة بأجمعها متركزة فى المركز . وكانت هذه نتيجة ذات أهمية بالغة . ومكنه هذا من معالجة مشاكل الشمس والقمر والأرض كمشاكل هندسية ، وذلك لأن كتل تلك الأجرام يمكن أن تعالج كما لو كانت متركزة فى نقطة . وعلى ذلك فقد اعتقد أخيراً فى صواب طريقة معالجة مشكلة الأرض والقمر ، تلك الطريقة التى استعملها أول الأمر . وكان برهان قانون تربيعه العكسى قد تم فى ذلك الوقت . وعلى ذلك فقد أثبت أن قوة الجذب الأرضية تمتد الى القمر وتجعله يدور حولها ، وأن قوة الجذب هذه تسير وفقاً لنفس القانون الذى يسرى على حالة حجر ساقط الى الأرض .

وبين نيوتن بعد ذلك أن قانون التربيع العكسى لا يمثل قانون كيبلر الثالث فحسب ، بل يمثل أيضاً قانونيه الأولين كذلك . وعلى ذلك فانه

$$\begin{aligned} (١) \quad \text{عجلة المركز} &= \frac{٢٤}{\text{ثق}} \quad \text{أى} \quad \frac{\text{مربع السرعة}}{\text{نصف القطر}} \\ \text{زمن الدورة} &= \frac{\text{أطراف}}{\text{ع}} \quad \text{أى} \quad \frac{\text{محيط الدائرة}}{\text{السرعة}} \\ \text{مربع الزمن (٢) } &= \text{ثابت} \times \text{ثق} \text{ أو (قانون كيبلر الثالث)} \\ \dots \quad \frac{٢٤}{\text{ثق}} &= \text{ثابت} \times \text{ثق} \text{ أو } \frac{٢٤}{\text{ثق}} = \frac{\text{ثابت} \times \text{ثق}}{٢٤} \end{aligned}$$

وبما أن ثابت ع ٢ ، و ط كلاهما كميتان ثابتتان ، فان عجلة المركز تتناسب تناسباً عكسياً مع مربع المسافة .

لم يجمع نتائج كيبلر الثلاث فحسب ، بل امتدت نظرية جاذبيته لحوركات الكواكب حول الشمس . ولذلك فان نظام المجموعة الشمسية كله قد أخضع لسيطرة هذا القانون الذى يقرر أن كل جسم يجذب أى جسم آخر بقوة تتناسب عكسيا مع مربع المسافة بينهما ، وهذه الحقيقة هى جزء من قانون نيوتن الخاص بالجاذبية الذى نشره على العالم من جميع نتائجه الأخرى فى سفر طبع عام ١٦٨٧ (١) .

وهكذا ربط قانون نيوتن ، قانون التربيع العكسى ، بين سلوك الكواكب وسلوك الأجسام الموجودة على الأرض فى معادلة رياضية بسيطة . انه جمع بين قوانين كيبلر والمبادئ التى تضمنتها تعاليم جاليليو . وعلى ذلك فاذا شبهنا دراسة الطبيعة بحل لغز صور مقطوعة لا نهاية لها ، يمكننا ان نقول ان كيبلر جمع بعض القطع سويا فى جزء من النموذج ، وضم نيوتن قطعا أخرى اليه ، وضمها ايضا الى اجزاء الانغاز التى حلت من قبل بواسطة كيبلر وجاليليو وآخرين ، مما جعلها تبدو صورة بسيطة جميلة . وعلى ذلك فقد كان نيوتن العظيم هو أول « ضم عظيم » أو توليف للعلم الطبيعى . ولذلك كانت خدماته للعالم خدمات فريدة . وقد ظلت النتائج التى وصل اليها غير منازع فيها حتى قرنها الحالى .

٥ - بعض نواحي التقدم فى دراسة الضوء

كان القرن السابع عشر عصر تقدم كبير فى دراسة الضوء . وقد صوب جاليليو كما قد رأينا فى السنين الأولى من هذا القرن تلسكوبه الى السماء كاشفا بذلك أسراراً ظلت حتى ذلك الوقت بعيدة عن أعين البشر . وقد كتب لكيبلر عن اكتشافاته ، مما نتج عنه أن كيبلر صرف النظر عن أبحاثه فى الرياضيات ، وأخذ يقوم بأرصاد للسماء مستعملا أول الامر تلسكوبا مبنيا بطريقة تلسكوبات جاليليو التى كانت تتكون من عدسة محدبة للشئية وعدسة مقعرة للعينية . وكان البعد هو نفس البعد المتبع فى صنع منظار الأوبرا الآن (٢) . ولكن كيبلر استعمل بعد ذلك زوج عدسات محدبة متلسكوبه حاصلا بذلك على صورة مقنونة . وهذا الوضع العكسى لم يكن ذا تأثير بالنسبة للأغراض الفلكية . وقد عرف من ذلك الوقت هذا النوع الخاص من آلات الرصد باسم التلسكوب

(١) المبادئ الرياضية لفلسفة الطبيعة . لندن . ١٦٨٧ .

(٢) منظار الأوبرا هو منظار مزدوج يستعمل فى دور الأوبرا والمسارح وهو يشبه منظار الميدان ولكنه أصغر منه (المترجم) .

الفلكى . ولكن كيبيل كان مولعا بالدراسات النظرية لتلسكوبات أكثر من ولعه بالملاحظات العملية . ولذلك عالج المشكلة العنصامة لتكوين الصور بواسطة عدسة .

وكان معروفًا من زمن طويل أنه حينما يمر ضوء خلال مادة شفافة الى مادة أخرى يحدث هناك تغيير فجائي في اتجاهه ، وهو تغير يعرف باسم « الانكسار » . وقد لوحظ أنه عند مرور الضوء من وسط أكثر تخلخلًا (١) الى وسط أكثر كثافة ، فإنه ينحني صوب المستوى العمودى . واصبحت الزاوية بين الشعاع الساقط والعمود تعرف بزاوية السقوط والزاوية بين الشعاع المنكسر والعمود باسم زاوية الانكسار . وقاس كيبيل هذه الزوايا فى حالات كثيرة ، واعتقد ان هناك نوعا من النسبية بينهما ، ولكنه لم يصل الى العلاقة الحقيقية . لقد ترك لفسالم فيزياء هولاندى ، اسنيل (١٥٩١ - ١٦٢٦) أن يكتشف أنه فى حالة وجود وسطين مثل الهواء والماء يمكن أن يمر خلالهما الضوء فان نسبة جيب زاوية السقوط الى جيب زاوية الانكسار نسبة ثابتة . وهذه النتيجة هى المعروفة بقانون الانكسار .

ويمكن الآن دراسة انكسار الضوء وكذلك انعكاسه ، وتكوين الصور كذلك بواسطة المرايا والعدسات من وجهة النظر الهندسية ، اذ يعتبر الضوء مجرد شئ يسير فى خطوط مستقيمة . ومن الطبيعى تماما بالنسبة لجميع المقاييس ولكل أغراض الحياة العلمية أن نعتبر مسار الضوء فى خطوط مستقيمة ، ولكن هناك تأثيرات معينة للضوء تدلنا أن هذا الفرض ليس صحيحا تماما . وقد لوحظ بعض هذه التأثيرات فى القرن السابع عشر . فمثلا وجد عالم فيزياء ايطالى يدعى جريمالدى (١٦١٨ - ١٦٦٣) أن الظل الذى يتكون حينما تمر حزمة رفيعة جدا من الأشعة بالقرب من الطرف الحاد لجسم يفترض مسارها يكون أكبر مما اذا سار الضوء فى خطوط مستقيمة تماما . ولاحظ هديا ملونة عند حافة الظل . وهذه الظاهرة التى أصبحت تعرف بالحيود أثارت اهتماما كبيرا . ولكن لم يتيسر لهذه الظاهرة تفسير مقبول حتى القرن التاسع عشر .

ولاحظ هيجينز حقيقة غريبة أخرى ، فقد وجد أن الأشياء التى ترى من خلال بلسورات معينة تظهر مزدوجة . وحينما أجرى تجارب مستعملا بلورة من حجر ايسلند وجد أنه ينشأ عن شعاع ساقط شعاعان منكسران . وينطبق قانون الانكسار على أحد هذين وهو الشعاع العادى كما نسميه . أما الآخر فيما أنه يتبع مسارا مخالفا فان القانون لا ينطبق

عليه . ويعرف هذا الشعاع الثانى بالشعاع غير العادى . لاحظ هيجينز ان أحد هذين الشعاعين يمر خل بلورة ثنائية من حجر اسلند اذا وضعت هذه فقط فى اتجاه معين بالنسبة للأولى . وقد وصف هيجينز مشاهداته هذه فى كتاب عنوانه : بحث فى الضوء - أخرجه عام ١٦٩٠ .

ولقد تناول نيوتن هذا الموضوع موضوع الانكسار المزدوج الذى يبين أن النتائج التى توصل إليها هيجينز تضطربنا الى أن نفترض أن أى شعاع مهما كانت حالته ناتج عن انكسار مزدوج يختلف عن الشعاع العادى بنفس الطريقة التى يختلف بها قضيب طويل قطعه المستعرض مستطيل عن قضيب قطعه المستعرض دائرة . ويقول نيوتن : وعلى ذلك فلكل شعاع جانبان متضادان لهما فى الأصل خاصية يتوقف عليها الانكسار غير العادى ، وليس للجانبين الآخرين مثل تلك الخاصية . وعلى ذلك رأى أن انكسار مثل هذا الشعاع المسار خلال احدى البلورات يتوقف على علاقة جوانبها بالبلورة نفسها .

ان اكتساب الجوانب لهذه الخاصية بواسطة شعاع من الضوء شبيه نيوتن باكتساب الاقطاب المغناطيسية بواسطة قطعة من الحديد . وهذه الظاهرة أصبحت تعرف باسم استقطاب الضوء . وكانت دراسة هذه الظاهرة فيما بعد ذات أهمية قصوى فى كثير من فروع العلم . وحتى فى القرن السابع عشر اجبر هذا الكشف الناس على أن يكونوا بعض الآراء عن ماهية الضوء . وادى بهم هذا الى تخيلات ذات طابع خلاب أدت بهم الى أبحاث أخرى ، وكذلك الى الغاز أكثر استعصاء . وقد حلت بعض هذه الألغاز فى القرن التاسع عشر حينما تقدم علم الضوء تقدما كبيرا . ولكن مازالت هناك مشاكل لم تحل . وكان الكثير من نواحي التقدم مع ذلك راجعا لا الى تجميع الحقائق والأمثلة كما أراد بيبكون للناس أن يعتقدوا ، بل بالأحرى الى قدرة تخيل الأشخاص الذين يتميزون بالنبوغ الذين اروا الباحثين الطريق الذى يسلكونه فى تجاربهم .

وكان المعتقد حتى القرن السابع عشر ان الضوء ينتقل فورا ، ولكن الأرصاد الدقيقة لفلكى دانيمركى يدمى روبر (١٤٦٤ - ١٧١٠) أثبتت مع ذلك ان الضوء يأخذ وقتا معينا فى انتقاله . وكان هذا الكشف المشهور نتيجة رصد روبر لخسوف اقمار المشتري . وقد شوهدت هذه الاقمار لأول مرة بواسطة جاليليو عام ١٦١٠ بالاستعانة بتلسكوبه الجديد الذى صنعه . وادى استعمال روبر للتلسكوب الى كشف مذهش آخر .

ان فلك المشتري اكبر بكثير من فلك الأرض . وتكون الأرض فى مستوى واحد مع الشمس والمشتري مرتين فى السنة : مرة تكون الأرض بين الشمس والمشتري ، وفى المرة الأخرى تكون الأرض والمشتري على

جانبيين متقابلين للشمس . وعلى ذلك ففي هذا الوضع الثانى لآبد للضوء القادم من المشتري الى الأرض أن يقطع مسافة اضافية مساوية لقطر فلك الأرض . ولاحظ روبرج حينئذ أنه فى احدى اوقات السنة كانت اوقات الكسوف تسبق اوقات الكسوف التى تقع فى الأوقات المتوسطة . وفى فترة أخرى تقع متأخرة عن اوقات الكسوف فى الفترات المتوسطة بمقدار ثمانى دقائق . وقد فسر روبرج هذه الظاهرة تفسيراً صحيحاً بقوله انها ترجع الى المسافة الاضافية التى على الضوء أن يقطعها . وعلى هذا قدر السرعة بـ ١٩٢٠٠٠ ميل فى الثانية . ومما يدعو الى الغرابة أن الناس ظلوا طويلاً يعتقدون أن الضوء ينتقل فوراً . وقد وجدت طرق أحسن لتقدير سرعة الضوء بعد العصر الذى عاش فيه روبرج بوقت طويل ، ولكن كشفه اثنى بالضبط فى الوقت المناسب حينما كان رجال العلم ينعمون الفكر باحثين عن ماهية الضوء .

وثناء هذه الفترة كلها كان رجال الفكر فى جميع انحاء أوروبا واقعين تحت تأثير أفكار ديكارت . وكان انكون - طبقاً لفلسفته بما فى ذلك الاقليم الواقع بين الشمس والنجوم الذى نسميه الفضاء - مملوفاً بمادة متصلة بحيث لا يمكن أى شيء من التحرك دون أن يأخذ مكان شيء آخر . وفى مثل هذا العالم المعبأ متممة محكمة تؤثر حركة أى جزء فى الأجزاء القريبة منه ، ويمكن أن تنتقل لأجزاء أخرى . ويمكن أن نتخيل هذا بالضبط كارتجاج يمر خلال هلال هائل . وتصور ديكارت أيضاً أن هذه المادة المتصلة تكونت منها دوامات حيثما خلق الكون ، وأن الأرض والكواكب الأخرى تدور فى دوامة هائلة مركزها الشمس .

وتتوقف الطريقة التى يفسر بها الناس الطبيعة على الكيفية التى تعودوا التفكير بها . وحينما كان الناس واقعين تحت تأثير أفكار ديكارت اعتادوا أن يفكروا فى هذا تفكيراً يتلامح مع نظرية المادة المتصلة ، أو الوسط . ونتيجة لذلك فحينما أدت المشاهدات بالناس الى آراء تكونت خبط عشواء عن ماهية الضوء ظن الكثيرون أنه لابد أن يكون شيئاً له علاقة بهذا الوسط الشامل . وعلى ذلك كان من رأى هو أن الضوء كان يرجع الى تحرك هذا الوسط حركة سريعة ذهاباً وإياباً . ولقد توسع هيغينز فى هذه الفكرة حتى كون منها نظرية جميلة جداً فسر بها انعكاس الضوء وانكساره ، والانكسار المزدوج لبعض البورات بفرضه أن الضوء يعود الى تتابع تحركات منتظمة فى هذا الوسط ، أو بمعنى آخر الى تحركات موجية . ولكن النظرية الموجية هذه كما أصبحت تدعى لم يتقبلها كثير من رجال العلم فى ذلك الوقت . وكانت الصعوبة الرئيسية فى سبيل النظرية الموجية تفسير تكوين الظلال الحادة . وكانت حركة التموج المسالوفة التى تحدث عندما يلقى بحجر

فى بركة ماء تدل على أن الاضطراب التامجى ينتشر فى جميع الجهات .
وعلاوة على ذلك فإذا قابلت الأمواج المنتشرة عقبة فى ماء ساكن ، فان
الماء فيها وراءها يبدأ فى التحرك . وبمعنى آخر فان الموجات تمنحنى
حول العائق ولا تلقى ظلا حادا . وحتى ذلك الوقت لم يكن أحد قد توصل
الى تفسير لتجربة جريمالدى . ولذلك اعتقد الناس أن انتشار الضوء
فى خطوط مستقيمة انما هو حجة قوية ضد النظرية الموجية .

وقد وجد بديل لفكرة الموجات ، وكان هذا البديل هو الفرض القائل
بأن الضوء يتكون من سيالات من جسيمات دقيقة ، أو كريات كما كانت
تدعى . ولا يمكننا الدخول فى تفصيلات أى من نظرية الجسيمات أو
النظرية الموجية . انه من الواجب هنا أن نكتفى بأن نقرر أنه نتيجة
للنظرية الأولى من اللازم انتقال الضوء فى وسط كالماء بسرعة أكثر من
انتقاله فى وسط كالهواء . ومن جهة أخرى فطبقا للنظرية الموجية
يجب أن ينتقل الضوء فى الماء بسرعة أقل مما ينتقل فى الهواء . وفى
القرن التاسع عشر ثبت بواسطة التجربة أن السرعة فى الماء أقل منها فى
الهواء ، وبذلك تأكدت صحة الموجة التى تساند النظرية الموجية . وزيادة
على ذلك كان قد تبين قبل ذلك أن الحيود راجع الى انتشار موجات
دقيقة من الضوء . أن تكوين الظلال والانتقال الظاهرى للضوء فى
خطوط مستقيمة تماما رؤى حينئذ انه نتيجة الحجم الهائل للأشياء
العادية اذا قورن بطول الموجة الضوئية .

ومع ذلك ففي الوقت الذى أخرج فيه هييجنز النظرية الموجية لم
يكن هذا الدليل ميسورا . ولم يكن لدى رجال العلم أجهزة حساسة
بدرجة تكفى لقياس سرعة الضوء فى المعمل . وعلى ذلك كان لا بد من
إجراء التجارب الحاسمة بالنسبة للسرعة فى الماء والهواء . ونتيجة
لذلك كان الناس المعضدون لأراء هييجنز وآخرون غيرهم فى صف نظرية
الجسيمات . وحاول نيوتن تحاشى كل التخمينات . لقد عارض النظرية
لمبررات كانت تبدو وجهة جدا فى عصره ، ولكنه لم يربط نفسه دون
تحفظ بالنظرية المنافسة . والحقيقة أن نيوتن وضع آراءه على هيئة
أسئلة استفهامية . وأصبح فى سنه الأخيرة يميل أكثر الى نظرية
الجسيمات عما كان عليه قبلا . ومع ذلك فقد قدم اقتراحاته بتواضعه
الذى اتسم به قائلا ان الأمر محتاج الى مزيد من التجارب قبل الوصول
الى أية قرارات نهائية . وعلينا الآن أن نستعرض قليلا من المساهمات
الأخرى التى أسهم بها نيوتن فى دراسة الضوء .

٦ - ما قام به نيوتن في علم البصريات

حينما كان نيوتن مازال طالبا في الجامعة اعتاد أن يصقل عدساته ويصنع تلسكوباته . ومع ذلك فقد تضايق كثيرا من الهدب الملونة التي كان يراها الانسان حينما كان ينظر الى الأشياء من خلال مجموعة من العدسات . ولقد درس مرور الضوء خلال منشور ، انكسار الضوء فيه أبسط من انكساره حين يمر في عدسة ، وكان يرمى بذلك الى الكشف عن حقائق أكثر عن هذه الهدب الضوئية .

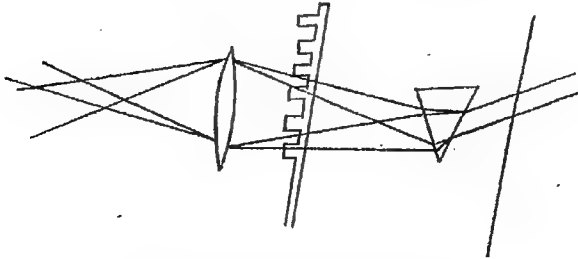
وكان نيوتن شابا في الثالثة والعشرين من عمره حينما أحضر منشورا لأجراء تجارب على لون الضوء . ويقول : بعد أن أظلمت حجرتي ، وثقبت ثقباً صغيراً في مصراع النافذة ليسمح بدخول كمية مناسبة من ضوء الشمس ، وضعت منشورا عند مسقط الضوء ليتمكن بذلك انكساره على الحائط المقابل . وقبل وضع المنشور في مكانه رأى نيوتن بقعة بيضاء على الحائط . ولكن بعد وضع المنشور في مسار الضوء رأى حزمة من الضوء الملون عرضها عرض نقطة الضوء خمس مرات ، وفي موضع مخالف على الحائط . وقد ميز سبعة ألوان رئيسية - أحمر ، وبرتقالي ، وأصفر ، وأخضر ، وأزرق ، ونيلي ، وبنفسجي .

وعندئذ سأل نفسه كيف أن الحزمة الضيقة من التور الأبيض قد تشتت هكذا الى حزمة ملونة . آكان هذا بسبب مرور بعض من الأشعة خلال حيز زجاجي أقل ، ولذلك كان انحناءه أقل ؟ لقد وضع فرضه هذا موضع الاختبار بامراره الحزمة الاشعاعية (أولا) بالقرب من رأس المنشور و (ثانيا) بالقرب من القاعدة . وحصل في كلتا الحالتين على حزمة ملونة كان طولها نفس الطول كل مرة . وكانت في هذه الاجابة الحاسمة على سؤاله الأول . وبعد ذلك سأل نفسه اذا كانت تلك الألوان متسببة عن عيوب في زجاج منشوره . ولذلك أجرى تجارب مستعينا بمنشورات من زجاج أصفى وصقل أوفى . ولكنه كان دائماً يحصل على حزمة ملونة مائلة أو طيف . بعد ذلك أجرى تجارب مستعينا بمنشور مكون من لوحات زجاجية لصقت بعضها ببعض على هيئة منشور ملاء ماء . ان اللوحات الزجاجية لم تؤد بنفسها الى ايجاد طيف . ولكن الماء في الاناء المشكل على هيئة منشور أوجد طيفا بالضبط كما يحدث مع المنشور المصنوع من زجاج أصم .

وعلى هذا فقد كان نيوتن يضيق حدود المشكلة . وكانت النتائج التي وصل اليها تبين أن اللون كان راجعا الى انكسار الضوء ، وأن الضوء ذا الألوان المختلفة يتعرض لمقادير انكسار مختلفة . ومع ذلك فقد واصل تجاربه فعزل الأشعة ذات اللون الخاص على قدر المستطاع

بإستقبال الطيف لا على حائط بل على شاشنة ثقب بها ثقب ابرة •
وعندئذ جعل حزمة الضوء الأحمر أو الأخضر تسقط على منشور ثان •
وبذلك قاس مقدار تحويل هذا المنشور الثاني للحزمة الملونة عن
مسارها • وأجرى تجارب على كل لون بدوره ، فائسا الزوايا في كل
حالة ، ووجد أن الألوان المختلفة تنكسر بدرجات مختلفة ، ويزداد
الانكسار باستمرار ابتداء من الأحمر الى البنفسجي •

واستعمل نيوتن بعد ذلك عدسة محدبة ليجمع ضوء الطيف المشتت
في بؤرتها بحيث يصير حزمة ضيقة جدا ، ووضع شيئا شبيها بالمنشط
بين المنشور والعدسة بحيث كانت أسنان المنشط تعترض جزءا من الطيف
قبل أن يصل الى العدسة (شكل ٢١) •

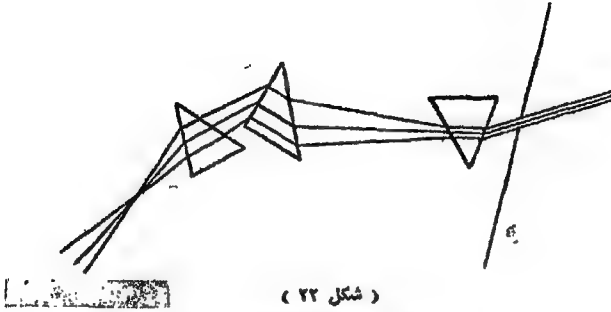


(شكل ٢١)

جهاز نيوتن لامعراض أجزاء من الطيف وإعادة تكوين الباقي

وبتحريك المنشط درجة بسيطة الى الأمام والخلف لاحظ أن بقعة
الضوء عند بؤرة العدسة قد مرت خلال تدرج لوني جميل • وحينما
أزاح المنشط أعادت العدسة تكوين الطيف الى بقعة بيضاء ذات أثر لوني
بسيط عند أطرافها • وفي مناسبة أخرى أعاد تكوين ألوان الطيف
باستعمال ثلاثة منشورات • ان التحليل الى الألوان أو تشتت الضوء
الذي حدث بواسطة المنشور الأول عكس بواسطة المنشورات الأخرى ،
وبذلك تحصل على النور الأبيض مرة أخرى (شكل ٢٢) وكذلك
حصل نيوتن على طيفين بجعل حزمتين من ضوء الشمس تقعان على
نفس المنشور • ويتكون اللون الأبيض حيث يتداخل هذان بعضهما في
بعض • ومن هذه التجارب وغيرها شعر نيوتن أنه على صواب في
استنتاجه أن كل الألوان في الكون التي يتسبب الضوء فيها تكون اما
ألوان أضواء متجانسة (١) أو مركبة من هذه الألوان •

(١) يعني بذلك الألوان للتجانسة أو النقية للطياف •



(شكل ٢٢)
جهاز نيوتن لإعادة تجميع ألوان الطيف

وبعد ذلك عاد نيوتن الى مشكلته الأصلية وهى الهدب الملونة التى تتكون حينما يمر الضوء خلال مجموعة من العدسات كما هى الحال فى التلسكوب . وحيث انه كان مدركا أن الانكسار يحدث تشتتاً ، فقد ظن أن الهدب الملونة التى ترى خلال التلسكوبات لا يمكن تجنبها إطلاقاً . ولذلك استغنى عن العدسات قدر المستطاع ، ووضع تصميم لتسكوب به مرآة كبيرة محدبة قليلاً ، أو عاكسة تجعل الضوء القادم من السماء يتجمع فى بؤرة . ثم استقبل هذا الضوء المتجمع على مرآة مستوية صغيرة ، واتخذت الصورة المرئية بواسطة العدسة العينية مكاناً لها على جانب التلسكوب العاكس (شكل ٢٣) .

(شكل ٢٣)

تلسكوب نيوتن العاكس
هذا الشكل مأخوذ عن الشكل الموجود فى كتاب علم البصريات لنيوتن (الطبعة الرابعة ١٧٣٠) . وقد استعمل بدلاً من المرآة المستوية منشور قائم الزاوية ليقوم بعملية الانعكاس الثانى



وأهدى نيوتن إحدى تلسكوباته للجمعية الملكية . وسرعان ما صار استعمال مثل تلك الآلات العاكسة عاماً (١) وأدخلت عليها مزيد من

(١) كان يبلغ طول التلسكوبات فى القرن السابع عشر ١٠٠ قدم فى الغالب ، وذلك لتقليل مشاكل اللون . ومن الممتع أنه حينما ووجه كريستوفر رين المتعدد نواحي النبوغ باقتراح جعل برج نوم فى أكسفورد مرصداً ، رفض العرض . وذلك لأن إقامة تلسكوبات بهذا الطول على قمة برج أمر غير عملى . وكان زيادة على ذلك يعلم أن جميع الأبراج فى عصره كانت غير ثابتة . وكان يعلم كالمهندس معمارى أن مثل هذا التحويل لبرج نوم سيكون من شأنه أن يجعل البرج يفقد فخامته .

التحسينات التي جعلتها لا غنى عنها للأرصاء الفلكية . وقد وجد بعد زمن نيوتن أنه من الممكن تجنب التساعب الراجعة الى اللون أثناء مرور الضوء خلال العدسات باستعمال مجموعة من العدسات مصنوعة من أنواع مختلفة من الزجاج بحيث تبطل احداها ما تحدثه الأخرى من التششت ، ولكن ذلك الانكسار الحادث من مجموعة من العدسات كان كافيا لأن يعطى الصورة المطلوبة . ومثل هذه التجميعات العدسية يطلق عليها الآن التجميعات اللاونية ، أو التجميعات أو العدسات الاكروماتية .

وقد أدت تجارب نيوتن في التششت الضوئي الى تفسيره ذلك الطيف الموجود في السماء المسمى قوس قزح . لقد قام رئيس أساقفة سبالا، بمحاولة جريئة لتفسير قوس قزح . ومن المظنون أن هذه المحاولة دفعت نيوتن الى معالجة المشكلة . ورأى نيوتن أن ألوان قوس قزح كانت ناتجة لا من مجرد انكسار الضوء عند انتقاله خلال قطرات المطر فحسب ، بل أيضا الى انعكاس الضوء داخل القطرات نفسها . وبهذه الطريقة علل بطريقة مرضية تكوين كل من القوسين الابتدائي والثانوي .

وعلى ذلك فحتى سحر قوس قزح تناوله تفسير القانون العلمى . ولكن استمتعنا بهذا مثله مثل استمتعنا بغيره من مباحث الطبيعة قد ازداد بدلا من أن ينقص بالنظرة العميقة التي أسبغها العلم عليه . والحقيقة أننا كلما لاحظنا الطبيعة وجدنا سبلها أشد تعقيدا . وفي بعض الأحيان نجد بين الآثار المختلفة علاقات تكشف عن توافقات لم تكن نحس بها قط من قبل . ولكننا باستمرار كلما كشف لنا لغز عن أسراره ، تفتحت ألغاز أخرى أمام أعيننا المتعجبة .

٧ - انتشار فلسفة نيوتن

ان نظريات نيوتن في الضوء واللون أدخلته في مجادلات مقبوتة . وامتدت تجاربه عشرين عاما ، ولكن لم تنشر أول طبعة من كتابه في البصريات حتى ١٧٠٤ ، وصدرت طبعة رابعة منه سنة ١٧٣٠ بعد وفاة بثلاث سنوات . وتتضمن هذه الطبعة أسئلة استفهامية أكثر مما تضمنتها الطبعة الأولى ، اذ أدرك نيوتن أن ما قد تعلمه كان أداة فقط لتثريه كم تبقى أمامه من أمور كثيرة أخرى في حاجة الى الكشف .

وعلى الرغم من أهمية بحوث نيوتن في الضوء ، الا أن انجازاته الفذة العظيمة في الجاذبية بزيها ، وألقت ظللا عليها . وبصرف النظر عن قيمة هذا العمل لرجال الرياضيات ، فانه حول أذهان جميع رجال الفكر الى مسالك جديدة . ولكن كان على الناس قبل أن يقدروا تعاليم نيوتن أن يتنازلوا عن تمسكهم بنظام ديكارث ، ولم تكن فلسفة ديكارث

قد تأصلت جذورها اطلاقاً في الأرض الانجليزية . وقد تكون أحد أسباب هذا أن أعظم العقول المستقلة النشطة مثل بويل ، وهوك ، ورين كانوا أكثر ولوعاً بالتجريب منهم بالنقاش . ويخبرنا بويل بالفعل أنه على الرغم من اعتراقه بديكارت وبيكون كزعاء له ، إلا أنه لم يقرأ مؤلفاتهما قراءة جدية لكي لا يشغل باله بأية نظرية أو بأية مبادئ قبل أن يكون لديه من الوقت ما يجعله يبحث الأشياء بنفسه . وبسبب هذا الاختلاف في الاتجاه بالاضافة - كما ذكر سالفا - إلى أن الديكارتية لم تكن وطيدة الأركان في إنجلترا كما كانت في القارة ، كان أمام فلسفة نيوتن فرصة أفضل ليتقبلها الناس في إنجلترا .

ولقد كرم نيوتن من جامعيته ونصب فارساً بواسطة الملكة آن ، وسرعان ما عرف مواطنوه قيمة عمله . وبعد سنتين قليلة من نشر كتاب « أصول الأشياء » أقيمت محاضرات عامة في فلسفة نيوتن - أولاً في أدنبره ثم في لندن . وبذلت محاولات لتعريف النشر بمبادئ نيوتن . ونقرأ عن أكاديميات للسادة الصغار حيث أضيفت رياضيات وذلك نيوتن إلى البرامج الدراسية . وفي السنين الأولى للقرن الثامن عشر بدأت تظهر مذكرات في فلسفة نيوتن في الأبحاث الفرنسية . ولكن الفلسفة النيوتونية لم ترح في القارة إلا بعد رجوع فولتير إلى فرنسا بعد زيارته لإنجلترا . وبذلك حل محل نظام ديكارت الفيزيائي بوسطه المتصل ودواماته المادية المتحركة نظام نيوتن الأبسط بكثير والأكثر شمولاً .

٨ - القانون العلمي

إن فكرة القانون التي ظهرت بوضوح في انجازات نيوتن كانت آخذة في النمو طوال القرن السابع عشر . إنها امتدت امتداداً كبيراً إلى ما وراء صفوف رجال العلم ، وغیرت طابع التفكير لدى جميع الناس . لقد غيرت لغة الكتابات السياسية بأكملها . وبدأ الناس يستعملون من العلم تعبيرات ويستعملون أفكاراً كذلك ، مثل الموازنة ، والتوازن ، وهكذا التي ظهرت في مؤلفات عن النظرية السياسية . وبدأ الناس يطبقون طرق القياس في الأمور الحكومية . وعلى ذلك فقد نشأت بالفعل في القرن السابع عشر مبادئ العلم الذي نعرفه اليوم بعلم الإحصاء الحيوى . ويظهر تطبيق الطريقة العلمية على المشاكل البشرية في مؤلف لجرشيمس (١٥٨٣ - ١٦٤٥) في القانون الدولى ، استنتج فيه من مجموعة كبيرة من المناقشات والأمثلة بعض مبادئ عامة بسيطة . وقد أثر هذا الكتاب في الفكر السياسى الأوروبى ، ومن ثم ، أثر عن طريق التشريع ، في حياة كثير من الناس .

وقد أوجد التعرف على أحداث الطبيعة التي تتم طبقا لسنن منسقة اتجاها أكثر تعقلا في الحياة العادية للناس ، فقد كان الناس فيما مضى يعتقدون في التأثيرات المعجزة • كان الفلاح يلقي اللوم على بعض القوى الخارقة عندما كانت تهب عاصفة تدمر محاصيله • وكانت زوجته تعتبر قوى الشر مسؤولة عن فساد هلامها • وكان معظم الرجاء والنساء في جميع أنحاء أوروبا لا يزالون يعتقدون في الساحرات في بدء القرن السابع عشر • وتنافس الكاثوليك والبروتستانت مع بعضهم البعض في تعذيب وإحراق أولئك التعساء الذين اتهموا بالشعوذة • كان هذا العصر من أظلم عصور التاريخ البشري • ومع ذلك فبعد مائة عام بدا أن هذا الاضطهاد قد توقف فجأة • وفي أوائل القرن الثامن عشر ألغيت القوانين التي تحرم السحر في مختلف الممالك • فما سبب هذا ؟ أن الإنسان لم يصبح فجأة أكثر رحمة ، ولكنه أصبح أكثر تعقلا فقط • لقد علم العلم الإنسان قبل هذا الوقت حدود سيطرته على الطبيعة • ونتيجة لذلك أدرك أن توجيه اللوم إلى مخلوق زميل لحسده ماشيسته ، أو تسببه في محاصيل رديئة إنما هو مجرد غباء • وعلى ذلك توقف الاضطهاد من أجل الشعوذة - وبما أن العلم علم الإنسان أيضا شيئا من القوانين ، وشيئا عن ضخامة الكون ، فإن الاعتقاد القديم في التنجيم - تحكم الكواكب في مصائر البشر - مات مorte طبيعية •

وإدراك الإنسان أن هناك قانونا بسيطا تسيّر السموات والأرض بمقتضاه حرر الإنسان تدريجيا من مخاوف خرافية أخرى • فمثلا ظلت المذنبات تعتبر زمنا طويلا نذرا لدهاية دهياء • ولكن في ختام القرن السابع عشر حسب هالي (١٦٥٦-١٧٤٢) صديق نيوتن مدار مذنب ، وتنبأ بعودته عام ١٧٥٧ ، وأجرى تقديراته طبقا لمبادئ الجاذبية • ومما أثار دهشة الدنيا المتعجبة أن المذنب ظهر في ميعاده في الوقت المتنبأ به • وقد دعى بمذنب هالي •

وفي القرن التاسع عشر أيضا في فترة تقدم فيها الفلك تقدما ملحوظا اكتشف جيمس كوتش آدمز (١٨١٩ - ١٨٩٢) ، وإيرين ليفيرير (١٨١٦ - ١٨٧٧) الفلكي الفرنسي الكوكب نبتون ، وكان كل منهما يعمل مستقلا عن الآخر • وقد لاحظ تباينات بين المواقع المشاهدة لكوكب يورانوس ، والمواقع المحسوبة طبقا لقانون الجاذبية • واستنتج كل من هذين الباحثين أن يورانوس لا بد أن يكون مجذوبا بواسطة كوكب ما بعيد جدا لم يشاهده إنسان حتى ذلك الوقت • ونتيجة لذلك قاما بحساب المكان الذي كان لا بد أن يقع فيه مثل هذا الكوكب بحيث يحدث التباينات التي شاهدها • وأرسل آدمز إلى رجال الأرصاد في كيمبردج مبينا لهم في أي أقاليم السماء ينبغي عليهم أن يبحثوا عنه • وأرسل ليفيرير نتائج

لمساعد له فى برلين . وقد كان آدمز هو الأسبق فى تقديراته ، ولكنه كانت هناك فى برلين خرائط نجمية أفضل من التى فى كيمبرج حتى أن الكوكب الجديد شوهد لأول مرة فعلا من برلين ، واكتشف فى المكان الذى حددته النظرية . وقد أصبح هذا الكشف الذى اعتبر نصرا لنظرية الجاذبية فى حيز الامكان بواسطة التلسكوبات التى أدخلت عليها تحسينات هائلة والتى كانت ميسورة فى ذلك الوقت وبواسطة رسم الخرائط للسموات الذى تجلت فيه الأناة والجلد الذى أخذ يخطو قدما بخطى منتظمة منذ عصر نيوتن .

ومنذ اثبات قانون الجاذبية لأول مرة أخذ رجال العلم يواصلون البحث . وكانوا يجدون دوما أمور الطبيعة تسير طبقا لسنن ثابتة . وأصبحت هذه معتبرة كنظريات عامة أو قوانين بسيطة وبدلا من المناقشة والتوبيخ كما كان الأمر فى العصور الوسطى أصبحوا يشاهدون وقيسون ويحسبون . وبمجرد أن سيطر هذا الاتجاه الجديد على خيال الناس أصبح تقدم العلم أمرا لا شك فيه . ان القصة هى قصة أخطاء ومشقة وحنين ، قصة كد عسير ، ولكنها قصة تقدم مستمر يبدأ أحد النابغين من حيث ينتهى الآخر . يكرس أحدهم حياته للبحث المعبى ، ويستعمل الآخر ما توصل اليه الباحثون من نتائج لفائدة البشر . وعلى ذلك فان العلم يزدهر ويتجدد على الدوام .

الفصل السادس

العلم في السورة الصناعية

ان نواحي التقدم العلمى الهائل فى القرن السابع عشر كان راجعا الى فئة قليلة من زعماء الفكر ، ولم تفل اكتشافاتهم العظيمة اختراعات مدهشة على الفور . وأنه لصحيح انه كانت هناك تطبيقات معينة للعلم فى بعض مشاكل الحياة اليومية بواسطة رجال العلم ذاتهم . فمثلا أتقن هيجينز صناعة ساعة للبندول ، وصمم الزنبرك الذى استعمل فيما بعد فى ساعات الجيب . واخترع رين كثيرا من الآلات ذاتية التسجيل ذات جهاز مكون من عجلات مسننة وتروس وزنبركات . وكانت تتم التسجيلات فيها بشكل مستمر بواسطة قلم يتحرك فى أسطوانة دائرية . وكان أيضا أول من اقترح استعمال البارومتر فى التنبؤ بالجو . ومع ذلك كانت الاختراعات التى تمت فى القرن السابع عشر قليلة بالنسبة للنشاط العلمى العظيم لتلك المدة . ومن جهة أخرى كان القرن الثامن عشر فترة تدعيم للمعرفة العلمية أكثر مما كان فترة اكتشافات مثيرة ، ولكنه كان قرنا اشتهر باختراعاته .

وكان هناك من الطبيعى تحسينات فى صناعات القرن السابع عشر، حيث ان الصناع المهرة كانوا على الدوام يفيدون من تجربتهم . ولكنهم كانت تنقصهم المواد اللازمة لانشاء آلات ذات اثر فعال . وكانت تتكون مثل تلك الآلات التى وجدت حينئذ كمكينات النشر ، والأجهزة الميكانيكية الصغيرة مثل ماكينة التريكو ، ونول الأشرطة غالبا من خشب يرتبط بأجزاء معدنية . ولكن الخشب كان بالطبع غير مناسب اطلاقا للآلات التى يجب أن تكون مقاومة للحرارة ، أو التى يلزم أن ينزلق فيها جزء بسهولة داخل جزء آخر . ونتيجة لذلك فان الآلات التى من النوع المألوف لنا اليوم كانت ممكنة فحسب بعد أن وقف الناس على طرق فعالة للاستفادة من المعادن . وفوق ذلك كان يتطلب التحكم فى مثل تلك الطرق معسرفة بالكيمياء . ولذلك فعند تتبعنا لأثر العلم فى التغيير العظيم الذى حدث فى

الستين الأخيرة من القرن التاسع عشر والمعروف بالتورة الصناعية يجب أن تبدأ البحث عن كيفية توصيل الإنسان لاستخدام الحديد ، وهو أنفع المعادن كلها وأكثرها ذوبعا .

١ - الحديد والصلب

لا يوجد الحديد نقياً في الطبيعة ، ولكنه يوجد دائماً متحداً بعناصر أخرى (١) . أنه يوجد غالباً متحداً مع الأكسجين على هيئة أكاسيد . وكان استخلاص الحديد من خاماته أمراً معروفاً منذ الماضى السحيق . وقد بقيت الطرق التي كانت تناسب فقط مع كميات صغيرة من الخامات النقية هي لم تتغير مئات من السنين . وكانت الطريقة المستعملة في القرن السادس عشر تتلخص في وضع طبقة من الفحم النباتي في بوتقة قليلة الغور واسعة في موقد في الحلاء تتأجج فيه نار حامية . وكان يغطى الفحم النباتي بعد ذلك طبقة من الخام المجروش مخلوطة بقليل من الجير ، ثم تضاف بعد ذلك طبقة أخرى من الفحم النباتي ، ثم طبقة من الخام ، وهكذا . وكان المخلوط يسخن تسخيناً شديداً بنفخ النار بمنافخ . وكان هذا من شأنه رفع الحرارة إلى درجة تكفي لجعل الفحم النباتي يتحد مع أكسجين الخام تاركا حديداً (لوحة رقم ١٥) (٢) .

وكانت طريقة استخدام نوع من الكربون في تسخين الخام تستعمل منذ ذلك الحين مع تحسينات في التفاصيل عند استخدام كميات كبيرة . وكان المعدن الذي يتحصل عليه بهذه الطريقة يحتوي دائماً على كربون خالص وكذلك كربون متحد بالحديد . وهذا من شأنه إعطاء الحديد خواصه التي يتميز بها .

ويمكن انسيابه وهو منصهر إلى قوالب . وحيث أنه يتمدد حينما يتصلب فإن القالب يمتلئ به امتلاء محكماً . ولذلك فحينما يؤخذ هذا الحديد المسبوك يترك وراءه طبعة واضحة ، ويعرف مثل هذا الحديد بالحديد الزهر . ويمكن الحصول على نوع من الحديد أنقى من ذلك بكثير بالتخلص من الكربون في الحديد الزهر بواسطة أكسدته . ويمكن تشكيل هذا الحديد بسهولة عندما يكون ساخناً بواسطة الطرق . وهذا الحديد هو المعروف بالحديد المطاوع . وقد استعمل زمناً طويلاً للأغراض الزخرفية، فالأبواب الزخرفية الجميلة لمبنى القساوسة في دير وستمنستر مثلاً مصنوعة من حديد مطاوع يرجع تاريخه إلى القرن الخامس عشر .

(١) . لا يوجد في الطبيعة حديد نقي إلا الحديد المتخلف عن الشهب والنيازك (المترجم)

(٢) . هذه الطريقة موضحة في مؤلف بلوج أجري يكولا (بالز ١٥٥٦)

ويُنع الصلب فى درجة وسطى من النقاوة بين الحديد الزهر والحديد المطاوع مباشرة . وهو يتكون من حديد وكربون وآثار من عناصر أخرى . وقد ظل الصلب يصنع مدى قرون بتسخين الحديد المطاوع مع الفحم النباتى ، وبعد ذلك تقسى الكتلة الملتهية بالماء . وبهذا يكتسب المعدن صلابة وقوة عظيمنتين ، ويكون فى الاستطاعة شحذه وعمل شفرات حادة منه . ولذلك كان يستعمل لصناعة أنصال السيوف ، وكانت صناعتها فنا دقيقا . وتوجد قصص الأبطال الذين يصنعون سيوفهم المظفرة فى القصص الشعبية لكثير من الأقطار . ويرينا هذا قسم مثل تلك الطرق .

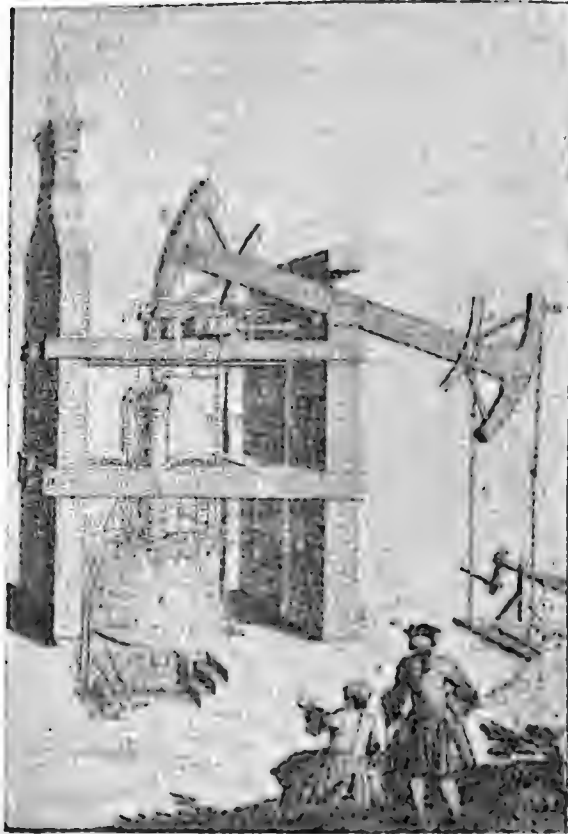
وازدهرت صناعة الحديد أيام الملكة الياصابات فى الجزء الجنوبى الشرقى من انجلترا . وكان يحصل على الفحم النباتى اللازم لصهر الخام من الغابات القريبة . ولكن الخشب كان مطلوبا كذلك لبناء السفن وللمبوت ، ولذلك أصبح من الضرورى الحد من اتلاف الغابات عن طريق التشريع . وعلى ذلك فكلما نمت صناعة الحديد كان على الناس أن يبحثوا لهم عن بديل للفحم النباتى ، وقد وجدوا هذا فى فحم الكوك وهو نوع من الكربون يتخلف بعد تقطير المواد القابلة للاشتعال بسهولة من الفحم . وشاع استعمال الكوك فى صناعة الحديد حوالى منتصف القرن الثامن عشر (١) . وكانت أسهل الأماكن التى يقيم فيها الحصول على الكوك هى طبعا الأماكن التى تقع بجوار مناجم الفحم ، وذلك توفيراً لتكاليف نقل الكوك . وفى انجلترا توجد رواسب الحديد الطبيعية قريبة من رواسب الفحم ، ولذلك ازدهرت صناعة الحديد بسرعة . وأقيمت أفران أحسن ، وأوجدت طرق لتطريق الحديد الى صحائف . وسرعان ما أنتج الحديد الزهر والحديد المصنّف بكميات كبيرة . وفى منتصف القرن الثامن عشر أقيمت أول قنطرة صنعت من الحديد الزهر فى كولبروكدال فى منطقة شروبشير ، واستعملت القضبان الحديدية لتجرى عليها عربات النقل المستعملة فى المناجم بدلا من القضبان الحشبية التى كانت مستعملة الى ذلك الوقت . وكان كل شىء معدا لإنتاج الآلات الحديدية بمجرد انتهاء المختريين من وضع تصميماتها . وكان لا بد أولا من حدوث تقدم فى صناعة المآدّن .

(١) وفى الفترة التى تخللت هذا ادخلت عدة تحسينات على صهر الحديد وكان مصدرها أجزاء مختلفة من القارة ، وعلى الأنص ملكة الوالون (الأجزاء الجنوبية والجنوبية الشرقية من بلجيكا والأقاليم المجاورة من فرنسا)



صهر الحديد

من لوحة خشبية لاجريغولا بخصوص الاشياء المعدنية ، بازل عام ١٥٥٦



آلة بخارية قديمة لرفع الماء من نقش عام ١٧٤٧

٥ - الآلات البخارية

كانت هناك محاولات كثيرة سابقة لاستعمال البخار فى القيام بالعمل الميكانيكى - وبمعنى آخر لصناعة آلة بخارية . وكانت المعلومات العلمية اللازمة لصناعة آلة بخارية معروفة بالفعل معرفة جيدة فى ختام القرن السابع عشر . ونتج عن ذلك ان كان الناس على دراية بالضغط الجوى، وعرفوا كيفية الحصول على ضغط منخفض أو ما يسمى « فراغا » بطرد الهواء بواسطة البخار ، ثم بتكثيف البخار بعد ذلك بالتبريد . وبجانب تلك الطرق العملية كانت هناك أيضا بعض المعلومات عن النظرية المنطوية على هذا . وعلى ذلك فحص بويل العلاقة بين حجم الغاز ، والضغط الواقع عليه فى الأيام الأولى للجمعية الملكية . ولكن على الرغم من أن المعلومات الأساسية كانت ميسورة ، فقد مضى وقت طويل قبل أن تحل آلات أكثر كفاية ويمكن أن تكون ذات نفع حقيقى للإنسان محل الآلات الأولى الثقيلة الحركة (لوحة ١٦) .

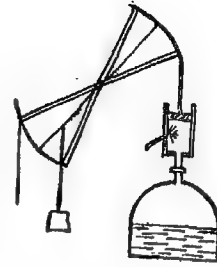
واتخذت الخطوة الأولى الهامة بواسطة توماس نيوكومين (١٦٦٣ - ١٧٢٩) أحد أمالى دارتموث ، وكان يعمل فى تجارة الحديد . وقصد تبودلت بين نيوكومين وهوك خطابات وقف بها نيوكومين على المناقشات التى كانت تدور بين الزملاء فى الجمعية الملكية عن امكانية ايجاد آلات بخارية . وبعد محاولات عديدة صنع نيوكومين آلة ضخ بسيطة استخدمت بسرعة فى رفع الماء من مناجم الفحم ، وكانت مشكلة ملحة فى تلك الأيام . وكانت آلة نيوكومين تتكون من غلاية ومكبس يتحرك داخل أسطوانة كما هى الحال فى مكبس منفاخ الدراجة . ولكن بينما يتحرك هذا المكبس الى أسفل وإلى أعلى باليد ، كان المكبس فى آلة نيوكومين يندفع الى أسفل بواسطة الضغط الجوى . كان الهواء يطرد أولا من الأسطوانة بواسطة البخار ، وبهذا يدفع الأسطوانة الى أعلى ، ثم ينقطع سبيل البخار وتبرد الأسطوانة برشها بالماء . وبذلك يتكثف البخار ويقل الضغط داخل الأسطوانة . ونتيجة لذلك يدفع ضغط الهواء الأكبر فى الخارج المكبس الى أسفل وبهذه الطريقة كانت تعمل المضخة كما يتضح من الشكل (شكل ٢٤) .

وكان لا بد فى الآلات الأولى لنيوكومين أن تفتح وتوصد الصنابير التى تتحكم فى ادخال البخار ورذاذ الماء البارد لتبريد البخار باليد . ولذلك كانت الآلات فى حاجة الى ملاحظة دائمة . وقد قيل ان صبيا كان يعمل ملاحظا ذات مرة فوجد أن عمله كان مضنيا بدرجة أن اخترع صماما كيقفا كان قام بعملية الفتح والإبصار بدلا منه مما تركه حرا يلعب مع رفاقه . لقد أخذ بفكرته وسرعان ما جهزت آلات نيوكومين بصمامات كانت تفتح وتغلق بواسطة تحريك الذراع .

(شكل ٢٤)

آلة نيوكومن

عند فتح الصمام كان البخار يدخل من الغلاية الى الاسطوانة ويدفع المكبس الى أعلى . عندئذ كان يتكثف البخار بواسطة رذاذ ماء بارد . ونتيجة لذلك كان الضغط يقل في الداخل ، فيدفع الضغط الجوي من الخارج المكبس الى أسفل مرة ثانية

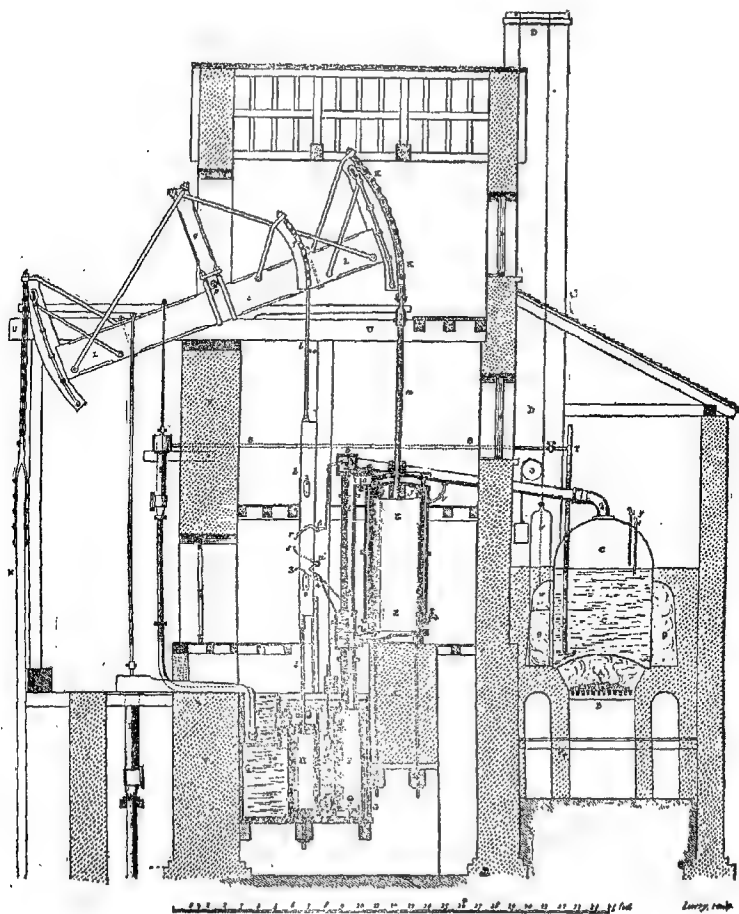


وأنت الخطوة الثانية في سبيل تحسين الآلة البخارية عن طريق تطبيق المبادئ الجديدة . وكان الفضل في هذا يرجع الى جيمس وات (١٧٣٦ - ١٨١٩) لقد صار وات عاملا ميكانيكيا في جامعة جلاسجو بعد فترة مران قصيرة كصبي صنعة في لندن . ولذلك فقد كان لديه فرص الاتصال الشخصي بأساتذة الجامعة . وكان من بينهم جوزيف بلاك (١٧٢٨ - ١٧٩٩) الذي كان أول من اعتبر الحرارة شيئا يمكن قياسه . وقد أبان أنه حينما يدفع بالبخار في الأحوال العادية الى الماء البارد ، فإنه يرفع درجة حرارة ما يساوي وزنه ست مرات من الماء الى درجة الغليان . وأطلق على هذه الكمية الكبيرة من الحرارة التي تنبعث عن تكثيف البخار حرارة البخار الكامنة أو الخفية . وقد أخبر وات بهذه النتائج مما أدى بهذا الرجل الأصغر منه سنا أن يفكر ويجري تجارب نفسه .

وذات يوم أعطى وات نموذجا لآلة نيوكومن لاصلاحه . لاحظ الطريقة التي يعمل بها ، وأدرك أن تسخين وتبريد الاسطوانة كان ينتج عنه ضياع كمية كبيرة من الحرارة . عندئذ طرأت على ذهنه مصادفة فكرة فصل الاسطوانة عن المكثف ، والاحتفاظ بالاسطوانة ساخنة بقدر الامكان بتغليفها بعلبة بخار . وكانت هذه هي الخدمة الكبرى التي أسداها للآلة البخارية . وسرعان ما صار بعد ذلك شريكا في شركة هندسية كبيرة في بيرمنجهام . وهبأله هذا فرصا عديدة لاجراء التجارب . وواصل ادخال تحسين بعد الآخر . وفي النهاية صنع آلة وجد أنها تستعمل فقط ربع الوقود الذي تحتاج اليه آلة من نوع آلات نيوكومن القديمة . ولذلك فسرعان ما استخدم أصحاب المناجم آلة وات الأكثر توفيرا للنفقات .

وفي السنين الأخيرة من القرن الثامن عشر تطلبت صناعة الحديد النامية كميات ضخمة من الكوك للصهر . وكان هذا معناه ضرورة الحصول على مزيد من الفحم ، وتعميق المناجم الموجودة بدرجة كبيرة . ولذلك عظم الطلب عن أى وقت مضى على الآلات البخارية لضخ الماء من

المناجم (شكل ٢٥) ، وكانت الآلات البخارية نفسها في حاجة إلى
 فحم . وسرعان ما استخدمت الآلات البخارية علاوة على ذلك في ادخال
 التيار الهوائي اللازم لصهر الحديد الى الأفران اللافة ، واستخدم كثيرين



« شكل ٢٥ »
 مضخة وات المرسدة للإتجاه

من الحديد الذى حصل عليه بهذه الطريقة لصناعة المزيد من الآلات ،
ولذلك ازدهرت سويا صناعة الفحم والحديد والآلات ازدهارا سريعا .

ولادخال تيار هوائى أو لضخ الماء كان من الضرورى فقط تحريك
الآلة البخارية إلى أعلى وأسفل . ومع ذلك لاحظ وات بسرعة مزايا آلة
تتحرك حركة دائرية مستمرة . وفى عام ١٧٨٢ سجل اختراع آلة
« مزدوجة العمل » كان طرفا الاسطوانة بها يتصلان بكل من الغلاية
والمكثف بالتنسواب . وعلى ذلك كان الكباس يدفع بالذراع ويشده
كذلك . ونتيجة لذلك أصبحت الآلة أقوى . وبواسطة ذراع تدوير ،
يمكن مشاهدة المبدأ القائم عليه فى المخرطة وفى مدوس مكينة الحياكة .
تحولت حركة المكبس الأمامية الخلفية إلى حركة دائرية . وكان كل شيء
معدا الآن للاستعمال الواسع المدى للآلة البخارية فى المطالب العملية .

٣ - القارب البخارى والقاطرة البخارية

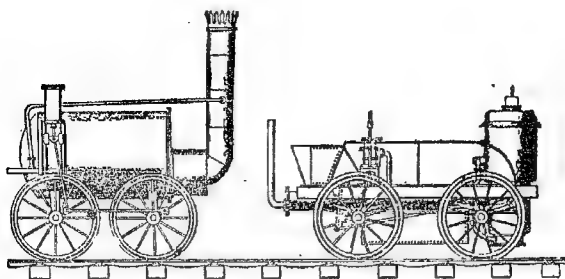
بمجرد صنع وات لآلة بخارية تسبب حركة دورية ، لم يكن أمام
المهندسين الا أن يقوموا بترتيب التفاصيل اللازمة لتجهيز القوارب بالآلة
بخارية مناسبة وجعلها تقوم بتحريك عجلات التدفيع وبذلك تحرك
القارب . أو يمكن أيضا للآلة البخارية أن تحرك عجلات عربى تجرى على
قضبان مع بعض التفاصيل الانشائية المناسبة . ولذلك ظهر القوارب
البخارى والقاطرة البخارية مباشرة نتيجة لاكتشاف وات . على الرغم
من أنه كان لا بد من دراسة كثيرة قبل أن يصبح أى منها ذا أثر فعال .

وجرب أول قارب بخارى ناجح سنة ١٨٠٢ فى مضيق كلايد ، اذ
وصلت آلة وات المزدوجة الحركة بعمود يدير عجلة تدفيع فى مؤخرة
القارب . وبعد ذلك بعشر سنوات سرت باخرة ذات عجلتى تدفيع
جانبيتين لنقل الركاب على نهر الكلايد . ومع ذلك فخلال النصف الأول
من القرن التاسع عشر تقدم القارب البخارى تقدما بطيئا نوعا حتى حينما
شاع استعمال الحديد كمادة فى بناء السفن . وقد وجد أن البواخير
التدفيفية غير مأمونة فى البحار الهائجة . ولم تبين عابرات المحيط القوية
الا بعد أن جعلت الهندسة العملية والطرق الأفضل لاستعمال الصلب فى
الانشاءات البواخر اللولبية أمرا عمليا .

وفى الوقت الذى ظهر فيه أول قارب بخارى بذلت عدة محاولات
ناجحة لانشاء قاطرة بخارية . وعلى الرغم من تلك المحاولات فان هذا
التطور اقترن باسم جورج ستيفنسون (١٦٨١ - ١٨٤٨) اقترانا تاما
لدرجة أننا لا نذكر الا اياه فحسب . وحيث انه نشأ فى منزل فقير فى
منطقة تعدين ، فقد كانت دائرة ذكرياته الأولى لا تتعبدى الآلات التى

تمتليء شحما ، وأكوام الفحم التي يتصاعد الدخان منها • لم يلتحق بمدرسة ولكنه بدأ العمل وهو صبي • وكان أول عمل قام به هو مساعدة والده في قذف الفحم بالجاروف داخل فرن إحدى مضخات وات • وكان هو في سن السابعة عشرة لا يزال غير قادر على القراءة ولكنه بدأ حينئذ يتعلم لكي يقرأ عن الآلات • وسرعان ما انتصرت مواهبه العجيبة على عدم تعلمه المبكر ، وادى ولعه بإمكان الجرب البخارى أن يقوم بالتجارب لحسابه الخاص أثناء فراغه الضئيل •

وفي النهاية أسند رؤساء ستيفنسون له مهمة ملاحظة انشاء قاطرة بخارية ، وقد أدى ستيفنسون الكثير بيديه • وكانت النتيجة انشاء آلة ذات حجم ضخم أقصى سرعة لها أربعة أميال في الساعة • وكانت تحتاج زيادة على ذلك الى كمية كبيرة من الفحم بدرجة أن الطريقة القديمة طريقة استخدام الجيصاد في جر العربات كانت أرخص بكثير كما كانت أسرع كذلك • ويمكن مشاهدة كثير من قاطرات ستيفنسون الأولى بمداخلها العالية ، وأجسامها المصنوعة من حديد زهر سميك في متحف العلم في سوث كينسينجتون (شكلا ٢٦ ، ٢٧) •

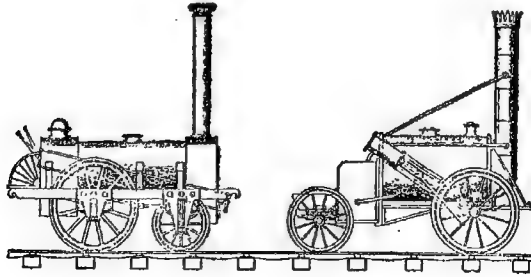


(شكل ٢٦)

رسوم تبيانىة لأنواع قديمة من القاطرات نشرت عام ١٨٣٤
تبين الصورة بوضوح جهاز ذراع التنوير الذي تحت بواسطته حركة المكبس الى أعلى وأسفل في الاسطوانة الرأسية الى حركة دائرية مستمرة للمحولات

وعلى الرغم من مرات الفشل العديدة التي واجهت ستيفنسون فإنه واصل العمل ، اذ سرعان ما أدخل تحسينا أدى الى اخراج البخار خلال أنبوبة في مدخنة الغلاية بعد دفع المكبس • وقد أدى هذا الى ايجاد نيار زائد من الهواء جعل الفرن يتأجج بسرعة مما نتج عنه ازدياد قوة القاطرة • ومن ذلك الوقت فصاعدا استخدمت قاطرات ستيفنسون لنقل الفحم في مناطق كثيرة •

وظلت القاطرة البخارية عدة سنين تعتبر مجرد وسيلة لنقل البضائع الثقيلة ، ولم يدر بخلد انسان قط حتى ذلك الوقت ان تستعمل لنقل المسافرين • ومع ذلك تنبأ ستيفنسون أن السكك الحديدية ستحل محل عربات اليد ، وانه سيأتى اليوم الذى ستكون فيه رخيصة لدرجة أن العمال لن يصبحوا بعد ذلك فى حاجة الى السير لمكان عملهم اليومى •



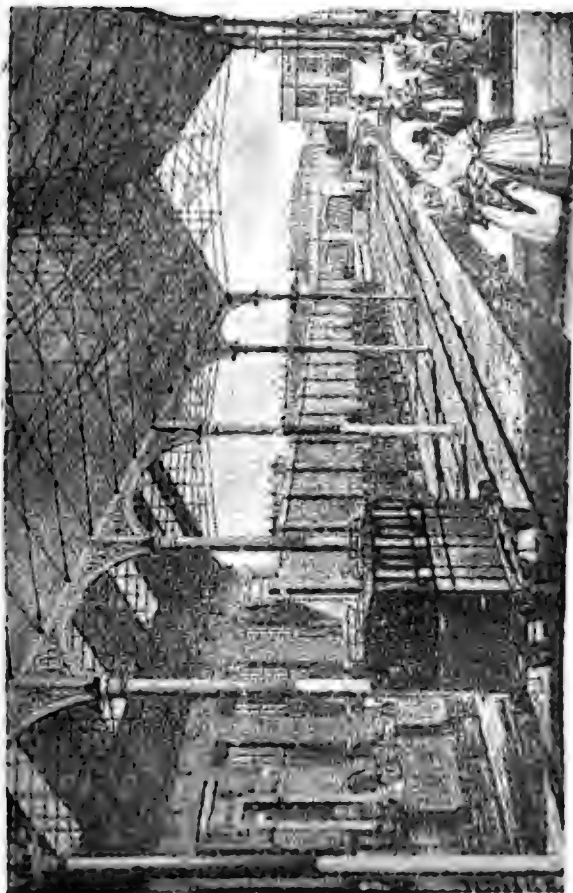
(شكل ٢٧)

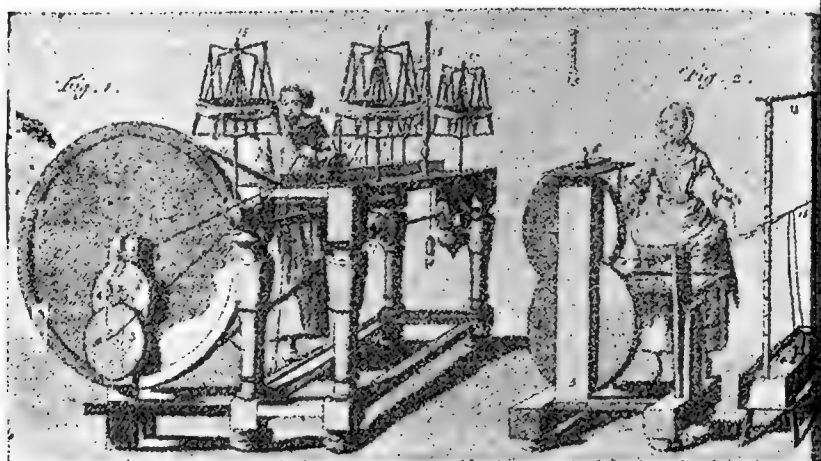
انواع قاطرات ظهرت فيما بعد
من رسوم توضيحية نشرت عام ١٨٢٤ تظهر الاسطوانة فى وضع مائل بدلاً من الوضع الراسى
كما فى الانواع التى ظهرت قبل ذلك

وبدا فى أول الأمر أن تنبؤاته كانت مفرطة فى التفاؤل أكثر من اللازم • وقد افتتحت سكة حديد ستوكتون ، ودارلينجتون عام ١٨٢٥ • ولكن استعمالها فى أول سنة برهن على أن القاطرات البخارية كانت تكاليفها أكبر بكثير من القطارات التى كانت تجرها الجياد كما كانت غير موثوق بها ، وذلك لأن القاطرات غالباً ما كانت توقفها الرياح الشديدة • وزيادة على ذلك فقد كان الشعور العام معباً بدرجة كبيرة ضد القاطرات البخارية التى أثارت على الأخص حنق أصحاب القنوات • وطبعت نشرات تقول ان السكك الحديدية ستمنع البقر من الرعى والدجاج من البيض ، وأنها فى الحقيقة مناقضة لسنة الله •

ومع ذلك واصل ستيفنسون وآخرون غيره اضافة تحسين بعد الآخر على القاطرة • وسار منشئو السكك الحديدية قدماً بمشروعاتها • وحفروا الأنفاق فى التلال وأنشئوا أميالاً من الخطوط الجديدة • وفى النهاية قدمت جائزة ألف جنيه لأحسن قاطرة • وقد ربح الجائزة ستيفنسون الذى بلغت سرعة قاطرته المسماة البصاروخ والتى قادها بنفسه ٣٥ ميلاً فى الساعة •

قطار قدیم لکرکانی ، ۱۸۳۹





الآلات ميكانيكية لتدريسة للفرز

ويعد هذا النجاح بدءا للسكك الحديدية الحديثة (لوحة ١٧) وقد قامت الملكة فيكتوريا برحلتها الأولى فى قطار السكة الحديد عام ١٨٤٢ . وربطت فى العشر سنوات التالية مدن انجلترا الرئيسية بالسكك الحديدية . وفى أثناء ذلك ابتدأت السكك الحديدية فى القارة . وانهالت الطلبات على الشركات الهندسية فى انجلترا لتزويد القارة بالقاطرات والحديد . وعلى ذلك ازدادت صادرات انجلترا ، ومن ثم ثروتها بسرعة هائلة . انها لم تصدر القاطرات فحسب ، بل ان القاطرات نفسها التى ساعدت على تطويرها مكنتها من ارسال منسوجاتها الى الاماكن البعيدة من العالم وأن تتلقى المنتجات الخام مقابل ذلك ، وبذلك بدأ تفوق انجلترا الصناعى .

وقد أحدث نجاح القاطرة البخارية تغيرا مفاجئا فى احدى امكانيات الانسان الأولى ، اذ أنه على الرغم من أنه تاق لأجنحة كأجنحة اليمامة كى يسبح فى الجو ، فانه لم يستطع خلال العصور كلها الا أن ينتقل بالسرعة التى تحملها بها قدماء أو جباهه . أما فى ذلك الوقت فانه كان يستطيع الانتقال أسرع من أحسن جواد ، أو أحسن غربة بريد عشر مرات تقريبا . وأصبح فى الامكان كذلك للأخبار أن تنتقل بنفس السرعة . وأصبحت الاماكن الشديدة البعد على بعد عشر مسافاتها السابقة فعلا . وعلى ذلك صار من الممكن مباشرة الادارة فى منطقة تبلغ مساحتها مائة مرة قدر المساحة التى كان يمكن ممارستها فيها قبل ذلك . وكان من نتيجة ذلك أن أصبح فى الامكان حكم اتحاد كبير من الشعوب كالولايات المتحدة والامبراطورية البريطانية من عاصمة مركزية . ولذلك ففوق أن السكك الحديدية فتحت الباب على مصراعيه للتجارة ، ووفرت المزيد من وسائل الراحة فى وسائل الانتقال ، فانها لعبت دورا هاما فى ازدهار الجانب السياسى من مدنيتنا الحالية .

٤ - القوة الآلية وصناعة المنسوجات

بينما كانت التحسينات فى صناعة الحديد بانجلترا تسير قدما ، كانت هناك تطورات هامة تأخذ مجراها فى صناعة القطن . فقبل نسج القطن الى قماش ، يجب برم أليافه أو غزلها الى خيوط طويلة . وقد ظل هذا الغزل يبارس بواسطة برمها بمغزل يدوى . ومع ذلك ففى سنة ١٧٧٠ سجل هارجريس ، نساج من بلاكبيرن دولاب غزله . وكان جهازا يدار باليد يمكنه غزل عشرين أو ثلاثين خيطا فى المرة الواحدة . وفى سنة ١٧٦٩ سجل آركريت من بريستون اختراعا لسحب اليفاف القطن وتحويلها الى غزل قطنى بواسطة نول غزل . وقد جعل هذا من الممكن غزل كثير من الخيوط بسرعة وبأية رقة مطلوبة أو قوة . ويمكن

مشاهدة كثير من أنوال الغزل الأصلية القديمة في متحف العلوم في
سوث كينسينجتون •

وكان أول مصنع غزل أقامه آركريت يدار بواسطة الجبل • ولكن
المصانع التي أقيمت بعد ذلك استخدمت قوة الماء في إدارتها ، أي الماء
المتحدر من مستوى أعلى الذي يستخدم في إدارة العجلات • وسرعان ما
افتتحت مصانع غزل مائية في مناطق عديدة ، وتقدمت صناعة النسيج
بخطى واسعة •

ولكن أصحاب المصانع بدأوا يسمعون عن آلة وات ، واستعملت الآلة
البخارية في مصانع القطن في المناطق التي يندر فيها الحصول على قوة
مائية • وعندما ازدهرت المعرفة الهندسية أنشئت آلات غزل أفضل ،
وحلت الآلات المصنوعة من الحديد تدريجياً محل الآلات المصنوعة من
الخشب • وأصبح في مقدور الصناع علاوة على ذلك إرسال رسائلهم
بسرعة بواسطة السكك الحديدية حينئذٍ عام استعمال القاطرة البخارية
وهذه التحسينات الفنية العديدة تفاعلت مع بعضها البعض بدرجة ممتازة
جداً وأحدثت تلك التغييرات التي غالباً ما يشار إليها باسم الثورة الآلية •
وآثرت النتائج التي تولدت عن هذا في صناعات انجلترا في حياة الناس
حتى أصبح التغيير يعرف باسم الثورة الصناعية • لقد بدأت الحركة
في انجلترا ، ثم امتدت بعد ذلك إلى القارة الأوروبية ، والولايات المتحدة •
وقد أثرت في حياة الناس جميعاً ، و جلبت في أثرها شراً وخيراً • ولكن
هذا التغيير على وجه العموم جعل الحياة أكثر أمناً ويسراً عن ذي قبل •

الفصل السابع

العالم كعامل في التغيير الاجتماعي

ان التغيرات العديدة التى تندرج تحت مفهوم الثورة الصناعية كانت ترشح الى أسباب متداخلة بعضها فى بعض سنحاول الكشف عن بعض منها . ويجب أن نذكر أولاً أن نواحي التقدم العلمية العظيمة فى القرن السابع عشر لم يفهمها الا فئة قليلة من العلماء ، اذ فى تلك الأيام كانت هناك أعداد كبيرة من الناس فى جميع ممالك أوروبا لا يستطيعون القراءة او الكتابة . وانه لحق ان محاولات عديدة بذلت فى انجلترا اثناء القرن الثامن عشر لترويج فلسفة نيوتن وللمساعدة على نشر التعليم بين الفقراء ولكن هذه الجهود لم تصل الغالبية العظمى من الناس . ونتيجة لذلك فقد كان أحد آثار المعرفة الجديدة ذات النتائج البعيدة المدى توسيع الهوة بين المتعلم والامى وبين الفقير والغنى .

وبالطبع لم يكن الأغنياء قط دائماً من المتعلمين ، اذ غالباً ما كان المتعلمون فقراء . ولكن الاتجاه كان يميل نحو هذا التقسيم الحاد للطبقات الاجتماعية . وحدث تحالف العلم والقوة الذى تميز به غرب أوروبا تغيرات تشريعية شعرت بها الطبقات الاجتماعية كلها . ولكن لم تكن أعظم التغيرات المدهشة ناتجة عن مجرد التغيرات العلمية ، بل عن استفلال هذه التغيرات فى خدمة الصناعة . ولذلك فعلى الرغم من انه كان هناك ميل فى النصف الأول من القرن الثامن عشر لتحويل الانتاج المنزلى ذى النطاق الضيق الى انتاج تقوم به مؤسسات أكبر ، فان هذا التغيير حدث بسرعة اعظم بكثير بعد اختراع الآلة البخارية . وحدث بعد ذلك استخدام الآلة البخارية فى النقل وفى ادارة آلات النسيج تغيرات فى وسائل المعيشة وفى قوة العمال الكسبية كان من شأنها أن تغير طابع الحياة الصناعية بأكمله . وبذلك تحولت انجلترا من أرض تزخر بالقرى ، أرض عمال يدويين يعملون داخل منازلهم ، أرض ذات أسواق محلية ، الى أرض صناعية عظيمة ذات علاقات تشمل العالم كله . وقد بدأ هذا التغيير فى

انجلترا ، ولكنه اتخذ طريقه بعد ذلك الى قارة أوروبا ، محدثاً أثره بعد ذلك فى المدنية الغربية كلها .

وكانت الملامح الرئيسية للحياة الاجتماعية الجديدة الناشئة عن هذا هى ازدهار انتاج المصانع ، واقفار الريف ، وازدحام المدن والزيادة الهائلة فى السكان . ويجب علينا الآن ان نتدبر هذه المظاهر بدورها محاولين ان نتكشف اين كان العلم عاملاً مساهماً واين كانت المعرفة العلمية عوناً للناس فى المشاكل الجديدة التى كان عليهم ان يواجهوها .

١ - الانتاج المصنعى

ان صناعة القطن التى نمت بدرجة هائلة بعد اختراع آلات الغزل وجدت فحسب منذ افتتاح طرق التجارة مع امريكا . ومن جهة اخرى ازدهرت صناعة الصوف فى انجلترا منذ القرن الرابع عشر . وعلى ذلك كانت صناعة أقدم بكثير وذات جنور عميقة فى حياة الناس ، ولذلك استمرت تمارس فى المنازل بالطرق القديمة باليد بعد استخدام الآلات فى نسج القطن بوقت طويل . ويذكر كثير من الناس كيف وصف جورج اليوت (١) فى قصته سسيلاتس مارنر نف الصوف كعمل مألوف فى مزارع اوائل القرن التاسع عشر .

ومع ذلك فقد جعلت الآلات التى تدار بقوة البخار نسج القماش رخيصاً بدرجة ان وجد التاجر الوسيط الذى اعتاد شراء بضاعته من الصناع الذين كانوا يصنعون النسيج فى منازلهم من الأفضل له الاتجاه مباشرة لأصحاب المصانع . ولذلك فقد قضى فى النهاية على صناعة نسج الصوف فى المنازل ، وحل محلها العمل فى المصانع . وفى أثناء ذلك كانت صناعات القطن والمعادن تنمو يوماً بعد يوم . وقد لوئت المداخل الهواء بما كانت تخرجه من دخان ، وشوهت أكوام الخشب منظر الريف الجميل . وكان العمال يتكدسون فى مصانع النسيج وغيرها من المصانع حيث كانت الآلات التى يعمل عليها كثير من العمال تدر ثروة انتاج لم تكن معروفة من قبل .

ومع ذلك علينا ان نتذكر ان استخدام افواج كبيرة من العمال لم يكن امراً جديداً ، فقد كان من الضروري تجنيد مئات من العبيد سنوياً لتشديد الأهرام وطرق روما القديمة . ان الذى امتجد فقط انما هو نوع العمل

(١) الاسم اللغوى للاديب الانجليزى مارلان ايفانز (١٨١٩ - ١٨٨٠) الذى ألف عدا من القصص المشهورة من بينها دانيال ديروتدا ، وسيلاتس مارنر .

الذى كلف العمال به . لقد كان العبيد يعملون والسياط على ظهورهم
بعضلات مجهدة والعرق يتصبب من جبينهم . وزيادة على ذلك فقبل أن
تستعين الصناعة بالآلات كانت الغالبية العظمى من الرجال والنساء فى
جميع أنحاء أوربا يقضون حياتهم كلها يعملون لمجرد سد ما هو دون
الكفاف من حاجاتهم من الطعام والمأوى . ومع ذلك فبمرور الزمن قلل
الانتاج على نطاق واسع من عناء الانسان الجسدى ، ورخص ضروريات
الحياة ، وانقذ الآلاف من الفقر المدقع . ولذلك فقد صارت الآلة من ناحية
ما عبدا للانسان .

٢ - تغييرات فى الزراعة

لم تشهد السنين الأخيرة من القرن الثامن عشر تقدما كبيرا فى صناعات
انجلترا فقط ، بل حدثت هناك تغييرات عظيمة فى زراعتها أيضا . وحتى
هذا الوقت كان الفلاحون يواصلون عملهم متبعين كثيرا نفس الطريقة التى
سار عليها أسلافهم فى العصور الوسطى - كانوا يزرعون الأرض قمحا
مدة عامين ويتركونها بورا لاستخصابها عاما . وكان هذا بالطبع معناه
أن ثلث أرضهم كانت دائما بلا جدوى . ولكن الفلاحين أدركوا فى النهاية
أن أرضهم يمكن زراعتها لفتا أو برسيما بدلا من تركها بورا ، وأمدهم
هذا بالطبع بطعام لماشيئتهم خلال الشتاء . ولذلك استطاعوا الحصول على
لحم طازج ، ولم يعد من الضروري ذبح كثير من أنعامهم فى الخريف
لتزويدهم بلحم مملح ليستعملوه فى الشتاء كما كانوا من قبل يفعلون .

وكانت انجلترا مكتفية ذاتيا حتى نهاية القرن الثامن عشر فيما يختص
بجميع المواد الغذائية الأساسية ، وكانت تزرع فى الحقيقة قمحا يزيد
عن حاجتها . ولكن كان عدد سكانها قبل هذا الوقت يزداد ازديادا سريعا
وكان عليها اثناء الحروب النابوليونية بالإضافة الى امداد جيوشها
بالأطعمة فى الخارج أن توفر الغذاء لعدد أكبر من الناس فى الداخل
وعلى ذلك تحتم عليها أن تزرع المزيد من القمح ، وأن تزيد كثيرا فى رقعة
الأرض الزراعية . وهنا تدخل التشريع الذى قضى بتخصيص كثير من
الأرض البور لزراعة القمح . وقد استمر بين الحين والحين تخصيص
مساحات كبيرة من الأراضي العامة التى كان يستعملها الفقراء لرعى الماشية
مئات من السنين . وجعلت الأحوال التى سادت أوائل القرن التاسع
عشر مثل هذه الاجراءات أكثر حتمية .

وعلى ذلك فكان لا بد فجأة من تهيئة أراض كثيرة للزراعة . لقد علم
المستوطنون الهولنديون الفلاحين الانجليز كيف يصرفون المياه الزائدة
فى أراضيهم بواسطة حفر المصايف .

وهرع العلم أيضا لنجدتهم ، واستخدمت الآلات البخارية فى ضخ الماء من مئات الأفدنة فى المستنقعات . وبهذه الطريقة أصبح كثير من الأرض منتجا . ومد العلم لهم أيضا يد المعونة بطريقة غير مباشرة بتهيئة الآلات الزراعية . واستخدمت فى ذلك الحين التحسينات العظيمة فى صناعة المعادن التى خصصت لصناعة آلات النسيج فى صناعة محاربت وآلات حصاد أحسن . وعلى ذلك أصبح فى حيز الأماكن القيام بزراعة مثمرة . وسرعان ما أصبح هناك إنتاج متزايد بدرجة هائلة .

ومع ذلك ظلت هذه التحسينات سبباً دون أن يشعر الناس بها وقد سببت الأحوال المضطربة التى أعقبت حروب نابليون تقلبات فى أسعار القمح والمواد الغذائية الأخرى . وكان هناك الكثير من المحاصيل الرديئة مما أدى إلى إفلاس كثير من صغار المزارعين . ونتيجة لذلك لم تجد أفواج كبيرة عملاً فى الزراعة ، ولذلك هرعوا إلى المدن تاركين الريف مقفراً . وقد بلغت هذه الأحوال من السوء مثلاً بلغت أحوال الفلاحين الأيرلنديين التى صورها جولد سميث قبل ذلك بخمسين عاماً تقريباً فى قصته « القرية المهجورة » .

٣ - الاندفاع صوب المدن

وجد القادمون الجدد إلى المدن حياتهم عسيرة جداً أول الأمر . وتتطلب الأحوال الجديدة للحياة الاجتماعية وقتاً معيناً لتمثيلها . وغالباً ما يقامى الناس كثيراً إلى مراحل الانتقال . وكان الأمر كذلك فى عشرات السنين الأولى من القرن التاسع عشر . وكانت ترجع هذه المحنة أذن من جهة إلى اضطراب أحوال العمل الذى أعقب الحروب النابليونية ، ومن جهة أخرى إلى الأراضي التى خصصت لزراعة القمح ، ومن جهة ثالثة إلى الانتشار السريع للآلات الوفرة للجهد ، إذ كان معناه أن أصبح كثير من عمال النسيج الذين كانوا يقومون بالنسيج فى منازلهم بلا عمل . وقد حاول العاطلون أن يجدوا عملاً فى الأراضي الزراعية . وكان هذا مستحيلاً فى كثير من المناطق بسبب محنة الفلاحين . وكان من الصعب على أية حال تحول الإنسان من الفز إلى عزق البطاطس ، كما كان من الصعب على العامل الذى تخشنت يده أن يتعلم العمل الذى يحتاج إلى مهارة أكثر والذى تتطلبه المدن . وعلى ذلك قاست الآلاف الكثيرة لا للذنب أكثر ، وذلك بسبب أنهم أصبحوا بلا حول ولا قوة أمام التغيرات الاجتماعية . وقد وجدوا متنفساً للإلام فى القيام بهجمات جنونية على الآلات نفسها ، وياحرق أكوام الدريس ومباني المزارع . وهناك صورة كئيبة لتلك الأيام فى قصة آلتون لوك لشارلز كنجسلى ، وفى

قصة شيرل لشارلوت برونتي ، وفي مسرحية محطى الآلات ، وهي تمثيلية كتبها ممثل الماني حديث يدعى ايرنست تولر .

وعلى ذلك فعلى الرغم مما داهم الأفراد من محن ، فان تجارة انجلترا الخارجية ومن ثم ثروتها كانتا في ازدياد سريع . وكان عدد سكانها ايضا ينمو نموا سريعا ، وتضاعف بين سنتي ١٧٦٠ و ١٨٣٠ . ومع ذلك كان معدل هذه الزيادة اكبر بكثير خلال النصف الاول من حكم الملكة فيكتوريا . ومع الزيادة في ثروة البلاد نشأ المزيد من المؤسسات الصناعية التي كانت تعتمد في قيامها على حوزة قليل من الناس لمال احتياطي - او بمعنى آخر رأس المال . وقد بنيت مصانع كثيرة ، كما استخرجت كميات اكثر من الفحم والحديد من كنوز الأرض المدفونة التي كانت تبدو كأنها لا تنفذ . وأجبر أصحاب الأعمال الذين كانوا لا يفكرون الا في الانتاج الرخيص على أن يعمل العمال ساعات كثيرة . وكانت اليد العاملة رخيصة ، اذ كان هناك الكثير من العمال وحتى الأطفال يستخدمون في مصانع الأنسجة والآلات بشروط تبدو لنا اليوم شروطا مرعبة . ومع ذلك كانت الأحوال في مناطق التعدين أسوأ من ذلك . لقد اعتادت النساء أن تجر العربات في المناجم ، وكانت أحوالهن المعيشية سيئة بدرجة أن سات صحة الكثرات منهن بدرجة كبيرة . ونشأ أطفالهن جهلة ميمين . وقد أخرس نقص التنظيم السنة المعانين ، وسبحت في سماء انجلترا سحبابة معتمة من اليأس أسود من الدخان المتصاعد من مداخن مصانعها .

ولكن لا يمكن القاء المسؤولية في هذا على عاتق العلم . انه لحق أن العلم التطبيقي قد أعطى الانسان قوة البخار التي فتحت الطريق أمامه لصناعة على مجال واسع . وكان هذا في النهاية ذا ميزة للغالبية العظمى من الناس ، ولكن اطراد التسهيلات الخاصة بالصناعة كان سريعا بدرجة أن التغيرات الاجتماعية الضرورية لم تستطع أن تسايرها ، ولذلك كان لا مندوحة من وجود الكثير من المعاناة . وكان الكثير من هذه المعاناة أيضا راجعا الى ما تميز به الأشرار من طمع . ولكن بصرف النظر تماما عن هذه الاعتبارات تبرز الحقيقة التي تلخص في أنه كان هناك حافز وراء هذا التغيير وكان هذا الحافز هو الحافز الطبيعي في الانسان لاكتساب المزيد من المال . وحينما صنع المخترعون الاول آلات يمكنهم بواسطتها تشغيل عدة آلات غزل في نفس الوقت رأوا أن هذا معناه مضاعفة كسبهم وكان نفس الدافع هو الذي دفع بسكان الريف الأكثر ذكاء أن يبحثوا عن عمل في المدن حيث كانت هناك فرصة للعمل المستديم على مدار السنة كلها على الرغم من أحوال العمال السيئة . وعلى ذلك انتقلت انجلترا في مدى أجيال قليلة من كونها بلدا تتكون الغالبية العظمى من سكانها من

إهالى الريف الى بلد تكدس سكانه - الآخذون فى الزيادة بسرعة عظيمة فى المدن . وحدثت حركات مشابهة فى الممالك الأخرى . وما أن بدأت تلك التغيرات حتى اندفعت فى طريقها قدما كلما مرت الأيام ولم يستطع شئ إيقاف سيرها .

وبما أن العلم تقدم خلال القرن التاسع عشر ، فقد نشأت صناعات جديدة كثيرة نظمت على نطاق واسع من البداية . وعلى ذلك لم يكن من المستطاع اطلاقا إقامة صناعة غاز الاستصباح من الفحم التى بدأت فى إنجلترا عند مطلع القرن والتى كانت تتضمن تقطير الفحم وتجميع المنتجات وتفتيتها على نطاق ضيق . ومع نواحي التقدم التى تمت فى الكيمياء أدخلت تحسينات على صناعة الصابون والصودا ومواد التبييض . وكانت تتطلب كل هذه الصناعات وكذلك الصناعات المدنية النامية والتطورات الهائلة فى مجال التكنولوجيا الكهربائية التى تمت فى السنين الأخيرة من القرن التاسع عشر نظما لتشغيل المصانع . ونتيجة لذلك أخذ العمال يتخصصون أكثر فأكثر فى كل إنجلترا والقارة الأوروبية . وقامت الصناعات المتشابهة بجوار بعضها البعض جامعة بذلك آلاف العمال . ونشأت مدن جديدة ، وصار المصنع أحد ملامح الحياة المألوفة لأوروبا الصناعية .

٤ - أفكار اجتماعية جديدة

كان سير الحوادث الذى أعقب استعمال آلات الفزل لأول مرة حثيثا حقا . والتغيرات التى نتجت عن هذا فى الحياة اليومية جمعت الناس بمعنوا الفكر ، وتولدت عن هذا أفكار جديدة . وقد رأى أصحاب البصيرة من الناس أن القواعد القديمة والقوانين القديمة أصبحت أشياء بائدة مع تزايد السكان الذين يعيشون غالبا فى المدن الكبيرة ، ويمارسون أعمالا متباينة تباينا شاسعا عن الأعمال التى كان يمارسها أجدادهم . ولذلك نجد كثيرا من رجال الفكر يسبرون من جديد غور مشاكل جوهرية من مشاكل الثروة ، والسكان ، والرعية ، والتجارة ، وأعمال المصارف والنقود ، والصناعة (١) . وكان الاتجاه العلمى الذى بدأ فى الكتابات السياسية للقرن السابع عشر لا يزال أكثر وضوحا فى تلك الكتابات التى أعقبت الثورة الصناعية .

(١) على سبيل المثال ظهر هذا فى مؤلفات كمؤلف بحث فى طبيعة وأسباب ثروة الأمم بواسطة آدم سميث « الصادر فى لندن عام ١٧٧٦ فى مجلدين » ورسالة موضوع السكان لتوماس مالتوس (لندن ١٧٨٦) ومؤلف دافيد ريكاردو (لندن ١٨١٧) وعنوانه مبادئ الاقتصاد السياسى وجمع الضرائب .

ومن رجال الفكر فى هذا الوقت الذين أثرت أفكارهم فى التشريع وفى مجرى الحوادث فيما بعد سنتناول واحدا فقط هو جيرمى بنتام (١٧٤٨ - ١٨٣٢) ، اذ أن الأفكار التى تندرج تحت كثير من خدماتنا العامة فى الوقت الحالى انما هى أفكار صدرت عنه أو عن أتباعه المباشرين .

ويتجلى الاتجاه العلمى فى التفكير فى جميع كتابات بنتام . لقد حاول فقد مقارنات بين العلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية . واستعمل الطرق الكمية كلما وجد الى ذلك سبيلا ، وحلل تفاعل القوى فى الحياة الاجتماعية مخلصا الحقائق من تعقيداتها العاطفية ، ومستمدا نتائجها من الحقائق فحسب .

وكان بنتام رجلا صافى الذهن ، مع تمكن مدهش من التفاصيل ، وقوة دافعة كبيرة . وحيث انه درس القانون ، كما كان يمتاز بقيامه بأسفار سابقة ، فقد استطاع عقد مقارنات بين النظم القانونية المختلفة . وكان مبدؤه الأساسى : أن السعادة العظمى لأكبر عدد من الناس هى مقياس الصواب أو الخطأ . وهى ذلك كان المحك الدقيق الذى وضعه لاختيار كل النظم الاجتماعية هو : أتؤدى هذه النظم الى السعادة العظمى للغالبية العظمى من الناس ، أم تحمل خيرا للناس الذين يعينهم الأمر ، أم هى مجرد تدعيم لبعض التقاليد البالية ؟ وهل هى بمعنى آخر مفيدة حقاً ؟ ولكنه حينما أجرى هذا الاختيار على كثير من النظم الموجودة حينئذ بالنسبة للحكومة ، والقانون الجنائى وأحوال العمال ، والنظم الأخلاقية والطرق المتخذة للمحافظة على صحة الناس وجدها ناقصة .

ولذلك ابتكر بنتام خططا جديدة . وكان بليغا فى تبيان أن الاجراءات التى تتخذها السلطات العامة لحماية صحة الناس يجب توجيهها لا الى معالجة المرض ، ولكن الى الوقاية منه . وكان هذا المبدأ الذى اتبعه أتباع بنتام باخلاص أساس كل تشريعات الصحة العامة التى صدرت فيما بعد . وقد وضع بنتام أيضا نظاما سياسيا جديدا ، يكون للجميع بمقتضاه الحق فى الادلاء بأصواتهم . وعلى الرغم من أن مثله الأعلى لم يتحقق بعد ، فقد كان بنتام ذا أثر كبير فى أحداث ذلك الاصلاح الكبير فى الدستور البرلمانى الذى بدأ تنفيذه عام ١٨٣٢ . وهى السنة التى توفى فيها . وكانت أفكار بنتام وراء أول محاولات بلدت لتحسين أحوال عمال المصانع وقد صدر أول تشريع هام سنة ١٨٠٢ . وكان عنوانه : تشريع خاص بالمحافظة على صحة وأخلاق صبية المصانع ، وغيرهم من العاملين فى مصانع القطن وغيرهما من المصانع . وقد كشفت لجان حكومية للاستقصاء بعد ذلك عن الحالة المحزنة لعمال المناجم ولعمال المصانع الآخرين ، وأجرت عدة اصلاحات هامة .

٩ - نشأة سياسة الصحة العامة

لقد كانت هناك بالطبع محاولات لمعالجة المهمة الشاقة مهمة المحافظة على الصحة العامة قبل زمن بنشام ، فمثلا اضطرت الأمراض الوبائية الكثيرة الحدوث أثناء العصور الوسطى الناس الذين أصابهم النحر الى منع انتشار الوباء بقدر الامكان بعزل المصابين (١) . ولكن مثل تلك المحاولات كانت في العادة اجراءات تتخذ في الحالات الطارئة فقط عندما يكون المرض ناشبا أظفاره بين الناس . ولم تبذل مدى قرون محاولة لدراسة الأحوال التي يتقى بها المرض ، ويمكن التأكد بها من وجود سكان اصحاء . وطالما كانت غالبية الرجال والنساء باقية على اعتقادها أن المرض إنما هو عقاب لما اقترفوه من ذنوب فلم تكن هناك أية دراسة للمرض قائمة على أساس معقول . وطالما كان اعتقاد الأطباء أن علاج المرض ينحصر في نصيحة مفيدة، وزجاجة دواء ، لم يكن في الامكان وجود دراسة منظمة لأنار المرض بين أعداد كبيرة من الناس . ولكنه بمجرد اتباع المنهج العلمى أمكن الوصول الى نتائج محددة .

وعلى ذلك فإننا نجد بالفعل في القرن السابع عشر بدأ علم الاحصاءات الحيوية ، أى الاحتفاظ بسجلات مضبوطة للمواليد ، والوفيات ، والحالات المرضية . وكان من الممكن للسلطات مع وجود أرقام تعتمد عليها وضع قواعد للمحافظة على الصحة العامة . ولم تتضح التفسيرات التامة لمثل تلك السجلات الا فيما بعد . وقد تكشفنا مع ذلك فى نفس الوقت حقائق هامة كثيرة من واقع سجلات الجيش ، والأسطول ، والسجون حيث كانت هناك أعداد كبيرة من الناس تحت الملاحظة والرقابة . وجرت بهذه الطريقة اصلاحات كثيرة فى تنفيذ المرضى ، والصحة العامة ، والوقاية من العدوى وتعد هذه هى الخطوات الأولى فى الطب الوقائى .

ويعرف كل انسان اليوم أن بعض الأمراض ترجع الى كائنات حية دقيقة تنتقل من انسان لآخر . ولدى رجال العلم اليوم وسائل لدراسة هذه الكائنات الحية فى المعمل ، والتحكم فى نموها أو إيقافه . ومع ذلك ففي القرن الثامن عشر لم يتم الدليل على وجود مثل تلك الكائنات الحية المسببة للأمراض . وعلى الرغم من ذلك فقبيل أن تقام الأدلة العلمية المحضة ، بينت استنتاجات المية استقيت من التجربة باضافة الى سجلات لأعداد كثيرة من الحالات الطريق الى اصلاحات هامة . فقد تم هناك مثلاً عمل رائد فى الطب الوقائى كان الفضل فيه يرجع الى سير جون

(١) لقد ترك النظام الذى كان يقضى على الأشخاص القادمين المشتبه فيهم الانتظار أربعين يوماً قبل دخولهم مدينة ما أثره فى اللغة فى كلمة « الحجر الصحى » .

برينجل (١٧٠٧ - ١٧٨٢) • وأدت خبرة برينجل الواسعة كطبيب
ممسكرات ومستشفيات الجيش الى تعرفه على حمى السجن ، التيفوس
التي اطلق عليها حمى المستشفيات • وكان انتشار الأمراض المعدية
التي يصاب بها كثير من الناس امرا شائعا فى ايامه بدرجة أن تقبل الناس
هذا الأمر كشر لا بد منه ، ومن هنا انت نفس الأسماء «حمى المستشفيات»
أو حمى السجن ومع ذلك اعتقد برينجل أنه من الممكن انوقاية من انتشار
تلك الأوبئة • لقد لاحظ أن المرضى غالبا ما يصبحون تعفن ، وعلى ذلك زود
المستشفيات التي كانت تحت ادارته بمجارى مناسبة وبمياه نقية •
واقترح فعلا الوقاية من التعفن بواسطة مواد مطهرة ، وذلك قبل أن
يقام الدليل على الأصل الجرثومى للمرض بمائة عام •

وكمثل آخر للمشاهدة التي تعتمد على حسن الادراك السابق للدليل
العلمى يمكننا أن نذكر علاج الاسقربوط ذلك المرض الذي اعتاد أن يصيب
الناس فى البر والبحر • ومع ذلك قلت فى القرن الثامن عشر الحالات
التي تحدث فى البر قلة كبيرة • وذلك بسبب التطور العظيم الذى حدث
فى الزراعة والذي كان من شأنه امداد الناس بلحم من نوع أجود وبكميات
وافرة من الخضراوات الطازجة • وعلى الرغم من ذلك ظل هذا المرض
مرضا عضالا مميتا فى الغالب بين البحارة • وكان تقفيه أثناء الرحلات
البحرية الطويلة يظن بحق أنه راجع الى الغذاء غير المناسب لبحارة
السفن • ولكنه لم يتيسر ايجاد علاج للاسقربوط بين البحارة حتى
الوقت الذى ظهر فيه طبيب بحرى يدعى جيمس لايند (١٧١٦ - ١٧٩٤) •

وصف لايند اضافة فاكهة طازجة أو عصير ليمون الى غذاء رجال البحر
وعندما اتبعت نصيحته لم يعد يصاب الناس بالاسقربوط • ونصح لايند
كذلك بضرورة تقطير ماء الشرب • وكانت السفن حتى عصره تأخذ الماء
دون تمييز من أية نفور ترسو عليها • ولهذا السبب كانت هناك دائما
نسبة وفيات عالية بين البحارة من أمراض متعددة مصدرها الماء مثل
الكوليرا والتيفود • ونتج عن الاحتياطات التي نصح بها لايند تحسن
سريع فى صحة البحارة • وقد اتبعت القواعد التي وضعها فى احدى
الرحلات البحرية للكابتن كوك (١٧٢٨ - ١٧٧٩) مكتشف استراليا •
وفى رحلة فى البحار الجنوبية استغرقت ثلاثة أعوام لم تكن هناك حالة
مرضية واحدة راجعة الى الاسقربوط ، أو الى أى مرض من الأمراض الأخرى
التي كانت تجعل الحياة فى البحر فيما مضى تتعرض لأخطار جسيمة •

وعلى ذلك فقد توصل الناس الى ادراك أهمية الماء النقى قبل بحث
الحالات المعروفة بالكوليرا والدفتريا والتيفوس • ونتيجة لذلك طالب الناس
بامداد المدن بماء أفضل • وقد روى أن الآبار العميقة أو الينابيع كانت المصادر

الأقل تعرضا للتلوث كما تجنب الناس جميع المياه السطحية • ومورس نظام ترشيح جميع المياه المخصصة للشرب على نطاق واسع في أوائل القرن التاسع عشر ، وقد ظل هذا النظام منذ ذلك الوقت هو الطريقة العادية لتطهير الماء •

وبدا تحسن عام بالنسبة لعلم صحة المدن في السنين الأخيرة من القرن الثامن عشر ، فقد وسعت الشوارع ورصفت وصفا أفضل ، وغطيت المجارى المفتوحة التى كانت تنساب من قبل بخرقة الشوارع • ونتج عن مثل تلك الاجراءات الصحية الواضحة بالاضافة الى بناء بيوت أقوى من الأجر والحجر الاختفاء التدريجى لعديد من الأمراض • فمثلا اختفى نوع من أنواع الطاعون الذى تحمله براغيث الفيران ، وذلك حينما لم تعد الفيران تقرض طريقها الى داخل المساكن • وقلت الإصابة بالتيفود والأمراض الأخرى الناشئة عن الماء الملوث بدرجة كبيرة حينما توفرت كميات الماء النقى والمجارى الملائمة ، ووسائل التخلص من زباله المنازل وقاذورات البواليع •

واتخذ الكثير من مثل تلك الاجراءات نتيجة لتشريع الصحة العامة الذى صدر عام ١٨٤٨ والذى أنشئت بمقتضاه مصلحة حكومية جديدة هى مصلحة الصحة العامة • وقد صدر هذا التشريع نتيجة للأبحاث التى قامت على قدم وساق بواسطة تلاميذ جيرين بنثم عن أحوال المساكن وصحة سكان المدن الكبرى الفقراء •

وكانت احدى مهام المصلحة الاحتفاظ بسجلات للمرض • وحينمما بدأت المصلحة مهامها تقضى مرض الكوليرا فى انجلترا عقب انتشار وباء أشد سوءا فى القارة ، وكان عدد الموتى مرعبا • ومع ذلك فإن ما تجمع من بيانات كان كافيا لأن يظهر أن انتقال العدوى تم عن طريق مياه الشرب ومن ذلك الوقت فصاعدا عملت السلطات ترتيبها على امداد السكان بكميات أوفر من ماء الشرب النقى • وسرعان ما قضى على الممرض • والكوليرا غير معروفة الآن فى انجلترا وفى بقاع كثيرة من بلاد أوروبا • ونتج عن نواحي التقدم العلمية التى حدثت بعد هذا والتى استخدمت استخدامها مباشرة فى الحاجات اليومية خدمة أخرى ندرجها الآن ضمن الصحة العامة مثل الاجراءات الوقائية ضد امراض الماشية ، ومراقبة كميات اللبن المباعة ، وتحليل المواد الغذائية ، وفحص أطفال المدارس طبيا •

واتبعت طرق المحافظة على الصحة العامة التى اتخذتها انجلترا فى ممالك أخرى مع اختلاف فى التشريع الفعلى لكل دولة • ولسكن المرض لا يعرف حدودا ، والوقاية منه ذات أهمية عالمية • ولذلك فالاتجاه الحالى هو معالجة مشكلة الوقاية من المرض لا من وجهة النظر القومية فحسب ، بل من وجهة النظر الدولية • ومن الواجب علينا أن نعتشم بخصوص

هذا كما نتعشم بالنسبة للمسائل العلمية الأخرى ان تتكاتف الأمم وتعمل
سويا .

ويعود بنا موضوع الصحة العامة الى احدى مميزات الثورة الصناعية
وهى نشأة المدن الكبرى . ويميل أولئك الذين يفكرون فى الريف كمكان
لقضاء اجازة سارة لأن يعتقدوا أن شرور الحياة أصبحت بالضرورة أسوأ
بعد قيام المدن الكبيرة . ولكننا نجد عند امعاننا النظر فى الحقائق ان الأمر
لم يكن كذلك ، اذ ان الذين هرعوا الى المدن أصبحوا فى نهاية الأمر ايسر
حالا عما كانوا من قبل . كانوا فى الريف يعيشون فى منازل ريفية رطبة
غير صحيحة ، وكانت طرقهم لا يمكن عبورها شتاء، وكانوا يعملون فى مواسم
معيّنة فقط ، وكانت أجورهم ضئيلة . وساعدت مثل تلك الأحوال على
ايجاد مستوى صحي منخفض . وقد وجد نفس العمال هؤلاء فى
النهاية عملا فى المدن طيلة العام ، وذلك على الرغم من أن أحوال العمال
كانت فى مبدأ الأمر أحوالا شديدة القسوة . وكانت لديهم أيضا فى المدن
فرصة أفضل للحصول على المعونة الطبية ، وعلى ذلك اعتنى بالأطفال عناية
أفضل .

ان التحسينات الأولى التى تمت فى مجال العناية الصحية فى المدن،
بالإضافة الى توفر كميات أفضل من مواد غذائية متنوعة ناتجة عن التحسينات
التي ادخلت فى الزراعة ووجود وسائل نقل أفضل ، كل هذه كانت ذات
اثر طيب فى صحة الناس . ويتضح هذا من الاحصاءات الحيوية فى ذلك
الوقت . وعلى ذلك فحوالى سنة ١٧٤٠ كان معدل وفيات الأطفال فى
انجلترا قبل الثورة الصناعية مرتفعا جدا ، وكان يموت من كل مائة طفل
خمس وسبعون قبل سن الخامسة . أما فى مبدأ القرن التاسع عشر فقد
انخفضت النسبة الى ٤١٪ وهى نسبة مرتفعة طبقا لمقاييسنا الحالية ،
ولكنها تمثل تحسنا هائلا بالنسبة للاوقات السالفة .

٦ - التقدم فى علاج المرضى

تطلب نمو سكان المدن الكبيرة الذى أعقب الثورة الصناعية كما قد رأينا
اجراءات معينة بالنسبة للصحة العامة ، وبذلك أبرز الى المقدمة مشكلة
علاج المرضى برمتها . وموقف الانسان حيال المرض يتوقف باستمرار على
الاعتقادات السائدة . فمثلا يضرب المريض فى وسط افريقيا علقه ساخنة
حتى اليوم ، وذلك لأن المواطنين يعتقدون أن من شأن هذا أن يطرد الروح
المسببة للمرض . وقد ظل الناس قرونا فى أوروبا يعتقدون أن المرض راجع
الى زيادة فى سخونة الدم . وتبعاً لذلك فقد كان العلاج هو أخذ دم من

المريض مهما كان نوع المرض . ومن حسن الحظ أن المصابين من المرضى كانوا غالبا ما يبرأون ، إذ أن القدرة الشفائية للطبيعة عظيمة جدا . ولكننا نستطيع الآن نحن الذين نعيش في هذا العصر أن نشعر بالامتنان لأن المنحى العقول العلم قد جلب معه طرقا أخرى لعلاج المرضى .

وحيثما اهتدى الناس الى طريقة التجربة والملاحظة كوسيلة لاكتشاف الحقيقة سعوا الى تطبيق مثل تلك الطرق على مشاكل المرض . ففي القرن السابع عشر مثلا أدخلت تحسينات كثيرة على تعليم طلاب الطب ، وأصبح التعليم العملي عاما في كثير من مدارس الطب الكبيرة في القارة ، وشجع الطلاب على مراقبة الحالات بجوار أسرة المرضى . وخلال القرن الثامن عشر اكتسب رجال العلم والأطباء الذين يمارسون المهنة رصيذا علميا عن وظائف الجسم . وحيثما استخدم مثل هذا العلم في علاج المرض والوقاية منه لعب دورا جوهريا في تقدم مدن غرب أوروبا الأهلة بالسكان .

ومن المهم أن نتذكر أن العلاج الطبى كان عليه أن ينتظر تقدم العلم ليحظى بوسائل معينة . فمثلا على الرغم من أن توقيت النبض استخدمه الأطباء من زمن بعيد ، إلا أنه لم يكن لديهم حتى حلول القرن التاسع عشر ساعات مجهزة بمقارب للثواني . وكذلك فإن الترمومتر الطبى وهو الآن وسيلة لاغنى عنها في جميع حالات التعريض لم يكن ميسورا حتى أرت الكيمياء والطرق الفنية التى تحسنت كيفية صناعة زجاج يتمدد وبذلك يهبط قراءة ترمومترية دقيقة . ولم تصنع مثل تلك الأجهزة إلا في القرن التاسع عشر . وزيادة على ذلك فإن الكلوروفورم وهو أعظم المواد المخدرة نفعا لم يعزل حتى سنة ١٨٣١ ، وأصبح كثير من المواد التى استخدمت في إيقاف التعفن ، تلك المواد التى نسميها المطهرات ، ميسورة فقط عن طريق نواحي التقدم التى تمت في الكيمياء في القرن التاسع عشر .

وكمثل من أمثلة الأبحاث المدهشة في مجال الطب في القرن الثامن عشر يمكننا أن نذكر عمل جون هنتر (١٧٢٨ - ١٧٩٣) الجراح وعالم وظائف الأعضاء العظيم . وكان المظنون قبل وقت هنتر أن دراسة علم التشريح هي أساس كاف لممارسة الجراحة . وقد أدرك الناس أهمية علم التشريح للجراح منذ الإلام بما قام به فيساليوس . ولكن على الرغم من أن العلم بمواضع العظام والعضلات كان أمرا ضروريا ، إلا أن هنتر أكد أهمية علم الإنسان بالجسم بوصفه شيئا حيا يتواءم مع ما يستجده من الظروف . وأجرى هنتر تجارب ودراسات مستفيضة على الحيوانات البرية والطيور والأسماك والحشرات التى كان يحتفظ بها في منزله في كنسجتون لمجرد غرض اكتشافه علاقة التكوين بوظائف أعضاء الجسم الحى .

وكان مدى أبحاث هنتر هائلا ، وستعرض لنا فرصة للإشارة لما قام به مرة ثانية . وسنذكر هنا فحسب مثلا لاكتشاف قام به استخدمه في تخفيف ويلات الجنس البشري . فمن بين ما أولع به هنتر من مواضيع علم وظائف الأعضاء نمو العظام والأجزاء الصلبة الأخرى من الجسم . وقد بحث ذات مرة عن كيفية نمو قرون الوعل المتشعبة . ونتيجة لذلك علم أنه لو قطع شريان الدم الرئيسى الذى يحمل الدم الى القرن النامي ، فإن الشرايين الأصغر منه المجاورة له تكبر بسرعة ، وبذلك تؤدي المهمة التى كان يقوم بها الشريان الأكبر من قبل .

وقد أرى هذا الكشف هنتر أن الجسم الحى يستجيب طبيعته التى جبل عليها الى نداء الحاجة . وأدى استعماله لهذا الكشف الى إيجاد طريقة ناجحة لإجراء عملية لشفاء المرض المميت المعروف بالتمدد الشرياني . وكانت الطرق العادية للعلاج فى أيام هنتر هى اما استئصال الورم الذى كان يعوق سريان الدم ، أو بتر العضو . وقد ثبت أن كلتا هاتين الطريقتين مميتتان فى تلك الأيام . ومع ذلك فإن هنتر الذى كان واثقا مما تعلمه من دراساته التى قام بها للفرزال لم يفعل شيئا الا أن ربط الشريان فوق موضع الورم ، تاركا محتويات الورم يمتصها الجسم . وبذلك تحاشى العدوى الناتجة عن مبيض الجراح . وبعد وقت قصير شفى المريض ، اذ استمر سريان الدم الى الجزء الأسفل من العضو عن طريق اتساع الشرايين الصغيرة المجاورة . وما زال الجراحون يستعملون حتى اليوم هذه الطريقة فى اجراء العمليات التى كان هنتر اول من كشف النقاب عنها .

ولم يقم هنتر بأبحاثه الطويلة ليشبع نهمه لاكتساب معلومات عن الأشياء الحية فحسب ، ولم يكن جراحا ذا خبرة واسعة فقط ، ولكنه كان معلما كذلك . ومن بين تلاميذه ادورد جينر (١٧٢٩ - ١٨٢٣) الذى كرس حياته لايجاد علاج للجدرى . ولم يغب الجدرى اطلاقا عن انجلترا طيلة القرن الثامن عشر ، وكان أكثر انتشارا بكثير فى أوروبا الشرقية وآسيا . وكان الجدرى ولا يزال مرضا يختلف كثيرا فى شدة الإصابة به . وقد وجد الناس بالتجربة أنهم اذا شفوا من إصابة ، فانهم يكتسبون مناعة ضد إصابة أخرى . ونتيجة لذلك حاول الناس حينما تحدث الأوبئة ، وكانوا يرون الموت أمام أعينهم أن يحصلوا بصورة مخففة على المرض . وحدث أن كانت تستعمل فى الشرق منذ زمن طويل طريقة مباشرة لنقل صورة مخففة من المرض من شخص لآخر .

وقد شاهدت السيدة ميرى وورتل مونتاجو (١٦٨٩ - ١٧٦٢) الكاتبة وزوجة السفير الانجليزى فى القسطنطينية هذه الطريقة وهى تمارس . وعند عودتها الى انجلترا أوصت باتباع هذه الطريقة هناك .

وقد اتبعت بعد ذلك لا فى انجلترا فحسب بل فى القارة كذلك وبين المستعمرين فى أمريكا .

ومع ذلك فقد كان اكتشاف وقاية حقيقية ضد المرض المخيف يرجع الفضل فيه الى ادوارد جينر الطبيب واحد اهالى جلوسسترشير . لقد لاحظ جينر خلال ممارسته لمهنته فتاة تعمل فى حلب الالبان مصابة بمرض يشبه الجدري نوعا ما . وكان المعتقد من زمن طويل بين عمال حلب الالبان ان الاصابة بمرض معين يصيب البقر كانت تقى الانسان من اية اصابة بالجدري المخيف . ولاحظ جينر بما امتاز به من دقة الملاحظة مرضيين متميزين بين البقر ورسخ فى ذهنه مدة طويلة ان مرضا واحدا من هذين هو الذى كان يسبب الوقاية من الجدري بذل أقصى ما يمكنه لجمع المعلومات، وبعد ذلك انتظر حتى تسنح له فرصة اختبار وجهات نظره . وفى النهاية قام بتجربة جريئة : أخذ قيحا من قروح فى يد فتاة تعمل فى حلب اللبن ، ذلك القيح الذى اعتبره راجعا الى جدري البقر الحقيقى ، وطعم به ذراع صبي ، وبناء عليه ظهرت على الصبي أعراض المرض الخفيفة ، وطعم جينر هذا الصبي بالجدري بعد ذلك ببضعة شهور فلم تظهر عليه أعراض المرض وكانت هذه حالة مباشرة كشفت عن قيمة هذا التطعيم . وبعد تجارب متكررة شعر جينر بأنه كان على حق فيما توصل اليه من نتائج .

وقاسى جينر الكثير من مقلديه الذين لا ضمير لهم ، وأسئ الى سمعته بواسطة اتباعه المزعومين الذين لم يعتنوا بالحصول على المادة الصحيحة للتطعيم . ومع ذلك ففى النهاية حظى هذا الكشف بالاعتراف الذى كان يستحقه ، وأصبحت طريقته معروفة باسم التطعيم ، وسرعان ما طبقت فى انحاء العالم المتمدين كله . وكان لكشفه هذا أهمية هائلة لا لأنه خلص العالم من مرض مرعب فقط ، بل لأنه فتح طريقا جديدا لعلاج أمراض أخرى .

وقد نتجت إحدى التحسينات الكبرى التى أدخلت على رعاية المرضى من بناء كثير من المستشفيات الكبيرة فى انجلترا ، وفى القارة فى السنين الأخيرة من القرن الثامن عشر . وعلى ذلك فان مستشفى سانت بارتليميو التى أعيد تأسيسها فى حكم هنرى الثامن أعيد بناؤها فى القرن الثامن عشر ، كما شيدت مستشفيات كثيرة جديدة . وعلى الرغم من أن هذه لم تكن مجهزة تجهيزا لائقا حسب مقاييسنا الحالية ، فانها قامت بالكثير من ناحية حفظ صحة الناس خلال السنين القاسية التى تميز بها بدء عهد التصنيع .

وكان انشاء المزيد من المستشفيات علامة ميزت الحركة الانسانية التى ظهرت أواخر القرن الثامن عشر ، والتى أعلنت عن نفسها أيضا

ففيما بذله الأفراد من مجهودات لتعليم الفقراء . أن سير الحياة على قاعدة سليمة يعادل في أهميته الخدمات التي يؤديها الطبيب في رعاية المرضى، ولذلك فقد نتج تقدم كبير بسبب خمود الجهل والخرافات نتيجة لانتشار العلم . وكان إصلاح مهنة التمريض إحدى نتائج التعليم . وفي مكاننا إذا ابتدأنا بالعمل الخير الذي قامت به اليزابيث فراي (١٧٨٠ - ١٨٤٣) أن نفتفي اثر التمريض مبتدئين بجامعة الأخوات المرضيات الى التقدم العظيم الذي تم تحت رعاية فلورنس نيتينجيل (١٨٢٠ - ١٩١٠) وقصة فلورنس نيتينجيل معروفة تماما . ولكن ليس مما يدرك دوما القدر الذي تسهم به خدمة تمريضية مجدية في حفظ صحة سكان جميع البلاد المتمدنية .

وننتقل الآن بقصتنا الى القرن التاسع عشر ، الى وقت اثر العلم فيه على جميع طبقات السكان في أوروبا الغربية . وكان العلم قبل الثورة الصناعية مطلب فئة قليلة من العلماء . ولكن العلم دخل بطريقة غير مباشرة الى حياة كل فرد بعد استخدام بعض من النتائج التي وصل اليها في مقتضيات الصناعة . وكان هناك قبل هذا باحثون علميون أكثر بكثير ، وكانت نواحي التقدم منذ بداية القرن التاسع عشر متعددة النواحي بدرجة أن قصتنا لا يمكن بعد هذا أن تسلك سبيلا واحدا . ولذلك يجب علينا أن نسير في طرق متشعبة ، ونبحث بعضا من هذه النواحي التي حدث فيها تقدم هائل ، كل منها على حدة . وسنرى أن الاكتشافات التي تمت في الكيمياء والكهرباء ، وفي دراسة الحرارة والطاقة ودراسة الأشياء الحية كان لها تأثير قوى لا في الصناعة وحدها ، بل في حياة الناس اليومية كذلك .

الفصل الثامن

أحسن الكيمياء

١ - طبيعة الهواء والماء

لقد رأينا كيف أن المشتغلين بالتجارب العلمية في القرن السابع عشر وعلى الأخص بويل كشفوا النقاب عن كثير من الحقائق الخاصة بالهواء . لقد أثبتوا أن له وزنا ، وأنه من الممكن انضغاطه ، وأنه من الممكن أيضا أن يكون له ضغط عظيم . وبينوا كذلك أن كلا من النباتات والحيوانات تحتاج إلى الهواء لتحيا . ومع ذلك وحتى ذلك الوقت كانت الأفكار عن تكوين الهواء أفكارا مشوشة بدرجة كبيرة . كان الكثيرون لا يزالون يعتقدون أنه أحد العناصر الأربعة : التراب ، والهواء ، والنار ، والماء . ولم تكن لدى أحد فكرة واضحة عن الغازات فيما عدا الهواء . وأدت تجارب بويل به إلى الظن بأن ما هو ضروري من الغلاف الجوي للتنفس إنما هو جزء منه فقط ، وأن الهواء ، بصرف النظر عن كونه عنصرا ، خليط من غازات عدة . ولكن البرهان القاطع على ذلك لم يتيسر إلا بعد مائة عام بعد ذلك .

وقد حدث تقدم هائل في هذه الناحية بواسطة جوزيف بلاك من جلاسجو وكان صديقا لوات . وبعد أن قام بلاك بدراسة مفصلة لتغير كيميائي مألوف ، ألا وهو تحويل القلوبات الكاوية إلى قلوبات خفيفة بتعريضها للهواء ، عزل غازا جديدا أطلق عليه لفظ الهواء الثابت ، وبرهن أنه إحدى المكونات العادية للغلاف الجوي ، وعرفه فيما بعد باسم ثاني أكسيد الكربون .

أما الخطوة التالية فالفضل فيها يرجع إلى الكاهن الموحد جوزيف بريستلي (١٧٣٣ - ١٨٠٤) . ولبريستلي سجل مشرف من التجارب في الكيمياء والكهرباء وكان كذلك مدرسا لفئات ومؤلف كتب مدرسية .

ومن تجاربه الكيميائية التى قام بها تجربة لاختبار تأثير الحرارة على كلس (١) الزئبق الأحمر . سخن برىستلى الكلس الأحمر عن طريق تجميع أشعة الشمس بواسطة عدسة حارقة قوية . ومما أثار دهشته أنه لاحظ تكون زئبق براق ، وأنبعاث هواء لا لون له . ووجد أن الهواء الجديد مكن موادا مثل الفحم النباتى والكبريت ، كما مكن شمعة من الاشتعال فيه بتوهج أكبر بكثير مما لو كانت هذه المواد قد اشتعلت فى الهواء العادى .

وطبيعى أن برىستلى أراد إعطاء اسم لغازه الذى عثر عليه حديثا . وكان الناس فى ذلك الوقت يعتقدون أن احتراق أى شيء يصحبه افتقاد عنصرى نارى يسمى اللاهوب (٢) . واعتقد برىستلى عندما لاحظ مساعدة هذا الغاز الجديد الأشياء على الاحتراق أنه يساعد هذه الأشياء حتما على التخلص من لاهوبها . ولكى يمتص هذا الغاز اللاهوب بهذه السهولة يجب أولا أن يكون خاليا تماما . ولذلك سماه « الهواء الخالى من اللاهوب » ، وهو أسم شديد الالتواء .

وسرعان ما ظهرت بعد كشف برىستلى ثلاثة أبحاث فى مجلة المقررات الفلسفية للجمعية الملكية تصف تجارب أجريت بغاز كان يدعى الهواء القابل للاشتعال ، وهو ما نعرفه اليوم باسم الأيدروجين . وقد قام بالأبحاث عالم ثرى كرس حياته للعلم وهو صاحب الفخامة هنرى كافنديش (١٧٣١ - ١٨١٠) الذى اشتهر بنتائجه بعد مداهما ودقتها .

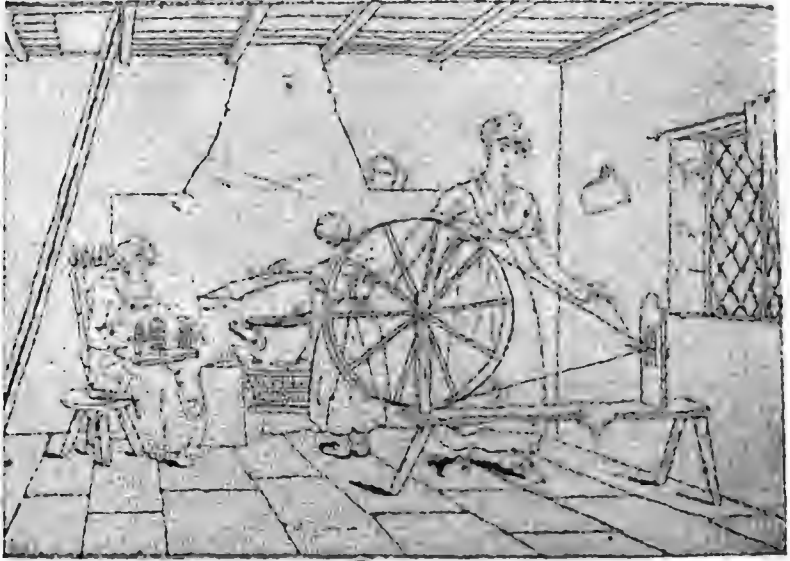
حضر كافنديش هواه القابل للاشتعال بإذابة الزنك فى أحماض . لقد وجد أن نفس وزن الزنك يولد نفس حجم الغاز من أحماض مختلفة . وعند تفجير مزيج من هواء قابل للاشتعال وهواء عادى لاحظ نقصا فى الحجم ورأسبا من ندى داخل الإناء . وبعد ذلك قام بعدة قياسات دقيقة فى كل من حالتى النقص فى الحجم ، والحجم المتبقى بعد الانفجار . ومن هذه الأرقام استنتج أن خمس الهواء العادى مع الهواء القابل للاشتعال كله تكفى وكون ندى . وأوضح النتائج ما يأتى :

١ - أن الهواء يتكون على الأقل من غازين مختلفين تمام الاختلاف (٣)

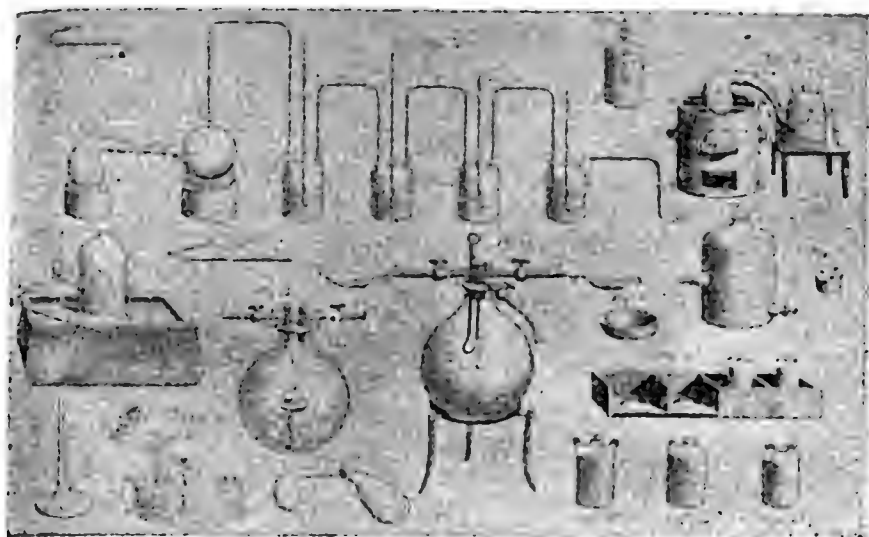
(١) أكسيد الزئبق ، وينتج من اتحاد الزئبق بالأكسجين (المترجم)

(٢) مادة نارية اعتقد القدماء وجودها فى الأجسام (المترجم)

(٣) عندما سمع كافنديش من هواء بلاك الثابت قاس كثافته ومقدار قابليته للدوبان فى الماء ، ووجد مادة مختلفة تماما عن الهواء العادى . وهكذا كشف عن وجود غاز ثالث فى الهواء الجسوى .



متول ويحي على لطف الأحوال السائدة قبل تنزل في ناس الوقت
النساء يساعدن في القوي ويتدن بعملهن لشوة الصناعية



معمل لالوانزيه

٢ - أن الماء ليس عنصرا ، كما ساد الاعتقاد قرونا ، ولكنه مركب من هواء قابل للاشتعال وخمس الهواء الجوى .

حينئذ كرر كافينديش تجاربه مستعملا هواء بريستلى الخالى من اللاهوب ، بدلا من الهواء العادى . لقد قام بتفجير مخاليط مكونة بنسب مختلفة من الهواء القابل للاشتعال والهواء الخالى من اللاهوب . وكان فى كل حالة يقيس حجم الغاز المتبقى . وبهذا استنتج أن الماء مركب من هذين الغازين . وكان يظن أن خمس الهواء الجوى مكون من الهواء الخالى من اللاهوب ، وأن الهواء القابل للاشتعال هو لاهوب نقى .

وكانت النتائج التى وصل اليها كافينديش نتائج حاسمة ، وذلك بسبب دقة تقديراته . ومع ذلك فإن شرف اثبات طبيعة الهواء المركبة يجب أن يتقاسمه كل من كافينديش ، وجيمس وات الذى وجد ، علاوة على عمله فى الآلة البخارية ، وقتنا لتتبع تقدم الكيمياء ، وقام بإجراء تجارب لنفسه . وتوضح لنا المراسلات التى تبودلت بين وات ، وبريستلى أن وات كان مقتنعا بطبيعة الماء المركبة قبل نشر النتائج التى وصل اليها كافينديش سنة ١٧٨٤ .

وخلال السنين الوسطى من القرن الثامن عشر تمكن صيدلى سويدى غير نابه يدعى ويلهلم سيكيل (١٧٤٢ - ١٧٨٦) من عزل عدد كبير من المركبات الكيميائية . وقد حصل أيضا ، وهو يعمل مستقلا تماما عن غيره ، على غاز يتفق مع غاز بريستلى بتسخينه النتر (١) . وخلال هذا الوقت كان الكيميائيون يتعلمون طرقا معملية مفيدة علاوة على كشفهم حقائق جديدة ، فقد توصلوا مثلا الى معرفة جميع الغازات فوق الماء أو الزئبق ، وتجفيف الغازات بامرارها فوق كربونات البوتاسيوم المجفف ، واستعمال الميزان بطريقة أفضل . ومع ذلك كانت آراؤهم مشوشة ، وذلك لوجود كثير من الحقائق الجديدة التى كانت تتناقض مع نظرية اللاهوب القديمة ، على الرغم من أنه لم يكن هناك حتى هذا الوقت نظرية تفضلها سيرون بمقتضاها . وفوق ذلك لم يكن لديهم خطة معترف بها لتسمية المركبات . ولذلك ففى الغالب لم يكن أحد من الكيميائيين يعرف ما يتحدث عنه الآخر . وقد انتهت ربتكهم ووضعت الكيمياء على أساس متين بفضل ما قام به الكيميائى الفرنسى ، لافوازييه (١٧٤٣ - ١٧٩٤) .

(١) نترات البوتاسيوم (المرحم)

٢ - عمل لافوازييه فى الاحتراق

قام لافوازييه باكتشافاته فى العمل الملاصق لترسانة بلويس ، حيث اعتاد الاشراف على اعداد البارود . وهناك زاره بريستلى الذى أخبره عن هوائه الخالى من اللاهوب . وحوالى عام ١٧٧٠ بدأ لافوازييه سلسلة ابحاث عن الاحتراق . لقد اكتشف اننا نحصل باشغال الفسفور فى كمية محددة من الهواء على مسحوق ابيض ، ويتبقى حوالى أربعة أخماس الهواء الأصيل ، وأن الهواء المتخلف لا يمكن أن يشتعل شىء فيه أو تنفسه الحيوانات .

وبعد ذلك وجه عنايته الى الاحتراق البطيء أو تكلس (١) القصدير والرصاص . وكان معروفا من زمن طويل وجود زيادة بسيطة أثناء هذه العملية ، الكلس المتخلف الذى يبلغ وزنه أكثر من المعدن الأصيل . وكانت هذه بالطبع حقيقة اخرجت المؤمنين بنظرية اللاهوب ، الذين اضطروا أن يؤكدوا أن اللاهوب به عنصر خفة أو وزن سلبى ، وعلى ذلك فحينما ينبعث من الجسم يتركه أثقل من ذى قبل . وكان رأى لافوازييه أن هذه الفكرة فكرة سخيفة ، وكان متيقنا أن الزيادة فى الوزن يجب أن تكون راجعة الى اضافة شىء ما .

حينئذ وضع افكاره فى محك الاختبار . أخذ قنينة زجاجية موزونة ، ووضع داخلها كمية هواء موزونة ، وأغلق القنينة اغلاقا عكما ، وبعد ذلك سخنها لبضع ساعات وتركها تبرد . ثم وزنها مرة ثانية ، ولكنه لم يلاحظ تغيرا . وعند فتحه القنينة سمع اندفاع هواء الى الداخل . وعند اعادة وزن القنينة وجد زيادة فى الوزن . وعند وزنه كلس القصدير غير المتغير ، وجد زيادة فى الوزن مساوية لوزنه الهواء الذى اندفع الى داخل القنينة . وكانت هذه نتيجة تستحق الملاحظة بدرجة كبيرة .

وكانت تجربة لافوازييه الحاسمة تتخلص فى أنه قام بتسخين وزن معروف من الزئبق ملامس لحجم مقاس من الهواء مدة اثني عشر يوما . وفى نهاية تلك المدة لاحظ نقصا فى حجم الهواء ، ووزن كلس الزئبق الأحمر الناتج . ووجد أن الهواء المتخلف لا يساعد على الاحتراق وأن الحيوانات لا يمكنها التنفس فيه . وبعد ذلك سخن الكلس الأحمر ، وحصل منه على الحجم المضبوط من الهواء الذى سبق امتصاصه ،

(١) ترسب أملاح الكلسيوم (المترجم)

ووزن الزئبق الذى بدأ به . اذن فقد كانت كل الحقائق معددة لايجاد نظرية لافوازييه فى الاحتراق التى يمكن تلخيصها فيما يلى :

١ - يتكون الهواء من غازين على الأقل ، أحدهما يتحد بالمعادن أثناء التكلس ، مما ينتج عنه زيادة بسيطة فى الوزن .

٢ - أن الهواء ضرورى لكل احتراق .

٣ - أن كلس المعدن ليس عنصرا ، ولكنه مكون من المعدن وهذا الهواء .

ولاحظ لافوازييه انه حينما تبل تلك المواد التى تتخلف بعد احتراق الكبريت والفوسفور تنتج موادا ذات طابع حمضى . ولذلك غير اسم « الهواء الخالى من اللاهوب » المعقد الى كلمة بسيطة هى اكسجين التى تعنى المبدأ التحمضى . وسمى هواء كافينديش القابل للاشتعال « ايدروجين » .

واستعمل لافوازييه كلمة عنصر للدلالة على جسم يتركب ، على قدر ما نعرف من تجاربنا ، من نوع واحد من المادة فقط التى لم تقسمها الى ما هو أبسط منها . ويتفق هذا مع وجهة نظر بويل ونفى الحقيقة مع أفكارنا اليوم .

وعلمت نظرية لافوازييه فى الاحتراق كل الحقائق المعروفة ، وكالت الضربة المميتة لنظرية اللاهوب الفاسدة . وبدأ لافوازييه أيضا مراجعة الأسماء التى على المركبات الكيماوية . وقبل وقته كانت هناك بلبلة كبيرة ، اذ كانت الأسماء لا تشير الى تركيب المادة ، وغالبا ما كان لنفس المادة عدة أسماء متباينة . ولذلك قدر لافوازييه وأتباعه انه من الواجب ان يبين اسم المركب كيفية اشتقاقه . وأوضح ان النظام المثلثي للتسمية يجب ان يكون نظاما تعبر الكلمات فيه عن أفكار تذكر الانسان بالحقائق . وهذا صحيح بالنسبة لمسميات الكيماوية الحاضرة . فمثلا يبين اسم كبريتيد الحديد مركبا من حديد وكبريت ، ويذكر المرء بأنه يمكن تكوين هذا المركب من الاتحاد المباشر لهذين العنصرين .

وقد نظم عمل لافوازييه دراسة الكيمياء . وتقدمت الكيمياء ، بخطى حثيثة بفضل نظرية الاحتراق المعقولة ، ووضع نظام واضح للتسمية ، وأجرا تجارب قائمة على دقة الوزن والقياس . ولم يعيش لافوازييه الا سنين قليلة ليتمتع بشمار مجهوداته . لقد عاش خلال صخب الثورة الفرنسية وما أريق من دماء فيها . وقد سبق ذلك الذى كان فى استطاعته أن يسبغ على اسم العلم مجدا اضافيا الى المصطلح سنة ١٧٩٤ . اذ قيل ان الجمهورية ليست فى حاجة الى علماء .

٢ - نظرية دالتون الذرية

ان التقدم العلمى كما ذكرنا من قبل لا يتلخص فى مجرد جمع الحقائق ، اذ أن الخيال والتخمين يلعبان فيه دورا جوهريا . ويتجلى هذا فى الخدمات التى أسدها نظرية جون دالتون (١٧٧٦ - ١٨٤٤) الى الكيمياء .

كان دالتون ابن نساج يدوى من كمبرلند ، وظل يعمل مدرسا عدة سنين . ولم يترك له عمله اليومى الا قليلا من الفراغ . ومع ذلك قرأ كثيرا فى الرياضيات والطبيعة ، واصبح متفقه بدرجه كبيرة فى مؤلفات نيوتن . ونتج عن ذلك أن الم دالتون بفكرة الذرات التى شغلت بال نيوتن كثيرا .

ان كلمة ذرة تعنى شيئا لا ينقسم . وقد استعملت زمنا طويلا طويلا لتدل على الجسيمات النهائية التى تقبل التجزئة والتى تتكون الأجسام كلها منها . وترجع الفكرة الى الاغريق الذين عاشوا فى القرن الخامس قبل الميلاد . ولكن هنا يقع الخلاف ، اذ أن هذه الفكرة كانت عند الاغريق مجرد تخمين موفق ، ولا شئ غير ذلك . أما فكرة دالتون فكانت من الناحية الأخرى فرضا مبنيا على استنتاجات منطقية جرت على النسق الآتى :

دعنا نفترض وجود ذرات لها خاصيات مختلفة ، وحينئذ دعنا نرى الى أين ستؤدى بنا هذه الفروض . وقد أدى بنا فرضه الى اكتشاف حقائق معينة عن الاتحاد الكيميائى . وأدت به هذه الحقائق الى مشاهدات جديدة أكدت كلها فرضه الأصيل . وهكذا فان اكتشاف قوانين الاتحاد الكيميائى لم يقم على تجميع الحقائق ، بل قام على افتراض . وهذه طريقة مناقضة تمام المناقضة للطريقة التى وضعها بيكون .

وكان دالتون يرى أن الذرات انما هى كريات صغيرة تختلف عن بعضها البعض فى الوزن ، وصور الاتحاد الكيميائى على أنه اتحاد للذرات ، اما اتحاد ذرة بأخرى ، أو ذرة بذرتين ، أو اثنتين بثلاث ، وهكذا ، ولكن الاتحاد فى جميع الحالات يحدث بين ذرات باكملها ، حيث كان من المعتقد أن الذرات لا يمكن افناؤها أو تقسيمها . وقد صور أبسط حالة من حالات الاتحاد الكيميائى بأنه اتحاد ذرة من عنصر وليكن (أ) مع ذرة من عنصر آخر وليكن (ب) . وبافتراض أن وزن (أ) المذكور يساوى وزن (ب) اثنتى عشرة مرة ، فقد كان دالتون يستنتج بناء على هذه أن كل ذرة من عنصر (أ) تزن اثنتى عشرة مرة قدر كل ذرة من

منصر (ب) . وقد عرف طبعا انه ليس فى مقدوره وزن ذرات مفردة بميزان . ولكن وجهة نظره هذه عن التغير الكيمائى هيات له الوسيلة لاكتشاف كم مرة تزن ذرة قدر ذرة اخرى . وبمعنى آخر اعطاه ذلك اوزانا نسبية لا اوزانا فعلية .

وأصبح وزن الذرة بالنسبة لوزن ذرة الأيدروجين الذى يرمز اليه برقم ١ يعرف يعرف بالوزن الذرى . وكانت تجارب دالتون الخاصة تجارب لا تتميز بالدقة التامة . ولقد تبين أيضا نقطة ضعف فى تحديد الأوزان الذرية . ولم يهتد الى طريقة للكشف عن كيفية اتحاد الذرات بعضها مع بعض ، اهى تتحد الواحدة مع الأخرى ، أو تتحد ذرة مع اثنتين ، وهكذا . وقد اثار هذا شكاً طويلاً اذا كانت القيمة التى قدرها للوزن الذرى صحيحة ، أو هل من الواجب ضربها $\times ٢$ أو $\times ٣$ وهكذا ، أو قسمتها بهذه الطريقة ، وقد أوضح خلفاؤه هذا التشكك توضيحاً تاماً . وأوضح دالتون فى نفس الوقت الطريق القويم الذى يسلكونه .

ويمكننا تلخيص نظرية دالتون فيما يلى :

١ - كل مادة تتكون من اعداد هائلة من جسيمات متناهية فى الصغر ، تدعى ذرات .

٢ - الذرات غير قابلة للفناء ، وينتج عن هذا انه لا يمكن أن يكون هناك فناء نهائى لأية أشياء مادية ، وهذا ما نعرفه باسم قانون بقاء المادة .

٣ - لذرات المواد المختلفة أوزان مختلفة .

٤ - الاتحاد الكيميائى هو عبارة عن اتحاد الذرات ، ويتبع هذا أن يحتوى نفس المركب باستمرار على نسب العناصر التى يتكون منها (١) . وتعرف هذه النتيجة بقانون النسب الثابتة .

٥ - وبما أن الذرات فرضاً لا يمكن تقسيمها ، فانه يجب أن تتحد ذرة من أحد العناصر بذرة ، أو ذرتين ، أو أكثر من الذرات الكاملة لعنصر آخر . ونتيجة لذلك فعند اتحاد عنصرين ليكونا عدة مركبات مختلفة (٢) ، فإن الأوزان المختلفة للعنصر الواحد التى تتحد مع وزن

(١) لملح الطعام مثلاً سواء تكون من عناصره فى العمل ، أو استخرج من المناجم ، أو نقى من ملح البحر ، يحتوى دائماً على عنصرى الصوديوم ، والكلور متحدين سوياً بنفس النسب وزناً .

(٢) ونذكر لذلك مثلاً أكسيدات النيتروجين الخمس ، وأكسيدى النحاس .

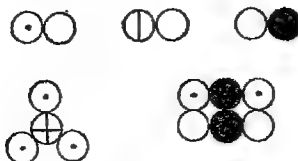
معين للعنصر الآخر ، يكون بين بعضها البعض نسبة عديدة بسيطة .
وهذه النتيجة هي ما نعرفها اليوم بقانون النسب المتضاعفة .

ونشرت نظرية دالتون وتقديراته للأوزان الذرية سنة ١٨٠٨ ، في كتاب عنوانه « نظام جديد للفلسفة الكيماوية » . وقد أثارت النتائج التي وصل إليها اهتماما بالغا . لقد وجد الكيميائيون أن الاستنتاجات الرئيسية المستقاة من نظريته تتفق مع نتائج مستقاة من تجارب أخرى . وسرعان ما اعترف الناس بقيمة عمله ، وانهالت عليه القاب الشرف من بلاد عديدة .

ومع ذلك بقي دالتون كوكريا (١) متواضعا سليم الطوية الى آخر أيامه . انه لم يسع الى الاعتراف بفضل من رجال العلم في العالم . حقا لقد زاره عالم فرنسي فكان عليه أن ينتظر حتى فرغ دالتون من مديده المعونة لصبي باعطائه نقودا من لديه .

٤ - تقدم النظرية الذرية

اعتاد دالتون في توضيحه لمبراهيمه أن يمثل الذرات بصور على شكل دوائر أو تقط (شكل ٢٨) . ولابد أن كانت هذه عملية مضنية .



(شكل ٢٨)

نوع الرموز التي استعملها دالتون

جدا . ونحن نستعمل الآن رموزا أكثر سهولة بكثير وهي الحروف ، وهي عادة الحروف الأولى من الاسماء ، مثل ك للكاربون ، ويد ٢ للايدروجين ، وكب للكبريت ، و أم للأكسجين . وهي طريقة يعرفها دارسو الكيمياء في جميع أنحاء العالم . انها لا تهيب لنا اختزالا سريعا فحسب ، بل انها وسيلة للتعبير عن النتائج التجريبية أيضا . ويرجع اتخاذ الحرف الأول

(١) الكوكريون هو الاسم الذي يطلق على جماعة الاصدقاء وهي طائفة دينية بروتستانتية أسسها جورج فوكس في القرن السابع عشر . وهي لا تعترف بالتمديد ، ولا بالمشاء الرئائي ، وتعارض القسم بالايمان ، ويتميز الكوكريون ببساطة همداهم وتجنب الفاظ التفخيم في حديثهم (المترجم)

كرمز لعنصر الى الكيمائى السويدي بيترزيليوس (١٧٧٩ - ١٨٤٨)
الذى قام كذلك بتجليلات دقيقة أكدت قوانين النسب الثابتة ، والنسب
المتضاعفة ، وضمنت بذلك اعتناق النظرية الذرية اعتناقا عاما . وترجع
الخطوة العظيمة التالية الى كيمائى ايطالى يدعى أماديو أفوجادرو (١٧٧٦ -
١٨٥٦) .

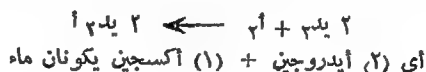
وبدأ الكيمائيون فى جميع أنحاء أوربا المختلفة يقومون بنصيبهم فى
تأييد النظرية الذرية لدالتون . وقامت التجارب على قدم وساق ،
وتتابعبت بسرعة احدهما فى أعقاب الأخرى . وكان أفوجادرو من بدء الأمر
من المؤمنين ايمانا عميقا بالنظرية الذرية . وكان يعلم من التجارب التى
قام بها الكيمائى الفرنسى جيبى لوساك (١٧٧٨ - ١٨٥٠) أن الغازات
تتحد سويا بنسب بسيطة - أى أن قدما مكعبا من غاز يتحد مع نصف
قدم مكعب من غاز آخر ، أو مع قدمين مكعبين ، أو مع ثلاثة . ويعبر بعدد
صحيح عن النسب بين الأحجام . وجعلت هذه النتيجة أفوجادرو يمين
التفكير . فتصور اتحاد الغازات فى ذئنة ، وميزيين الذرات بصفتها
أصغر الجسيمات . التى تقوم بدور فى التغير الكيمائى وبين الجزيئات
كأصغر جسيمات يمكن أن توجد على حدة . ورأى أنه اذا احتوت مقادير
متساوية الأحجام من جميع الغازات فى نفس الظروف عددا متساويا من
الجزيئات ، فإن ذلك من شأنه أن يبين السبب الذى من أجله تتحدد
الغازات بمثل تلك النسب الحجمية البسيطة ، ويوضح أيضا بعض
النتائج الأخرى المحيرة للألباب (١) .

وعلى ذلك فقد عرف أن حجما واحدا من النيتروجين يتحد مع حجم
مساو له من الأكسجين ليعطى فى نفس الظروف حجمين من أكسيد
النيتريك . وأدرك أفوجادرو أن الحجم الواحد من النيتروجين لا بد أنه
كان يحتوى على نفس العدد من ذرات النيتروجين الموجود فى حجمى
أكسيد النيتريك . ويجب طبقا لفرضه أن يحتوى حجما أكسيد النيتريك
ضعف عدد الجزيئات التى كانت فى الحجم الواحد من الأيدروجين أو من
الأكسجين . وعلى ذلك ينتج أن جزيئات كل من هذين الغازين تتكون
من ازدواج ذرى ، بينما يتكون جزء أكسيد النيتريك من ذرة واحدة من
الأكسجين متحدة بذرة واحدة من النيتروجين .

ووجد أيضا من التجارب أن حجمين من الأيدروجين يتحدان مع حجم
من الأكسجين لتكوين حجمين من البخار مقاسين تحت نفس الظروف .

(١) ان افتراض أفوجادرو غالبا ما يعرف بفرض أفوجادرو ، وهو الآن جزء
جوهرى من النظريات الفيزيائية الحديثة .

وعلى ذلك فإن ثلاثة أحجام قبل اتحادها أعطت حجمين فقط بعد الاتحاد. وكانت هذه مشكلة محيرة أخرى • ويحتوي كل من حجمي الأيدروجين وحجمي البخار طبقا لفرض أفوجادرو على نفس العدد من الجزيئات • وعلى ذلك يجب أن يكون عدد ذرات الأكسجين ، وعدد ذرات الأيدروجين واحدا قبل الاتحاد وبعده • ولكن يجب أن توزع ذرات الأكسجين بين عدد من جزيئات البخار يساوى ضعف عدد الجزيئات التي كانت بالأكسجين • ومن الواضح إمكان هذا فقط لو أن كل جزيء أكسجين ، وكل جزيء أيدروجين يتكون من ذرتين ، وبذلك يكون كل جزيء بخار مكونا من ذرتي أيدروجين متحدتين مع ذرة أكسجين • ويمكن التعبير عن هذه المعادلة بما يأتى :



وباتباع طرق دالتون قدر الكيميائيون الوزن الذرى للأكسجين بـ ٨ مفترضين كما فعل دالتون أن ذرة من الأيدروجين تتحد مع ذرة من الأكسجين • ومع ذلك فبعد أن بين أفوجادرو أن ذرتين من ذرات الأيدروجين تتحدان مع ذرة أكسجين واحدة ، فقد اتضح وجوب مضاعفة التقدير ، واعتبار الوزن الذرى للأكسجين ١٦ •

وقد أمدت نظرية أفوجادرو الكيميائيين بوسيلة لايجاد الأوزان الذرية بشكل مؤكد مقبول ، ولكنهم لم يستفيدوا منها فى الحال ، فقد أخذت وجهات نظره وقتا طويلا لتصل البلاد الأخرى بالنسبة لحال أوروبا المضطربة وقت نشر نتائجه عام ١٨١١ • وعلاوة على ذلك فإن كثيرا من الكيميائيين المبرزين لم يبدلوا أى جهد لتفهم أفكاره • وبعد مواراته التراب فقط صار احد مواطنيه كانييتسارو (١٨٢٦ - ١٩١٠) داهية له ، وأظهر أهمية نظريته بشكل مقنع على الأخص فى ايجاد الأوزان الذرية • ومنذ ذلك الوقت صارت نظرية أفوجادرو جزءا هاما من النظرية الكيميائية وهى فى الحقيقة تكمل العمل الذى بدأه دالتون •

٥ - استقرار الكيمياء الحديثة

إن المبادئ التى وضعها بويل ، ولافوازييه ، ودالتون ، وأفوجادرو وضعت أسس الصرح العظيم للكيمياء الحديثة • وبعد ذلك ساهم عمال أكثر فأكثر فى هذا البناء ، فأضيفت طوابق جديدة ، وشيدت أجنحة جديدة ، ولكن البناء الرئيسى قام على الأسس التى وضعت من قبل • وكلما تحسنت الطرق التجريبية ، وجد الكيميائيون فى البلاد المختلفة تقديراتهم للأوزان الذرية متلائمة بشكل أكبر • ولذلك اتفقوا

على قيم معينة وتمسكوا بها . وبعد ذلك بذلت مجهودات عديدة لإيجاد بعض الصلة بين الوزن الذرى والخواص الكيماوية . وادى التعرف على « فصائل » العناصر فى النهاية الى طريقة للتصنيف تعرف باسم القانون الدورى . وأظهرت هذه الطريقة حتى ذلك الوقت علاقات لا ريب فيها بين العناصر ، وأدت الى كشف عدة عناصر جديدة . ويمكن مقارنة مثل هذه الاكتشافات التى أسست على القانون الدورى باكتشاف الكوكب نبتون عن طريق التنبؤ المبني على قانون الجاذبية .

وانسع مجال الكيمياء اتساعا كبيرا باستعمار آلات أكثر دقة . وعلى ذلك فكما أن جاليليو قد بحث السماء بتلسكوبه ، واكتشف أقمارا جديدة ، فكذلك درس كيميائيو أواسط القرن التاسع عشر باستعمالهم آلات أعظم دقة بكثير الضوء القادم من السماء واكتشفوا عناصر جديدة . واستعمل الكيميائيون منشورا لتحليل الضوء كما فعل نيوتن . وكان يتكون جهازهم من شريحة ينفلد الضوء خلالها ، وعدسة لجعل حزمة من الأشعة تسقط على المنشور . بعد ذلك يتحلل الضوء الى ألوان الطيف ، وبواسطة عدسة أخرى تتجمع كل ألوان الطيف فى بؤرة . وعلى ذلك فقد كان الطيف يشاهد بواسطة عدسة عينية من نفس النوع المستعمل فى التلسكوبات .

وأصبح مثل هذا الجهاز المكون من شريحة وعدسة ومنشور وتلسكوب يعرف باسم المطياف . وتمكن الكيميائيون بالاستعانة به من تحليل الضوء المنبعث من مصادر ضوئية مختلفة ، ومن التعرف على النوع المميز للضوء المنبعث من عناصر معينة . وبهذه الطريقة اكتشفوا وجود عناصر معروفة تماما على الأرض فى ضوء الشمس والنجوم ، وعناصر تعرفوا عليها أولا فى الشمس ثم وجدت بعد ذلك على الأرض . وقد كشف المطياف ، الذى جعله التصوير الضوئى الذى هو نفسه من نتائج البحث الكيمايى آلة أعظم دقة بكثير ، علاقات بين أطيايف العناصر المختلفة مما ساعد على كشف سر الذرة ذاتها . والمطياف مثل طييب للطريقة التى تتجمع بها المعلومات من مصادر مختلفة ، وتؤدى الى تقدم جديد .

وتميزت التطورات الحديثة الكيماية كلها بتحكم الكيمايى المتزايد فى موارده ، وبالطريقة التى رسمت له بها النظرية الخطوط التى يسير عليها فى عمله . وكان الناس يتبعون فى عملهم فى الأيام القديمة طرقا خبط عشواء ، وكانوا غير موقنين إطلاقا بأنهم سيمشرون على شئ جديد . ومع ذلك فالباحث الكيمايى الملم بالفعل بالميدان الذى يعمل فيه يسير فى طريق استقصاء محدد طبقا لتواعد مقررة تعلمها من معمل الطبيعة ذاته .

ولم يبد هذا التحكم المتزايد فى أى فرع من فروع الكيمياء أحسن مما بدأ فى دراسة مركبات الكربون التى لا حصر لها . وقد بدأ التقدم فى هذا الفرع بأبحاث الكيميائى الألمانى جوستوس فون ليبج (١٨٣٠-١٧٥) وكان مكتوبا فوق باب معمل ليبج كلمات معناها أن الله خلق كل شيء فى كونه بموازين وقدر . وكان هذا المبدأ مصدر الهام للطرق الدقيقة التى اتبعت فى التحليل الكمى الذى أوجده ليبج ، والذى أثبت به تركيب أعداد كبيرة من المركبات .

وكان المعتقد فى ذلك الوقت أن المواد التى من أصل نباتى أو حيوانى - أى المواد العضوية - تختلف اختلافا جوهريا عن تلك التى ليست من أصل حيوى ، أى المواد غير العضوية . ومع ذلك توصل فوهلر (١٨٠٠ - ١٨٨٢) أحد زملاء ليبج من تحضير بولينا ، وهو مركب كان حتى ذلك الوقت معروفا أنه من أصل حيوانى فقط . بخر محلولولا من سيانات الأمونيوم حتى جف . وبهذه الطريقة حصل على راسب ثبت أنه يشبه البولينا شباها تاما . ومن الممكن الآن تكوين سيانات الأمونيوم أو تخليصها بسهولة من عناصرها بالمعمل . ولذلك فقد تحولت فى هذه الحالة مادة غير عضوية الى مادة عضوية بمجرد فعل الحرارة . ومع ذلك فما زلنا نستعمل لفظ الكيمياء العضوية كتعبير مناسب عن كيمياء المركبات الكربونية .

وقد اعترف بحق بأن التحول من سيانات الأمونيوم الى البولينا يرجع الى إعادة تنظيم الذرات ، التى تتحد مع بعضها البعض بشكل مختلف داخل الجزيء ، بالضبط كما تجمع فرقة الرقص الواحد شمل نفسها على المسرح بطرق مختلفة . وسرعان ما كشفت الطرق التحليلية الدقيقة عن أمثلة كثيرة من المركبات لها نفس نسبة التركيب ، ويتكون بذلك من نفس الذرات ، ولكن بخواص كيميائية مختلفة . وتعرف مثل تلك المركبات باسم التشابهات (١) . ويرمز للكحول العادى ، وأثير الديميثيل اللذين يتكون كل منهما من كربون ، وأيدروجين ، وأوكسجين بالمعادلة CH_3OH . ولكن هذين المركبين هما المعروفان فقط بأن لهما هذا التركيب ، وعلى الرغم من أنه قد يبدو كما لو أنه لا بد من أن تكون هناك طرق أخرى كثيرة لترتيب الذرات التسع . وللكافور الذى هو مركب أكثر تعقيدا بكثير من الكربون ، والأيدروجين ، والأكسجين أكثر من مائة متشابه . ومع ذلك فيبدو أن للطبيعة هنا أيضا طرقها الخاصة فى تحديد تجمع الذرات الممكنة . وكان اجتلاء هذا السر لفرا فاننا يستهوى رجل الكيمياء .

وكان مفتاح هذا السر هو فى الالام بأعداد كبيرة من المركبات الكيماوية تشابه بعضها بعضا تشابها وثيقا فى خواصها الكيماوية . وتشبه مثل تلك السلسلة من المركبات عائلة كبيرة ، وجه الشبه بين أفرادها أكثر وضوحا بكثير منه بين الكائنات البشرية. ووجد الكيمايون بين تلك الفصائل من المركبات مجموعة من العناصر تحتفظ بذاتيتها باستمرار وتؤثر فى خواص كل مركب . ويعرف مثل هذا العنصر أو مثل تلك المجموعة من العناصر باسم الشق . وتبدو هذه الشقائق المركبة كأنها وحدات تجميع الطبعة الخاصة . وكان التعرف عليها هو مفتاح لفز التشابهات ، إذ أظهرت كيف أن عدد وحدات مركب معين يتحدد بواسطة التجميع الى شقائق .

وحوالى منتصف القرن التاسع عشر كان التعرف على نظرية التكافؤ حافزا قويا لدراسة الكيمياء العضوية. ويمثل تكافؤ العنصر عدد الوحدات التى يمكن تقسيم قدرته الاتحادية اليها . وعلى هذا يتحدد الأكسجين عموما مع ذرة أو ذرتين من العناصر الأخرى ، بينما يتحدد الأيدروجين مع ذرة واحدة من غيره من العناصر . ومن جهة أخرى فإن الكربون يتحد مع أربع ذرات من الأيدروجين . ولذلك يقال أن تكافؤ الأيدروجين ١ ، والأكسجين ٢ ، والكربون ٤ . وبافتراضنا أن تكافؤ الكربون هو باستمرار ٤ ، وأن له القدرة على الاتحاد مع ذرات الكربون، فإن الكيمايين استطاعوا ايجاد رموز لتكوين كثير من المركبات العضوية، وبذلك نظموا أفكارهم .

وبهذه الطريقة وجد الكيمايون أن كثيرا من مركبات الكربون يمكن تمثيلها بسلسلة من ذرات الكربون . ويمكن تمثيل أخرى بطققة من ذرات الكربون والنمط الأول للمركبات الحلقية هو البنزين المشتق من قطران الفحم . وينشأ عن إضافة الشقائق للذرة أو لأخرى من حلقة البنزين مئات من المركبات . وفى هذه المركبات نجد أن ذرات الكربون المكونة للحلقة مرتبطة ببعضها ارتباطا قويا جدا ، بينما نجد الشقائق الإضافية مرتبطة ببعضها ارتباطا مفككا ، ويمكن تغييرها بسهولة دون أن يختل نظام الحلقة الرئيسية . وقد مكن فحص تركيب هذه المركبات الحلقية الكيمايى من أن يتحكم فى العمليات الكيماية حسب مشيئته . وعلى ذلك فقد وجد أن أساس كثير من الأصباغ يتكون من حلقتى بنزين متحدتين مع ذرتين من ذرات النيتروجين . ووجد أن لون الصبغة الخاص بها يتوقف على وجود شقائق إضافية فى التكوين الأساسى للصبغة . وعلى ذلك كان فى استطاعة الكيمايى أن يعمل كساحر منتجا ألوانا جديدة حسب أرادته .

وكلما ازدادت المعرفة بالمركبات الكربونية أكثر فاكتر تولدت مواد تخليقية هامة فى العمل . فمثلا زيت عنب القطا (١) الذى نحصل عليه من لحاء الصفصاف ، والذى استعمل مدة طويلة علاجاً للروماتزم وجد أن نشاطه يرجع الى وجود حامض الساليسيليك . ومع ذلك سرعان ما تعلم الكيميائيون تركيب هذا المركب فى العمل . ووجدوا علاوة على ذلك أن خواصه تتعدد بإضافة شق معين يدعى شق الأسيتيل . ويسمى الناتج عن ذلك اذن باسم حامض آسيتيل الساليسيليك المشهور باسم الأسبرين . ولذلك فقد تخلق فى العمل الكثير من الأدوية الطبية الطبيعية ، وكذلك أنواع كثيرة من المطهرات ومواد التخدير ، والأدوية لعلاج امراض خاصة . وقد مكن الكيميائي الطبيب أن يصف علاجاً دقيقاً محدداً بتحضيره هذه المواد فى صورة نقية ، وبذلك اتسغ مدى العلاج الطبى اتساعاً عظيماً .

وقد بنيت انتصارات الكيمياء العضوية على النظرية الذرية . ولكن من المعروف أن الذرة الآن ، على الرغم من أنها مازالت تعتبر وحدة التغير الكيميائى ، تتكون من نواة تدور حولها فى مدارات وحدات دقيقة ذات شحنة كهربية تدعى الإلكترونات . ويتكون التغير الكيميائى من إعادة ترتيب تلك الإلكترونات التى تدور فى مدارات وذلك بين الذرات المختلفة مع بقاء النواة فى كل حالة كما كانت من قبل . ومن المعروف الآن أن النويات الذرية تتكون من وحدات كهربية ، بعضها موجب الشحنة وبعضها متعاادل الشحنة . وعلى ذلك فإنحن لا نعتبر الآن أن الذرات الكيماوية مواد مختلفة يتراوح عددها ما بين ٩٠ و ١٠٠ ، بل أنها مكونة من نفس الوحدات الكهربائية الأولية ، وبذلك فهى أجزاء مرتبطة بعضها ببعض فى كون يجمع بين الأشياء الحية وغير الحية .

(١) نبات يدعى فى انجلترا خضرة الشتاء ، ويدعى فى أمريكا الجبلثر وهو نوع من الصفصاف . (المترجم)



معمل كيمياه
من صورة منشورة عام ١٧٦٧

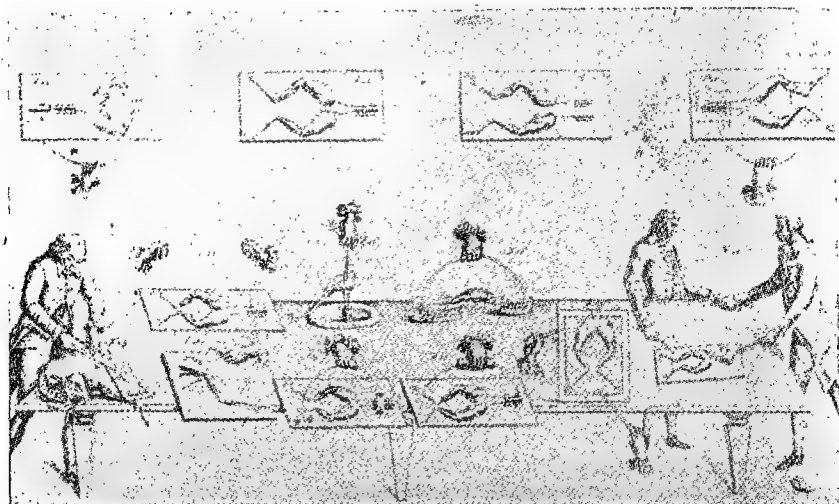
الفصل التاسع

الاهتداء إلى التيار الكهربائي

١ - الاهتداء إلى التيار الكهربائي

اننا لم نعرف حتى نهاية القرن الثامن عشر على ما يعرف اليوم باسم التيار الكهربائي . وكان معروفا أن البرق ناتج عن تأثير الكهرباء في السحب . ولكن النتائج الوحيدة التي كانت موضع دراسة والتي كانت في متناول اليد هي الخاصة بالأجسام التي تسكهرب بالدلك . وابتكر بعض الباحثين الأول ومن بينهم بريسثلي آلات لتوليد الكهرباء بواسطة الاحتكاك . وقد أمضى بعضهم وقته في عمليات رياضية ، وأرهب آخرون أنفسهم باحثين فيما إذا كانت الكهرباء سيالا واحدا ، أو سيالين .

وتعطينا الدراسات الأولى لتأثير التيار الكهربائي أحد الأمثلة القليلة في تاريخ العلم لاكتشاف أتى بمحض الصدفة التامة . وكان الفضل في هذا يرجع الى عالم تشريح ايطالي يدعى جالفاني (١٧٥٧-١٧٩٨) الذي تصادف أن كان يقوم بتشريح ضفدعة . وحينما لمس عصيا معينة اهتزت الضفدعة مما أثار دهشته ، وحاول نتيجة لذلك أن يكشف عن السر في هذا . وفي النهاية إيقن أن الشرط الضروري لاجداث هذه الهزة الى الوراء انما هو ملامسة معدنين مختلفين لأعصاب وعضلات الضفدعة (لوحة ٢٢) . وإثارت النتائج التي وصل اليها جالفاني اهتماما بالغا ، وظن الكثير من الناس أن نوعا جديدا من الكهرباء قد اكتشف ، وأضافوا عليه لقب الكهرباء الحيوانية ، أو الكهرباء الجلفانية . وتبعته هذه الدراسات الأولى إبحاث قام بها أستاذ ايطالي آخر هو فولتا (١٧٤٣ - ١٨٢٧) الذي وجد أن التأثيرات الكهربائية التي يشعر الإنسان بها كصدمة تسرى خلال الأصابع كانت تحدث عند وضع معدنين مختلفين في طبق يحتوي على ماء شديد الملوحة . ووجد أن التأثيرات



التجارب الأولى على التيار الكهربى
الصوت فى معتبرا تين اوجل ضلادع تالاس معدنن مختلفن

كانت أعظم عند استعمال عدة ألواح معدنية تنفصل عن بعضها البعض بمادة مسامية مبللة بدرجة كبيرة . وكان الزنك هو أحد المعادن المستعملة باستمرار ، والمعدن الآخر أحيانا نحاس ، وأحيانا فضة . وأصبحت تعرف مثل هذه المجموعة من المعادن باسم العمود الفولتي أو البطارية الفولتية (شكل ٢٩) .



(شكل ٢٩)
عمود فولتا ، أو البطارية

وارسلت أنباء كشف فولتا للجمعية الملكية . وسرعان ما قام رجال العلم في إنجلترا وكذلك في القارة بصنع اعمدتهم الفولتية الخاصة . صنع اثنان من الباحثين الانجليز عمودا كبيرا ، ووضعوا قطرات ماء قليلة على الألواح الموضوع على القمة ليضمنا الاتصال بالمادة الرطبة . وبهذه الطريقة اكملوا الدائرة . وقد تولتاهما الدهشة حينما لاحظا سيلان من الفقايع ينبعث من الماء . ولذلك اختبرا هذا التأثير على نطاق أوسع . وأتما الدائرة الفلتيية هذه المرة بغمس أسلاك ذهبية متصلة بالألواح الخارجية للعمود في اناء مملوء بالماء . وبهذه الطريقة وجدوا أن الأكسجين والأيديروجين انبعثا عند جميع النقاط التي انغمست فيها الأسلاك في الماء . وكانت هذه هي المرة الأولى التي تحلل الماء فيها عن طريق الوسائل الكهربائية . لقد أثبت كل من وات ، وكافنديش تكوين الماء عن طريق تحضيره ، أما هذه فكانت نتيجة عكسية تتلخص في تحليل الماء الى عناصره .

وطبيعي ان تثير تلك التجارب المبكرة في التحليل اهتمام العلماء في العالم . وقد أسرع الصيدلي الانجليزي دافى (١٧٧٨ - ١٨٢٩) (١) فاقتفى بحماس أثر الظواهر الجديدة . وبدأ بمحاليل في الماء ، ولاحظ حدوث تحليلات كيمائية باستمرار . وبعد ذلك أجرى تجارب مستعملا موادا مذابة بدلا من المحاليل . أخذ بوتاس كاوية نقية ، وأذابها في ملحقة مصنوعة من البلاتين ، وغمس قضيبا من البلاتين في الكتلة المذابة ، ثم وصل اللفة والقضيب بعمود فولتي . لقد ظهرت في الحال

(١) دافى معروف في جميع أنحاء العالم كمخترع لمصباح الأمان المستعمل في المناجم . وكان أيضا أول من لاحظ أن غاز أكسيد الأزوتيك يحدث تخديرا . ومن ذلك الوقت فصاعدا صار هذا الغاز يستعمل في طب الأسنان على نطاق واسع .

كربات معدنية براقية • ان في استطاعتنا أن نتصور غبطته • ان البوتاس الكاوية كانت تعتبر عنصرا حتى ذلك الوقت ، ولكنه الآن حصل على شيء آخر منها يبدو عليه أنه معدن . دعا دافى هذا المعدن الجديد بوتاسيوم . وسرعان ما عزل الصوديوم بعد ذلك بوسائل مشابهة . وتعد هذه التجارب بدء استعمال التيار الكهربى فى عمليات فنية كثيرة مثل طلاء الأدوات بالفضة أو النيكل أو فى صناعة حروف الطباعة كهربيا . وهى طريقة فى الطباعة تصنع بمقتضاها صور من اكلشيهات لاستخدامها فى الطبع .

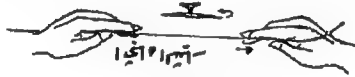
ولم يمض وقت طويل حتى لاحظ دافى آثار أخرى للتيار الكهربى.. وكانت هناك بطارية فولتية هائلة تتكون من الفين من الألواح المزدوجة من الزنك والنحاس فى المعهد الملكى فى شارع اليمارد الذى عمل مدبرا له عدة سنين . وبمساعدة هذا الجهاز المهيّب حصل دافى على شرارة . وصفها بأنها قوس أو عمود نور كهربى . ووصل اطراف البطارية الضخمة بقضبان من الكربون وضعت بحيث تحدث تماسا أولا ثم تنفصل بعد ذلك (١) . راقب القوس فلاحظ أن الكربون المتصل بالألواح النحاس ، والذى نسميه الطرف الموجب اشتعل بسرعة أكبر بكثير من الكربون الآخر متخذاً شكلا كشكل الكأس . ووجد أن هذا القوس الكهربى بلغت حرارته درجة أذابت البلاتين وأشعلت النار فى قطع الماس . والقوس الكهربى ظاهرة مألوفة فى انارة الشوارع ، ويستعمل أيضا فى عمليات فنية كثيرة تتطلب أفرانا شديدة الحرارة مثل استخلاص الألمنيوم من خاماته ، ذلك المعدن الشائع الاستعمال اليوم ، اذ هو ضرورى مثلا للمسبوكات المستعملة فى السيارة والطائرة الحديثتين ، التى تعتمد لذلك على درجة الحرارة العالية للفرن الكهربى .

٢ - الكهرومغناطيسية

أثناء شتاء ١٨١٩ - ١٨٢٠ كان أستاذ طبيعة فى كوبنهاجن يلقى سلسلة محاضرات فى الكهرباء والجلفانية والمغناطيسية ، اذ خالجه شعور مدة طويلة أنه لابد من وجود علاقة ما بين هذه الظواهر . وقد كانت تجاربه الأولى تجارب فاشلة ، ولكنه وجد فى النهاية أنه حينما

(١) ان من لديه بطارية مشعل جيب ، أو مركب يلاحظ حدوث شرارة عندما يوصل النهايات برهة ثم يفصلها عن بعضها . وهذا معناه أن التيار يقفز عبر الثغرة يتخذ طريقة لنفسه ، محدثا بذلك نورا وحرارة .

أمسك سلكا حاملا تيارا موازيا لمغناطيس نظر هذا السلك جانبا . لقد حقق هذه النتيجة ، وبذلك اقتنع أن التيار ينشأ عنه قوة مغناطيسية تعمل داخل السلك (شكل ٣٠) وكان هذا الأستاذ هو هانز كريستيان أورستد (١٧٧٧ - ١٨٥١) وقد فتحت هذه النتيجة التي وصل إليها الباب على مصراعيه لميدان جديد كل الجدة من البحث .



(شكل ٣٠)
تجربة أورستيد

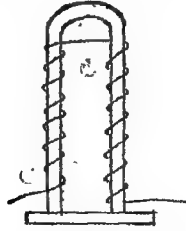
وسرعان ما ذاعت أنباء هذا الكشف . فخلال أسبوع وجد عالم فيزياء فرنسي يدعى أمبير (١٧٧٥ - ١٨٣٦) أن هناك تفاعلا متبادلا بين موصلين متوازيين يحملان تيارا كهربيا ، إذ يجذب الموصلان بعضهما البعض إذا كان التياران في نفس الاتجاه ، ويتنافران إذا سارا في اتجاهين متضادين . وعلاوة على ابتكار أمبير أجهزة دقيقة يمكن مشاهدة هذه الآثار بواسطة تقدم بنظرية رياضية تامة .

وأوجد اكتشاف أورستيد الوسيلة للكشف عن التيار بتأثيره المغناطيسي ، ويطلق على الآلات التي تقوم بمثل هذه المهمة الجلفانومترات (١) . وتوجد في كل جلفانومتر قوة انحراف راجعة للتيار من شأنها أن تسبب انحراف الأبرة ، وقوة ضابطة تعمل على الاحتفاظ بالمغناطيس في وضعه الأصلي . وبلغ عدة ليات من السلك حول إطار يمكن ازدياد قوة الانحراف ، بينما بقيت القوة الضابطة كما كانت قبل بسبب مغناطيسية الأرض ، وذلك لأن الجهاز أصبح أشد حساسية . واستعملت مثل هذه الجلفانومترات في آلات التلغراف الأولى في النصف الأول من القرن التاسع عشر . وقد عبر عن انحرافات الأبرة يمينا أو يسارا نتيجة لاتجاه التيار بحروف مختلفة استخدمت في إرسال الرسائل .

وسرعان ما أدخلت تحسينات في التلغراف حينما القى الضوء على حقائق أكثر في مجال الكهرومغناطيسية . وبعد اكتشاف أورستيد بسنين قليلة صنع عامل ميكانيكي في لندن قطعة من حديد نقي نوعا

(١) الجلفانومتر جهاز لمعرفة صفة التيار الكهربائي الموجود (المترجم)

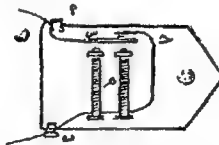
على شكل حدوة الفرس ملفوفة بلغة طويلة من السلك (شكل ٣١) .
وجد أنه عند أمرار تيار خلال اللفة يصير الحديد ممغنا ويلتقط قطعة
أخرى من الحديد . ومع ذلك وجد عند حبس التيار أن الحديد 'فقد'
مغناطيسيته فورا ويسمى مثل هذا الجهاز المغنطيس الكهربى . وسرعان
ما وضعت المغنطة الفجائية للحديد واستلاب المغنطة منسبه موضع
الاستخدام العملى فى إرسال البرقيات بواسطة التلفراف .



(شكل ٣١)

مبدأ كهرو مغنطيس حدوة الفرس

وعلى ذلك وجد أن الراسل يمكنه أن يستثير تيارا كهرومغناطيسيا
فى الطرف المستقبل بمجرد تحريكه مفتاحا متحركا ، وبذلك يجذب
المغنطيس الكهربى قطعة حديد ملتصقة بزنبك ، وتحدث بذلك طعنة .
ويمكن للراسل بعد ذلك أن يطيل الفترات بين الطعنتات أو يقصرها ،
وبهذه الطريقة يرسل الرسالة حسب قانون متفق عليه . وهناك نظام
أفضل بكثير كان يتلخص فى جعل التيار الذى أثار المغنطيس الكهربى
يمر خلال الزنبك نفسه (شكل ٣٢) وأنه بمجرد جذب قطعة الحديد
الصغيرة الى وضعها الأول بواسطة الزنبك . ويتكرر حدوث نفس
الشيء عدة مرات ، ولذلك تستمر قطعة الحديد فى تحركها بسرعة ذهابا
واباءا بصوت ذى رنين . ويمكن بذلك تمييز الاشارات الطويلة



(شكل ٣٢)

مبدأ الزنن والجرس الكهربى . يدخل التيار عند أ ، ويمر خلال الزنبك س الى نقطة
الاتصال ج . ومن هناك يمر خلال الملفات الكهرومغناطيسية م الى النهاية ب . وتحدث
حركة الزنبك السريعة ضد نقطة الاتصال زنينا . وبالصاق مطرقة بالزنبك يمكن جعله
يعطى رنينا متواصلا للجرس .

والقصيرة بطول رنينها . وكان هذا بالطبع أبسط بكثير من الانصصات الى فترات توقف طويلة أو قصيرة ، وأكثر ضمانا بكثير من ملاحظة اشارات صادرة عن تدبذبات ابرة غير منتظمة يمينا وشمالا . ومن ذلك الوقت فصاعدا أصبح المغنطيس الكهربى جزءا أساسيا فى جميع أجهزة التلفرافات .

وحينما أنشئت مركبات الترام الكهربائية أصبح من المحقق ضرورة إيجاد فرملة قوية لايقاف الترام ، اذ لم يكن قطع سريان التيسار الكهربائى كافيا . وقد وجد المغنطيس الكهربى فى هذه الحالة أيضا مجالا للاستخدام . ويتكون جسم الفرملة الكهربائية العادية من حديد بداخله لفة من سلك يمكن ان تحمل تيارا ، وبذلك تمتص الحديد . وحينما لا يكون التيار ساريا ، فان الفرمال تكون بعيدة تماما عن القضبان الحديدية التى يسير الترام عليها . وعندما ينطلق التيار ليمتص الفرملة بواسطة محول يتحكم فيه السائق ، فان الفرملة تمتص فى الحال بقوة وتلتصق بالقضبان .

وتستعمل أيضا أجهزة مغنطيس كهربى كبيرة لدفع كتل من الحديد ، وذلك لان إفتح وقفل التيار الممغنط أسير بكثير من عملية الشحن والتفريغ . وهناك تطبيق آخر مألوف جدا للكهرومغنطيسية الا وهو الجرس الكهربائى ، الذى يشبه الزنانه . ويتضح عمله لى انسان يتكبد مشقة النظر الى جرس منزله .

٣ - أول قانون خاص بالتيار الكهربى

كان رجال العلم فى السنين التى أعقبت التعرف على التيار الكهربى مباشرة جد مغتربين باكتشافهم التأثيرات الجديدة وابتكارهم أجهزة جديدة . وبصرف النظر عن ملاحظة الباحثين الأول أن هناك بعض مواد توصل التيارات الكهربائية، والبعض الآخر لا يوصلها وهى المواد المعروفة باسم المواد العازلة ، الا أنهم لم يدركوا الاحوال التى يستطيع التيار ان ينساب فيها الا قليلا .

ويرجع الفضل فى بعض التجارب الهامة الخاصة بالتسدر على التوصيل الى دافى . كانت طريقته قائمة على أن الماء لا يمكن تحليله بواسطة تيار كهربى فى كل الظروف ، اذ أحيانا ما يكون التيار ضعيفا بدرجة لا يستطيع معها أحداث أى تغير على الاطلاق .

وصل دافى نهايات عمود إقوثنى بمسلكين موصلين للكهرباء، أحدهما ماء موضوع فى اناء ملامث ، والثانى عبارة عن سلك معدنى . وكان

يعدل من طول هذا السلك الى أن انتهى تحليل الماء تمسما ، ثم كرر التجربة مستعملا اسلاكاً مختلفة من مواد مختلفة ذات قطاعات مستعرضة ، ولكن مع احتفاظه بنفس اثناء الماء بصفته السلك الموصل الآخر . وبمقارنته النتائج التي وصل اليها وجد أن قوة التوصيل لسلك متجانس من أى مادة معينة يتناسب (أ) طرديا مع مساحة القطع المستعرض (ب) وعكسيا مع الطول .

ومن سوء الطالع لم يسر دافى بهذه الأبحاث شوطا بعيدا بدرجة كافية ، ولكنه دنا دنوا كبيرا من مفهوم المقاومة والقوة الكهربائية الدافعة اللذين أعلنهما للعالم عالم فيزياء ألماني يدعى جورج سيمون أوم (١٧٨٧ - ١٨٥٤) بعد ذلك بسنين قليلة . ويرجع الفضل في أول ناموس عام ، أو قانون خاص بالتيارات الكهربائية لأوم . ومن الغريب حقا أنه على الرغم من قيام أوم بتجارب عدة ، إلا أن القانون المقترن باسمه كان نتيجة لاعتبارات نظرية محضة .

وبدا أوم بمقارنة انسياب الكهرباء بانسياب الحرارة في قضيب . واستنتج أن التيار المنساب في موصل طويل يتوقف حتما على (أ) قوة توصيل المادة المختصة (ب) القطاع المستعرض للموصل (ج) ويتناسب عكسيا مع طول الموصل (د) وطرديا مع شدة التيار المتولد من البطارية . وهذه الشدة هي ما نسميها الآن القوة الدافعة الكهربائية . والصيغة التي تبصر عادة عن نتيجة أوم هي أن التيار يتناسب طرديا مع القوة الدافعة الكهربائية ، وعكسيا مع مقاومة الموصل . أو نستطيع أن نقول أيضا أن نسبة القوة الدافعة الكهربائية الى شدة التيار المنساب هو مقدار ثابت نطلق عليه اسم مقاومة الموصل . وتستعمل هذه النتيجة باستمرار في العمل ، وفي ورشة المهندس الكهربى .

وبعد حوالى ثلاثين عاما من موت أوم مجد مؤتمر دولي هام للوحدات الكهربائية ذكره بتسمية الوحدة العملية للمقاومة باسم الأوم . وسميت الوحدة العملية للقوة الدافعة الكهربائية الفولت على اسم فولتا ، ووحدة التيار أمبير على اسم الفيزيائى الفرنسى أمبير ، ووحدة الفولت الوات على اسم المهندس العظيم جيمس وات . والقوة الكهربائية للوات عبارة عن معدل الشغل الذى يحدثه تيار شدته أمبير واحد تحت تأثير قوة دفع كهربية مقدارها فولت واحد . وعلى ذلك فإن أسماء هؤلاء الرواد مألوفة لجميع الكهربائيين العاملين الذين يتحدثون عن الأمبيرات والأمبيرية، ولرية البيت التى تتباحث فى مقدار الفولتات اللازمة لمكنستها الكهربائية والتي تدفع ثمن القوة الكهربائية التى تستهلكها بالكيلوات ساعة .

وسرعان ما اعلن اكتشاف أورستيد حتى وجدت علاقة غير متوقعة بين الكهرباء والحرارة بواسطة توماس جوهان سيبك (١٧٧٠-١٨٣١)

من برلين . كون سبيك دائرة من معدنين مختلفين النحاس والبرموت
ملتحمين سويا . ولاحظ أن تيارا كان يسرى خلال الدائرة طالما ظلت
نقط الاتصال فى درجات حرارة مختلفة . وقد استولت عليه الدهشة
اذ وجد الكهرباء تتولد هكذا لا بالدلك ، ولا من بطارية كيماءية ، بل
بمجرد اختلاف فى درجات الحرارة عند نقطة اتصال دائرته . وبقيت
هذه النتيجة مدة طويلة مجال بحث ، ولكنها استخدمت مع ذلك فى
صناعة جهاز مفيد . ان التأثير يكون بسيطا جدا باستعمال زوج واحد
من المعادن ، ولكن فى الامكان مضاعفة التيار باستعمال عدد كبير من
الأزواج . وفى الجهاز الذى نعرفه اليوم باسم الترموبيل (١) المستعمل
ككاشف دقيق للاشعاع يستخدم عدد كبير من أزواج المعادن منسقة
تنسيقا ملائما .

٤ - اكتشاف الحث الكهرومغناطيسى

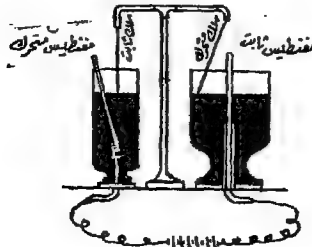
بينما كان أوم يجرى تجاربه فى المانيا ، وأمير يجرى تجاربه فى
فرنسا ، كان أحمد مساعدى دافى فى انجلترا ، ميخائيل فاراداي
(١٧٩١ - ١٨٦٧) يقوم ببحث موضوع الكهرومغناطيسية . وقد أدت
أبحاثه الى اكتشاف من أهم الاكتشافات ذات الأثر البعيد المدى فى
تاريخ العلم ، وذلك هو الحث الكهرومغناطيسى .

نشأ فاراداي من أبوين فقيرين ، ولم يحصل الا على القليل جدا
من التعليم المدرسى ، وعمل سنينا صبيا فى ورشة تجليد كتب . ولقد
اعتاد أن يقرأ أى كتب علمية تصل الى يده ، وأنفق مصروفه فى شراء
مواد لعمل الأجهزة التى يقوم بصنعها فى المنزل . وذات مرة حضر
المحاضرات التى كان همفرى دافى يلقيها فى المعهد الملكى فى شارع
الليمارل ، وكان دافى فى ذلك الوقت فى أوج شهرته وكان عليه القوم
كلهم فى لندن يهرعون ليسمعه . لقد أذكت المحاضرات الحماس
الصبيانى لفاراداي الصغير ، وتاق للحصول على عمل ما فى مجال
العلم . وفى النهاية حينما انتهى عمله كصبي فى محل تجليد الكتب ، وبدأ
يعمل فى حرفته وجد الحياة كريهة بدرجة أنه قرر الحصول على وظيفة
ما مهما كانت متواضعة ، فى خدمة العلم . ولذلك اتخذ الخطوة البسيطة
الجريئة الا وهى الكتابة المباشرة لدافى . وفى نفس الوقت ضمن
رسالته مذكرات دقيقة عن محاضرات دافى . لقد أحدثت نفمة خطابه

(١) أو مقياس التشعع . (المترجم)

المخلصة ومذكراته الدقيقة الواضحة تأثيراً حسناً في دافى ، ونتج عن هذا أن أصبح فاراداي محضراً في معمل في المعهد الملكي .

وبعد أن قضى فاراداي سنتين يتعلم الأشغال اليدوية والقيام ببعض الأبحاث الصغيرة سمع عن اكتشاف الكهرومغناطيسية الجديدة . كرر تجربة أورستيد ، وأدرك أنه لا بد من وجود قوة مغناطيسية تعمل حول السلك ، واعتقد أنه لو أمكننا جعل قطب مغناطيسي يدور حول تيار ، إذن فلا بد أن يدور سلك حامل للتيار حول قطب مغناطيسي . لقد تخيل التجربة في ذهنه ، ورأى أن المسألة ما هي إلا مسألة ترتيب للتفاصيل فقط بحيث أنه لا بد أن يكون المغنطيس حراً في حركته في الحالة الأولى ، ويكون السلك الحامل للتيار حراً في حركته في الحالة الثانية . وبعد ذلك أعد أجهزة يمكن بواسطتها الحصول على هذه الدورات المتوافقة .



(شكل ٣٣)
جهاز دلال به فاراداي على الدورات
الكهرومغناطيسية

وكانت تتكون دائرته من اثنتين يحتويان زئبقاً ، ثم وضعت أسلاك موصلة مناسبة بحيث أصبح في أحد الآنية مغناطيس ثابت وسلك حر الحركة ، وفي الثاني سلك ثابت ومغناطيس متحرك (شكل ٣٣) . انتقل التيار من السلك خلال الزئبق الموجود في الكأس الأسير إلى دبوس نحاسي متصل إلى قاعدة الإناء . وكان المغناطيس في هذا الكأس مثبتاً بالدبوس النحاسي بخيوط . وكان المغناطيس الثابت في الإناء الأيمن موضوعاً في جراب في قاعدة الإناء ، وكان السلك (ب) في مكانه أن يتحرك بحرية وهو منغمس في الزئبق بواسطة وصلة تتحرك في جراب كروي في (ج) . وبمجرد تمام الدائرة ابتدأ المغناطيس في الإناء الأول والسلك في الإناء الثاني يتحركان ، واستمر كذلك طول مرور التيار .

وحصل فاراداي كذلك على دورات ميكانيكية بواسطة تيار كهربى .
وكان جهازه البشير الاول للموتور الكهربى الذى يمكن بواسطته جعل
تيار كهربى يحدث دورات تستعمل لادارة الآلات ، وتحريك مركبات
الترام والقطارات . وحدث تلاؤم اكتشافات فاراداي مع الحياة العملية
بعد اجراء تجاربه الأصلية بوقت طويل ولم يعط فاراداي نفسه أية فكرة
عن التطبيقات الممكنة لعمله فى الميدان التجارى . لقد كان يكدر ويكدح
من أجل العلم فحسب .

وقام فاراداي بتجاربه لاحداث طاقات دوران كهرومغناطيسية
عام ١٨٢١ . وبعد ذلك بسنين أصبح زميلا فى الجمعية الملكية . وكان
فى ذلك الحين مشغولا بأبحاثه فى الكلور . وقد انتخب زميلا لأنه كان
متفقا بدرجة كبيرة فى العلوم الكيماوية . وفى سنة ١٨٢٥ صار مديرا
لمعامل المعهد الملكى . ومن أوائل الأشياء التى قام بها تنظيم اجتماعات
فى امسيات أيام الجمع يمكن للأعضاء واصدقائهم حضورها لالتقاء
المحاضرات والاشتراك فى المناقشات . وسرعان ما أصبحت هذه
الاجتماعات اجتماعات محبة للناس ، اذ كان لفاراداي محاضرا خلايا
وقادرا على أن يثبت فى مستمعيه بعضا من حماسه . وكان فى ذلك
الوقت مشغولا بعمل كثير ، وذلك لأنه بالإضافة الى واجباته العادية فى
المعهد كان مشغولا بتجارب عن استعمال انواع مختلفة من الزجاج
للأغراض البصرية . ولكن الظاهر من مذكراته ورسائله أن رغبته الكبرى
كانت الرجوع الى عمله فى الكهرومغناطيسية . وكان يعتقد اعتقادا
جازما أنه بما أن تيارا يحدث تأثيرا مغناطيسيا ، فمن الممكن لذلك أن
نعمل المغناطيسية بطريقة ما تنتج تيارا . وكانت هذه هى الفكرة التى
هدته الى عمله العظيم الذى انتهى اليه .

وتضرب لنا أبحاث فاراداي مثلا ممتازا للطريقة العلمية . وبدأ
فاراداي بالامام الماما تاما بما فى ميدان العلم كله عن الظواهر الكهربائية
والمغناطيسية الموجودة حينئذ . ونتيجة لذلك ازدادت معرفته بدرجة
أن أصبح قادرا على تفسير ما يدور فى خلد الشخص غير المتعلم أنه مجرد
شيء شاذ أو مجرد مصادفة . انه لم يسر فى عمله اطلاقا بطريقة خبط
عشواء ، ولكنه كان يتطلع باستمرار الى شيء محدد . لقد نجح حيث
فشل الناس الآخرون ، وذلك لأنه بصرف النظر عن همته التى لا تكل ،
وعن رغبته فى الوصول الى الحقيقة كان يتمتع بفراسة وقوة خيال .
ولذلك كان يرى أن هناك امكانيات ، فى الوقت الذى كان فيه الآخرون
يتحسسون طريقهم وهم يتخبطون .

ولقد رأينا كيف كان من رأى فرانسس بيكون وهو يكتب عن
الكشف العلمى أن من الواجب علينا القيام بكل الدراسات الممكنة

وأجراء كل التجارب المستطاعة . وبعد ذلك تقوم باستقصاء شامل للعلاقات التي تربط الحقائق بعضها ببعض . وبهذه الطريقة نصل الى القانون العلمى . ولكن تاريخ العلم يرينا أن الاكتشافات لم تتم طبق لقواعد يكون ، اذ عادة حينما يبدأ القائم بالتجارب عمله ، يبدأ خياله فى أن يلعب دوره . ولذلك فإنه يحدد عدد تجاربه طبقا للفروض التي يفترضها . وليست هذه الفروض تخمينات لا ضابط لها ، بل حلقات فى سلسلة استدلالية ترتبط بعضها ببعض بخيال جامع ولكنه خيال منظم .

ولم يتوقف فاراداي حينما نجح فى جعل مغنطيس يدور حول تيار ، وتيار يدور حول مغنطيس . لقد شعر أن هذه النتائج ، وكذلك النتائج التي وصل اليها أورستيد ، وأمبير ، لا بد أن تكون راجعة الى عامل مشترك . ومن حسن الحظ أن فاراداي ترك لنا سجلا كاملا لأبحاثه (١) . ولأوصافه أهمية خاصة ، اذ إنها كتبت فى وقت قيامه بتجاربه . اننا نقف منها على ما يفشل فيه ، وما صادف إفيه نجاحا .

وعلى ذلك نستطيع أن ندرك لحد ما كيف كان يعمل ، وكيف توصل الى نتائجه .

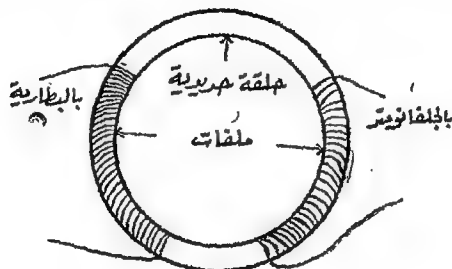
ويخبرنا فى أول سلسلة من أبحاثه أنه شرع يبحث فيما اذا كان فى الامكان نشأة الكهرباء من المغنطيسية ، وفيما اذا كان فى استطاعة تيار أحداث تيار آخر فى موصل مجاور دون أن يتلامسا ، بالضبط كما كان معروفا من قبل من أن الكهرباء الناتجة من الاحتكاك تحدث شحنة فى جسم آخر . لقد استغرقت محاولاته الأولى عدة سنين ، ولكنها لم تؤد الى نتائج ايجابية . ومع ذلك ففى ٢٩ من أغسطس سنة ١٨٣١ صادف أول نجاح له وهو يوم مشهود فى تاريخ العلم .

أخذ فاراداي خاتم حديد سميك وربط حوله لفتين منفصلتين من السلك ، وكانت إحدى اللفتين متصلة بطارية فولتية ، والأخرى بجلفانومتر (شكل ٣٤) . وعند اتمام الدائرة اكتشف تيارا قويا فى اللفة الأخرى . وبينت هذه النتائج سريان تيار عابر فى اللفة الثانية . وكان هذا هو نفس الشيء الذى كان يبحث عنه . وحقق هذه النتيجة عدة مرات ، وحينئذ بدأ يعمل ليعبر التفاصيل .

واستعمل أحد الأيام لفة أسطوانية طويلة من السلك فوجد أن تيارا تأثيريا حدث حينما دفع بمغنطيس الى اللفة ، وايضا حينما جذبته

(١) كتاب أبحاث تجريبية فى الكهرباء فى ثلاثة مجلدات (لندن ١٨٣٩)

الى الخارج مرة ثانية . وكانت هذه التيارات التائريية تسير فى اتجاهات مضادة ، ولم يكن هناك تيار تائريى اطلاقا حينما كان المغنطيس ساكنا .



(شدى ٧٥)

تجربة فارادى التى بين بها التيارات الحادثة
او التائريية

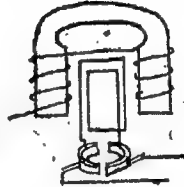
وفى مناسبة أخرى حينما عاد فارادى الى تجربته تلك استغنى عن المغنطيس كلية ، وكون لفاته بلغها حول كتلة خشبية فحسب . ثم وصل احدى هاتين اللفتين بجلفانومتر بعيد والأخرى بطارية . وقد لاحظ رعدة بسيطة فى أبرة الجلفانومتر عند سريان التيار فى اللفة الأخرى ، أو عند قطعه . ولاحظ أن الأبرة تتحرك فى اتجاهين متضادين عند حدوث التيار الرئيسى أو عند انقطاعه ، مبينة بذلك حدوث تيارات تائريية عابرة فى اتجاهات متضادة .

وفى مرة أخرى ، بدلا من تحريك مغنطيس خلال لفة سلك ، عمل فارادى ترتيبه على أن يدور موصل على شكل قرص نحاسى بين قطبى مغنطيس قوى . ووجد أن تيارا تائرييا قد حدث عند دوران القرص . وأخذ فى مناسبة أخرى سلكا نحاسيا متصلا بجلفانومتر ، وحركه بسرعة بين قطبى المغنطيس ، فلاحظ أيضا تيارا تائرييا أثناء الحركة .

ويمكن تلخيص النتائج التى وصل اليها بأن التيارات التائريية تحدث طالما حدث تغير فى الأحوال المغنطيسية . وكان يحدث هذا التغير فى بعض الحالات بتحريك مغنطيس بالفعل . وفى بعض الحالات الأخرى حينما كان لا يوجد مغنطيس كان السريان الفجائى أو الايقاف الفجائى لتيار فى لفة ما فى شأنه تغير الأحوال المغنطيسية . ووجهت الجهود التى بذلت بعد ذلك لانتاج تيارات تائريية أكبر مدى بجعل معدل هذا التغير كبيرا بدرجة كافية .

٥ - انتاج الكهرباء على نطاق واسع

كان قرص فاراداي النحاسى الدائر بين قطبى مغنطيس كهربي اول آلة كهرو مغنطيسية ، وهى التى يطلق عليها غالبا اسم مولد أو دينامو (شكل ٣٥) .



(شكل ٣٥)

أبسط أنواع الدينامو أو الجزء المكمل له ،
الموتور

والدينامو الحديث ذو تصميم معقد ، ولكنه يتكون أساسا من موصل مناسب مكون من عدة لغات يتحرك بين قطبى مغنطيس قوى .

والموتور الكهربى هو الجزء المكمل للدينامو . ولم يتبين فاراداي أهميته فى الدورات المغنطيسية التى لاحظها فى بدء حياته العملية . ويوفر فى الموتور تيار من الخارج الى موصل مناسب قائم بين قطبى مغنطيس قوى . وبهذا يدور الموصل ، ويمكن استخدام حركته فى ادارة الآلات أو تحريك مركبات الترام أو القطارات . ومن الغرابة بمكان أن الموتور وصل الى حالة طيبة من التطور بينما ظل الدينامو وقتا طويلا مجرد لعبة علمية . ففى عام ١٨٣٩ استخدم موتور كهربي فى تحريك قارب بسرعة $2\frac{1}{4}$ ميل فى الساعة . ولا عجب أن لم تكن هناك فى تلك الأيام قوانين لتنظيم حدود السرعة . وكانت الموتورات الأولى تستمد تيارها من بطاريات فولتية . ومع ذلك فكانت الموتورات القوية تستلزم مصدرا أقوى للتيارات ، ولم يكن هذا ميسورا حتى تحسن الدينامو .

وفى أثناء مناقشة دارت فى معهد المهندسين المدنيين سنة ١٨٥٧ حسبت تكاليف ادارة موتور كهربي من خلايا فولتية . لقد وصلت تكاليف الزنك المستعمل فى الخلايا الى درجة أن أصبحت تكاليف القوى الكهربائية فى ذلك الوقت ضعيف . تكاليف القوى البخارية ستين مرة . ونتج عن ذلك أن أعطى كل السادة البارزين أصواتهم ضد القوة الكهربائية . ولم يتحسبن الدينامو بدرجة كافية لجعل القوة الكهربائية شيئا عمليا حتى سنة ١٨٧٠ . ومع ذلك فقد أصبح انتاج الكهرباء على نطاق واسع من ذلك الوقت فصاعدا أرخص بكثير حتى دخلت الكهرباء المستخدمة فى أغراض الانارة والتدفئة المنزلية ، وتحريك مركبات الترام والقطارات مجال التطور التجاري .

والاستعمالات الأخرى لاكتشاف فاراداي العظيم في حياتنا اليومية عديدة جدا بدرجة أننا لا نستطيع إلا أن نعطي مجرد احصاء لبعض منها .
فمثلا الملف التأثيري الذي يمكننا من الحصول على قوة دافعة كهربية عالية جدا من تيار مستمر من عدد قليل من الخلايا الفولتية ما هو إلا تعديل للملفى فاراداي الملقوفين حول قضيب حديدي . ويتكون الملف الداخلى أو الابتدائى فى الملف التأثيري من ليات قليلة من سلك سميك ، ويتكون الملف الداخلى أو الثانوى من آلاف الليات من سلك دقيق جدا مكسو بطبقة عازلة بطريقة متقنة . ويحدث التيار فى الملف الابتدائى وينقطع بشكل مستمر بواسطة جهاز بسيط مشابه للجهاز المستعمل فى الجرس الكهربى المألوف لنا . وتحدث التيارات المتغيرة بسرعة فى الملف الابتدائى قوة دافعة كهربية عالية فى الملف الثانوى .

وغالبا ما تكون ملفات التأثير مطلوبة فى الأبحاث الفيزيائية . وحيث انها ضرورية لانتاج الأشعة السينية ، فانها توجد فى جميع المستشفيات الحديثة . ويستخدم الملف التأثيري فى تحويل قوة دافعة كهربية منخفضة الى قوة عالية . ولكن من الممكن استخدام جهاز مماثل مكون من لفتين حول قضيب حديدي عادى لتحويل قوة كهربية عالية الى قوة منخفضة . وعلى ذلك فان القوة الفولتية العالية الناتجة من محطة توليد الكهرباء لابد من تحويلها الى قوة اقل لانارة المنازل والشوارع . ويدعى الجهاز الذى يتم عن طريقه هذا التحويل بالمحول ، ويغير التيار التأثيري فى موصل دينامو اتجاهه فى كل دورة ، معطيا بذلك ما نسميه بالتيار المتناوب أو التقطع . وإذا وجه مثل هذا التيار الى ملف واحد لمحول ، فان تناوباته تحدث قوى كهربية دافعة متغيرة فى الملف الآخر ، ولذلك فلا تكون هناك حاجة لجهاز وأصل فاصل ، كما هى الحال فى الملف التأثيري . ومبدأ المحول مطبق فى كثير من انواع الدوائر المستعملة فى الإرسال والاستقبال اللاسلكي .

وكذلك فان المناطق المستعمل فى كثير من الموتوسيكلات والسيارات لاجداث شرارة خلال مزيج الغازات التى يحتاجها المحرك ما هو الا نوع من الملفات التأثيرية الدوارة . وبدلا من أن يستمد التيار من بطارية ، فانه ينتج عن دوران الملفين المزدوجين بين قطبي مغنطيس قوى . وتنتج قوة كهربية دافعة تكفى لاجداث شرارة بواسطة استمرار وصل وقطع التيار فى ملف واحد بواسطة كامرة (١) تدفع بطرفين متصلين الى الانفصال ثم يلتصقان ثانية بواسطة زنبرك . والتليفون تطبيق آخر لمبدأ التيارات

التأثيرية . ويتكون فى أبسط صورة من مغنطيس على شكل حدوة فرس
بملفات من سلك مكسوة بمادة عازلة حول الاقطاب (شكل ٣٦) .



(شكل ٣٦)
أبسط أنواع التليفونات المرسل أو المستقبل

وتوجد رقيقة مرنة من الحديد داخل السماعة . وعندما يتحدث
الانسان فى السماعة يحدث الصوت ذبذبات فى الهواء تحرك رقيقة
الحديد . وبما أن الحديد ممغنط فان تحركات رقيقة الحديد تحدث
تيارات تأثيرية فى الملفات وتنتقل هذه التيارات التأثيرية من الملفات الى
الأسلاك المؤدية الى جهاز الاستقبال الذى قد يبعد أميالاً . ومع ذلك
فهذه التيارات العابرة التى تصل جهاز الاستقبال تحدث تحركات
فى طبلة رقيقة تحدث ذبذبات فى الهواء تسمع كصوت . وهناك أنواع
عديدة من الأجهزة لتحويل الطاقة الصوتية الى طاقة كهربية والعكس
بالعكس . ويتركب نوع شائع من الميكروفون مستعمل كجهاز إرسال
تليفونى من حبيبات كربون بين كتلتين من الكربون . وينساب تيار من
بطارية بين الحبيبات ، ويسبب أى ضغط صوتى على الطبلة تغيراً فى
مقاومة الحبيبات وذبذبات تيارية متماثلة . ويجب فى جميع حالات
إرسال الحديث ، والموسيقى عن طريق اللاسلكى تصميم أجهزة تحول
الصوت ، كما هو حادث الآن فعلاً ، الى تيارات ، وبعد ذلك تتحول
التيارات فى الطرف المستقبل الى صوت .

٦ - الأبراق البعيد المدى

كان على الانسان فى الأيام الاولى لإرسال الرسائل عن طريق
التلغراف أن يراقب عند محطة الاستقبال تارجمات أبرة ذات اليمين
وذات الشمال ، أو ينصت الى زنات ، ثم يسجل الرسالة طبقاً لنظام
إشارات وضع من قبل . ولكن المراقب المسكين لم يكن فى استطاعته
أن يجلس ليل نهار منتظراً رسالته . ولذلك كان من الضرورى قبل

ان يصبح التلغراف اداة فعالة لارسال الرسائل فى اعمال الحياة العادية
ايجاد وسيلة لتسجيل تلك الرسائل تلقائيا .

وانشئ اول تلغراف مسجل عملى بواسطة مورس احد اهللى امريكا
(١٧٩١ - ١٨٧٢) ، واسمه معروف فى العالم كله بسبب نظام اشاراته
المكون من نقط وشرط . اخترع مورس آله بعد ان زار اوربا عام ١٨٣٢
والم باكتشاف فاراداي للحث الكهرومغناطيسى . ثم ابتكر جهازا تثير فيه
التيارات التأثيرية مغنطيسا كهربيا فى الطرف المستقبل . لقد كان امرا
هينا جعل المغنطيس الكهربى يجذب قطعة حديد ملتصق بها قلم رصاص
وبذلك بدون علامات على قصاصة ورق تسحب بالآلة تشبه الساعة .
وعلى ذلك كانت تسجل الرسائل تلقائيا .

وبمثل هذه الوسائل أصبح الابراق امرا عمليا جدا عبر مسافات
قصيرة . ومع ذلك فحينما جرب فوق مساحات اطول وجد ان التيارات
اصبحت ضعيفة بحيث لا تؤثر فى جهاز الاستقبال . لذلك ابتكر مورس
جهازا سماه المجدد ، وهو جهاز تتلقى به التيارات القادمة دفعا اضافيا
ويتنتج عن هذا ارسالها اشارات قوية الى كبل ثان . ويقوم مبدا مجدّد
مورس على حركة ملف من سلك حاملا تيارا وهو بالقرب من مغنطيس،
وبذلك يرجع فى أصله الى الدورات الكهرومغناطيسية التى اكتشفها
فاراداي لأول مرة . وتحدث تحركات الملف فى المجدد اتصالات كهربية
مستمدة بذلك تيارا من بطارية موضعية مماثلة تماما للتيارات الضعيفة
القادمة . وبهذه الطريقة يمكن ارسال الاشارات عبر مساحات شاسعة
بواسطة سلسلة من المجددات .

وحينما نجح الابراق البرى بهذه الطريقة كان من الطبيعى ان يرغب
المهندسون فى وضع كبلات تحت البحر . وكانت هناك بالفعل خطوط
قصيرة عاملة بين انجلترا وفرنسا وهولندا وايرلنده فى السنين الوسطى
للقرن التاسع عشر .

ومع ذلك فان المشكلة الاعظم بكثير الا وهى مشكلة ربط اوربا بامريكا
برزت عنها مشاكل خاصة بعيدة كل البعد عن عملية وضع كبلات طويلة
واتخاذ احتياطات ضد التآكل الذى يتسبب فيهماء البحر والخطر الناشئ
عن تسرب التيار بسبب العزل الرديء .

وقد أدت أبحاث وليم طومسون (١٨٤٢ - ١٩٠٧) ، الذى صار
اللورد كلفن فيما بعد ، فى الحالات الكهربائية لكبل مكسو بمادة عازلة
الى حل عملى لهذه الصعوبات . وفى النهاية تم بنجاح وضع كبل المحيط
الاطلنطى ، وتم ربط احد نصفي العالم بالآخر .

وكان الابراق المحيطي يحتاج الى نوع من أجهزة تحويل الموجات التيارية الى موجات صوتية ، وأجهزة تسجيل أكثر دقة . وهنا أيضا هرع اللورد كلفن الى مساعدة المهندسين بابتكار جهاز سماه جهاز التسجيل السيفوني الذي يقوم على مبدأ تحريك ملف حامل تيارا ضئيلا فى مجال مغنطى قوى . وعندما تقدم الابراق والارسال التليفونى أصبح من المحتم استعمال كبلات أكثر فاعلية محمية بسلك صلب مغلف بكتيب . وعلاوة على ذلك أصبح من الضرورى استعمال مكبرات ، وهى أجهزة لزيادة التيارات الضعيفة المناسبة خلال الكبل — معوضة بذلك ما تفقده التيارات فى سيرها خلال الخط . ومثل هذه المكبرات التى تستعمل غالبا فى الدوائر الكهربائية التليفونية تسمى المرددات ، وتتكون من صمامات ثرمونية ذات تصميم خاص (١) .

٧ - مراحل الاسلكى الأولى

كان الابراق البرى والمحيطى نتيجة لمبادئ اكتشفت فى المعمل وطبقت على الحاجات العملية . ومن جهة أخرى بدأ الابراق الاسلكى نظريا دون أن يخرج الى الحيز العملى فى وقت لم يحلم فيه بشر حتى فى أشد لحظاته تخليقا فى الخيال بارسال اشارات دون الاستعانة بأسلاك . وترجع أسس الابراق الاسلكى فى الحقيقة الى ما قام به فاراداي من أعمال .

وكان فاراداي يحاول دائما تخيل ما يحدث حينما يدور سلك حاملا تيارا حول مغنطيس ، أو حينما يحرك تيار مغنطيسا . لقد تصور المنطقة التى تجاور مغنطيسا أو تيارا — منطقة نشير اليها اختصارا بالمجال المغنطيسى — ممتلئة بخطوط قوة . وبافتراضه أن لخطوط القوة هذه ميل للقصر مثل قطع المطاط الممتدة ومقاومة بعضها بعضا ، استطاع فاراداي أن يقدم لنا تفسير الاكتشاف أورستد الجوهري ألا وهو الكهرومغنطيسية وللنتائج التى وصل اليها فى الحث التيارى وأيضا لما وصل اليه أمبير فى التأثير المتبادل لتيارين . وشرح هذه النتائج كلها مرجعا إياها لا الى المغنطيسيات والأسلاك بل الى المنطقة ، أو الوسط المحيط بها .

وقد ترك فاراداي فى كتابه الأبحاث التجريبية سردا كاملا للطريقة التى كان يعمل بها وللطريقة التى كان يتبعها فى استقراء نتائجها . وكانت كتاباته هذه هى التى أوحى لكلارك ماكسويل (١٨٣١ — ١٨٧٩) بما

(١) الثرميون دقيقة مشحونة بالكهرباء ، والثرميونات اما سلبية أو ايجابية .
(المترجم)

بذله من مجهودات ، ذلك الرجل الذى صاغ أفكار فاراداي فى تعبيرات رياضية .

لقد وجد فاراداي أنه حينما تكتمل دائرة كهربية فإن التيار لا يصل فورا الى منتهى قوته ، وانه حينما ينقطع فانه لا يتوقف فجأة . وبمعنى آخر فإن التيار مثله فى ذلك كمثل أى جسم مادي يتطلب دفعا شديدا ليجعله يتحرك ، ولكن بمجرد سريانه فليس فى الامكان توقفه فورا . وقد فسر ماكسويل هذه النتائج بقوله ان طاقة التيار تستنفذ جزئيا فى ايجاد المجال المغنطيسى ، وان الطاقة المتغيرة لهذا المجال تحدث التيار البسيط الذى يستمر عند انقطاع الدائرة . حينئذ وضع ماكسويل هذه الأفكار فى صيغة رياضية معالجا خواص المجال الكهرومغنطيسى طبقا للمبادئ العادية للديناميكا .

وبهذه الطريقة استنتج نظريا تأثير التذبذبات فى شدة التيار ، والتغيرات الناتجة فى شدة المجال المغنطيسى . وقد وجد أن التغيرات فى الشدة التى تتلو بعضها بعضا فى فترات محددة ، أو التغيرات الدورية كما تسمى ، تنساب على بعد كبير وراء المنطقية التى بدأت التغيرات فيها . وقد وجد بالفعل أن الاضطراب الكهربى الدورى الذى ينشأ بدوره اضطرابا مغنطيا دوريا يسير بسرعة الضوء . وبما أن النظرية الموجية للضوء كانت تتطلب وسطا من نوع ما يمكن ارسال الموجات بواسطته ، فقد بدا من المعقول أن يفترض أن نفس الوسط يستخدم لكل من موجات الضوء والموجات الكهرومغنطيسية . والحقيقة أن الضوء ذاته كهرومغنطيسى فى صفته .

وكان كل شيء حتى ذلك الوقت نظريا . ومع ذلك فبعد موت ماكسويل بعشر سنوات ولدت الموجات الكهرومغنطيسية فعلا فى العمل ، وقدرت سرعتها ، ووجد أن تنبؤات نظرية ماكسويل تتفق مع نتائج التجربة . وهذا من أعظم الانتصارات المبينة للرياضيات التى شهدها العالم .

ويرجع الفضل فى أول اثبات ناجح لموجات ماكسويل الى عالم فيزياء المانى يدعى هينريخ هيرتز (١٨٥٧ - ١٩٠٤) . لقد نجح هيرتز سنة ١٨٨٨ بعد محاولات عدة فى أول الأمر فى الكشف عن الاشعاع الكهرو مغنطيسى المنبعث عن ملف تأثيرى ينبعث الشرر منه . استعمل صحائف معدنية ملتصقة بقضبان فى نهاياتها كرتان معدنيتان . وحينما كان الملف التأثيرى يعمل باختلاف كاف فى الجهد ، أخذ الشرر يتناثر بين الكرات المعدنية ، وحدث تفرغ تذبذبى بين الصفائح . وللكشف عن التوجعات

الكهرو مغنطيسية التى نشأت هكذا استعمل هيرثز موصلا دائريا مزودا بفرجة شبر . وقبل نهاية القرن كانت مثل تلك الارسلالات الشروية مستعملة بالفعل فى نظام ارسال الاشارات . وقد أدت أبحاث أخرى عن الأجهزة الكاشفة وعلى الأخص أبحاث السير أوليفر لودج (١٨٥١ - ١٩٤٠) الى تطور الاشارات اللاسلكية بين السفن فى البحر .

وسرعان ما انتشر الاهتمام بهذا فيما وراء صفوف رجال العلم الاخصائيين . وكان هناك مهندس بعيد النظر يدعى مارشيز ماركونى (١٨٧٤ - ١٩٤٥) هو الذى أرسل أول اشارات لاسلكية عبر القنال الانجليزى . وكان المعتقد فى ذلك الوقت أن الموجات الكهرو مغنطيسية، التى تسير ، كما تفعل عادة ، فى خطوط مستقيمة ، ستسبب الى الفناء ، وأنه بالنسبة لانحناء سطح الأرض ، فإن ارسال الاشارات البعيدة المدى كان أمرا مستحيلا . وحاول ماركونى ارسال الاشارات عبر الاطلنطى ونجح . ولذلك بدأ أن موجات اللاسلكى لا بد أنها تنعكس مرتدة الى الأرض بكيفية ما . ولكن ما الذى كان فى استطاعته جعلها تنعكس ؟ لقد بقى هذا السؤال دون جواب حتى العقد الثالث من القرن العشرين ، حينما عالج سير ادوارد أبلتون المشكلة . وقد أظهرت نتائجه وجسود طبقات من الأيونات فى طبقات الجو العليا تعمل كمرآة للموجات اللاسلكية ، وبذلك تجعل ارسال الاشارات حول الأرض ممكنا . وتكون هذه الطبقات ما نعرفه اليوم باسم الأيونوسفير .

واعتمدت أبحاث سير ادوارد أبلتون اعتمادا كبيرا على استعمال الصمام الثرميونى . وكان أول وأبسط نوع من هذا الصمام هو الصمام الذى اخترعه السير . ج أمبروز فليمنج (١٨٤٩ - ١٩٤٥) . وقد سجل فليمنج عام ١٩٠٤ جهازا يشبه مصباح النور الكهربى بداخله شريحة معدنية وفتيلة متوهجة كذلك . ويحول مثل هذا الجهاز الذى أصبح يعرف بصمام التنقية سلسلة من التناوبات التيارية الى سلسلة من التيارات أحادية الاتجاه يمكن الكشف بسهولة عنها . ولذلك كان جهاز التنقية جهازا لتحويل التناوب الى تيار مستمر . وأدت تطورات أخرى الى صمام للتنقية من النوع المستعمل فى كثير من أجهزة الاستقبال والموصوف بإيجاز فى الفصل الثالث عشر .

وقد أصبحت الآن اذاعة الأخبار والموسيقى ورقص الباليه والمباريات على شاشة التليفزيون مباحج الحياة التمرس الجميع . وتتعاون الصناعة والابحاث الجوهرية سويا فى مجال الاكترونات . وأصبحت حيسازة الأجهزة الكهربائية الوفرة للجهد احدى الطرق لمسايرة ركب المدنية . ومع ذلك فربما تكون فحسب فى بدء عصر الكهرباء . واذا سأل انسان : ما هى

الكهرباء ؟ فليس هناك اجابة شافية لسؤاله . لقد كانت الكهرباء توصف في القرن الثامن عشر بأنها سائل ، وأحيانا بأنها سائلين . وفي القرن التاسع عشر درس الناس القوى الموجودة في المنطقة أو المجال المحيط بالتيار . وفي السنين الأخيرة من القرن العشرين غيرت الاكتشافات الحديثة كل طرق تفكير الناس ، اذ كما سنرى في فصل قادم يفكر رجال العلم الآن في العناصر الكيميائية على انها مكونة من وحدات كهربية بسيطة . ولذلك فهم يفسرون المادة بعايير كهربية على الرغم من أن الأمر كان العكس يوما ما . ولذلك صارت الكهرباء هي الملاذ الأخير للوصف العلمي . ولا يمكننا أن نوضحها في الوقت الحاضر بما هو أبسط من هذا .

الفصل العاشر

الطاقة والقوة

١ - قانون الطاقة

إن شركة صناعية جزيئة كانت قد وضعت في ذهنها الطريقة التي يستعمل بها الناس غير الأمناء الأيونات الكهربائية في غرف الفنادق . فسجلت عداد عملة كهربى اخترعته . إن كل شاغل حجرة يدفع الثمن بوضع عملة في ثقب العداد . وهو يدفع هذا الثمن نظير ما تقوم به الكهرباء من خدمات ، وبمعنى آخر يدفع ثمن الطاقة الكهربائية في الوقت الذى يستعمل فيه هذه الطاقة . ما الذى نعتيه بهذا التعبير ؟

إن الطاقة تتضمن عملا يؤدي . فالتيار الكهربى ، والشلال ، والقاطرة ، والسيارة التى تنهب الأرض ، تؤدى كلها عملا . ومقدار العمل الذى تستطيع هذه الأشياء أن تقوم به يدل على طاقتها . ونقول إن عملا يؤدي حينما يتحرك جسم تحت تأثير قوة . ويقاس المهندسون العمل بالوحدات البوندية (١) . ولذلك فإذا رفع جسم زنته عشرة أرطال قدمين فى الهواء ، فإن العمل المؤدى $= 10 \times 2$ ثقل بوند . وتقاس قوة الآلة بمعدل ما تقوم به من عمل . ووحدة القوة التى يستعملها المهندسون هى الوحدة التى اتخذها وات فى تقدير قوة آلاته البخارية . إنها تسمى قوة حصان (٢) وهى تقدر بـ ٥٥٠ ثقل بوند فى الثانية .

وقد أدركت فكرة الطاقة بطريقة غامضة : فى عصر جاليليو ، ولكن رجال العلم لم يكونوا حتى القرن التاسع عشر ينظرون إلى الطاقة كشيء يمكن قياسه بالوحدات بالضبط كما نقيس الأشرطة بالياردات . وأخذت فكرة الطاقة من ذلك الوقت فصاعدا تلعب دورا هاما جدا فى تقدم الفيزياء .

(١) الثقل البوندى . ، والبوند هو الرطل (المترجم)

(٢) تكفى لرفع ٣٣٠٠٠ رطل فى الهواء قدما واحدا فى الدقيقة (المترجم)

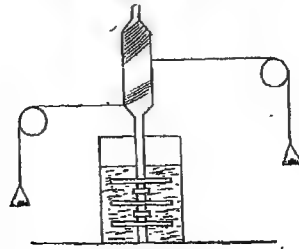
ويمكن للأجسام المتحركة أن تؤدي عملاً • ويقال في هذه الحالة إن الطاقة حركية • ولكن العمل يمكن أن يؤدي أيضا بواسطة هواء مضغوط عندما يتعدى ، أو بزنبرك ملوى عندما يفك ، أو بماء في مستوى أكثر ارتفاعا من البيئة المحيطة به سمح له بالاندفاع الى مستوى أكثر انخفاضا . ويقال في هذه الحالات ان الطاقة هي طاقة الجهد • ونجد باستمرار أن الطاقة الحركية تتحول الى طاقة جهد والعكس بالعكس • فمثلا في سكك حديد الجبال والمرتفعات التي أشرنا اليها في الفصل الثالث تبدأ العربة بالتحرك أسفل منحدر ولذلك فهي تكتسب طاقة حركية كافية لترفعها فوق أول نتوء يصادفها ، نتوء لا يبلغ ارتفاعه ارتفاع النقطة التي بدأت منها • وتكون بهذا قد اكتسبت مرة ثانية طاقة جهد تجعلها تنحدر على المنحدر الثاني ، وهكذا دواليك • ولكن في النهاية لا تبلغ العربة ارتفاعا يساوي الارتفاع الذي بدأت منه • ولذلك يبدو أن بعضا من الطاقة قد اختفى • وقد أدى البحث عن هذه الطاقة المفقودة الى تقدم عظيم في التفكير العلمي •

وأول مفتاح لهذه المشكلة كان في الاحاطة بأن الطاقة تنشئ حركة • وهذا معروف لكل انسان • فنحن جميعا ندرك أيدينا سويًا عند ما نحس ببرد • ويعرف المتوحشون كما يعرف الكشاف كيف يقدحون النار بالزناد • ويعلم أولئك الذين يمتطون الدراجات أن ماسورة المضخ تسخن حينما يقومون بنفخ اطارات دراجاتهم • ويعرف أولئك الذين يسلون أنفسهم باصابة الاهداف ببنادقهم أن مقذوفاتهم الرصاصية اللينة تصيب الهدف برشاش •

وقد أدركت الصلة الوثيقة بين الحرارة والطاقة في وقت يرجع الى أيام فرانسيس بيكون وبويل اللذين اعتبروا الحرارة نفسها لا شيء سوى « اثار نشطة لدقائق الجسم » ولو تمسك الناس فقط بهذه الفكرة لكانوا قد حلوا مشكلة الحرارة والطاقة سريعا • ولكنهم ساروا أثناء القرن الثامن عشر في طريق جانبي ، واعتقدوا أن الحرارة انما هي سيال يدعى السيل الحراري ، يتسبب عن اتحاده بالأجسام رفع درجة حرارتها • وأدى اعتقاد الناس في السيل الحراري الى تمييز واضح بين الحرارة ودرجة الحرارة (١) • وكان أحسن وسيلة ميسورة حينئذ لتخلييل الحرارة كمية • وبهذه الطريقة اهتدى بلاك لمقاييس الحرارة الكامنة ، تلك

(١) درجة الحرارة هي درجة السخونة المقدرة طبقا لمقاييس موضوعة . وقد اقترح نيوتن مقاييس مكونة من اثني عشر درجة ، كانت تقطاه الثابتان هما نقطة تجدد الماء ودرجة حرارة الجسم البشري • وشاع في النصف الأول من القرن الثامن عشر استعمال المقاييس الفرنسية والنوعية المألوفة لنا •

المقاييس التي كانت ذات أهمية كبرى فى الأيام الأولى للآلة البخارية . وعلى ذلك فعلى الرغم من أن نظرية السيل الحرارى تبدوا لنا اليوم غريبة ، الا أنها أدت غرضا نافعا . ولكنها كبقية الفروض الأخرى كان لا بد من نبذها حينما فشلت فى أن تتسع لنتائج المزيد من الخبرة . وعلى ذلك فإن الحقائق التي تكشففت فى أوائل القرن التاسع عشر أجبرت رجال العلم أن ينبذوا فكرة السيل الحرارى كلية . وقد ثبت حينئذ أنه فى الامكان توليد كمية غير محدودة من الحرارة بمجرد ذلك شيئين سويا فترة كافية (١) ، ولكن ليس فى الامكان انتاج شيء ماضى بمجرد ذلك . ونتيجة لذلك فإن رجال العلم رجعوا الى فكرة أن الحرارة ما هى الا نوع من أنواع الحركة ، أو اثاره دقائق جسم .



شكل ٣٧
توضيح احدى الطرق التي استعملها جول فى تقدير الكافى الميكانيكى للحرارة

ولكن الأفكار العامة لا ترضى رجل العلم . انه يريد دائما أن يقدر وأن يجد العلاقات العددية بين ما يقدره . وعلى ذلك لم يمض وقت طويل حتى أجريت تجارب مضبوطة للتعبير بواسطة الأعداد عن العلاقة بين الحرارة والشغل المؤدى لأحداث هذه الحرارة . وقد قام جيمس بريسكوت جول (١٨١٨ - ٨٩) أحد أهالى منشستر الذى كان فى وقت ما تلميذا لدالتون بأبحاثه الشهيرة . وكانت أشهر تجارب جول التي أجراها هى خض الماء بشدة بواسطة نوع من أنواع البدالات . وبملاحظته ارتفاعا فى درجة حرارة وزن معين من الماء اكتشف الحرارة المتولدة . وبتحريك البدال بواسطة أثقال مدلاة (شكل ٣٧) قدر العمل المؤدى بالوحدات البوندية . ونتيجة لمحاولات عديدة استغرقت سنين عديدة وجد جول

(١) فى سنة ١٧٩٨ قدمت رسالة للجمعية الملكية عنوانها : بحث فى مصدر الحرارة التسخين عن الاحتكاك . وقد وصفت هذه الرسالة كيف انه يحك مثقاب كليل على اسطوانة معدنية دائرية يمكن رفع كمية من الماء الى درجة الغليان فى ساعتين .

نسبة ثابتة بين العمل المؤدى والحرارة الناتجة • وهذا المقدار الثابت هو ما نعرفه الآن باسم المكافئ الميكانيكى للحرارة • ونتيجة لذلك بين أن الحرارة والحركة في جوهرهما شيء واحد •

وفتحت النتائج التي وصل اليها جول الطريق لاثبات أحد المبادئ الأساسية في الفيزياء ، ألا وهو بقاء الطاقة ، الذي ينص على أن الطاقة لا تستحدث ولا تفنى • وقد كان مكافئ طاقة الحركة والجهد معروفا من وقت طويل ، ولكن جول توسع في لفظ الطاقة حتى شمل الحرارة • ولذلك أخذ الناس يفكرون في الطاقة على أنها تتغير من صورة لأخرى ، ولكنها لا تفقد أبدا • وعلى ذلك اعتبر الاختفاء الظاهري للطاقة عند سقوط حجر الى الأرض كتغير من حركة الحجر ككل الى حركة جسيماته الدقيقة أو بمعنى آخر الى حرارة •

وخطت نواحي التقدم منذ أيام جول في كل فرع من فروع علم الفيزياء خطوات هائلة ، فقد اتسعت معلوماتنا عن تغيرات الطاقة عن طريق الجهود المشتركة التي بذلها كثير من الباحثين • وبهذه الطريقة تجمعت معلومات من مصادر كثيرة وضمت بعضها الى بعض • وعلى ذلك فانه يفكر الآن في كل أنواع الاشعاع بما في ذلك الضوء المرئي ، والاشعة السينية ، والتموجات اللاسلكية على أنها أنواع للطاقة ، وتقاس طاقاتها بوسائل مناسبة • كما يفكر في الحرارة الناتجة عن تيار كهربى كما في المصباح الكهربى العادى أو السخان على أنها حرارة تولدت عن احتكاك الألكترونات المارة خلال السلك • وتعتبر الحرارة الناتجة أثناء تغير كيميائى كمقياس للفرق بين حالات الطاقة قبل وبعد التغير • وحتى تغيرات طاقة الحيوان الحى أخضعت للقياس الدقيق أيضا • وقد أوضحت تجربة الإنشطار الحديث للذرة أن الذرة نفسها ما هى الا مستودع طاقة حقيقى • وعلى ذلك كانت فكرة الطاقة ذات قيمة لا تقدر فى وحدة التفكير العلمى •

٢ - بعض تطبيقات مبدأ الطاقة

لم يربط مبدأ الطاقة المعلومات المستقاة من ميادين كثيرة بعضها ببعض فحسب ، بل أمد الناس أيضا بمبدأ هاد أدى بهم الى حل مشاكل جديدة • وعلى ذلك فبيحت الطاقة الحركية لجزيئات الغاز ، وباعتبار ضغط الغاز كعملية راجعة الى قذف جوانب الاناء بالجزيئات المتحركة بسرعة تمكن الكيميائيون من معالجة بعض مشاكل الغاز من وجهة النظر الديناميكية • وأصبح من السهل علاج مشاكل مثل العلاقة بين الضغط وحجم الغاز عندما تظل درجة الحرارة ثابتة ، وكذلك العلاقة بين درجة الحرارة والحجم حينما يظل الضغط ثابتا ، طبقا للمبادئ الديناميكية •

وتنتمي هذه الاعتبارات الى ما نسميه بنظرية الحركة للغازات • وقد وجد أن قانون بويل ، وقانون شارل (١) ، وفرض أفوجادرو تشكّلنت نتيجة طبيعية لهذه النظرية •

ولكننا حينما نقتنع مبدأ مثل مبدأ طاقة حركة جزيئات الغاز ، ونصل الى نتائج تتفق اتفاقا تاما مع النتائج المستقاة من تجارب أجبريت في مجالات شديدة التباين ، نشعر أننا نسير على أرض صلبة • وأن نقننا في المبادئ التي استنتجنا منها نتائجنا قد تدعمت بدرجة كبيرة •

وحيثما نطبق القواعد العادية للديناميكا على سلوك الجزيئات الغازية ، فإننا لا نخص بذلك جزيئات أى غاز معين • اننا نفكر فى غاز مثالى أو غاز كامل جزيئاته مثل الكريات الصغيرة تنطلق فى جميع الاتجاهات وتتحرك مستقلة استقلالاً كاملاً عن بعضها البعض • ونفسر علاوة على ذلك فى الجزيئات كأنها صغيرة جداً بدرجة انها لا تشغل حيزاً ذا قيمة فى الإناء الذى يحتويها • ونستنتج من هذه الفروض قوانين بويل وشارل •

وتنطبق هذه القوانين انطباقاً تاماً على غازات كالأكسجين ، والنتروجين ، والأيدروجين وهى فى درجات حرارة وضغوط واسعة الآماد • وتنطبق من جهة أخرى على غازات مثل غاز ثانى أكسيد الكربون والكلور فى درجات حرارة وضغوط محدودة الآماد • ولا بد أن نستنتج من هذا أن غازات مثل الأكسجين تقترب من صفات الغاز الكامل ، بينما الغازات الأخرى ليست كذلك • والغازات التى تنطبق عليها هذه القوانين انطباقاً كبيراً هى الغازات التى من الصعب تحويلها الى سوائل • أما تلك التى تحيد بدرجة واضحة عن هذه القوانين فهى التى يمكن تحويلها بسهولة الى سوائل • وقد أظهرت التجارب التى أجراها صيدلى وأرنستى يدعى توماس أندروز (١٨١٣ - ٨٥) أن الغازات لا يمكن تحويلها الى سوائل حتى بواسطة ضغط كبير إذا كانت درجة الحرارة فوق قدر معين • ويختلف هذا التدرج باختلاف الغازات • وقد صارت هذه تعرف باسم درجة الحرارة الحرجة أو الاخضرار الحرج •

وتعطينا نظرية الحركة تفسيراً معقولاً لدرجة الحرارة الحرجة هذه • ونحن نعتبر الحرارة كحركة جزيئية ، ونعتقد أنه حينما ترتفع درجة الضغط الخارجى بنقص الحيز الذى يشغله الغاز ، فإن الجزيئات بدفم بعضها بدرجة أكثر ، وقد تنظم لبعضها مكونة مجموعات ، وبذلك تنتقل

(١) القانون الذى يحدد العلاقة بين حجم الغاز ودرجة الحرارة حينما يكون الضغط ثابتاً وهو قانون بويل به كل طالب ناشر من دارسى الفيزياء أو الكيمياء •

الى الحالة السائلة . ولكن فى امكاننا أيضا أن نتصور أن الجزيئات تتحرك بسرعة تجعلها غير قادرة على الاتحاد بعضها مع بعض مهما كان الحيز الذى تتحرك فيه . وأقل سرعة تنطبق عليها هذه الحالة تطابق درجة الحرارة الحرجة .

وقد وجه الباحثون عنايتهم بعد المامهم بدرجة الحرارة الحرجة هذه لتوليد درجات حرارة منخفضة بدلا من ضغوط هائلة ، وابتكرت أجهزة مناسبة لهذا الغرض . وفى العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر أمكن تحويل الأوكسجين والنيتروجين إلى الحالة السائلة .

وتقوم إحدى الطرق الهامة لتحويل الغازات الى سوائل على نفس الحقيقة التى تتلخص فى أن الغازات لا تتوفر فيها جميع الشروط التى نفترضها فى الغاز الكامل . وعلى ذلك فإن الجزيئات الغازية فى كل حالة تقريبا تجذب بعضها بعضا حتى حينما تتحرك بسرعة عالية . وإذا جذبت الجزيئات بعضها بعضا مع جعل الغاز يتمدد ، فإن الجهد الذى ينفق فى التغلب على جذب هذه الجزيئات بعضها بعضا يظهر بجلاء فى تخفيض بسيط لدرجة حرارة الغاز ككل . وقد اكتشف هبذا التأثير التبريدى جول بالتعاون مع اللورد كلفن . وعلى ذلك فإن التبريد الذى يحدث بهذه الطريقة حينما ينفذ غاز خلال فتحة صغيرة أثناء خروجه يستخدم فى كثير من الطرق الحديثة لتحويل الغازات الى سوائل على نطاق واسع . ولقد أمكن تحويل جميع الغازات المعروفة فى الوقت الحاضر الى سوائل .

وطبقت مثل هذه الطرق فى الصناعة . وقد تم تحضير الأوكسجين فى الوقت الحالى بكميات وافرة عن طريق تبخير الهواء السائل . ويستعمل الأوكسجين الناتج بهذه الطريقة فى اللحام الأسيتيلينى الأوكسجينى ، وفى عمليات كثيرة فى الصناعة الكيماوية . ويتم توليد درجات الحرارة المنخفضة التى تتطلبها كثير من العمليات الفنية بواسطة تبخير غاز سائل . وعلاوة على ذلك فإن الطريقة التى أدت الى التوليد الناجع لدرجات حرارة منخفضة ثبتت جدواها فى أبحاث علمية معينة . وفى الحقيقة ، كما أن الطرق الفنية تقوم على مجرد البحث ، كذلك يتوقف التقدم العلمى بدرجة كبيرة على تقدم الطرق الفنية .

٣ - تحول الحرارة الى شغل

لقد تحدثنا حتى الآن عن تحويل الشغل الى حرارة . ولكن العملية العكسية ممكنة أيضا بشروط معينة . ان دراسة تحويل الشغل الى حرارة والعكس بالعكس وهو الموضوع الذى تعالجه الديناميكا الحرارية

قد ثبت أنه ذو أهمية هائلة في الدراسات النظرية وكذلك في أمور الهندسة العملية .

ويتطلب تحويل الحرارة الى شغل وجود مادة مثل البخار الذي يستطيع بتمدده دفع مكبس ، وبهذه الطريقة يؤدي شغلا . وتحتاج أيضا الى درجتى حرارة مختلفتين . فمثلا نجد أن الغلاية والمكثف فى الآلة البخارية لهما درجتا حرارة مختلفتان . وحين يتمدد البخار فإنه يعمل ، وفى نفس الوقت تنخفض درجة حرارته .

وترجع الدراسة النظرية للآلات الحرارية الى الجهود التى بذلها باحثون عديدون فى القرن التاسع عشر ، ولذلك فإن النظرية أتت بعد استعمال الآلات الحرارية فى حياتنا اليومية بوقت طويل ، وتؤدي بنا نظرية الآلات الحرارية الى النتيجة التى تلتخص فى عدم إمكان جعل جسم أكثر سخونة بجعل جسم بارد أكثر برودة الا اذا قمنا بعمل . وعلى ذلك فلا يمكننا أخذ حرارة البحر وجعلها تقوم بعمل ما على الرغم من أن الطاقة الجزئية الكلية للبحر عظيمة جدا . والحقيقة أنه من الممكن فقط احداث تحويل الحرارة الى شغل عندما يكون هناك تباين فى درجة الحرارة . وحتى فى هذه الحالة فإن ما يتحول الى شغل هو جزء من الحرارة فحسب . وهذه احدى القيود التى علينا أن نستسلم لها .

٤ - تحويلات الطاقة

اعتاد الناس قبل تقرير مبدأ الطاقة اضاعه وقتهم سدى محاذرين صناعة آلات لادارة العجلات أو لطحن الغلال تستمر فى الحركة الى الأبد بمجرد أن تبدأ فيها . ونحن نعتبر الآن مثل تلك الآلات الدائمة الحركة أمرا من نسج الخيال وعكس كل ما استقيناه من خبرات . وقد شغل ابتكار مثل تلك الآلات بال كثير من الرؤوس المفكرة ، ولا يتحدث الآن عنها سوى الجهلة والمرتابين . ويعلم المهندس اليوم أنه لا يستطيع ايجاد الطاقة ، انه يستطيع فقط تغيير نوع منها بأخر أكثر نفعاً له .

والمصدر الطبيعي الرئيسى للطاقة فى انجلترا هو الفحم ويتضح تحويل طاقته اتصاحا تاما فى النار المنزلية . ان اشتعال النار فى موقد المطبخ يولد مركبات غازية تتناثر جزيئاتها بشدة وتأخذ فى الدوران مصطدمة بعضها ببعض . وتوجد هذه الاصطدامات حركة سريعة فى جزيئات حديد الجزء الأعلى من الموقد . وعلى ذلك فإن جزيئات الطاسنات وما بها من محتويات توضع فى جسرركة استنارة سريعة وبذلك يظهن الغذاء . ولذلك فإن بعضا من طاقة الفحم المشتعل تؤدي غرضا نافعا . ومع ذلك فإن كثيرا من هذه الطاقة يستعمل فى تسخين المدخنة ، وفى

ارسال الاشعاعات التى تدثى المطبخ ، وبذلك يكسى وجه الطاهى بحمرة وردية ، وتضييق من خلقه . وعلاوة على ذلك يبقى الكثير من الطاقة غير مستعمل على صورة سخام يترك فى المدخنة ، ودخان يلوث الهواء فى الخارج . ويكون السخام والدخان فقط قدرا كبيرا من الطاقة التى كان من الممكن استخدامها فى غرض نافع ، ولكنهما يشكلان علاوة على ذلك خطرا على الصحة (١)

وتحولات الطاقة كثيرة العدد فى الصناعة . فمثلا تولد الطاقة الكيماوية للوقود الفحمى أو البترولى البخار فى القاطرة أو فى الآلة البخارية الثابتة . وحينما يتمدد البخار يؤدى عملا ويصبح بذلك أقل حرارة ، وبذلك تتحول بعض الحرارة الى شغل . وكذلك فى التوربين البخارى الذى هو عبارة عن عجلة ضخمة من الصلب تدار بواسطة البخار كما تدار طاحونة الهواء بواسطة الريح ، يتولد البخار فى نفثات ذات ضغط عال تصطدم بالريش المقوسة للتوربين . ويحدث شغل ويدور التوربين بواسطة طاقة البخار الحركية . وتستعمل التوربينات اليوم فى المحركات المروحية فى مصانع صهر الحديد ، وكذلك لانتاج القوة الكهربائية التى يولدها التوربين فى تحريك القطارات ، وإضاءة المدن ، وإدارة آلات مصانع الغزل والمصانع الأخرى . ولذلك فهناك تحول من الطاقة الكيماوية الى الميكانيكية ثم الى الكهربائية ثم الى الطاقة الميكانيكية مرة أخرى .

والمصادر الطبيعية الكبرى للطاقة فى كثير من بلاد العالم وعلى الأخص السويد ، وسويسرا وأمريكا الشمالية هى الشلالات القوية . وبدلا من أن ندع الشلالات الكبرى تجرى هباء يمكن أن نجعل بعضا من الماء يسقط من أعلى مستوى ممكن الى مستوى آخر أكثر انخفاضا بكثير . وهناك يُدير توربينات مائيا عبارة عن نسخة حديثة من الصلب للساقية الألمانية القديمة . وبهذه الطريقة يمكن جعل جزء من الطاقة يؤدى شغلا يجعل العجلة تدور ، وكذلك تتحول طاقة جهد الماء عند مستوى عال الى طاقة حركية مفيدة .

٥ - آلة الاحتراق الداخلى

تستخدم الآلة البخارية والتوربين البخارى والتوربين المائى كوسيلة ممتازة لتحويل الطاقة الى أغراض كبيرة . ومع ذلك ففى خلال الجيل

(١) مما لا شك فيه أن أطفالنا لن يبدلوا فى استعمال الفحم هكذا ، ولكنهم سيدخلون منازلهم ويظهون أطمعهم بالكهرباء التى يستعملونها من محطات كبيرة مركزية تستعمل فيها الطاقة الذرية بأقصى مدى لها . أنهم بالتأكيد سينظرون الى العقود الأولى من القرن العشرين كما لو كانت تنتمى الى العصور المظلمة +

الأخير توصل الانسان الى ائقان مصدر جديد من مصادر القوة الدافعة ،
الا هو آلة الاحتراق الداخلى .

ويتم التسخين فى الآلة البخارية فى الخارج فى فرن ، أما فى آلة
الاحتراق الداخلى فيتم الاحتراق فى الداخل كما يدل على ذلك الاسم .
ويتحرك المكبس فى الآلة البخارية بواسطة تمدد البخار ، أما فى آلة الاحتراق
الداخلى فيتحرك المكبس بواسطة سلسلة متتالية من انفجارات مزيج من
الهواء ومن غاز مشتق من البترول .

وتوجد فى كثير من أنحاء العالم وخاصة فى الولايات المتحدة ، والمكسيك
وروديسيا مواد مكونة من بحاليط من الأيدروكربونات السائلة بكميات هائلة
وتكون هذه البترول الخام . وعند تقطير زيت البترول نجد أن أول ما يتقطر
منه هى الأيدروكربونات التى لها أقل نقطة غليان . وهذه هى الزيوت
الخفيفة التى تعرف فى انجلترا باسم البترول ، وفى الولايات المتحدة باسم
الـجـازولين . وتدعى الأيدروكربونات المتبقية باسم الزيوت الثقيلة
وتستعمل كل الزيوت الخفيفة والثقيلة فى آلة الاحتراق الداخلى . ويمكن
تقسيم مثل تلك الآلات الى نوعين رئيسيين : النوع ذو الخلط (١)
ويشتمل على آلات الغاز والبترول ، والنوع ذو المحقن ويشتمل على
الآلات التى تستخدم الزيت الثقيل .

ويستعمل النوع ذو الخلط فى المتوسكلات والسيارات ، اذ يتكون
من هواء من الجو مع رشاش من البترول مخلوط مفرق يدخل الى الاسطوانة
ويشتعل بواسطة شرارة من المغناط أو ملف الاشعال . ويرجع الفضل
الأكبر فى ابتكار آلة ذات أثر فعال من هذا النوع الى المهندس الألماني
دايملر (١٨٣٤ — ١٩٠٠) . وظهر أول موتوسكل ماركة دايملر عام
١٨٨٤ ، وأول سيارة فى السنة التالية . وكانت السيارات الأولى تصمم
بحيث تشبه العربات ، وكانت تخبأ مكنات هذه السيارات تحت مقعد
السائق . وحينما أدخلت سيارة دايملر لأول مرة انجلترا كان مازال هناك
قانون سار فى بريطانيا العظمى بأن على العربات غير ذات الجياد التى
تسير فى الطرق أن يتقدمها رجل يحمل علما أحمر بالتهار ، ومصباحا
بالليل . ولم يعدل هذا التشريع الذى سن فى القرن التاسع عشر حتى
عام ١٨٩٦ . وقبل أن يحل هذا الوقت كانت أفكار الناس فيما يتعلق
بالسلامة العامة تتسم بقدر أكبر من الشجاعة . وحينئذ أخذت التجارب
فيما يختص بالسيارات وانشاء الآلات تجرى على قدم وساق . كما أن
الأبحاث التى تلت ذلك بخصوص انشاء الآلات ، وبخصوص أنواع

(١) أو ذو الكاربوراتير ، والكاربوراتير جهاز خلط الهواء بالبترول ليحدث عن ذلك
مخلوط مفرق (المترجم)

الوقود ، والسبائك المعدنية التي تستعمل في صناعة الماكينات ، ومطاط
الاطارات فقد أمدتنا بالسيارات التي نستعملها اليوم .

أما النوع ذو المحقن آلة الاحتراق الداخلى فيرجع الفضل فيه الى
جهود المهندس الألماني رودلف ديول (١٨٥٨ — ١٩١٣) ، وإلى المخترع
هــ. آكروبيد ستيوارت (١٨٦٤ — ١٩٢٧) . ان هذين الباحثين اللذين كان
كل منهما يعمل مستقلا تماما عن الآخر ابتكر آلة يضغط فيها الهواء حتى
يصير شديد الحرارة . ويحقن الزيت على شكل رذاذ دقيق ، وتكفى درجة
الحرارة العالية المتولدة من انضغاط الهواء لاشعال المخلوط . ويجب أن
يكون الزيت ذا لزوجة تكفى لاحداث احتراق حينما يرش في مشعل زيت
الوقود .

وتستعمل زيوت الوقود الآن على نطاق واسع في الأفران للتسخين
المنزلى ولتوليد البخار للأغراض الصناعية .

٦ - الصناعة والنقل

أحدثت آلة الاحتراق الداخلى خلال الجيل الأخير انقلابا ثوريا في
نظام النقل البرى : فبدلا من تحزيم البضائع ونقلها الى محطة السكة
الحديد ، وإعادة تعبئتها في عربات القطار ، مع القيام بنفس العملية أيضا
عند محطة الوصول ، تؤخذ مباشرة من مكان صنعها الى المشتري . وكان
هذا ذا تأثير على الصناعات بأجمعها ، من صناعة الدبابيس والابر الى
صناعة الطائرات ، ومن زرع البطاطس الى تنظيم مزارع المطاط .

ويأخذ هذا التغيير طريقه في جميع انحاء العالم المتمدن . ان عربة
اللورى تحمل الماشية ومنتجات الألبان والخضراوات والفواكه والأزهار
الى المدن . وتحمل سيارات الركاب الكبيرة القرويين الى المدن ، وتأثرت
به كل مستويات الحياة الاجتماعية اليوم ، وذلك بمساعدته للتجارة ،
وبتوسيعه لمدى الاتصالات البشرية .

وقد جعلت آلة الاحتراق الداخلى الغواصة والسيارات والطائرات
فى حيز الامكان . هيا بنا نتمنى ونحن آملون ألا تعود بنا حاجة لاستعمال
الغواصة فى الحرب ، بل تستخدم فى الكشف العلمى لأعماق المحيط ، وفى
ارساء الكبلات البحرية ، وفى أعمال الانقاذ . أما فيما يخص بالنقل
الجوى فهناك تقدم دائم فيه ، فالبريد الجوى يعمل بانتظام فى طرق عديدة
كما تسعمل طائرات ضخمة لنقل البضائع . ولا تسافر الطائرات الضخمة
الآن بسرعة أكبر من سرعة القاطرات وعبارات المحيط فحسب ، بل ان
المسافرين الذين يستقلونها يشعرون بقدر أوفر من المتعة واليسر ، بينما
لا يتكلف السفر بالجو فى الطرق أكثر مما يكلفه السفر بالقطارات .

والنقل الجوى ذو قيمة خاصة فى الأقاليم الاستوائية حيث تتم الآن الرحلات التى كانت تستغرق أسابيع عبر غابات غير صحية وغير مطروقة فى ساعات قليلة . وكذلك يمكن رش مساحات كبيرة من الأرض الموبوءة من الهواء بمبيدات حشرات كيماوية ، وبهذا تمكن السيطرة على كثير من الضرر الاقتصادى الذى تنسب فيه الآفات . وللتصوير الجوى استخدامات واسعة النطاق . ان الدقة المتناهية للتصوير الجوى تكشف عن التخطيط الأرضى للجيولوجى والمنقب ، وتكشف كذلك عن حدود الأماكن القديمة لرجل الآثار بطريقة أفضل بكثير مما تكشفه الملاحظات السطحية . وقد حل التصوير الجوى محل بعض الطرق المضيئة المستعملة فى المسح الأرضى ، وبرهن بذلك على أنه ذو منفعة كبيرة فى البلاد التى تقع فى المنطقة الحارة ، وكذلك فى الأقطار المختلفة الأخرى . وزيادة على ذلك ، ففى استطاعة المهندسين والمنقبين القائمين بأعمال البحث النائية وسط الأحرش أن يتلقوا لا البريد فحسب ، بل والمعونة الطبية وكميات الزاد أيضا .

وآلة الاحتراق الداخلى الذى يعتمد عليها الكثير من النقل الجوى فى العالم إنما هى مثل آخر للكيفية التى تغلب بها الإنسان بالاستعانة بالعلم التطبيقى على القيود التى ضيققت الخناق عليه بآدى الأمر . وقد رأينا كيف أحدث استعمال القوة الميكانيكية فى النسيج ، واستخدام الآلة البخارية فى النقل تغيرات عظيمة فى حياة سكان غرب أوروبا . ورأينا أيضا كيف يستغل الإنسان بعضا من المخزونات الهائلة من طاقة الأرض ويشكلها حسب مشيئته . وتتجلى لنا نتائج سيطرة الإنسان فى المدينة الصناعية الحديثة بحركة مرورها الصاخبة ، ومصانع حديد المصلصلة ، وآلاتها التى تنز ، وحفارات طرقها الأوتوماتيكية . ولا يراعى الإنسان باستمرار الحكمة فى استخدام سيطرته هذه . وترهقنا جميعا بعض الأحيان فظاعة الانهماك الشديد فى الإنتاج الصناعى . وعلى الرغم من ذلك فهناك شئ من المتعة النفسية فى هذا النشاط ، كما عبر عن ذلك شاعر التاج روبرت يريذجز فى قصيدته « عهد الجمال » الديوان الأول ، الأبيات ٤٥-٥٢ :

حينما أخذت الى حجرة الآلات يوما فى صباى

فى الورش الصاخبة لمصنع عظيم .

وقفت وجها لوجه مع القوة الدافعة الهائلة

الجائمة فى ردهة سفلى

والتي جعلت كل الطوابق ترتجف

ألف نول تختلج ، ودواليب غزل ترقص

شعرت فى نفسى برابطة نسب وحنان

نفس الشعور الذى يخالج الأطفال

نحو الغيلان التى يشقونها .

الفصل الحادى عشر

دراسة الأشياء الحية

يجب علينا أن ننتقل الى ميدان جديد من ميادين الدراسة ، ونتدبر مرة أخرى بعض نواحي التقدم فى العلم الخاص بالطبيعة الحية . وقد تبيننا من قبل كشف هارفى للدورة الدموية . لقد جعل هذا الكشف العظيم الناس ينظرون نظرة جديدة الى الأعمال التى يقوم بها الجسم بتأديتها . وكان الناس من قبل وقت هارفى يعتقدون بطريقة غامضة أن الدم ينحسر وينساب لكونه الوسيلة لحمل أرواح غامضة تنشأ فى القلب والمنح . ولكن اكتشاف هارفى أثبت أن الدم يدور باستمرار ، وأنه يحمل التغذية لجميع أجزاء الجسم . وعلى ذلك أصبحت أفكار الناس أكثر تحديدا . ولقد بدأوا يتساءلون من أين يأخذ الدم المواد الغذائية ، وكيف تنتقل الى الجسم . وأدت مثل هذه الأسئلة الى مزيد من التجارب . وقد أثبتت النتائج أن الجسم الحى يمكن دراسته ، ويمكن وصف العمليات التى يقوم بها على الرغم من أننا لا ندرى شيئا عن ماهية الحياة . وكنع رجال العلم من ذلك الوقت فصاعدا بتسجيل ما كانوا يشاهدونه ، معترفين بأن التفسيرات قد لا تكون فى متناول أيديهم الى الأبد . وقد تميزت بهذه الظاهرة كل نواحي التقدم فى العصور الحديثة .

١ - الدراسات المقارنة

وحيث انه قد أقيمت الأضواء على مزيد من الحقائق الخاصة بجمهرة غفيرة من الأشياء الحية ، فقد أحس الناس بالحاجة الى ايجاد نوع من التنسيق لأفكارهم بواسطة خطة اتخذوها لتصنيفها . والحقيقة أن مجرد تجميع الحقائق دون بذل أى مجهود للبحث عما بينها من علاقات يبدو مستحيلا للعقل البشرى .

وهناك أدلة على وجود هذا الحافز نحو التصنيف فى المؤلفات العلمية القديمة . فمثلا قام أرسطو أحد أعظم الباحثين الذين أنجبهم

الأيام فى ميدان الطبيعة الحية بتصنيف الحيوانات التى لاحظت عاداتها، وتكوينها ، وقد تعرف على أكثر من خمسمائة نوع ، واستعمل فكرة النوع ليدل على قسم أدنى من فصيلة أعلى . واعترف بوجود تدرج فى التعقيد فى جميع أنحاء المملكة الحيوانية ، وخص بالذكر الأقسام الرئيسية – الفقاريات واللافقاريات – وقام بدراسات كثيرة مقارنة . كما يدل ذلك على تعرفه على العلاقات التى بين بعض الكائنات البحرية والثدييات البرية .

ويبدو أن الذين تلو أرسطو لم يضيفوا مزيدا من طرق التصنيف . وكان علماء الأحياء (١) حتى القرن السابع عشر قانعين بتسجيل أوصاف تفصيلية لأصناف مختلفة من الأشياء الحية . وابتكر علماء النبات فى ذلك الوقت كثيرا من المصطلحات التى استعملوها كنوع من الاختزال هادفين الى جعل الأوصاف أوجز وأكثر دقة . والحقيقة أن مثل هذا الاقتصاد فى الكلمات يلعب دورا هاما فى جميع الأوصاف العلمية .

وأصبح مفهوم النوع يستعمل كثيرا جدا قرب نهاية القرن السابع عشر – كما يستعمل الآن – ليدل على قسم محدد نوعا ما بين النوع الرئيسى أو الجنس وبين الجم الفقير من الأصناف (٢) . وعلى العموم فعلى الرغم من أن الأنواع تتفق فى الصفات الرئيسية للجنس الذى تنتمى إليه ، إلا أنها تختلف فيما هو دون ذلك من الملامح ، ولكن الدراسات التى تلت ذلك وخصوصا دراسات دارون أثبتت أن وجهة النظر هذه تتطلب تحديدا ، وأنه من المستحيل وضع أية قاعدة صارمة فيما يختص بطريقة التمييز بين الصنف والنوع .

وفى النصف الثانى من القرن الثامن عشر وضعت طريقة فعالة لتصنيف النباتات بواسطة عالم نبات سويدي يدعى لينيس (١٧٠٧ – ١٧٧٨) . وقد أسس طريقته على الصفات المستمدة من الأسدية والكرابل ، وهى الأجزاء المسماة بأعضاء التناسل فى الزهرة . وأدخلت طريقته فى حسابها عددا قليلا فقط من المميزات الواضحة ، ولكنها كانت ذات نفع كبير فى أيامه ولفترة طويلة بعد ذلك . ومن المتع أن

(١) أن كلمة علم الأحياء بدأ استعمالها فى طليعة القرن التاسع عشر .

(٢) ما يجرى عليه الناس عامة الآن هو تقسيم كل من الحيوانات والنباتات بإعطائها اسما مزدوجا يشير الأول الى الجنس الرئيسى والثانى الى النوع . ولذلك فإن هناك أنواعا عديدة من نباتات شقائق النعمان تعرف باسم رومانكبولس أكريس ، ورومانكبولس – بينز ، ورومانكبولس بيولوسس ، وهكذا .



دالتون يجمع غاز المستنقعات (من صوره فى صالة عرضي للذون بنشستر) رسمه فهد مادوكس براون



رسم توضيحي قديم وطبيعي جدا النبات

نلاحظ أن لينيس أدرج كلا من الحيوانات والنباتات تحت اسم واحد ،
الا وهو الكائن الحي ، وهو تعبير شائع اليوم . ومع ذلك فان ادخال
التعبير يعد مرحلة هامة من مراحل التفكير العلمى ، بتعليقه أهمية على
على أوجه التشابه أكثر من أوجه الخلاف ، ومساعدة الناس على أن
يكونوا أوسع أفقا فى تفكيرهم .

وظل علماء الطبيعة فى بلاد كثيرة من أوروبا طوال القرن الثامن عشر
يضيفون الى كنوز المعرفة الخاصة بالكائنات الحية . ونتيجة لذلك القى
الضوء على كثير من العلاقات الهامة بين هذه الكائنات . فمثلا رؤى أن
الفقاريات تتكون طبقا للنظام العام فيما يختص بشكل الهيكل العظمى ،
وفيما يختص بالتفاصيل كالأسنان ، والأذان ، والرئتين ، والمضلات
الضابطة . وكانت أبحاث جون هنتر ذات أهمية عليا فى ميدان التشريح
المقارن . وكانت الدراسات المقارنة بالنسبة له تستخدم لا كمجرد
وسيلة تعينه على التصنيف فحسب ، بل كوسيلة لبعض التفهم السليم
للصلة التى تربط بين الكائنات الحية ، ولبدأ الحياة الغامض الذى
يتحكم فى جميع أوجه نشاطها .

وأدى هذا بهنتر الى دراسة أثر العادة على تكوين الحيوانات . واقد
لاحظ مثلا أن التغيرات فى الغذاء أحدثت تغيرات فى أعضاء الجهاز
الهضمى للطيور . ودرس سرعة وكيفية نمو العظام . وقام بتجارب
دقيقة ضم فيها أجزاء مختلفة من جسم حى بعضها الى بعض . لقد
غرر مهماز ديك فى عرفه ، ووجد أن سرعة نموه هناك تبلغ ضعف
سرعة نمو المهماز الذى ترك على الرجل الأخرى للديك . وبعد زمن هنتر
بوقت طويل أدرك الباحثون الآخرون الذين كانوا يظنون أنهم عثروا على
شئ جديد فى وظائف أعضاء الجسم الحى أن هنتر قد سبقهم الى هذا
كله . وقد أدى هنتر خدمة مباشرة لعلم الأحياء ، ألا وهى طريقته فى
تنظيم المتاحف . ان مجموعاته الهائلة قد حصل عليها بعد موته ، وهى
تكون الآن جزءا من المتحف الهنترى فى لندن . وقد نظمت متاحف
التاريخ الطبيعى التى نراها الآن فى جميع البلاد المتقدمة بدرجة كبيرة
على نسق خطط هنتر .

ويمثل هنتر الباحث العلمى فى أحسن حالاته . وكان يرب معاصريه
لدرجة كبيرة جدا فى الذكاء وإخلاصه للحقيقة الذى لا يكل . انه يقف
كشخصية بطولية ، إذ كرس حياته للعلم . وقد مات من نتائج مرض
إصاب به نفسه أثناء جهوده لإيجاد علاج يخفف آلام مواطنيه .

٢ - 'التغيرات الكيماوية فى الكائنات الحية'

لقد أسهم الكيمايون بمساهمات قيمة فى دراسة الحياة . فقد أثبت بريستلى أنه حينما تترك الفئران فى حيز مغلق تموت بسرعة ، ولكن الهواء الذى تجعله بهذه الطريقة غير صالح للتنفس يمكن أن يرد الى حالته الأولى بواسطة نباتات حية خضراء . وقد رأى بعد الاسام بالغازات العامة التى يتكون منها الغلاف الجوى أنه بينما يزيد تنفس الحيوان مقدار غاز ثانى أكسيد الكربون فى الجو ، فان النباتات الخضراء النامية نهارا تأخذ الكربون . من الغاز ، وبذلك تعيد الأوكسجين الذى فقد فى الأصل وهذه العملية التى تقوم بها النباتات ، والتى تحدث توازنا ملحوظا فى الطبيعة تعرف بعملية التمثيل الضوئى . وبهذه العملية تتكون مركبات الكربون المعقدة مثل النشا والمواد السكرية فى النبات الأخضر من غاز ثانى أكسيد الكربون الموجود فى الهواء . وهذه العملية لا نظير لها فى المملكة الحيوانية . وعلى الرغم من أن الاشرار يشبون ويزدهرون كما تزدهر شجرة الفار الخضراء ، الا أن طريقتهم فى الحصول على التغذية تختلف اختلافا جوهريا .

وقد توصل الناس بمرور الوقت الى التعرف على نظام كيماوى رتيب منظم يلزم عمليات الحياة دوما . وقد أجريت دراسات بهذا الخصوص بتوجيه من لافوازييه عام ١٧٨٠ . ونتيجة لهذه الدراسات وجد أن الحيوان مثله بالضبط مثل قطعة فحم نباتى مشتعلة يأخذ الأوكسجين ، ويخرج ثانى أكسيد الكربون . وفى إحدى التجارب التى قام بها لافوازييه أشعل قطعة فحم نباتى فى اناء أحيط بثلج . وقد أعطاه وزن الثلج المذاب تقديرا للحرارة الناتجة (١) ، واستطاع بسهولة أن يحسب كمية الحرارة المنبعثة عن احتراق رطل من الفحم النباتى . وبعد ذلك احتفظ بخنزير غينى فى اناء محاط بثلج ، وأمد بهواء مدة عشر ساعات . وفى أثناء ذلك امتصت الغازات المنبعثة أثناء تنفس الحيوان ، وأمكن بعد ذلك ايجاد وزن ثانى أكسيد الكربون . وحسبت الحرارة المنبعثة على أساس وزن الثلج المذاب . وقدر لافوازييه النسبة بين وزن غاز ثانى أكسيد الكربون المتكون وبين الحرارة الناتجة (١) فى حالة الفحم النباتى ، (ب) فى حالة خنزير غينيا . وظهرت النتائج اتفاقا تاما تقريبا كاف لجعل لافوازييه يستنتج أن حرارة الحيوان ترجع الى التأكسد .

(١) أجريت تجارب بلاك على الحرارة الكامنة للثلج عام ١٧٦١ . ومنذ ذلك الوقت اعتاد رجال العلم اعتبار الحرارة كمية يمكن قياسها .

وبعد اجراء تجاربه الاولى هذه بسنين قلائل علم لافوازيه يكشف كافنديش الايدروجين . وقد اعتقد حينئذ أن التباين فى نتائجه لابد أن يكون راجعا الى أن الأوكسجين الذى تمتصه رثنا الحيوان يستعمل من جهة ليؤكسد الكربون محولا اياه لثانى أكسيد الكربون ، ومن جهة ليؤكسد الايدروجين محولا اياه الى ماء . وقد ظن أن هذا التأكسد يحدث فى الرئتين . وقد ثبت خطأ وجهة نظره هذه بعد موته بخمسين عاما . لقد تحقق الناس حينئذ أن حرارة الجسم راجعة الى التأكسد الذى يحدث فى جميع أجزاء الجسم المختلفة .

وقد خلف من بعد لافوازيه خلف جديد هو جيبى لوساك الذى كان مدرسا للبيج أثناء دراسته الاولى فى باريس . وقد دفعت أعمال لبيج دراسة النفيرات الكيماوية للكائنات الحية شوطا كبيرا الى الامام . وقد رأينا كيف اكتشف لبيج تركيب أعداد كبيرة من المركبات العضوية ، وحاول تطبيق هذه المعلومات على دراسة النباتات وعلى الزراعة . وعرف أن النباتات الخضراء التى تنمو أثناء النهار تأخذ الكربون من غاز ثانى أكسيد الكربون فى الهواء ، وما غاز ثانى أكسيد الكربون الا نتاج عادم من منتجات الحياة الحيوانية . ولذلك أدرك أن النباتات ترد الى الهواء الأوكسجين الذى تسلبه الحيوانات . وكان يعتقد علاوة على ذلك أن أزوت النباتات مشتق من آثار غاز النشادر الموجود فى الهواء ، وأنه حينما تتحلل النباتات فانها تعيد الأزوت بهذا الشكل الى التربة . وعلى ذلك تخيل وجود توازن فى الطبيعة بين الحياة الحيوانية والحياة النباتية .

وقد ثبت أن فكرة لبيج عن وجود توازن فى الطبيعة ذات اهمية كبيرة . وقد تبين بعد عصر لبيج أنه أفرط فى تقدير غاز الامونيا (غاز النشادر) فى الهواء ، وأن النباتات تستمد أزوتها غالبا من التربة . ولذلك فعلى الرغم من أن لبيج كان مخطئا فيما يتعلق بهذه النقطة الخاصة ، الا ان فكرته فى توازن الطبيعة وضعت فى الحقيقة الناس على الطريق القويم صوب دراسة علمية لتغذية النبات وتطبيقها فى مجال الزراعة . وأدرك لبيج أن النباتات تحصل على قدر كبير من غذائها من التربة ، وأنه اذا استنفدت بعض املاح من التربة ، فانها لا تعود قادرة على مد النبات بالحياة . وبين أن خصوبة التربة يمكن استعادتها باضافة هذه الاملاح المفقودة . ومنذ ذلك الوقت صارت اضافة هذه الاملاح ، المسماة بالمخصبات الصناعية ، أمرا رتبيا بين الزراعين فى أنحاء كثيرة من العالم .

ولقد رأينا كيف أنشئ في معمل لبيع نتاج نمطى من الحياة الحيوانية من العناصر المكونة له بالوسائل الكيماوية العادية . ومن ذلك الوقت فصاعدا درس رجال العلم التغيرات الكيماوية الناتجة بواسطة الكائنات الحية ، كما يفعلون مع التغيرات الكيماوية الأخرى . لقد أجريت مقاييس دقيقة للتغيرات الكيماوية التي تتم أثناء هضم الطعام (١) ، وكذلك لتغيرات حرارة الجسم . وابتكرت خلال السنين الحديثة طرق لقياس الحرارة المنبعثة من رجل يعيش في حظيرة كبيرة ، وفي درجة من النعيم أكبر بكثير جدا مما تمتع به خنزير غينيا الذي استخدمه لافوازييه ، وكذلك قيس العمل الذي يؤديه شخص ما ممتط دراجة ثابتة وهو يحرك البدالات بقدميه . وقورنت الطاقة التي بذلت أثناء عدد معين من الساعات في مثل هذا النشاط بالتغيرات الكيماوية التي تحدث داخل جسمه . وتبدل النتائج على ما يلي :

(أ) الطاقة المبذولة في العمل العضلى ، (ب) الحرارة الناتجة ، (ج) الطاقة التي أطلق سراحها بواسطة التغيرات الكيماوية داخل الجسم ، تتكافأ كلها مع بعضها البعض ، وبمعنى آخر لقد تحقق مبدأ الطاقة في حالة الشخص الحى .

وعلى ذلك فقد حدث أن قيست التغيرات الكيماوية ، والتغيرات الحرارية ، وتغيرت الطاقة الخاصة بالكائن الحى ، ووجد أن نفس قوانين تغير الطاقة والحرارة ، ونفس قوانين الاتحاد الكيميائى تنطبق على المادة الحية وغير الحية سواء بسواء . وأدت مثل هذه النتائج الى دراسة الكائن الحى كما لو كان مجرد آلة شديدة التعقيد . وتتمسك رجال العلم بوجهة النظر هذه فترة ما وتجاهل جميع المظاهر الأخرى ، تمكنوا من الوصول الى نتائج كان من المستحيل الوصول اليها لو اعتبر الكائن الحى ككل ، على الرغم مما به من تعقيدات تثير الحيرة .

٣ - الخلية

لقد رأينا كيف جلت دراسات عديدة في القرن السابع عشر بالاستعانة بعدسة مفردة . ولقد لوحظ أن مواد كالفلين تتكون من خلايا

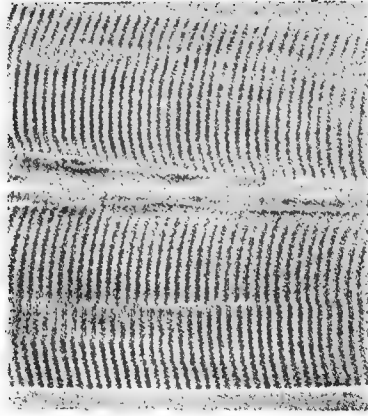
(١) لوحظت بعض التغيرات الكيماوية التي تجرى أثناء عملية هضم الطعام بواسطة باحث سابق يدعى ريويمر (١٦٨٥ - ١٧٥٧) . بعد أن استخرج ريويمر العصارة المعدية من معدة طائر وجد أنها تذيب المواد الغذائية التي يحتفظ بها في درجة حرارة الجسم ، مينا بذلك أن الهضم يتضمن تغيرا كيماويا . وكان المفروض سابقا أن العمل الرئيسى للمعدة هو خض الطعام . ويشتهر اسم ريويمر بترموتره ذى النمانين درجة الذى مازال يستعمل على نطاق واسع فى القارة .

دقيقة مثل شمع العسل . وسرعان ما تعرف الانسان على وجود مثل تلك الخلايا فى كثير من المواد النباتية الأخرى . وبالقرب من نهاية القرن الثانى عشر ، لوحظ أن مواد الأجسام الحيوانية لها تركيب يظهر تحت المجهر كأنه قماش منسوج (لوحة ٢٥) . ومن هنا نشأ لفظ نسيج للدلالة على المادة التى تتكون منها أجزاء جسم الحيوان ، مثل العضلات ، والأعصاب ، والعظام ، والجلد .

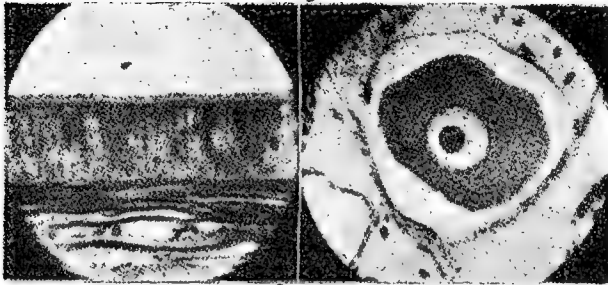
وقد أعطت المجاهر المزودة الأولى صوراً محرفة مطموسة بواسطة أهداف ملونة . ولذلك فضل رجال الأرصاد فى ذلك الوقت استعمال عدسات مكبرة مفردة فقط . ومع ذلك بين المزيد من الدراسات التى تمت فى أوائل القرن التاسع عشر أنه بواسطة الجمع بين عدسات مصنوعة من أنواع مختلفة من الزجاج يمكن تلافى الصور المحرفة والملونة . وقد سمح التقدم فى صناعة الزجاج لرجال الفيزياء بالحصول على نوع العدسات المطلوبة . وعلى ذلك فإن المعلومات التى تجمعت من مصادر مختلفة بالإضافة الى التقدم الفنى ، يسرت إيجاد الآلة الصحيحة للعمل الذى نحن بصددده .

ويمكن المجهر المزود مع التحسينات التى أدخلت عليه الناس من النظر فى داخل الأنسجة الى الخلايا ذاتها التى تتكون منها (لوحة ٢٥) وقد لوحظ أن الخلايا الحيوانية أجسام صغيرة منفصلة بغير حواجز بين بعضها البعض . ولذلك فعلى الرغم من احتفاظنا بكلمة خلية إلا أنها ليست تعبيراً مناسباً . وقد أثبتت أبحاث أخرى أن كل خلية تحيا حياتها الخاصة . وعلى ذلك فقد أصبح ينظر الى كائن حى مثل الانسان أو الشجرة يتكون من ملايين من الخلايا كمكان ذى عدد سكان هائل تلعب فيه الأفراد أدوارهم الخاصة ، ولكنه فى النهاية تابع للمجتمع الذى يعيش فيه ككل .

ولوحظ اختلاف فى الكائنات الحية اختلافاً كبيراً فى درجة تعقيدها ، وقد ظهر هذا بوضوح من وسائل نموها . وعلى ذلك فقد لوحظ أن كائناً حياً بسيطاً مثل نبات الخميرة ينمو بمجرد التكاثر ، إذ تتبرعم الخلية مكونة خلايا أخرى . ولوحظ من جهة أخرى أن البكتيوت الصغرى ينمو بطريقة تخصص شديدة التعقيد : تكون بعض الخلايا أنسجة الرئتين ، وتكون الأخرى الريش ، وهكذا . وأثبتت دراسات نمو الحياة من أقدم مراحلها أن الحيوانات العليا ، وكذلك الطيور والزواحف تبدأ حياتها كخلية بيض ملقحة (لوحة ٢٥) . وأعطى هذا الكشف اسماً جديداً لدراسة الأشياء الحية ، وكشف عن وحدة فى

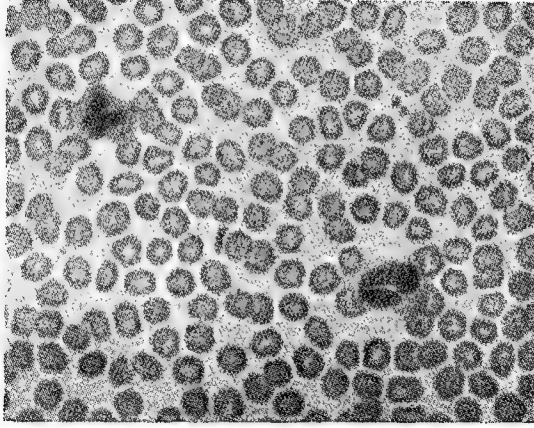


شريحة لمضلة انسانية تحت المجهر
تبين كيف تتكون من النسيجة

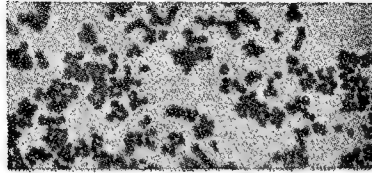


شريحة لجلد دودة أرضية تحت المجهر مكبرة
بدرجة كبيرة يبين الجزء الأسفل من الشكل
النسيجة المفصلة

الخلية البيضاء لقواقع
الخلية معدة تقريبا للأخصاب
وترى النواة بوضوح



خلايا دم الانسان مكبرة بدرجة كبيرة
 الخلايا نوعان : حمراء وبيضاء • وليست للخلايا الحمراء التي توجد في الصورة بكثرة
 نواة ، أما الخلايا البيضاء التي تظهر منها اثنان فلها نواة متعددة ، وهي اكبر من الخلايا
 الحمراء • وتستخدم الخلايا الحمراء في حمل الاكسجين ، أما الخلايا البيضاء فتؤدي مهام
 عديدة من بينها محاربة الكائنات الحية الدقيقة التي تسبب المرض •



البكتيريونيفودي (السبحي)
 نوع من الكائنات الحية الدقيقة يسبب عدوى مثل فرخ الجمرة •

الطبيعة لم يحلم بها انسان قط من قبل ، ويمكن حياة الانسان نفسه من ان تدرس من وجهة نظر النمو الخلوى .

وقد تقدمت دراسة الخلايا النباتية والحيوانية بفضل كثير من الباحثين خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر . وسنذكر اسماى رائدين فقط من هؤلاء الرواد ، وهما العالم النباتى الانجليزى روبرت براون (١٧٧٣ - ١٨٥٨) وعالم الاحياء الالمانى ج. ا. بيركنج (١٧٨١ - ١٨٦١) . لقد فحص براون أنواعا كثيرة من خلايا النبات ، كما وصف جسما فى باطن الخلية ، هو النواة ، وكذلك وصف خلايا الأنسجة الرئيسية لجسم الحيوان . وأدرك ان الخلايا الجديدة تنتج بواسطة انقسام الخلايا الموجودة ، ولاحظ ان الخلايا النباتية والحيوانية لها تركيبات متشابهة كما يتضح من الفحص المجهرى . ولم تلق دراسات بيركنج اعترافا فوريا بسبب بعض الافكار الخيالية المهمة التى تقدم بها الباحثون الآخرون . ومع ذلك فبعد منتصف القرن بقليل أصبحت الافكار أكثر اتضاحا ، وأصبح رجال العلم فى بلاد كثيرة يدركون ان الأجزاء الهامة فى الخلية النباتية أو الحيوانية هى النواة والمادة المحيطة بها . وأصبح السائل الخائى ، بما فيه محتويات الخلية وكل من النواة والمادة المحيطة بها ، يعرف بالبروتوبلازم (الصورة الأولى) ولاحظ انه يتحد فى جوهر تركيبه ووظائفه فى كل من بناء الخلايا الحيوانية والنباتية . وقد أصبح البروتوبلازم يعتبر الأساس الطبيعى للحياة .

وكان من النتائج العاجلة لتطبيق هذه المعلومات الجديدة عن الخلايا إنشاء قسم طبى خاص ، الا وهو قسم الأنسجة المربضة . وكان الفضل الأكبر فى هذا راجعا الى العمل الرائد للطبيب رودلف فيرخاو (١٨٢١ - ١٩٠٢) من برلين . فحص فيرخاو بناء خلايا الأنسجة السليمة والمربضة ، وفتح بذلك الطريق لدراسة دقيقة لنموات الخلايا غير العادية المعروفة بالسرطان ، وتقوم أبحاث نشطة فى مثل تلك الأمراض فى جميع مراكز الدراسات الاحصائية والطبية الحديثة .

وقد تميزت الدراسات التى ذكرناها حتى الآن بازدياد مستمر فى مجال الفحص الدقيق ، فقد تناول الفحص أولا السكان الحى ، ثم الأعضاء ، ثم الأنسجة ، الى ان وصل الى الخلية والبروتوبلازم . وفى خلال السنين الحديثة خطا هذا البحث خطوة أخرى الى الأمام ، فقد فحص الناس نواة الخلية الدقيقة نفسها . وقد تبين أن هذه النواة تتكون من اجسام دقيقة أخرى تلعب دورا عظيم الأهمية فى تقرير

الكيفية التى يشبه بها كائن حى جديد أولئك الذين نشأ منهم ،
وتقدمت كذلك الطرق العملية تقدما كبيرا جدا لدرجة أن خلايا فردية
فصلت من الأنسجة الحية وظلت حية فترات طويلة . وقد أثبتت مثل
تلك التجارب بطريقة مذهشة أن كل خلية إنما هى حياة داخل كل
حى أعظم .

٤ - النظرية الجرثومية للمرض

شوهنت فى أيام المجهر الأولى كائنات حية دقيقة فى اللبن الحامض
والخل واللحم المتحلل . وقد أدرجت مثل هذه الكائنات سويا تحت
اسم البكتيريا . وأنه لأمر معروف للجميع الآن أن كثيرا من الأمراض
تنتقل بواسطة أنواع معينة من الكائنات الحية الدقيقة . وأخذت
وجهة النظر هذه تثبت أقدامها باستمرار خلال النصف الأول من القرن
التاسع عشر ، ولكن فحصها علميا والبرهنة عليها كان الفضل فيه
راجعا الى ما قام به الكيميائى الفرنسى لويس باستير (١٨٢٢ - ١٨٩٢) .

كان باستير مولعا فى بدء حياته العملية بالمشاكل الناشئة عن
صناعة الخمر والبيرة الدافئة فى الهواء . ومع ذلك فأحيانا كانت
تحمض كميات كبيرة من البيرة الجديدة . ويتسبب صانعو البيرة فى
منطقة بأجمعها ذات مرة ، وطلبوا نصيحة باستير .

وجد باستير بفحصه الخميرة من البيرة السليمة وغير السليمة تحت
مجهر عدة كائنات حية تختلف اختلافا تاما . واستنتج أن هذه الكائنات
توجد دوما فى الهواء ، وأن نوعا منها يتسبب فى تحويل النشأ أو
السكر الى السكحول الذى يحتاجه صانعو البيرة . وهناك كائنات أخرى
تفرط فى العملية افراطا كبيرا وتجعل البيرة غير صالحة للشرب .

واستنتج باستير أن هذه الحالات وحالات غيرها من حالات التخمر
كحموضة اللبن وتعفن اللحم ترجع الى بكتيريا موجودة فى الهواء . وقد
أثبت هذا بتجربة بسيطة للغاية . أعد قنينة بها حساء لحم ملتوية
(شكل ٣٨) ، ثم غليت القنينة غليا تاما ، وتركته بنهايتها مفتوحة .



(شكل ٣٨)
قنينة باستير

للواء . لقد بقى الحساء هكذا اسابيع دون ان يتخمر . ولكن عند تحطيم الأنوية مما أدى الى دخول الهواء مباشرة أصبح الحساء حامضاً بسرعة . واستنتج باستير ان البكتريا كانت قد بقيت فيما قبل داخل انواء الأنوية ، حيث لا توجد هناك حركة هواء تحملها مع التراب الى داخل الفنتنة . وقد وضعت هذه التجربة أيضاً حدا لموضوع حوار قديم ، فقد كان المفروض يوماً ان قطع اللحم أو الخبز ، أو الجبن التى تفسد وتصير بعد ذلك مغطاة بدويدات صغيرة كانت تفسد لأن بعض صور الحياة هذه كانت تنشأ بالفعل من المادة التالفة . ومع ذلك فقد بنيت تجربة باستير بوضوح ان الكائنات الحية لم تكن ناشئة عن المادة الحية ذاتها . ولذلك أكد بجراحة ان الحياة يمكن ان تنشأ من الحياة فقط . وقد أكدت جميع الأبحاث التى تلت ذلك قوله .

وفى سنة ١٨٦٦ استمدى باستير الى جنوب فرنسا المعاونة المزارعين المنكوبين فى مناطق انتاج الحرير ، الذين كانوا مهملين فى معيشتهم بمرض أصاب ديدان القز . واقتفى باستير بالاستعانة بالمجهر كائنين حيين دقيقين متميزين كانا يسببان المرض . لقد تتبع هذه الكائنات الحية خلال جميع الأطوار التى تمر بها حياة دودة القز من بيضة الى دودة الى يفة الى فراشة . وبعد ان كشف بواسطة الفحص المجهرى عن السلالة المصابة أثبت انه من الممكن إيقاف العدوى بالقضاء على هذه السلالة وإمكان تولدها .

وكان باستير قبل هذا الوقت جادا فى متابعة أمراض أخرى . وسرعان ما استطاع القاء الضوء على ذلك المرض المميت ، فرض الجمرة الذى يصيب الماشية ، وينتقل أحيانا الى الانسان . واثنا لنجد أن عمل باستير فى دراسة هذا المرض يتصل بعمل غيره من كبار الباحثين وعلى الأخص الباحث الألماني روبرت كوخ (١٨٤٣ - ١٩١٠) .

وكان المعروف مدة سنتين أن دماء الماشية التى ماتت بالجمرة كانت تحتوى أجساما كالحبال أطلق عليها فيما بعد اسم الباسيلات كان من الممكن مشاهدتها بواسطة المجهر . ولذلك فمعقب كل وباء للجمرة كانت تتخذ كل الاحتياطات لابقاء الماشية السليمة بعيدة عن الحقول والحظائر التى كانت بها الماشية المصابة . ولكن ثبت عدم كفاية مثل تلك الاحتياطات وعندما فحص كوخ جراثيم الجمرة تحت مجهر ، لاحظ انها تحتوى أجساما أخرى (الأبواغ) ذات مقاومة شديدة للتغير . ويمكن ان تظل تلك الأنواع خامدة مددا طويلة ، وبعد ذلك تنمو اذا كانت هناك ظروف ملائمة . وعلى ذلك فإن طول بقاء مرض الجمرة فى منطقة معينة قد عرفت اسبابه .

والآن ظهر باستير على المسرح . لقد أخذ دما من حيوان مصاب بالجمرة ، وجعله يتكاثر فى محلول مناسب كان فى مكانه تخفيفه كيفما يشاء . وقد وجد ان النقطة منه حتى حينما خففه تخفيفا كبيرا كانت مميتة كمرض الجمرة تماما . واستنتج استنتاجا صحيحا ان العدوى التى يحملها الدم المصاب ترجع الى كائن حى كان يتكاثر باستمرار اثناء هذا التخفيف . ولذلك أكد أن الكائن نفسه هو المسئول عن المرض .

ونجح باستير بعد اجراء تجارب كثيرة فى جعل باسيلات الجمرة تنمو فى درجة حرارة أكثر ارتفاعا عن ذى قبل . وحينئذ وجد أن هذه الباسيلات قد ضعفت بدرجة كبيرة ، وانها تحدث فقط نوعا خفيفا من المرض حينما تحقن فى حيوان . وزيادة على ذلك فان هذا الحقن حمى الحيوان من اصابات أخرى . وسار العلاج نتيجة لذلك على النهج الذى سار عليه جينر فى حالات الجدري . وتكرينا لسلفه العظيم اطلق باستير على الطريقة التى اتبعها التطعيم (١) .

والخدمة الكبرى التى اسداها باستير هى اقامته الدليل الواضح على انتقال العدوى بواسطة الجراثيم . واوجد معاصره كوخ طرقا خاصة للكشف عن هذه الكائنات الحية الدقيقة ، وفحصها ، والكشف عن الأحوال التى تعيش وتتكاثر فيها . ونجح بهذه الطريقة فى الكشف عن جرثومة السل ، ودراسة الكوليرا ، ومرض النوم وقد قامت كل الابحاث الخاصة بالكائنات الحية المسببة للمرض على الطرق التى اوجدتها كوخ .

٥ - بعض نتائج النظرية الجرثومية

كان هناك فى منتصف القرن التاسع عشر جراح من جلاسجو يجرى أبحاثا عن أسباب التثام الجروح غير الصحى . وكان مرضاه فقراء سيئى التغذية من الأحياء الشديدة الزحام فى المدينة . وكان هذا الطبيب ج. ج. ليستر (الذى أصبح لوردا فيما بعد) (١٨٢٧ - ١٩١٢) رجلا اعترفت الدنيا بحق أنه كان من أعظم المحسنين فى العالم .

(١) أجرى باسير أبحاثا أخرى مكنته من تحضير طعم لشفاء المصابين بمرض الكلب الخطير الذى ينتقل بواسطة الكلاب المصابة . وفى عام ١٨٨٨ أسس معهد باستير فى باريس لمعالجة الكلب طبقا لطريقة باستير . ومنذ ذلك الوقت عولجت آلاف الحالات بنجاح ، ولكن الوقاية خير من العلاج . وقد انقرض الآن المرض من إنجلترا واصبح نادر الوجود جدا فى القارة ، بفضل العلاج القوي للحالات المشتبه فيها وبفضل تكميم الكلاب .

وكان لدى ليستر بالفعل خبرة كبيرة بالجراحة ، وكان حاضرا أثناء اجراء بعض العمليات الاولى التى استعمل فيها الاثير ، والكلوروفورم^(١) . وقد مكنت هذه المركبات الجراحين من تأدية عملهم بتركيز أكثر بواسطة جعل المريض مسلوب الشعور . ومع ذلك كان هناك دائما تخوف من جرح غير سليم أو عفن مما يتسبب غالبا فى تسمم دموى مميت .

وأدرك ليستر أن الالتئام غير السليم كان من شأنه أن يتسبب فى تعفن للأنسجة . وساعدته فى هذا المجال كتابات باستير . وقد عرف منها ليستر أن التعفن تسببه كائنات حية دقيقة . ولذلك حاول ليستر إبعاد الأبواب أمام مثل تلك الكائنات الحية حتى لا تصل الى الجرح بواسطة : (أ -) جعل الهواء نقيًا خاليا من التراب . (ب) جعل أيادى القائمين بالعمليات هى والآلاتهم خالية من الجراثيم أو معقمة . واعتاد ليستر أول الأمر أن يرش الهواء والجرح بمحلول حامض الفينيك الذى استعمله أيضا لتعقيم الآلات وكذلك أيدي القائمين بالعمليات . وبعد ذلك استعمل موادا ألطف وعقم آلاته بالتسخين .

وأصبحت طريقة ليستر تعرف باسم الطريقة المطهرة ، وقد استعملها جراحو الجيش أثناء الحرب البروسية الفرنسية . ولذلك أدت الى انقاذ حياة الكثيرين ، وإلى تخفيف آلام المصابين . وبعد بعض المعارضات استعملت طرقه فى مستشفيات إنجلترا . ومستشفيات القارة ، كما استعملت كذلك فى العيادات الخاصة .

ولم تكن النظافة فى الجراحة أمرا مستجدا ، إذ لوحظت إلام الإغريق القدماء . ولكن الجراحين فى جزائر الإغريق الصغيرة الجميلة كانوا يعملون فى ظروف أكثر ملاءمة من تلك الظروف التى سادت المناطق الصناعية فى أوائل القرن التاسع عشر . وقد حدث أن كان مستوى الأحوال الصحية حينما كان يعمل ليستر فى جلاسجو منخفضا جدا ، وكان معدل الوفاة من الجروح مرتفعا فى العادة . لقد أثارت حالة المصابين السيئة شحن رجل مملوء بالشفقة الانسانية والدكاء العلمى كذلك ، ومن ذلك نشأ العلاج . وأنه لما يثير الأسى أن يتصور

(١) كان الاثير معروفا من القرن الثالث عشر ولكنه استعمل لأول مرة للتخدير حوالى عام ١٨٤٤ . وقد عزل الكلوروفورم لأول مرة بواسطة ليبج فى سنة ١٨٣١ أثناء أبحاثه فى تركيب الكحول .

الانسان ان الظروف غالبا ما تسوء بدرجة طافية قبل ان يصل
المخلص (١) .

٦ - الحرب المستمرة ضد المرض

لعبت التحسينات التي أدخلت في علم الصحة في المائة سنة الأخيرة دورا عظيم الأهمية في تطور ثورتنا الصناعية الحديثة من ناحية كونها تستلزم تجمع السكان سويا في مدن كبيرة . ان الطرق الأفضل التي اتبعت في المحافظة على الصحة ، وتجفيف المستنقعات ، وإمداد الناس بالماء النقي ، وبناء مساكن أفضل ، تلك الخطوات التي بدأت في أوروبا الغربية بالفعل في النصف الثاني للقرن الثامن عشر نتج عنها انخفاض مستمر في معدل الوفاة ، وفي الاختفاء التام لبعض الأمراض . فمثلا كانت الملاريا التي كانت تعرف سابقا باسم « حمى البرداء » والتي ذكرها شكسبير كثيرا في شعره منتشرة حتى في لنسدن الى منتصف القرن التاسع عشر . ولكن حالات المرض أصبحت أقل بكثير بعد تجفيف وادى التاييز الذي كان له اثر فعال . وأصبح المستوى الصحي في القرن التاسع عشر أعلى بكثير في معظم أنحاء أوروبا وأمريكا الشمالية . وكان الفضل الأكبر في هذا يرجع الى ارتفاع مستوى التعليم الذي أمكن بواسطته تطبيق نتائج ما اكتسبه الناس من الخبرة في إيجاد نظم منسق مستنير من الحياة بين الغالبية العظمى من السكان . ومنسذ ذلك الوقت فإن الملاريا ، والطاعون ، والتيفوس ، والدوسنتاريا ، وهي امراض كانت يوما ما موجودة في جميع أنحاء العالم ، لا تحدث الآن الا نادرا في بلاد المناطق المعتدلة .

ومع ذلك ففي المنطقة الاستوائية ما زالت تلك الامراض تقتضى من الحياة ضرائب باهظة ، وجعلت في وقت من الاوقات كثيرا من المناطق غير صالحة لسكنى الرجل الأبيض . وكان النجاح الذي صساده الانسان في كبح جماح هذه الأمراض وغيرها انتصارا للدراسة العلمية . فمثلا ، بذل الباحثون جهودا مشتركة في تتبع سير الملاريا ، ووجدوا أنها ترجع الى كائن حى دقيق يعيش في نوع معين من البعوض . وقد

(١) قبل أن يأتي ليستر بطريقته بوضع سنين كان هناك طبيب هنغارى يسمى سيميلوس (١٨١٨ - ١٨٦٥) يعمل في مستشفيات الولادة في فيينا هاله مهدد الموتى بين الامهات المسكينات ، واكتشف أن السبب هو التدخل غير المحدود من الأطباء الملازمين الذين لا يفسلون أيديهم . ولذلك أمر سيميلوس على استعمال وسائل مطهرة ، وكان من نتيجة ذلك أن توقفت نسبة الوفاة العالية .

انبتت الدراسات الجهرية الدقيقة أن هذا الكائن يدخل مرحلة من مراحل النمو فى البعوضة ، وأن عضة من البعوضة تنقل هذا الكائن الى دم الانسان ، وهناك يدخل مرحلة نمو أخرى محدثا بذلك أعراض الملاريا . وعلى ذلك فإن السكان يعيش فى البعوضة والرجل ، ويمكن لكل منهما أن ينقل العدوى للآخر . ولذلك رأى أن محاربة المرض تلخص فى وقاية الأفراد من لسعات البعوض ، والقضاء على أماكن تولده بتجفيف الأرض ، واقتلاع الأدغال ، وتنظيم فيضانات الأنهار قدر المستطاع . ولاقت مثل تلك الإجراءات نجاحا تاما فى بنسما ، ومكنت المهندسين من انشاء القناة المشهورة . وكذلك توقفت الحمى الصفراء فى كثير من أنحاء العالم . والحمى الصفراء التى يحفلها البعوض مرض أكثر امانا من الملاريا . ومن شأن السيطرة التامة على هذه الأمراض اضافة مساحات شاسعة أخرى الى الرقعة المنزرعة ، وجعل الحياة فى المنطقة الاستوائية أقل تعرضا للأخطار .

وأنها حقيقة مشهورة أن بعض الناس يسعدهم الحظ فيهربون من المرض حتى ولو تعرضوا للعدوى . أنهم يقولون أن لديهم مناعة ، وبدراسة مثل هذه المناعة ، وبالدراصة التفصيلية للطرق التى قد تسبب مناعة للأفراد تقدم العلم بخطى واسعة خلال الخمسين سنة الأخيرة . وقد ربط العلم نفسه فى هذا المجال بما تقوم به السلطات المشرفة على الصحة العامة ، ووقى الناس من أمراض كثيرة .

وبدأت دراسة المناعة بعمل جينر فى القرن الثامن عشر . ولكن الفضل يرجع بالفعل الى باستير وكوخ فى أرجاع كثير من الأمراض الى الكائنات الحية . ولقد رأينا كيف أن باستير وجد أنه من الممكن زراعة بعض الكائنات الحية المسببة للأمراض ، وبذلك يمكن جعلها أقل امانا . وقد أبان أيضا أنه حينما تحقن مثل هذه الجراثيم الضعيفة المزروعة فى حيوان ، فإنها تكسب هذا الحيوان مناعة ضد أصابات أخرى بالمرض . وقد أبان تلامذة باستير أن المرض المعروف بالدفتريا يرجع الى سموم ، أو توكسينات ، ناشئة عن كائن حى يعيش فى حلق المرض . ووجدوا أن الجسم يحدث رد فعل بانتاج مادة لها مفعول مضاد تسميها مضاد التوكسين . وقد هيا تحضير مضادات التوكسينات هذه فى المعمل للأطباء الوسيلة لعلاج الدفتريا ، ولاعطاء مناعة ضد الإصابة بها .

ومن الممتع لنا أن نلاحظ كيف أن طرق باستير وكوخ قد انبعت بحذافيرها فى أنحاء كثيرة من العالم . وعلى ذلك فإن تلميذا روسيا

لما ستر كان يعمل موظفا فى الحكومة البريطانية للهند وجد وسيلة لجعل الناس يكتسبون مناعة ضد الطاعون الذى كان يهددهم ، ونجح تلميذ يابانى لكوخ فى تحضير (زرة) تحدث مناعة للكائنات البشرية ضد التيتانوس المميت . وأصبح هذا العلاج أمرا رتيبا بالنسبة لجرحى الحرب العالمية ، وبذلك أنقذ حياة أناس لا حصر لهم . وقد ابتكرت طرق الوقاية ضد حمى التيفود بواسطة أحد الباحثين فى باريس . وقد تضمنت مثل هذه الطرق جميعها دراسة مفصلة للكائن الحى وآثاره فى الجسم البشرى ، مع اتقان للطرق العملية التى تستعمل فى اختيار المرض وإيقاف تقدمه وتحضير مواد تحصين مناسبة .

وهكذا قام النجاح الذى حوربت به كثير من الأمراض على الأبحاث العملية فى الكائنات الحية نفسها المسببة للأمراض . ولكن مازال هناك الكثير من الأعمال التى يقتضى الأمر القيام بها . وعلى الرغم من تعرف كوخ على الكائن الحى ، أو بأسيل السل فى تاريخ يرجع الى ١٨٨٠ ، فقد فشلت الجهود التى بذلت لعلاج هذا المرض الى الآن بواسطة مضادات التوكسين ، أو بواسطة غيرها من الطرق المباشرة ، وتدل الإحصاءات ان معدل الوفيات من السل اقل بدرجة كبيرة فى جميع أنحاء اوربا الغربية والوسطى عما كانت عليه منذ خمسين عاما . وهذه النتيجة الطبية يجب أن تنسب الى التحسينات العامة فى علم الصحة والى ارتفاع مستوى المعيشة الذى نتج عنه اسكان أفضل ، وتغذية أفضل . ومع ذلك فان السل مازال هو وباء الرجل الأبيض . وحيث انه يصيب الناس فى شبابهم المبكر ، وفى طفولتهم ، فان إيجاد وسائل أفضل للسيطرة عليه تكون لها نتائج بعيدة المدى فى جميع البلاد .

ومن المهم أن نتذكر كيف أن العمل العلمى فى جميع المجالات يزداد ترابطا بعضه ببعض بمرور الزمن . فمثلا استطاع رجال الكيمياء العضوية بتفكيرهم فى حل لفز الجزيئات تكوين عدة صيغات . وقد وجد أن لهذه صلة خاصة بأنواع معينة من الخلايا ، وأنواع معينة من الكائنات الحية . ويمكن هذا الكشف كوخ من عزل جراثيم السل والكوليرا . وتلويين الكائن الحى بهذه الصفة جعله يتميز تميزا واضحا عن السائل الذى عاش فيه طويلا . ولم تمكن الصيغات الباحثين فحسب من رؤية الكائنات الحية ، ولكن صيغات معينة ، ومركبات أخرى استعملت للقضاء على الكائنات الحية الفازية دون إلحاق ضرر بالكائن الذى دخلت الى جسمه . وبهذه الطريقة ، وبعد محاولات كثيرة اكتشفت مركبات اذا حققت فى

جسم الإنسان قضت على الكائنات الحية التي تسبب في بعض الأمراض المخيفة .

ولقد عثرنا على كثير من الأمثلة كان القياس الدقيق فيها ذا أهمية لا تقدر في تقدم العلم . وقد مهدت وسائل القياس التي استخدمت لتقدير ما يقوم به جسم الإنسان من أعمال الطريق لعلاج كثير من الأمراض ونضرب مثلاً لذلك استعمال الأنسولين لعلاج مرض السكر . وقد اعتمدت طريقة العلاج على التحليل الدقيق لكمية السكر في الدم . ووجد أن هذه الكمية من السكر تتوقف على العمليات التي تجري في العضو المعروف باسم البنكرياس . وقد أصبح في حيز الإمكان محاربة كثير من أنواع مرض السكر بين الكائنات البشرية بإعطاء المريض جرعة مستخلصة من خلايا بنكرياس الحيوانات .

واقد طبقت طرق القياس في المسائل الخاصة بالتغذية ، وادت الى الامام بتلك المواد الغذائية التكميلية التي تسمى فيتامينات ، والتي نقرأ عنها كثيراً جداً في صحفنا اليومية . ولقد أبان الجراح البحري لايند في القرن الثامن عشر أن الصحة تعتمد على كميات صغيرة من أنواع معينة من الطعام . وقامت استنتاجات لايند على تجارب محددة . لقد عمل ترتيبه على وجوب إعطاء بعض المرضى المصابين بالأسقربوط بترقلا وليموناً ضمن غذائهم ، أما الآخرون فلا ، ولكن يجب أن تكون الأحوال فيما عدا ذلك متشابهة ما أمكن . وقد اقتنع لايند بمثل هذه الطريقة من طرق الرقابة أن عصير الفواكه ذو اثر قوى في الوقاية من الأسقربوط . وفي أيامنا الحديثة أدت التجارب المحددة التي تشمل مدى واسعاً جداً والتي تتم في أحوال تتسم بدقة لا تتيسر الا في العمل فقط الى التعرف على الفيتامينات الجوهرية للصحة . وقد عزلت بعض هذه الفيتامينات وتحدد تركيبها .

وفي خلال الخمسين سنة الأخيرة أيضاً استعملت طرق القياس في تفسير الإحصاءات الطبية . ولقد رأينا كيف أن مجرد الاحتفاظ بسجلات المواليد والوفيات والاصابات المرضية قد ساعد على ضمان تكوين مجتمع صحي . ومن المحتمل أن يساعد الفحص الرياضي للإحصاءات وعلى الأخص إحصاءات الأمراض الوبائية على تفهم بعض المشاكل المتعلقة بانتشار المرض . وعلى الرغم من محاربة كثير من الأمراض ، وعلى الرغم من أن الناس في البلاد المعتدلة قد طال عمرهم ، ويتمتعون بصحة أفضل عن ذي قبل ، الا ان الطبيب غالباً ما يجد نفسه لا حول له ولا قوة حينما تواجهه آلام البشر . والحق ان الانجازات الحديثة في الطب كغيرها في فروع أخرى من المعرفة تبين لنا أن هناك آفاقاً واسعة باقية الى الآن مازالت في حاجة لأن ترقاد .

الفصل الثاني عشر

مفهوم النسوى والارتقاء

١ - الحياة في العصور الغابرة

بينما كان باستير يتابع في هدوء أبحاثه الأولى في حموضة الخمر، وفي الأمراض التي تصيب دود القز كان رجال العلم في العالم في حمى من الهياج ناتجة عن نشر شارلز دارون (١٨٠٩-١٨٨٢) كتابه في أصل الأنواع عام ١٨٥٩ . لقد كانت الأفكار الجديدة قد أخذت تتجمع من سنين، وأخذت تشغل بال كثير من الناس قبل أن تظهر النظرية على بساط النقاش العام . ولقد بدأت المتاعب عندئذ ، وأخذ أولئك الناس الذين ليس لديهم أبسط فكرة عن طبيعة البحث العلمي يستنفدون عواطفهم مبثا في استنكار النظرية دون أن تكون لديهم أى فكرة اطلاقا عن معناها .

وقد نشأت الأفكار الجديدة نتيجة دراسات كثيرة من كائنات حية ، قامت بدرجة كبيرة على ما تم من كشف-عن الحياة في العصور الغابرة . لقد أخذ خيال الناس يسرح أجيالا مدبدة دون ضابط فيما يختص بنشأة الأرض وما عليها ، وفيما يختص بتاريخها القديم . ومع ذلك فأنهم لم يبدؤا في الدراسة المنظمة وتجميع الأدلة حتى الستين الحتمية للقرن الثامن عشر . وقد كشفت بعد ذلك الاستنتاجات التي تميزت بالأمعية عمر الأرض العظيم المدى أولا ، ثم شيئا عن تاريخها ، ثم حقائق عن سكانها السابقين .

وأبانت الدراسات التي أجريت في الصخور والمحاجر أن الأرض تتكون أحيانا من سلسلة طبقات مستوية تعلو بعضها بعضا وأحيانا - كما في الجهات الجبلية خاصة - من طبقات غير مستوية تبدو كأنها مدفوعة من أسفل الى أعلى . وتكون الطبقات المستوية ما نسميه بالصخور الرسوبية التي وصفت وصفا منظما لأول مرة بواسطة عالم مساحة انجليزى ظهر في أواخر القرن الثامن عشر ، ألا وهو وليام سميث (١٧٦٩-١٨٣٩) . الذى يعرف أحيانا باسم « أب الجولوجية الانجليزية » . وقد جاب سميث أرجاء

البلاد كثيرا ، وكان يلاحظ أن طبقات الصخور الرسوبية كانت تتبع نفس النظام ، ولاحظ أنها لا تتميز فقط بالمادة التي تتكون منها كالحجر الطباشيري أو الحجر الرملي ، ولكنها أيضا تتميز بوجود بقايا من الحياة النباتية والحيوانية ، وهذه البقايا هي ما نعرفها باسم الحفريات . وحينما كانت تستخرج قطع صغيرة من الصخر مطبوع عليها رسوم السرخس ، أو المحار وقتنا ما أثناء الحفائر ، كان الناس يظنون أنها مجرد تحف . ولكن بعد أن تبين أنها تنتمي الى طبقات صخر منتظمة اتضح للناس على مهل انه لابد أن يكون للحفائر معنى أعمق .

وفي أثناء ذلك وضعت الدراسات التي قام بها باحثون سابقون من أمثال جيمس هتون (١٧٢٦ - ٩٧) الأسس لنظريات بناء - ١ - وكان هتون متيقنا أن التقديرات التي تحدث بتآكل الأرض بواسطة الأنهار ، وتكوين أرض جديدة بواسطة تراكم رواسب جديدة كانت تدل على أن الصخور الحالية التي يتكون منها سطح الأرض قد تكونت جزئيا من صخور أقدم منها ، وأن الأرض مازالت تتخذ أشكالا جديدة - ٢ - . وأدرك هو واتباعه أن الطبقات السفلى من الصخور الرسوبية لا بد أنها تكونت قبل الطبقات التي تعلوها . ونتيجة لذلك تكون الطبقات السفلى أقدم ، وتكون الطبقات مرتبة حسب أعمارها . ولكن هذه الطبقات وجد أنها تحتوى حفريات ، ولذلك تيسرت الوسيلة لمعرفة أية حفرة كانت أقدم من الأخرى .

وفي أوائل القرن التاسع عشر يسرت دراسة الحفريات دراسة أدق حلولا كثيرة لما انطوى عليه الماضي من مسائل استعصت على الأفهام . لقد وجدت حفريات الكائنات البحرية في أماكن عالية بين التلال ، ووجدت بقايا الكائنات المحبة للماء مدفونة تحت رمال الصحراء . وكانت مثل تلك الحقائق تشير الى حدوث تغيرات عظيمة في الكتل الأرضية والبحرية قبل تدوين التاريخ بأحقاب سحيقة . وكذلك فقد اشارت بقايا حيوانات الرنة والذئبة التي وجدت في المناطق المعتدلة من أوروبا الى جو أبرد بكثير ساد هذه الاصقاع ذات مرة . وبما أنه من المعروف أن درجة حرارة الشتاء

(١) من أسئلة ذلك الرسالة التي قدمت للجمعية الملكية في أدنبره عام ١٧٨٥ وعنوانها : نظرية الأرض أو بحث القوانين المتساهلة في تكوين وانحلال ، واستعادة الأرض على سطح الكرة الأرضية .

(٢) أن أجازة يفضيها الانسان متجولا حول اجزاء من الساحل الانجليزي لكافية لإقناع كل ذي عينين أن يوى البحر في بعض النواحي يجرف الأرض بسرعة مزعجة وانه في نواحي أخرى تبني الرواسب البحرية والنهرية المزيد من الأرض باستمرار . فمثلا يكسح ماء البحر الساحل بالقرب من لوستوتل أما الأرض بجوار دينجينييس فانها تمتد تدريجيا داخل البحر .

والصيف تختلف فى حدود ثابتة نوعا ، فقد استنتج بحق ان المناخ البارد كان ينتمى لحقبة سحيقة ، وأنه لا بد أن تكون الأرض أطول عمرا مما ظنه الناس يوما ما . وقد بذلت محاولات عديدة لحساب عمر الأرض من السرعة التى تكونت بها الطبقات الجديدة . وكانت كل التقديرات التى نتجت عن هذا كبيرة جدا - ١ - .

وأخذ الناس تدريجيا يفكرون فى الأمور على أساس مقاييس زمنية واسعة المدى ، وأصبحوا مستعدين لتفسيرات أخرى للحفريات ، وعلى ذلك فعند فحصهم لأقدم أنواع الصخور لم يجدوا أثرا لأية كائنات ذات عمود فقرى . ووجدوا حفريات زواحف فى الصخور الأقل عمرا ، ولم يجدوا حفريات تدل على تكوينات تشبه تكوين الحيوانات الشديدة المعروفة الا فى الصخور الجديدة نسبيا . وقد إبان هذا بوضوح أنه أتى على الأرض حين من الدهر لم تكن هناك فيه كائنات فقارية كالطيور ، أو الاسماك ، أو الحيوانات ذات الغراء ، أو الناس .

وقد كشفت دراسات مضمينة عن سلسلة كاملة من الصخور الرسوبية، كل طبقة بحفرياتها الخاصة . وعندما فحصت هذه رؤى أنها تدل على تطور منظم ، ووجد أن حفريات الطبقات الأكبر عمرا أبسط من حفريات الطبقة التى تملوها . ودلت أوجه التشابه الوثيقة بين الحفريات على أنها لنفس الكائن . وقد تغيرت هذه الصور ببطء خلال أجيال لا حصر لها أثناء أحقاب طويلة من الزمن . وكانت فى كل مرحلة تصبح أكثر تعقيدا بقليل .

ولقد لخصت المعلومات التى وجدت عندئذ عن تاريخ الأرض وعن تاريخ سكانها فى العصور الماضية فى مؤلف قيم لتشارلز ليل (١٧٩٧ - ١٨٧٥) عنوانه مبادئ الجولوجية نشر عام ١٨٣٠ . وقد طبع هذا الكتاب عدة طبعات ، وكان له أثر عظيم فى كل من إنجلترا والقارة . لقد شرح ليل

(١) أن أحسن دليل لدينا الى الآن هو الدليل المستقى من الصخور المحتوية على مواد اشعاعية ، إذ أن العناصر المشعة مثل الراديوم ، واليورانيوم ، تقذف باستمرار بجسيمات، وتتحول الى شيء آخر بهذه العملية . وآخر نتاج لهذه المواد جميعها هو الرصاص . وذرات الرصاص ثابتة ولا تنفلق بعد ذلك . وفى استطاعة علماء الفيزياء فى المعمل وزن الرصاص الناتج عن وزن معين من اليورانيوم فى وقت معين . اذن فلو وجدت نسبة الرصاص فى معدن محتوى على يورانيوم بالتحليل الكيماوى مع افتراضنا أن معدل التغير واحد خلال العصور كلها ، ففى إمكاننا تقدير طول الوقت الذى يكون فيه هذا الرصاص ، وتقدير عمر المعدن على الأقل تبعا لذلك . وقد قدر عمر بعض الصخور بمقدار ١٢٠٠ مليون سنة على الأقل .

طرق علماء الطبيعة الفرنسيين العظام • ١ - الذين فحصوا أنواعا كثيرة من الحفريات بدقة بلغت درجة أدت بهم ، كما قال، الى أن يفكروا أن الأرض كانت في عصور متتالية موطن نباتات وحيوانات ذات أجناس مختلفة • وقد إبان ليل أنه باطلاق نفس الاسم على حيوانات الحفريات وضرائبها الحية ، أصبح الناس متقبلين لوحدة الطبيعة في العصور المختلفة • وقد اعتبر هو نفسه أن الحفريات تمدنا بموجز لتاريخ العالم يمكن قراءته كسجل في كتاب • وقال ان المذكرات القديمة للطبيعة قد كتبت بلغة حية •

وكان خيال رجال الفكر قبل ذلك قد صار أكثر نشاطا • وأدرك كثير من معاصري ليل بشكل غير متضح فكرة تسلسل الحياة بشكل متصل خلال العصور • حان الوقت حينذاك للتعبير عن هذه الفكرة بالتعليم العظيم الذى قدمته نظرية النشوء والارتقاء •

٢ - مفهوم التطور

هناك اتفاق عام بين رجال الفكر اليوم على أن الكائنات الحية التى نراها حولنا نشأت من أجداد أبسط منها ، وأن أشجارنا ونباتاتنا العادية أيضا نشأت بدورها من أنواع أبسط منها بعملية تغير تدريجي • وبمعنى آخر هناك إيمان بما يسمى تطور • وبما أنه لا يمكن أن يكون هناك شك فى التطور لدى أى إنسان يكلف نفسه مشقة التفكير الا أن هناك قدرا كبيرا من الشك فى كيفية حدوث مثل هذا التطور ، وكيف مازال يأخذ مجراه • دعنا أولا نلقى نظرة سريعة على بعض الأدلة التى تشير الى حقيقة التطور •

لننظر أولا الى الصخور • ان الأدلة التى تجمعت أثناء النصف الأول من القرن التاسع عشر قد اتسع مداها اتساعا هائلا منذ ذلك الوقت ، ولكنها قد أبانت دائما تعقيدا متزايدا فى الحفريات من الصخور القديمة للصخور الأحدث منها • ولا حاجة لنا فى القول أنه من الضرورى التحلى بقدر كبير من الصبر فى البحث عن وجود سلسلة منتظمة • ولكن حينما تكتمل الأدلة فانها تشير الى القول بأن الحياة نشأت فى كل مرحلة من مراحل التطور من حياة سبقتها •

والمجموعة الثانية العظيمة من البراهين مصدرها دراسات الكائنات الحية الآن • فاذا نظرنا الى هياكل كل من ساعد الإنسان ، وجناح الطائر ، وذيل الحوت ، والساق الأمامية للغزال أو الجواد أو البقرة نجد أن تركيبها

(١) لامارك (١٧٤٤ - ١٨٢٩) ، كينغير (١٧٦٩ - ١٨٢٢) سانت هيلير (١٧٧٢ -

واحد فى أساسه • ففى كل حالة منها عظمة واحدة ، المفصل ، يتبعها عظمتان ، وبعد ذلك مفصل أكثر تعقيدا (المعصم) الذى تنفرع منه عظام (الأصابع) • وللخفاش مثلا أربعة أصابع طويلة جدا يقوم عليها جناحه كهيكल المثلثة ، وإبهامه مخلب قصير • وللغزال اصبعان كبيران فى الوسط يكونان حافره المشقوق ، واصبعان صغيران فى كلا الجانبين ، ولا إبهام له • وكذلك نجد بفحصنا كائنات فقارية أخرى انها تسير على نفس المنوال مع اختلافات فردية • وبنفس الطريقة يتبين علماء النبات تشابها فى تركيب العائلات النباتية •

وهناك مصدر عظيم ثالث لاقامة البرهان على هذا ، هو وجود أطراف وأعضاء لا فائدة منها لحيوانات تعيش الآن ، لم يكن هناك داع لان تزود بها لو أن كلا منها قد خلق بمفرده • فللحوت مثلا بقايا هيكلية لرجل خلفية ، رجل أثرية كما يقول علماء الحيوان • وهذا يبين أن النحوت سليل حيوان برى كان فى حاجة الى أربعة أرجل • وكذلك فلبعض الحيات أرجل أثرية بمخلب بارز من الجلد تدل على تناسل من حيوان زاحف ذى أربعة أرجل كان يعيش فى الماء واليابس •

وعلاوة على ذلك فاذا فحصنا تطور الكائنات قبل ولادتها ، أى الأجنة ، فاننا نرى أن أجنة الكائنات التى تختلف اختلافا بينا فى مرحلة المراهقة تتشابه تشابها ملحوظا فى المراحل الأولى من حياتها • وكذلك فعند فحصنا لجنين كائن معين ، ومقارنة مظهر الأجنة فى أطوار نموها المختلفة ، فانه يبدو أن هذه التغيرات تتفق مع تلك التغيرات التى لابد أن أجدها قد مرت خلالها فى عصور سحيقة • ويمكن مشاهدة مثل تلك التغيرات فى السمك بعد فقسه من البيض • فمثلا يسبح سمك التيربوت (١) الكبير منبطحا بالقرب من قاع المحيط ، وتوجد عيناه فى جانب واحد من رأسه • ومع ذلك فان التيربوت فى أثناء تطوره بعد خروجه من البيضة يبدأ بعين واحدة فى كل من جانبيه رأسه كمعظم الأسماك التى تحترم نفسها وتسبح منتصبه ، ومع ذلك فان موضع العينين يتغير تدريجيا بنسبة تغير موضع الرأس • وعلى الرغم من ذلك فان السمكة غير الناضجة تواصل السباحة منتصبه • ومع ذلك تصبح العينان فى الطور الأخير فى جانب واحد من الرأس ، وتقضى حياتها منبطحة بالقرب من قاع المحيط تبحث عن سمك تستطيع ابتلاعه • ومن الممكن ذكر أمثلة أخرى كثيرة • ويبدو كما لو أن الكائن المتطور قد تذكر تاريخ أسلافه الماضى ، وأنه يمر فى حياته القصيرة قبل اكتمال نضوجه خلال تاريخه مرة ثانية ، على الرغم من أنه لا يستفيد فى النهاية أى فائدة من بعض المراحل التى يبدو أنه مصر على تكرارها •

(١) التيربوت سمك أوربى مفلطح (المترجم)

وقد أبنا آنفا نوع الحجج التي تؤدي الى النتيجة التي تتلخص في أن الجماهير الغفيرة لأنواع الكائنات الحية التي نراها اليوم لم تخلق كلها على انفراد ، ولكنها تطورت عن أنواع مماثلة . وتمكننا نظرية التطور مثلها مثل كل نظرية صحيحة أخرى أن تربط سويا بين كثير من الحقائق التي استمدت من الملاحظة ، وأن تبسط أفكارنا . وبدون نظرية التطور فأننا نضل طريقنا بين أصناف الكائنات الحية التي تحير الالباب ، دون أن نلم بأي تفسير معقول لكيفية انتساب مخلوق لغيره من المخلوقات .

ودون أن نجد وسيلة لتفسير الحفريات ، ودون أي تفسير معقول للبقايا الأثرية أو أوجه التشابه التكوينية ، أو ما يبدو في نمو الجنين من التلخيص الموجز للتاريخ .

ولقد ذكرنا حتى الآن الخطوط الرئيسية للأدلة التي تؤدي بنا الى قبول حقيقة التطور . هيا بنا الآن نذكر بإيجاز تام بعض الحجج التي قدمت لتفسير كيفية حدوث هذا التطور . ان هذا يؤدي بنا الى أبحاث دارون . ففي كتابه الرئيسى وعنوانه الكامل : بحث في أصل الأنواع بواسطة الانتخاب الطبيعي أو بقاء الأجناس الصالحة في الكفاح من أجل الحياة : سجل دارون قدرا هائلا من المشاهدات رابطا بعضها ببعض . وكان بعضها نتيجة بحث استغرق أعواما في قارات بعيدة ، وبين جزر . لم تظاها قدم انسان . وقام ببعض الآخر علماء طبيعويون في بلاد مختلفة تضمنت أبحاثهم دراسات الكائنات البرية وكذلك النباتات المستأنسة . وهكذا بتجميعه قدرا هائلا من المشاهدات ، فحص دارون الأدلة التي اعتبر أنها ألقت بعض الضوء على ما قد ظل مدة طويلة لغزا غير قابل للحل ، ألا وهو أصل أنواع الأشياء الحية الكثيرة المتباينة .

٣ - نظرية الانتخاب الطبيعي

ان المجال الشاسع للحياة الذى تفتح أمام أعين دارون أراه الطريقة المدهشة التي تتلاءم بها الحيوانات والنباتات مع طريقتها الخاصة في الحياة . ورأى أن الاختلافات في التكوين واللون والعادات تمكن الكائنات الحية من ملائمة نفسها مع بيئتها . ورأى دارون كغيره من الباحثين كيف أن أمثال تلك الملامات تجعل في إمكان الحيوانات تفادى اكتشاف أعدائها المتربصة بها . ورأى أن كثيرا من الأزهار بسبب ذات تكوينها تسهل عملية الإخصاب التهجيني ، وبذلك تضمن تهجين أصناف نفس النوع بعضها لبعض . وعلاوة على أن مثل تلك الملامات أحيانا ما تحمي أفراد الكائن الحي ، فهي تضمن زيادة على ذلك بقاء النوع بوجه خاص . وقد ذكر كثير من المؤلفين قبل الزمن الذى ظهر فيه دارون مثل هذه الحقائق على أنها دليل على وجود

غرض وراء أوجه نشاط الطبيعة كلها . ومع ذلك سعى دارون الى أن يبين أن مثل تلك الملاحظات مع بعض المميزات الأخرى للكائنات الحية يمكن تعليلها بشكل مرضى بواسطة أسباب طبيعية .

وقد وجه دارون اهتمامه الى الأصناف التي لا حصر لها بين الأنواع العديدة للأشياء الحية ، ورأى أن التنوع بين النوع الواحد أحيانا ما يرجع الى التدخل المتعمد من الإنسان ، كتربية انواع معينة من الكلاب مثلا . وأدرك أن الجهود التي يبذلها زارعو الحدائق لانتاج زهور وفواكه خاصة كان ينتج عنها قدر كبير من التنوع . انه رأى فى الحقيقة أن الاستثناس جميعه كاستثناس الحيوانات البرية ، أو زراعة نباتات الأسجية مثل الورد البرى والتفاح المر تنشئ أصنافا جديدة بين نفس النوع .

ولاحظ دارون زيادة على ذلك تباينات فى النوع الواحد حتى حينما لا يكون هناك تدخل من قبل الانسان . وظن أن التغيرات فى النوع الواحد التي تركت هكذا لتتوالد قد تكون راجعة الى انتقال مميزات معينة من جيل الى الجيل الذى يليه . وتخيل أن عدم استعمال بعض الأعضاء أو الأطراف ، أو من جهة أخرى استعمالها المفرط قد يترك أثره بكيفية ما على النوع . ولكنه أدرك أن مثل هذه التغيرات تحدث ببطء شديد ، ربما بدرجة لا تسمح بأية ملاحظة مباشرة حتى فى حالة الكائنات التي تتناسل بسرعة . ولم يغب اطلاقا عن بال دارون امكان توارث مثل تلك الصفات المكتسبة . وقد خصص الفصل الأول من كتابه العظيم لمناقشة هذه المسألة ذاتها . ومع ذلك فقد رأى أن هناك سببا أقوى للتطور يرجع الى ما يسمى بالانتخاب الطبيعى .

وتنقسم الحجج التي تدعم نظرية دارون العظيمة الى ثلاثة أقسام . أولا أن الكائنات الحية جميعها قوى تزايد هائلة ، فقد ينتج نبات ألف بذرة فى العام ، وترينا حبة بسيطة أنه لو وصلت كل تلك البذور الى دور النضوج وإستمر انتاجها بنفس السرعة ، فإن الأرض سرعان ما تنزخر بها . وكذلك حتى فى حالة تناسل زوج واحد من حيوان بطيء النسل مثل الفيل ، فإن هذا النسل ، كما أبان دارون ، قد يملأ الأرض بمرور الوقت . أما فى حالة الكائنات الحية التي تتكاثر بسرعة مثل البكتيريا وبعض صور الحياة الدنيئة الأخرى ، فإن الأرض تمتلئ بها فى أسابيع قليلة اذا بقى كل فرد من ذريتها وتناسل .

ولكننا نعرف أن الضخامة التي تتجدد بها الحياة تقابلها ظروف مضادة تؤثر فى الكائنات الحية التي لم يتم نضوجها ، ولذلك فما يبقى منها فقط عنى قيد الحياة انما هو القليل جدا . فمن البيض الذى لاحصر له الذئب، تضعه سمكة سالمون واحدة فى موسم بيضها لا يلحق الا القليل فحسب ،

وكذلك فإن الذى يصل الى مرحلة البلوغ أقل من ذلك بكثير . كم من البذور التى تحملها الريح تثبت فى الأرض وتنمو ؟ كم من الكرون (١) يصير شجر بلوط ؟

وعلى ذلك فعلى الرغم من قوة التزايد الهائلة فى الطبيعة الحية ، فإن أعداد النباتات والحيوانات يبقى ثابتا تقريبا من سنة لأخرى . واستنتج دارون أن هذا ناتج من المنافسة الحادة بين الكائنات الحية لنفس النوع ، بالإضافة الى عدم قدرة الكائنات غير الناضجة على العيش فى ظروف غير مناسبة . وعلى ذلك تحدث دارون عن تنازع البقاء الذى يوجد فى جميع أنحاء الطبيعة الحية . ولم يستعمل هذا التعبير فقط بمعناه الحرفى كما فى حالة حيوانين يتنازعا للحصول على الطعام أو حالة نباتات تنمو لصق بعضها البعض ، وتستلب الغذاء والضوء من بعضها . لقد استعمله أيضا بمعنى مجازى ليدل على التفاعل الذى يحدث بين كائن حي وأى من الظروف التى تعتمد حياته عليها . وعلى ذلك فإنه صور ظروف النبات الذى ينمو بجوار الصحراء ، معتمدا بذلك فى ذات حياته على الرطوبة ، كنوع من التنازع ضد الأحوال المناخية .

وفكرة تنازع البقاء هذه هي الحجة الثانية من حجج دارون الرئيسية ، وتؤدى بنا الى الحجة الثالثة المتعلقة بالتباينات داخل النوع . لقد رأى دارون أنه حينما تتميز الكائنات الحية بمثل هذا التنازع من أجل العيش ، فإن أية تغيرات بسيطة فى التكوين أو الحالة المعيشية تكون ذات فائدة لأى كائن حي تهيئ له فرصة أحسن للبقاء ، على الرغم من خصوبة تناسل هذه الكائنات الحية . إذن فإذا زاد عدد الحيوانات التى تبقى على قيد الحياة نتيجة لتمييزها ببعض من هذه التغيرات الملائمة ، فمن الطبيعى أن يتزايد عدد تلك التى تندر من تلك الحيوانات التى لا تتميز بهذه التغيرات . لذلك تأخذ الحيوانات التى تتميز بالتغيرات الملائمة تشغل بالتدريج نسبة أكبر وأكبر من العدد الكلى لهذا النوع الخاص .

ويقسول دارون :

وينتج عن ذلك أنه اذا تغير أى مخلوق ولو بدرجة بسيطة بأية كيفية مفيدة له تحت ظروف حياة معقدة متغيرة أحيانا ، يكون أمامه فرصة أحسن للبقاء . ولذلك ينتخب انتخابا طبيعيا . ويميل أى صنف منتخب طبقا لقانون الوراثة الوطيدة الى الاكثار من نوعه المعدل .

ويتبين من هذه الكلمات أن ما يسميه الانتخاب الطبيعي ما هو في الحقيقة إلا الاحتفاظ بتغيرات ملائمة • وبقاء الأفراد التي تتميز بهذه التغيرات الخاصة معناه أنها تنتج على العموم عددا أكبر من الذرية ، يتميز بعضها بهذه التغيرات كذلك • وعلى ذلك يبقى النوع الخاص على قيد الحياة حتى بعد هلاك أفراد جنسه • ويضرب لنا أمثلة كثيرة لآثر الانتخاب الطبيعي ، نقتبس منها ما يلي : -

« هيا بنا نأخذ حالة ذئب ينقض على حيوانات عدة ، يقتنص بعضها بالدهاء ، وبعضها بالقوة ، وبعضها بالسرعة ، ودعنا نفترض أن أسرع فريسة - الغزال مثلا - قد زادت من أعدادها نتيجة لأى تغير فى الاقليم ، أو أن الفرائس الأخرى قد نقصت أعدادها ، أثناء ذلك الفصل من السنة الذى يكون فيه فى ميسيس الحاجة الى الطعام • ان فى استطاعتى فى مثل تلك الظروف أن أرى ألا داعى للشك فى أن اسرع الذئب وأرشقها ستهيأله أحسن فرصة للبقاء • ولذلك يحتفظ به وينتخب » •

وإذا كان لمثل هذا الانتخاب تأثير على الأجيال المستقبلية من الذئب ، فعلينا أن نفترض انتقال صفات خاصة بطريقة ما الى الذرية • وكما يقول دارون : -

« اذا استفاد أى ذئب من تغيير فطرى فى عادته أو تكوينه تهيأت له أحسن الفرص للبقاء وأئصال ذرية • ومن المحتمل أن يرث بعض صغاره نفس العادات أو التكوين • وقد يتكون صنف جديد بتكرار هذه العملية، وهذا الصنف اما أن يحل محل نوع الذئب الأب ، أو يتعايش معه » •

وعلى ذلك فمن الملاحظ أن دارون تعرف على سببين من أسباب التطور وهما (١) توارث الصفات المكتسبة بواسطة الجدود (٢) الانتخاب الطبيعي • وقد أكد دارون أهمية السبب الثانى من هذه الاسباب • وكان تفسيره لعملية النشوء ، والارتقاء بواسطة الانتخاب الطبيعي قمة انتصاره فيما قام به من أعمال • ولقد ذكرنا مجملا موجزا لنظريته ، وقد جعلت قلة الحيز من المستحيل تبيان مدى دراسته • ان على كل انسان أن يطلع نفسه على كتابه « أصل الأنواع » •

وانه ليكفيانا فى هذا المجلد الموجز أن نعترف بعمل هذا الرجل العظيم الذى أوجد لأول مرة نظرية معقولة لتطور الأنواع • وأول الأفكار التي تربط نظرية دارون بعضها ببعض هى فكرة وحدة الحياة ، والروابط الخفية التي بين صور الحياة المختلفة وأثرها على بعضها البعض ، وما الانسان نفسه الا أحد بقية الخلق • وثانيا هناك فكرة استجابة الكائنات الحية

للتغيرات الخارجية • وعلى هذا فإن الاختلافات فى المناخ ، ونقص مواد الغذاء العادية ، والهجمات التى يشنها أعداء غير متوقعين ، كل هذه تستدعى تنافزا • وإذا لم ينتصر الكائن الحى فإنه يخرج من سياق الحياة • وثالثا فكرة مدى التلاؤم الذى تبديه الكائنات الحية والطريقة التى يبدو أن تستفيد بها من الخبرة • وكذلك فهناك فكرة التطور التى ما زلنا نراها حولنا تأخذ مجراها حتى أن جهود واستجابات الكائنات الحية فى أيامنا هذه ، وما ينتج عن ذلك من تلاؤمها سيكون له تأثير على خلفائها فى العصور القادمة •

٤ - الوراثة

ترتبط فكرة التطوير ارتباطا وثيقا بفكرة الوراثة • وكان دارون أول من حاول معالجة هذه المشكلة علميا • ونحن نعلم جميعا أن الأطفال يشبهون آبائهم ، ونعرف عموما أن كلا يولد على شاكلته ويرجع الفضل فى أول دراسة عملية للوراثة الى أسقف غير نابيه يدعى ج • ج • مندل (١٨٢٢ - ١٨٩٤) كان يعيش فى المدينة المورافية القديمة برون التى تنتمى الآن الى تشيكوسلوفاكيا • ولم يحظ مؤلفه الذى طبعه سنة ١٨٦٥ باهتمام العلماء فى العالم حتى بدأ القرن الحالى •

لقد احتفظ مندل بسجلات دقيقة للصفات المتوارثة لنباتات معينة وأوجد قوانين عديدة محددة للوراثة • أنه اعتبر أن كل ميزة كالطول والقصر إنما ترجع لعامل محدد • حينما يحصل تهجين بين نباتين ينتج عنه أرومة جديدة فإن من رآه فى هذه الحالة أن الخلية الجديدة المنقسمة تنشأ عن نوع من إعادة امتزاج العوامل المشتقة من الخلايا الأب • ومن بين التجارب التى قام بها مندل فى حديقة ديره أبحاث فى تأثير تهجين أصناف مختلفة من البسلة العادية • لقد اختار نباتات تختلف فى إحدى الميزات الواضحة كالطول • وبتهجين بسلة طويلة وبسلة قصيرة ، وجد أن الهجائن الناتجة طويلة كلها • ولكن حينما لقحت هذه الهجائن نفسها ظهرت بسلة قصيرة فى الجيل الثانى •

وتتضح هذه الحالة بشكل أبسط نوعا لو تدبرنا تهجين زهرة حمراء وزهرة بيضاء من نفس النوع - زهرة الأنتريثيم مثلا • ويجعل مثل هذه الأزهار يلقح بعضها بعضا فإن البذور الناتجة تنشأ عنها أزهار وردية اللون فحسب • وعلى ذلك فعلى الرغم من أن الصفات الحمراء والبيضاء تمتاز سويا فى الجيل الأول ، فإن الصفات النقية للأجداد تعود الى الظهور فى الجيل الثانى •

وقد أدت مثل هذه التجارب بمندل الى قانون بسيط جدا يمكن ذكره
فيما يلي :

إذا تزوج فردان لهما زوج من الصفات المتضادة النقية ، فإن الصفات
الأصلية تعزل في الجيل الثاني . ووجد مندل بعد دراسة دقيقة لمثل هذه
الأجيال الثانية في عدد كبير جدا من الحالات أن الأفراد التي تولد منها
النوع النقي احتفظت بنقاوتها في التوالد . ومن جهة أخرى وجد أن
الهجائن نشأ عنها بعض أفراد محتفظة بصفاتهما النقية ، كما نشأت عنها
هجائن أخرى . ولم يجد في أية حالة من الحالات هجينا تناسل تناسلا
نقيا .

وفسر مندل مثل هذه النتائج بافتراضه أن هناك وحدات معينة تتحكم
في الطول أو اللون أو أية ميزة بارزة أخرى يتضح أنها وراثية . وافترض
أن هذه الوحدات التي نسميها الآن جينا تحتفظ باستقلالها الذاتي في
الهجائن ، حتى ولو أنه يبدو أنه قد قضي عليها أو انها توارثت على الأقل .
وليس من السهل في حالات كثيرة التمييز بين ما هو هجين وما هو فيه
نقى النسب . وفي تلك الحالات يسمى الجين الخاص الذي يجعل الهجين
يظهر كأنه نقي السلالة الجين السائد . أما الجين المظهور فيدعى بالجين
المتنحي . ومع ذلك فإن الجين المتنحي يحتفظ بشخصيته ويظهر نفسه في
جيل ثال . فمثلا يوجد بين الكائنات البشرية نوع وراثي من الصمم يؤدي
الى الحالة المجزنة المعروفة بحالة الصمم الأبكم . وقد يكون الجين المتحكم
في هذه الصفة جينا متنحيا ، وفي مثل هذه الحالة يبدو الشخص عاديا ،
على الرغم من أنه قد يكون هجينا بالفعل . ولو أن ذكرا أو أنثى من هذا
القبيل تزوج أو تزوجت من شخص عادى تماما فإن كل أطفالهما يبدون
عاديين . ان بعضهم سيكون هجينا حقا ، أما الآخرون فسيكون لديهم
الجين المتنحي للصمم الأبكم مثل أحد والديهما . ولكن إذا تزوج اثنان
لديهما هذا الجين المتنحي ، فستكون هناك فرصة فعلية لأن يصاب بعض
ذريتهم بالصمم المصحوب بالبكم .

لقد ناقشنا حتى الآن تلك الحالات النادرة نوعا من تزاوج أفراد
تختلف عن بعضها في صفة مورثة فقط . ومع ذلك ففي جميع الحالات
تقريبا نواجه بتزاوجات يختلف فيها الزوجان عن بعضهما البعض حيوانا
كانا أم نباتا في أكثر من ناحية واحدة . وقد أدى بحث مندل لمثل هذه
التهجينات المعقدة الى القانون التالى : إذا تزوج فردان لهما أكثر من زوج
من الصفات المتضادة ، فإن كل زوج من هذه الصفات يورث بعد الجيل
الأول مستقلا عن غيره من بقية الصفات . وقد أثبت التجارب التي أجريت
في القرن الحالى قانونى مندل اللذين قامت عليهما البحوث الحديثة الكثيرة

فى الوراثة • وقد جمع البحث الحديث بين الفحص المجهرى للخلايا وبين الأبحاث التى تجرى فى الوراثة ، ووجد علماء الأحياء اليوم أن المعلومات المستقاة من عمليات الإخصاب تؤيد من وجهة النظر الطبيعية المبادئ الأساسية لقوانين مندل •

٥ - بعض نتائج نظريات دارون ومندل

بعد إعادة اكتشاف قوانين مندل عند بدء القرن الحالى بذلت محاولات كثيرة لتطبيق هذه المبادئ على المسائل العلمية فى تربية النبات والحيوان وعلى ذلك فقد تتصف سلالة معينة من حيوان أو نبات بصفة حميدة واحدة تكون غير موجودة فى بعض السلالات الأخرى التى هى من نواح أخرى ذات نوع جيد • ولذلك يهجن المربي المعمل مهتدياً بمبادئ مندل سلالتين لإحداثهما الصفة الخاصة التى يريدتها ، وهو يعلم أن نتائج التزاوج الأول ستكون هجيناً • ولكن بانتخاب أفراد من الجيل الثانى وما يليه ، يمكنه إيجاد سلالة تتصف بالصفة الخاصة لسلالة أصلية بالإضافة إلى الصفات الحميدة للسلالة الأخرى الأولى • وقد طبقت مثل هذه الطرق بنجاح فى تربية أصناف خاصة من القمح والبطاطس وقصب السكر •

إن تربية النبات والحيوان جرت قروناً طبقاً لطرق مبنية على التجربة والحكمة • وكان يزرع القمح والحبوب الأخرى من الأصناف البرية • وكانت تربي الماشية والأغنام طبقاً لميزات كانت أكثر ما تكون ظهوراً فى أجدادها البرية مثل الحجم ونوع الصوف • ولكن مندل هو أول من أبان كيف أنه بتركيز عنايتنا على زوج ذى صفات متضادة ، يمكننا الحصول على نتائج ممكن التنبؤ بها طبقاً لقوانين عديدة محددة • وطبقاً لما قام به مندل نجد أنه قد أصبح من الثابت أن مثل تلك الصفات الموروثة ، الجينات توجد على الأجسام الخيطية المسماة بالصيفيات فى نواة الخلية • وعلاوة على ذلك لمقد أبان علماء الأحياء أن الصيفيات تتميز عن بعضها البعض فى العدد والشكل • وتوجد الصيفيات فى خلايا الجسم العادى فى أزواج ، ولكن الجاميطات (الأمشاج) - أى تلك الخلايا التى لها دور فى التكاثر الجنسي - تحتوى فقط على صفة ممثلة لكل زوج من الصيفيات • وعلى ذلك فإن كل جاميطة تحمل مجموعة كاملة من الجينات تتمثل فيها كل الظواهر الوراثية للذرية • وعندما يتم الإخصاب فإن اتحاد الأمشاج ينتج عنه هودة الأزواج الصبغى • وبهذه الطريقة فإن الصفات المميزة للذرية تنتج عن اندماج جينات الآباء وجينات الأمهات مع بعضها البعض بنصيب متكافئ • وقد فتحت مثل هذه الاعتبارات مجالاً بحث واسعاً ، وأدت إلى إدراك بعض من عمليات الوراثة الغامضة •

وعلى نقيض الانجازات العظيمة التي تمت على يدى مندل فان تلك الأعمال التي أثرت عن دارون لم تؤد الى تطبيقات مباشرة فى الحياة العملية ومع ذلك فان نظرية التطور أمدت البشر بقضية عامة يمكن مقارنة تأثيرها بالأثر الذى أحدثته نظرية الجاذبية التى كشف عنها نيوتن قبل ذلك بقرنين تقريبا . وكما توسع أتباع دارون فى تفاصيل نظريته ، فكذلك أضاف علماء الاحياء خلال الخمسين عاما التى تلت نشر كتاب أصل الأنواع الى مجموعة الأدلة التى جمعها دارون . وقد أبانت أبحاثهم الحديثة أن التغير الناشء عن التطور قد حدث بسبب تغير الجينات وفى شكل الصبغيات . وبهذه الطريقة توصل رجال العلم الى وصف طريقة التطور التى صارت دراستها أساسا لكثير من الأبحاث الاحيائية اليوم .

ولكن اثر نظرية دارون قد امتد بعيدا فيما وراء صفوف المشتغلين بالعلم ، وأصبح يؤثر فى نظرة الرجال والنساء فى الحياة اليومية . وقد امتدت مفهومات التطور الى مجالات أخرى ، ولذلك فمن المعتاد اليوم دراسة اللغات ، والتشريعات الاجتماعية ، والعقائد الانسانية طبقا لنشأتها وتطورها . وعلى الرغم من أنه من الواجب علينا أن نكون على حذر ضد تطبيقات نتائج خاصة بمجال علمى فى مجال آخر ، الا أن فكرة النمو التطورى ثبت أنها ذات فائدة كبرى فى كثير من المشاكل الانسانية . فمثلا أصبح من الأمور المعترف بها أن التطور فى الحياة البشرية سواء كان جسيما أم عقليا ينشأ عن مجموعتين من العوامل هما :

١ - « الطبيعة » التى تورث مباشرة .

٢ - التفدى الذى تهيئه كل الظروف الخارجية التى تندرج تحت اسم « البيئة » .

وقد وجهت كل المحاولات التى بذلت حتى الآن لتحسين التطور البشرى صوب العامل الثانى من هاتين المجموعتين . وقد أدرج التعليم وكذلك الأحوال التى تساعد على الصحة الجسدية ضمن التفدى .

والآن حينما نأخذ فى اعتبارنا الجنس لا الفرد فاننا بذلك نعلم أن الثقافة البشرية شئ متطور . وزيادة على ذلك فكما أن التطور بين النباتات والحيوانات عملية ما زالت مستمرة ، فكذلك الحال مع الثقافة البشرية . وأن للإنسان فى هذا دورا عليه أن يلعبه . انه ليس كائنات حيا معقدا فحسب ، ولكنه روح حية أيضا . ولذلك ففى استطاعته أن يكون له دور فى التطور البشرى بأن يسير قدما بثقافة جنسية ، وإضافته شيئا الى كنوزها جيلا بعد جيل .

وترينا نظرية التطور صورة للاشياء الحية التى وصلت خلال أحقاب
مدينة من الزمن الى حياة أكثر امتلاء وأكثر رخاء . وعلى ذلك فإنها
تبحث الأمل فى نفوس البشر . ومن ناحية أخرى فإن دراسة نظرية
التطور تكشف لنا عن أمثلة كثيرة للأنواع التى انقرضت ، ولأنواع أخرى
فى سبيل الانقراض . وتحمل مثل هذه الاعتبارات فى طياتها تحذيرا
للجنس البشرى ، اذ على الرغم من أن الانسان هو أعظم الكائنات الحية
مقدرة على التلاؤم ، إلا أنه يشترك مع جميع الكائنات غيره فى قدرته على
الانحلال ، وقدرته على التقدم سواء بسواء . والمسئولية فى ذلك تقع
عليه .

الفصل الثالث عشر

الخطوات التي أدت إلى العصر العاصي الحديث

١ - مطلع القرن التاسع عشر

ان الانجازات العظيمة التي تمت في كل من العلوم البحتة والتكنولوجيا خلال القرن التاسع عشر كانت هائلة جدا بدرجة انه قد بدا ان اى تقدم آخر سيكون في التوسع في النتائج المعروفة اكثر منه في كشوف جديدة . وقد ضمت المعلومات التي تدفقت من ميادين مختلفة بعضها الى بعض لتخرج لنا قانون الطاقة ، كما ابدت قوانين الديناميكا الحرارية الطريق لاستخدام الموارد العالمية . ووصفت نظرية التطور الاشياء الحية التي تتلام باستمرار مع الظروف الجديدة . ومما لا ريب فيه انه بالنسبة لأولئك الذين يرفلون في النعم المادية لعصر يسود الرخاء فيه انجذبت الافكار الى ذلك الانسان الذي لكونه آخر حلقة في سلسلة التطور قد بلغ اوج قواه .

ولكن الحوادث سرعان ما زحزحت الناس عن غبطتهم . ففي عام ١٨٩٥ اكتشف رونتجون الأشعة السينية . و أعلن في فرنسا بعد ذلك بأعوام طويلة عن اشعاعات جديدة كل الجدة من اليورانيوم ومركباته عبر عنها فيما بعد بالنشاط الاشعاعي وتوصل علماء الفيزياء في انجلترا في نفس الوقت الى النتيجة المدهشة التي تتلخص في أن الذرة التي كان يظن حتى ذلك الوقت انها جسيم من المادة يكون وحدة غير قابلة للانقسام تتكون من جسيمات اصغر منها بكثير . ان هذه الكشوف لم تثر اهتمام العلماء في العالم فحسب بل انها أيضا تطلبت إعادة تنسيق للافكار أدى الى عصر جديد من التجربة .

٢ - اكتشاف الالكترون

من بين الابحاث التي قام بها أمير القائمين بالتجارب ميخائيل فاراداي سلسلة من القياسات الكمية لمرور تيار من الكهرباء في مواد سائلة . انه

استعمل محاليل أملاح معدنية ، ووزن المواد الناتجة المترسبة على الأقطاب الكهربائية . ونتيجة لذلك صاغ القانونين الآتيين :

١ - تتناسب كتلة المادة المتخلفة عن التحليل تناسباً طردياً مع كمية الكهرباء المارة في السائل .

٢ - حينما يمر نفس التيار في محاليل مختلفة لمدد متساوية فإن كتل المواد المتخلفة عن التحليل تتناسب تناسباً طردياً مع مكافئاتها الكيماوية .

وهاتان الحقيقتان العامتان المعروفتان الآن بقوانين فاراداي للتحليل الكهربى تؤديان الى النتيجة التى تلخص فى ان هناك كمية ثابتة من الكهرباء مرتبطة بالذرة الكيماوية . وقد ادرك فاراداي نفسه هذا على الرغم من أنه تردد فى استعمال لفظ الذرة لهذه الوحدة الطبيعية من الكهرباء .

وقد أدت الأبحاث الخاصة بمرور الكهرباء الى غازات بدلاً من سوائى الى أدلة مقنعة على وجود وحدة كهربية مقاييرة . وكان معروفاً من زمن طويل انه بينما يكون الغاز فى الضغوط العادية عازلاً ، فإن الغاز فى الضغوط المنخفضة يسمح بمرور تفريغ كهربى خلاله . وبعد اختراع الملف التائىرى أصبح من الممكن استعمال قوى دفع كهربية اكبر بكثير للتفريغ ، ويمكن التقدم الذى تم عمله فى صناعة المفرغات الهوائية القائمين بالتجارب من الحصول على ضغوط مخفضة بدرجة كبيرة . ولوحظ فى هذه الظروف الأكثر تلامساً انه حينما يمر تفريغ خلال أنبوبة مفرغة من الهواء تقريباً تنبعث أشعة من القطب السالب ، أو المهبط .

وهذه الأشعة التى أصبحت تعرف باسم أشعة المهبط جعلت غاز الأنبوبة يتوهج بأشعة فلورنس كما سميت . وعلاوة على ذلك فحينما يعترض جسم صغير - مسار هذه الأشعة فإنه يلقى ظلاً على النهاية القصوى للأنبوبة يشبه الظل الذى قد يلقى بواسطة شمع أو أى مصدر آخر من مصادر الضوء . وقد أبانت مثل هذه النتائج أن أشعة المهبط مهما كان من كنهها تنبعث فى خطوط مستقيمة . وظن بعض الباحثين انها تكون نوعاً من الضوء ، بينما اعتبرها الآخرون كسيل من الجسيمات المنطلقة فى خطوط مستقيمة .

ولم يكن من الصعوبة وضع هذه الفروض موضع الاختبار بمجرد ابتكار طرق لقياس السرعة التى تنطلق بها أشعة المهبط . وكانت النتيجة ان وجدت سرعتها أقل بكثير من سرعة الضوء . ومما يثير الدهشة بدرجة كبيرة أنه قد لوحظ أن أشعة المهبط يمكن انحرافها عن مسارها بواسطة مجال مغنطيسى فاصل وأنه عند احتجازها فى أسطوانة معدنية فإن هذه

الاسطوانة تكون ذات شحنة سالبة . وقد أدت مثل هذه النتائج الى النتيجة التي تتلخص في أن الأشعة تتكون من سيل من الجسيمات المكهربة .

واستمدت أدلة أخرى من المقاييس العددية المضبوطة ، وعلى الأخص تلك التي ابتكرها السير جوزيف جون طومسون (١٨٥٦ - ١٩٤٠) ، وحينما أجرى تجارب مستعملا فراغات كبيرة في أنابيب التفريغ ، وموازي انحراف أشعة المهبط الناتجة عن مجال مغنطيس بذلك الانحراف الناتج من مجال كهروستاتيكي ، حصل على تقدير لنسبة شحنة دقيقة من دقائق أشعة المهبط الى كتلتها ، وكذلك الى تقرير آخر للسرعة .

وفي سلسلة من التجارب ثبت أنها ذات أهمية جوهرية أجرى ج. طومسون تجارب دقيقة منوعا الغازات في أنابيب التفريغ ، مستخدما أقطابا كهربية من معادن مختلفة ، ومستعملا قوى دفع كهربية مختلفة . ولكنه وجد أن سرعة أشعة المهبط واحدة في كل حالة وأن نسبة الشحنة للكتلة ثابتة وقد دلت أبحاث أخرى على أن الشحنة التي تحملها أشعة المهبط تساوى في مقدارها مع الشحنة التي تحملها اللدرة المشحونة ، أو الأيون ، إقنى التحليل الكهربى . وقد بدأ في الحقيقة أن شحنة جسيم المهبط هي ثابت طبيعي حقيقى بدرجة إن اعتبر وحدة أساسية اطلق عليه لفظ الاكترون .

وقد أعلنت النتائج التي وصل اليها ج. طومسون لرجال العلم في العالم عند اجتماع الرابطة البريطانية عام ١٨٩٩ . ومنذ ذلك الوقت كشف رجال الفيزياء عن الاكترونات في كل مكان . ولا تنبعث من المواد المشعة سيول من الاكترونات فحسب كما سنرى ، ولكن هذه الاكترونات تنطلق أيضا بتأثير الضوء وعلاوة على ذلك تنبعث سيول من الاكترونات من المعدن الساخن وقد أدت هذه الحقيقة الى اختراع الصمام الثرميوني المستعمل في أجهزة الاستقبال اللاسلكى .

وتحتوى البصلة الصغيرة التي يتكون منها الصمام المألوف فتيلة من سلك بتوهج تنبعث الاكترونات منه . أنها تمر في ثقب شبكة معدنية الى الطرف الآخر من البصلة وتتصل الشبكة بالسلك الهوائى الذى يتلقى الموجات الكهرومغنطيسية وبذلك تكتسب تيارا مترددا ضعيفا وحينما تكون الشبكة ذات شحنة موجبة فانها تجذب الاكترونات ذات الشحنة السالبة الصادرة من الفتيلة وتزيد من سرعة حركتها . وحينما تكون الشبكة ذات شحنة سالبة فانها تبعد الاكترونات القادمة من الفتيلة . ونتيجة لذلك فان التيار الصغير المتردد في الشبكة يتخذ اتجاهها واحدا ، وتردد قوته في نفس الوقت . وما الصمام الثرميوني الا احدى التطبيقات

العديدة للسيل الالكتروني في حياتنا اليومية ، تلك التطبيقات التي سنناقش بعضها منها في الفصل القادم .

٣ - الأشعة السينية

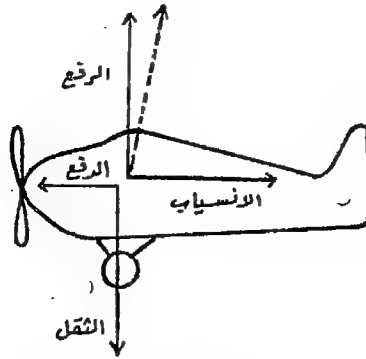
اثناء خريف عام ١٨٩٥ كان عالم فيزياء من ورتسميرج يدعى ويلهيلم كونراد رونتجن (١٨٤٥ - ١٩٢٣) يقوم بإجراء تجارب مستخدما فيها الأشعة المهبطية . كان لديه ملف تأثيرى عامل متصلا بأنبوبة تفريغ مغطاه بورق اسود . كان ذلك مساء في وقت متأخر ، وكانت الحجرة مضاهة بنور خافت حينما لاحظ رونتجن إفجأة ضوءا لامعا مائلا للاضرار آت من قطعة من الورق المقوى كان قد استعمالها في تجربة أخرى . كانت قطعة الورق المقوى قد طليت بمادة كيمياوية تتوهج عند سقوط الضوء عليها . ولكن لم يكن هناك فعلا نور في الحجرة . اذن من أين أتى هذا النور الفلوريسنت ؟ لقد تحسس رونتجن طريقه الى الملف التأثيرى وقطع الاتصال بينه وبين أنبوبة التفريغ ، فتوقف الوهج الأخضر فورا ، وعاد الى الظهور ثانية فحسب حينما أوصل الملف التأثيرى العامل بأنبوبة التفريغ . وأدت ابحاث أخرى دقيقة الى اقناع رونتجن أن الفلوريسنت ناتج عن شيء صادر من أنبوبة التفريغ ، لا من شيء آخر . ويدوانه في الحقيقة قد اكتشف بعض اشعاعات أطلق عليها أشعة اكس .

وقد وجد رونتجن ان هذه الأشعة لم تنفذ فحسب خلال الورق الاسود الملتف حول أنبوبة التفريغ ، بل وجد أيضا ان في استطاعتها اختراق حزمة من ورق اللعب ، وحتى اختراق يده ومع ذلك فحينما وضع يده بين أنبوبة التفريغ وشاشة الورق المقوى المتوهجة بنور الفلوريسنت شاهد انه على الرغم من مرور الأشعة خلال اللحم ، فانها ألقت ظلا للعظام . لقد وجد في هذا نتيجة مذهلة . وسرعان ما اثار هذا النبأ اهتمام العالم كله . وتحقق في الحال استخدامه في مقتضيات الجراحة ، وسرعان ما اخذ رجال الطب يطلبون المعون من العالم الفيزيائى بأشعته السينية للكشف عن العظام المكسورة . ولقد لاقى مثل هذه الطرق نجاحا لدرجة أن أصبح من النادر الآن أن تجد عضوا مشوها ناتجا عن كسر . وانه لمن العسير حقا تقدير ما نجم عن استعمال الأشعة السينية من تخفيف للويلات البشرية .

وتستعمل الأشعة السينية كما هو معروف تماما الآن في تشخيص امراض معينة ، السبل على الأخص ، وكأجراء وقائى تؤخذ وحدات يمكن نقلها من أشعة اكس الى المصانع والمسكرات والمدارس حيث تؤخذ صورة صغيرة جدا لكل شخص على فيلم . وعلى ذلك يمكن أخذ مئات من الصور

الفوتوغرافية على فيلم واحد ، ويمكن تكبير هذه الصور كما هو الحال مع فيلم السينما . ويمكن بهذه الطريقة الكشف عن أى أعراض مبكرة من أعراض السل .

وتستعمل الأشعة السينية أيضا فى الصناعة . فمثلا قد يوجد عيب فى مسبوك معدنى مثل شرخ بسيط أو ثقب صغير . ان هذا العيب لا يمكن مشاهدته ان كان فى داخل المعدن تماما . ولكن حينما تستعمل الأشعة السينية لفحص مثل هذا المعدن المسبوك ، فان العيب يظل كرقعة لامعة على شاشة الفلوريسنت ، وذلك لأن هناك جزءا مفقودا من المعدن . وتخترق الأشعة السينية انفجوة بسهولة . وكذلك فان الأشعة السينية تهرع الى معونة مؤرخى الفن . وتستعمل فى فحص الصبغة السميكة المتجمدة على الصور الزيتية القديمة (لوحة ٢٧) . وبهذه الطريقة يتمكن الخبير أحيانا من الكشف عن عمل فنان قديم عبثت به فيما بعد يد زيفته وأخفت معاله .



(شكل ٣٩٠)

القوى العاملة فى الطائرة

ان قوة دفع المحرك التى تسبب فيها آلة الطائرة عن طريق حركة الأجنحة الأمامية تحدث قوة دفع الى أعلى بعبء بسيط ، وتحدث محصلة قوتها الرأسية المسمود الى اعلى ، وبذلك تغلب على ثقل الطائرة ، بينما تحدث محصلة القوى الأفقية حركة خلفية تقاوم بالإضافة الى ما يسمى بحركة الانسياب الخلفية البطيئة قوة دفع المحرك . ان القوتين المتضادتين ليستا على خط مستقيم واحد . ولكن كل إثنين منهما تكونان عزمًا مزدوجًا ولذلك يجب تصميم الطائرة بحيث يقاوم العزمان بعضهما بعضا .

ولكن بصرف النظر عن الاستعمال اليومى لقوة اختراق الأشعة السينية ، فان اكتشافها زود رجل العلم بوسيلة جديدة كل الجدة للبحث

العلمي . واكتشف علماء الفيزياء أثناء الجهود التي بذلوها للكشف عن سر هذه الأشعة الغامضة أنه من الممكن انحرافها بواسطة صفوف الجزيئات المنتظمة الدقيقة لقطعة من البلور . وهي تشبه الضوء العادي في هذا . وقد ثبت بمثل تلك الوسائل أن أشعة أكس ليست في الحقيقة ضوءاً فحسب ، بل لقد تقرر طول الموجة أيضاً ، وفتح الطريق لفحص تركيب الجزيئات ذاته ، وكذلك لمشاهدة ما لم يستطع المجهر العادي أن يبينه .

ومكنت الأشعة السينية علماء الفيزياء أيضاً من أن يزيدوا من اكتشافاتهم عن الإلكترون . وعلى ذلك فعقب اكتشاف رونتجن بقليل أعلن ج . ج . طومسون أن للأشعة السينية قوة جعل الغاز موصلاً . أي أنها تؤين الغاز . وعلاوة على ذلك وجد أن الأيونات السالبة تعمل في الغاز الذي يتعرض لأشعة أكس كنوبات لتكوين قطرات الماء . وكانت إحدى التجارب التي أجراها ج . ج . طومسون تتلخص في تعريض هواء خال من الفبار مشبع ببخار ماء بدرجة زائدة إلى التأثير التآيني للأشعة السينية . وعند جعل هذا الهواء يتمدد فجأة ، قلت درجة حرارته وتكونت سحابة من قطرات الماء . وكان من الممكن تقدير حجم هذه القطرات من سرعة سقوطها . وقد حصل طبعاً على الحجم الكلي للماء المتكاثف بسهولة حينما سقط ماء السحابة بأكمله إلى قاع الاناء . وعلى ذلك فقد أمكن معرفة عدد الأيونات أو النوبات بالحساب البسيط . وأمكن تقدير الشحنة الكلية بقياس مستقل للتيار الذي تحمله الأيونات وبقسمة هذه النتيجة على عدد الأيونات ينتج مقدار الشحنة الفردية (١) .

وقد أبدت مثل هذه التقديرات بالإضافة إلى تقديرات نسبة شحنة جسيم أشعة المهبط إلى كتلته الرأي القائل بأن الشحنة التي يحملها الإلكترون ثابتة ، وأن الكتلة تبلغ من الصغر حداً بدرجة أننا يجب أن نعتبرها جزءاً صغيراً من الذرة . وكانت هذه نتيجة بليلة الأفكار ، إذ أن الذرات قد ظلت زمناً طويلاً تعتبر غير قابلة للانقسام . ولكن كانت هناك في جعبة الأيام أشياء كثيرة أخرى مثيرة للدهشة .

٤ - النشاط الإشعاعي

بعد قليل من ملاحظة رونتجن للأشعة السينية لأول مرة ، وجد الباحثون في فرنسا - وعلى الأخص مسيو ومسلم كوري - أن بعض المعادن ينبعث منها أشعاع غريب . وأدى هذا بواسطة تحليلات كيميائية

(١) وصلنا هذه التجربة بقليل من التفصيل حيث أنها مثل من أمثلة استعمال الفرة السحابية ، التي كثيراً ما تستعمل في البحث الفيزيائي الحديث .

شاقة الى عزل الراديوم ، والبلونيوم . وجرى أبحاث على هذه المواد المسماة بالمواد المشعة فى إنجلترا وفى القارة ووجد أنها تتكون من ثلاثة أنواع سميت تيسيرا بالفا ، وبيتا ، وجاما . وتتميز أشعة بيتا بأنها الكترونيات ذات سرعة كبيرة . أما أشعة جاما فقد اكتشف أنها ذات قوة اختراقية عالية وإنها تشبه الأشعة السينية ، أما أشعة الفا فوجد أنها عبارة عن ذرات ذات شحنة ايجابية من الهليوم . وكان معروفا أن عنصر الهليوم موجود فى الشمس ومنها اشتق اسمه ، وعزل مع غازات خامدة أخرى فى جو الأرض ولكنه وجد الآن أنه ينبعث باستمرار من كل من الراديوم ، والبلونيوم . أو بمعنى آخر ، فهناك عنصر ينتج باستمرار عنصر آخر .

ومثل هذه التحولات الطبيعية من عنصر الى آخر أثارت اهتمام العلماء فى العالم . وبعد أبحاث مضمينة وابتكار طرق جديدة للتجريب نجح علماء الطبيعة فى القيام بأحداث تحولات صناعية فى المعمل . وعلى ذلك فى عام ١٩١٩ لاحظ اللورد رذرفورد (١٨٧١ - ١٩٣٧) أنه حينما تقوم بإمرار جسيمات من جسيمات الفا من مواد مشعة فى نيتروجين ، فإنه ينتج عن ذلك تكون جسيمات مشحونة شحنة كهربية مخالفة . وقد وجد أن هذه تكون مشحونة بشحنة كهربية موجبة ، وأنها تكون جزءا من اللدرة . وقد عرف فيما بعد أنها الجزء الداخلى للذرة الايدروجين ، أو النواة .

وكان لدى رجال العلم قبل هذا الوقت أدلة وافرة تجعلهم يفكرون أن الذرة فى تكوينها تشبه مجموعة شمسية مصغرة بها الكترونات سالبة تدور حول نواة ذات شحنة موجبة تقع فى مركزها وتتكون منها الكتلة الرئيسية للذرة . وبما أن أنواع الايدروجين التى تحمل شحنة كهربية، أو البروتون كما اطلق عليها فيما بعد كان من الممكن الحصول عليها عندما تتحلل الذرات ، كان من المعقول الافتراض ان البروتونات هى التى وجدت أول الأمر ، وان الالكترونات والبروتينات هى فى الحقيقة الوحدات الأساسية التى بنيت منها الذرة .

وقد أيدت هذه النتيجة باكتشاف النظائر - أى ذرات بخصائص كيميائية واحدة ، ولكن ذات وزن ذرى مختلف . وكان مفروضا منذ أكثر من مائة عام قبل هذا أن كل الذرات مكونة من الايدروجين أخف المواد المعروفة . ولكن الذى دفع هذا الرأى هو أن كثيراً من العناصر لم تكن أوزانها الذرية أعدادا صحيحة وكانت هذه إحدى النتائج التى أيدت الاعتقاد الذى يتلخص فى أن كل العناصر مكونة من نفس المادة

الأولية . وقد ثبت أن عزل النظائر كان من أعظم اكتشافات العلم الحديث . وسنعود الى هذا الموضوع مرة ثانية عند مناقشة الطاقة الذرية .

ولقد تحدثنا حتى الآن عن الالكترونات بصفتها الجسيمات الأولية المادية ، واعتبرت هذه الجسيمات بعض سنين انها الوحدات النهائية للذرة . واسكن عشر عام ١٩٣٢ على جسيم آخر الا وهو نواة ايدروجينية عديمة الشحنة أطلق عليها لفظ نيوترون . ولكن النيوترون لا يحمل شحنة فلا يحدث تنافر بينه وبين النويات المشحونة للذرة . ولهذا فقد هيأت النيوترونات السريعة الوسيلة لنتائج التحويل الذرى الكثيرة فى السنين الحديثة . ووجد علماء الفيزياء العاملين فى انجلترا وفى أمريكا بعد التعرف على النيوترون بوقت قليل انه من الممكن وجود وحدة كهربية موجبة ، البوزيترون لفترة قصيرة ، والبوزيترون نوع من الالكترونات الموجبة من الصعب جدا الكشف عنه .

وتتماسك البروتونات المشحونة والنيوترونات عديمة الشحنة سويا فى نواة الذرة بقوى هائلة تزيد كثيرا جدا عن قوى الجذب الكهربائية والمغناطيسية العادية . ومن المفروض لتعليل وجود هذه القوى أن يوجد جسيم آخر أخف من البروتون أو النيوترون ، ولكن أثقل من الالكترون وهذا الجسيم البين يعرف باسم الميسون . وقد ثبت وجود أربعة أنواع من الميسون من الفحص التجريبي لتلك الأشعاعات القامضة الصادرة من الفضاء الخالجي المعروفة بالأشعة الكونية وتتكون الميسونات باستمرار ثم تتغير وذلك على خلاف البروتونات والنيوترونات ، والالكترونات . ومع ذلك تطبيقا لما لدينا من معلومات حالية ، فإن الجسيمات النهائية الثابتة هى البروتونات والبوزوترونات والالكترونات ، وهى الوحدات النهائية التى يتكون منها العالم المادى .

٥ - الضوء والأشعاع

لقد تركت نواحي التقدم العظيمة فى دراسة الضوء التى تمت اثناء القرن السابع عشر عديدا من المشاكل دون حل . ومع أن الناس قد عرفوا أن النور يسافر بسرعة ثابتة ، إلا أنهم لم يستطيعوا تفسير ظواهر كالانحراف والاستقطاب . وعلاوة على ذلك لم يتيسر فى ذلك الوقت وجود أدلة كافية لتقرير هل يعتبر الضوء سيللا من الجسيمات الصغيرة أو مجموعة من الموجات .

ومع ذلك فى السنين الأولى للقرن التاسع عشر إبان اكتشافات التى تمت فى علم البصريات بدرجة لاريب فيها أنه مهما كان الضوء فان

له خواص التموج (١) أى انه يتكون من تموجات تلى بعضها بعضا فى فترات منتظمة . وقد أمكن تفسير ظواهر الانحراف والاستقطاب ، وكثير من الصعاب التى ظلت دون حل منذ أيام نيوتن وهيوجينز على أساس النظرية الموجية التى صورت فيها الموجات كأنها ناتجة عن حركة علوية سفلية فى زوايا قائمة ، أى مستعرضة على الاتجاه الذى تسير فيه الموجة .

ومع ذلك بقيت صعوبة واحدة . لقد وجد ان موجات البحر والصوت المألوفة كانت تنتشر بواسطة تحركات شئ مادي ولكن موجات الضوء كان فى استطاعتها أن تمر خلال ارجاء لا أشياء مادية بها على الإطلاق . ونتيجة لذلك شعر رجال العلم بالحاجة الى افتراض وجود أثر نافذ خلال الكون بأسره وتستخدم تحركات هذا الأثر فى نشر موجات الضوء ، بالضبط كما تستخدم تحركات الماء فى احداث موجات البحر المألوفة .

وقد أصبح الأثر بانبات مبدأ الطاقة يعتبر الوسيلة التى تخزن بها الطاقة وتنقل . وكان من المعروف مثلا أن الاشعاع الصادر من الشمس يأخذ ثمانى دقائق ليصل الى الأرض وحينما يصل مثل هذا الاشعاع الى الأرض يثير تحركات الجزيئات التى نعرفها باسم الحرارة . ولذلك كان الاعتقاد أن الطاقة المكافئة لهذه الحرارة تنقل بواسطة الأثر ، وكثير قارب فى بركة ساكنة يتحرك بواسطة اضطراب يحدث فى النهاية القصى للبركة ، وتنقل أمواج الماء الطاقة اليه .

وقضى رجال العلم فى القرن التاسع عشر وقتا طويلا يبحثون عن الخواص الآلية التى قد تكون للأثر حتى يتمكن من نقل الموجات . وفى العقود الأخيرة للقرن التاسع عشر فكروا فى الأثر على أنه وسيلة لا لنقل التحركات الآلية فحسب ، بل لنقل التغيرات الكهرومغناطيسية التى تتبع بعضها بعضا فى فترات منتظمة .

ولكن على الرغم من أن الأفكار عن الأثر حدث فيها تغيرات كثيرة الا أن رجال العلم مازالوا يفكرون فى الطاقة كشيء مثبت باستمرار . ومع ذلك فمعد تحول القرن كشفت الأبحاث النظرية والتجريبية أن الطاقة شئ ينطلق فى دفعات وكان هذا الاستنتاج المدهش نتيجة أبحاث فى

(١) طول الموجة هى المسافة بين نقطتين متتابعتين يحدث لهما نفس النوع من التموج ، وهى بذلك تناظر المسافة بين رأسى موجتين فى البحر . والذبذبة هى عدد الأمواج التى تلى بعضها بعضا فى نقطة واحدة كل ثانية . وعلى ذلك فان طول الموجة الطويلة يناظر ذبذبة بطيئة ، ويناظر طول الموجة القصيرة ذبذبة عالية .

الاشعاع المنبعث من جسم متوهج . لقد وجد أن كل دفعة اشعاعية تناظر كمية ثابتة من الطاقة . وفى كل نوع من أنواع الاشعاع ينتج نفس العدد اذا ضربنا كمية الطاقة فى الوقت الذى بين الدفقات بعضها وبعض . ويبدو أن هذا هو أحد ثوابت الطبيعة .

وتنتهى مثل هذه الاعتبارات إلّا يسمى بنظرية الكم . ومن أهم الأمور التى تثير الاهتمام فى هذه النظرية هى أنها قد أحدثت توفيقاً بين النظريات المتنافسة للقرن السابع عشر ، وهى النظرية الموجية والنظرية الجسيمية للضوء . وقد أبانت دراسة اشعاعات خاصة أن طول كل موجة يصحبه قدر ثابت من الطاقة يتوقف على الذبذبة فحسب . وكلما عظمت الذبذبة كلما عظمت هذه الطاقة . وغالباً ما يشار الى دفعة الطاقة باسم فوتون ، أو كم الطاقة . وتنبعث الطاقة بكميات متساوية بهذه الدفقات المتتالية ، ولذلك فإن لتلك الطاقة بعض صفات الجسيمات الصغيرة المنفصلة . وعلى ذلك فإن النظرية الحديثة تعيدنا الى النظرية القديمة و

وكذلك فإن ظاهرة الانحراف التى تحدث كنتيجة طبيعية حينما نعتبر الضوء مكوناً من موجات مستعرضة اتضح حديثاً أنها لا تظهر فى حالة الضوء فقط ، ولكنها تظهر أيضاً فى حالة وجود مسيل من الالكترونات . ونتيجة لذلك لا بد أن نستنتج أن لسيل الالكترونات بعض صفات الموجات ، بالضبط كما يجب أن نفترض أن للضوء بعضاً من صفات الجسيمات المنفصلة . ولكن الذى يكون ما نسميه بذرّات المادة إنما هو مجموعة من الالكترونات والبروتونات . وعلى ذلك ففى هذا الامتزاج الاجمالى للفيزياء الحديثة نجد أن للمادة أيضاً بعض خواص الموجات . وتتطلب معالجة المشكلات التى تثيرها مثل هذه المفاهيم ميكانيكا خاصة يتم انجاز طرقها الآن .

ويبدو أن مناقشتنا قد أبعدتنا الآن كثيراً عن شئون حياتنا اليومية . ولكننا رأينا كم من النتائج التى توصل إليها العلم الحديث قد طبقت فى الحياة العملية . أننا سنؤكد مثلاً آخر فحسب . هيا بنا نرجع لحظة الى نظرية الكهرومغناطيسية . لقد كشف ماكسويل أن التغيرات فى القوة الكهربائية التى تحدث بدورها تغيرات فى القوة المغناطيسية تتبع بعضها بعضاً فى فترات منتظمة ، أى أن لها صفة التموج . وأدى به هذا الى أن يفترض أن الضوء نفسه كهرومغناطيسى فى صفته . وينتج عن هذا أن فى إمكاننا الحصول على تأثيرات كهربية أو مغناطيسية من الضوء .

ولقد لاحظ فاراداي نفسه أن الضوء المستقطب يتأثر بالمجال المغناطيسى ، ولكنه لم يستطع تحليل هذه النتيجة القريبة . وقد وضعت خلال السنين الحديثة إحدى الصلات الموجودة بين الكهرباء والضوء

المعروفة بالتأثير الضوئى الكهربى موضع التطبيق العلمى . فحينما يسقط ضوء ذو طول موجى قصير على سطح معدنى مصقول نظيف ، فإن اللوح تنبعث منه الكترونات . ويتوقف عدد الالكترونات على شدة الضوء ولذلك فإن الاهتزازات فى الضوء تحدث سبيلا الكترونيا بقوة متغيرة . ولو أن سلكا هيمى لتوصيل الكترونات هذه لأمكن الكشف عن وجود هذه الالكترونات كتيار ذى شدة متغيرة . ومن الممكن جعل مثل هذه التيارات تحدث صوتا كما فى التليفون العادى . وتنشأ فى الفيلم الناطق العادى اهتزازات هوائية تتسبب عنها تحركات طفيفة فى لوح رقيق . ويوضع مصدر الضوء فى وضع مناسب تنشأ عن تحركات هذا اللوح تذبذبات ضوئية . وتكتسب هذه صفة الثبات بواسطة الطبع الفوتوغرافى على فيلم فى نفس الوقت الذى تسجل فيه حركات الممثلين فوتوغرافيا . وعندئذ يمكن استعادة الصوت بواسطة اضاءة الفيلم ، وذلك لانه بواسطة التأثير الضوئى الكهربى تحدث الاهتزازات فى الضوء تيارات تذبذبية . وتحول هذه كما يحدث فى الواقع الى صوت بواسطة جهاز الميكروفون المألوف .

٦ - وجهة نظر جديدة فى العلم

ان العلم لا يتقدم فحسب بكشف حقائق جديدة . بل ايضا بالحافز الذى توجده طرق جديدة . ولقد رأينا كيف ان نظام كوبر نيكس ونظرية نيوتن فى الجاذبية ، والنظرية الذرية لداالتون . ونظرية الانتخاب الطبيعى لدارون كلها أمدت الناس بوجهة نظر جديدة وبذلك أوحى اليهم بتقدم جديد . وعلاوة على ذلك فإن كل فكرة عامة عظيمة جديدة تضمنت اغفال النظريات التى قد استنفدت أغراضها ، فلقد رأينا مثلا كيف ان نبد النظرية السعيرية للحرارة ترك الباب مفتوحا للمفهوم الذى يتلخص فى ان الحرارة نوع من انواع الطاقة .

ولقد تكشف فى العقود الأخيرة للقرن التاسع عشر بعض الحقائق التى لم يكن فى الاستطاعة التوفيق بينها وبين النظريات الموجودة . ونتيجة لذلك كان على رجال العلم مراجعة أفكارهم ، ومراجعة تلك المفاهيم الأساسية التى تتضمن القياس العلمى كله . ولقد أدت النتائج الى نظرية النسبية .

هيا بنا نتدبر قياسا بسيطا كقياس السرعة ، فقياس المسافة التى يقطعها قطار فى مدة معينة يمكننا تقدير متوسط سرعته فى ذلك الوقت . افلنفرض أن النتيجة التى حصلنا عليها هى خمسون ميلا فى الساعة . ولكن هذه السرعة هى فقط السرعة بالنسبة لسرعة الأرض ، التى تقوم

برحلتها السنوية حول الشمس بسرعة ١٩ ميلا فى الثانية تقريبا . وقد بين نيوتن نفسه أن قياسات السرعة التى تقوم بها ليست مطلقة ، ولكنها نسبية فقط . وضرب لذلك مثلا بسفينة فى بحر ، وبين أنه على الرغم من أننا لا نعرف الحركة المطلقة للأجسام التى على ظهر السفينة فى استطاعتنا دراسة حركاتها النسبية على سفينة متحركة ، كما نقيسها على البر سواء بسواء . وعلى الرغم مما ينجم من هذا من أن كل القياسات التى نقوم بها فى مناطقنا الأرضية تكون نسبية ، فإن نيوتن تصور أنه قد يكون هناك فيما وراء النجوم منطقة سكون مطلق .

وقد نوقشت مسألة السكون المطلق فى القرن التاسع عشر ، حينما أخذ رجال العلم يعتقدون فى وجود أثير يستخدم لنقل الضوء . ولو فكر فى الأثير كأنه فى حالة سكون مطلق لكان من المحقق استخدامه ككميار ثابت ، وقياس السرعة التى تتحرك الأرض بها خلال الأثير . وفى العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر جعل العلم الخاص بالبصريات بالإضافة الى نواحى التقدم التى تمت فى المهارة الفنية فى صنع الأجهزة المناسبة فى حيز الأماكن وضع هذه الفروض فى محك التجريب .

وكانت أشهر هذه التجارب تلخص فى محاولة للكشف عما اذا كان هناك أى اختلاف فى سرعة الضوء حينما يسير (أولا) فى نفس الاتجاه الذى تسير فيه الأرض (ثانيا) حينما يسير فى اتجاه عمودى على ذلك الاتجاه . وتبدو حركة الأرض طبعا بالنسبة لأثير ثابت كاندفاع الأثير . وعلى ذلك فمن الممكن مقارنة التجربة بتوقيت حركة قارب حينما يتحرك مع التيار ، وحينما يتحرك عكسه ، وكذلك حينما يتحرك عبره . ومن المعروف جيدا أن الوقت الذى يأخذه قارب بالمجاديف فى تحركه مسافات متساوية مع التيار ثم ضد التيار أطول بكثير من الوقت الذى يأخذه عند تحركه المسافتين مجتمعتين عبر التيار .

وبدلا من تحريك قارب سمح لشعاع من الضوء أن يسير فى اتجاه تيار الأثير وضده ، وكذلك فى اتجاه عمودى عليه . ولكن النتائج أبانت عدم وجود اختلاف فى أى من الزمنين المستغرقين . وعلى ذلك فلم يتبين وجود تيار أثيرى ، أو بمعنى آخر ليست هناك سرعة للأرض بنسبة الأثير . وقد أعيدت مثل هذه التجارب مرات كثيرة ، وكانت الأجهزة التى استعملت فيها دقيقة بدرجة توحى لنا بالثقة فى نتائجها .

وقد 'قُسمت نظرية النسبية التى كان انشتين المولود عام ١٨٧٩ أول من وضعها سنة ١٩٠٥ هذه النتيجة السلبية . وينتج طبقا لهذه النظرية أن الحركة المطلقة لا يمكن قياسها بأية تجربة مهما كانت . وعلاوة على ذلك فإن سرعة الضوء تبدو واحدة لجميع المشاهدين مهما كان من حركتهم

النسبية لبعضهم البعض . وهذه النظرية تدعونا الى اعادة النظر فى جميع افكارنا عن الفضاء والزمن والجاذبية .

لقد اعتدنا ان نتحدث عن الطول والعرض والارتفاع بأنه افقى وعمودى . ولطالما نحن باقون على ظهر الأرض فان لهذه التعبيرات معنى . ومع ذلك فلو أننا ارتقمنا فى طائرة ، فلن يكون لدينا وسيلة لتقرير ما هو افقى وما هو عمودى . ان المطار لن يكون ذا جدوى ، اذ ان أى تغيير فى سرعة أو اتجاه الطائرة يحدث على مطارنا نفس التأثيرات التى تحدثها قوة الجاذبية . ويمكننا تمييز الطول والعرض والارتفاع فى وضعنا المقيد داخل الطائرة . ولكن حينما نطل الى الخارج ونرى السحب مندفعة صوبنا ، أو حينما نحملق الى أقطار السماء الثابتة ، فان الطول والعرض والارتفاع كذلك تفقد معناها بالنسبة لنا .

ونحن معتادون أيضا أن نفكر فى الوقت كشيء مطلق لا ينتظر أحدا ، ولكن الوقت فى الحقيقة شيء محلى يتوقف على المشاهد . وعلى ذلك فقياساتنا للوقت تتوقف على مساهات وضعت طبقا لمشاهدات فلكية . ولكن الناس الذين يقطنون كوكبا آخر لهم معدل دورة مختلفة حول الشمس ، ولذلك تختلف سنتهم عن سنتنا . وعلاوة على ذلك فان مشاهدة أية حادثة تتوقف على سرعة الضوء . ان ما يحدث على الأرض الآن قد يراه مشاهد فى جزء بعيد من الكون بعد سنوات عديدة بعد الآن . وفى الحقيقة يمكننا تصور مشاهد فى منطقة أكثر بعدا بكثير من ذلك بشاهد الآن جيوش قيصر تتحرك نحو بلاد الغال .

وإذا كان الطول والعرض والارتفاع أمورا ليست مطلقة ، واذ لم يكن هناك تزامنية كونية للحوادث ، فهل فى استطاعتنا أن نجد شيئا مطلقا ؟ ان نظرية النسبية تقول ان ذلك فى طوقتنا طالما كنا مستعدين أن نغير افكارنا عن الفضاء والزمن . ان النظرية تدعونا الى اعتبار جميع ظواهر الطبيعة كأنها تحدث لا فى فضاء ووقت منفصلين ، بل فى فضاء ووقت ممتزجين بطريقة ليست لدينا بها خبرة مباشرة .

هيا بنا نرى ما معنى هذا . لنفكر فى متزحلق على الجليد . ولوصف موقعة فى أية لحظة يمكن الإشارة الى محورين متعامدين ، ونقول انه على بعد كذا من أحدهما وعلى بعد كذا من الآخر . وفى استطاعتنا رسم عدد من النقاط على ورق مربعات ، وبهذا نسجل مواقع المتتابعة . وإذا كان لدينا محور ثالث عمودى على المحورين الآخرين ، يمكننا أن نرسم رسما بيانيا ذا ثلاثة ابعاد ، يمثل الثالث منها الزمن . وهكذا نحصل على سجل أكثر كمالا لما يقوم به المتزحلق ؛ اذ أننا لا نستطيع فقط أن نتبين أين هو

فى أى وقت معين ، ولكن نستطيع أيضا أن نتيين المسافة التى يقطعها أثناء أية فترة زمنية ، وبذلك يحسب معدل سرعته أثناء وقت معين .

ولو أننا عوضا عن متزحلق على الجليد أردنا أن نبين ما يقوم به بهلوان يتأرجح على جبال وسلاالم ، فإننا نحتاج الى رسم بياني ذى ثلاثة أبعاد لتبيين مواقعـه فحسب ، ونحتاج الى بعد رابع أو محور اشارة ليمثل ما يقوم به فى حينه . وليس فى استطاعتنا تكوين مثل هذا الرسم البياني الرباعى الأبعاد . .

ولكن مثل هذا الشكل البياني هو الذى يهينى لنا بالضبط نوع الشكل الهندسى الذى نحتاج اليه لتبيان ما تقوم به الطبيعة من أعمال . وتبين نظرية النسبية أن مثل هذا التمثيل ذى الأبعاد الأربعة لآى من ظواهر الطبيعة هو واحد بالنسبة لجميع المشاهدين مهما كان من بعدهم عن بعضهم البعض ، ومهما كان من سرعاتهم النسبية . والحقيقة أن النظرية نرينا أن ليس كل شىء فى الطبيعة نسبيا ، بل ان هناك أشياء معينة مطلقة فى الطبيعة تتطلب منا بحثا دقيقا متواصلا للكشف منها .

وتضطرونا نظرية النسبية الى الأخذ بوجهة نظر مخالف للجاذبية . فبدلا من تحدثنا عن شدة الجذب كما فعلنا فى الفصل الخامس ، فإننا الآن نسقط كلمة قوة من حسابنا ونفسر ظاهرة الجاذبية على أساس الامتزاج ذى الأبعاد الأربعة للزمان والمكان .

ويؤدى قانون الجاذبية بمقتضى نظرية النسبية الى نتائج متحدة تقريبا مع النتائج المستمدة من قانون نيوتن . وتعتبر هذه الحقيقة بالطبع سندا قويا لنظرية النسبية ، اذ أن خلف قانون الجاذبية لنيوتن أكثر من مائتى عام من التحقيق . ومع ذلك فحتى فى وقت اكتشاف نيوتن عن طريق حسابات قامت على أثاث نظرية نيوتن ، تبيلبت أفكار الفلكيين بواسطة عدم الانتظامات البسيطة فى مسار الكوكب عطارد . ان مداره كان معروفا بأنه قريبا جدا من بضاوى ، ولكنهم وجدوا أن النقطة التى يكون فيها عطارد أقرب ما يكون الى الشمس تتغير تغيرا بسيطا على مر السنين . وقد وجدوا أن الجزء الأكبر من هذا التفسير ناتج عن جاذبية كواكب أخرى ويمكن تعليقه طبقا لقانون نيوتن . ولكن هذا التعليل ترك مع ذلك تفاوتا طفيفا لم يكن فى الامكان تفسيره .

وظلت هذه المشكلة العويصة دون حل حتى عرف من نظرية النسبية ان عطارد يمكن أن تتحرك بالضبط من مدار مطابق لما اكتشفته الأرصاد الفلكية . وكان هذا أول تحقيق مباشر للنظرية الجديدة . وتوالت الإثباتات الأخرى بعد ذلك . وعلى ذلك فإنه يترتب على نظرية النسبية

ان الضوء القادم الى الأرض من نجم ما يجب أن ينحني عن مساره عند مروره قريبا من الشمس . ويظهر هذا الانحناء نفسه بصورة واضحة في تغير طيف في مواقع نجوم معينة بين بعضها البعض . وقد اكتشفت هذه التغيرات لأول مرة عند حدوث كسوف كلى للشمس في مايو ١٩١٩ . ومثل هذا الاختبار عن طريق نظرية النسبية كان انتصارا ايضا للقياس الدقيق . وقد أصبح هذا في حيز الامكان فقط بفضل خطى التقدم الهائلة التي تمت في الفلك منذ بدء القرن التاسع عشر ، تقدم نجم عن رسم خرائط للسماوات بواسطة تلسكوبات أدخلت تحسينات عليها ، وباستعمال التصوير الفوتوغرافي في الأرصاد الفلكية . وعلاوة على ذلك فقد نتج عن الأرصاد التي تمت لطيف الشمس تحقيق آخر لنظرية النسبية .

وعلى ذلك فان الاختلافات الطفيفة بين النتائج المقررة طبقا لنظرية نيوتن ، والنتائج المقدرة طبقا لنظرية أنشتين قد اختبرت تجريبيا ، ووجد أنها تثبت نظرية أنشتين . ومع ذلك فان نظرية نيوتن تمسنا بنتائج دقيقة كافية لجميع أغراض الحياة العادية مثل التنبؤ بحدوث المد والجزر ، والحسابات التفصيلية لحركات الشمس والقمر والكواكب . وتقع الأهمية العظمى لنظرية النسبية في أنها قد أدت الى مراجعة لافكارنا الأساسية ، وامتدنا بوجهة نظر جديدة .

ولقد رأينا كيف تغيرت الأفكار في اتجاهات أخرى منذ القرن الماضي ، وكيف نعتبر الذرة جسما مكونا من الكترونات ، ونيوترونات ، وبروتونات . وقد يقول بعض الناس : كان الناس أيام دالتون يعتقدون في ذرات صلبة صغيرة لا يمكن انقسامها . والآن يخبرنا العلم أن الذرة نظام كهربي ، وأنه من الممكن أن تتغير الى شيء آخر . واعتدنا كذلك أن نفكر في قانون نيوتن الجاذبية كشيء في استطاعتنا أن نضع فيه ثقتنا . والآن يبدو أن النتائج التي وصل اليها العلم ترينا أنه لا يعلل بعض الظواهر التي تكشف التلسكوبات عنها ، ولكن ربما نحاط علما في المستقبل القريب بشيء آخر . اذن فكيف نهتدى الى ما نؤمن به ؟ أن الاجابة عن هذا تلخص في أن العلم لا يدعي حكما فاصلا في أى من استنتاجاته . ان العلم يتقدم بنيد نظرية تبين عدم صلاحيتها كما يتقدم بكشف حقائق جديدة . والحكم على نظرية ما يكون حسب نفعها . ولأمرء في هذه الحقيقة النهائية .

ويجب ان نذكر علاوة على ذلك أن الأفكار التي نستعملها تتوقف على المشكلة المطروحة على بساط البحث . ولا تقلل الاكتشافات الجديدة عن الذرة بحال من قيمة نظرية دالتون الذرية كأعظم أداة نافعة لدى

١ الكيماوى ، فالذرة ما زالت وحدة غير قابلة للانقسام من ناحية التغيرات الكيماوية العادية . ولا يتوقف الكيماى الصناعى الذى يحاول تكوين مركبات جديدة ليتدبر التركيب الكهربى للذرة ، ولا يبلبل المهندس الذى يقوم بتصميم الاتفاق والكبارى أفكاره بهندسة غير اقليدية . وعلى ذلك فانه على الرغم من أن العلم الحسى يأخذ بأفكارنا الى نواة الذرة ، وكذلك الى مناطق الفضاء الواقعة بين النجوم ، الا أننا مازلنا بالنسبة لشاكلنا العادية نحتفظ بأقدامنا على الأرض .

الفصل الرابع عشر

قوة جديدة ومواد جديدة

١ - مظاهر العلم الحديث

لقد رأينا ونحن نسرد قصتنا كيف انتزع رجال العلم من الطبيعة بعض أسرارها ، وكيف أن عاملا قد مهد الطريق لآخر ، وكيف أن إشارة تركها أحد الناس آتت ثمارها فيما بعد في تفكير شخص آخر . لقد نما العلم في الحقيقة عن طريق جهود كثير من العاملين ولكن تعاون الجهود اليوم أمر حتمى على مدى لم يكن معروفا في الأزمان السالفة . لقد كان فى استطاعة شخص كبريستلى أو شخص كدالتون أو فاراداي أن يعمل بمفرده مستعملا آلات من صنع يده . ولكن على الرغم من أن مسع الاكتشاف العلمى كان كما هو الآن النبوغ الفردى ، إلا أن الباحث اليوم مهما كان من عظمة حماسه المتقد قد يصبح لا حول له ولا قوة بدون مهارة الصانع الكيميائى وصانع المعادن والمهندس . لقد مضت من ازمان بعيدة أيام الافتتاح ، والطائرة الورقية ، وقطعة الخيط (١) . ان رجل العلم اليوم قد يحتاج الى امدادات من انحاء بعيدة من الأرض زيادة على الأجهزة القامة فى بناء متسع والتي ترعاها هيئة من الفنيين .

وقد تكون التقديرات التى تقوم عليها الأبحاث الحديثة فوق متناول القوى الرياضية لجهود فرد واحد ، ونتيجة لذلك قد يحتاج الى معونة جهاز معتقد يطلق عليه غالبا اسم المخ الكهربى . وهو يتركب من شبكة من الدوائر يمكن بواسطتها توزيع النبضات الكهربائية واختزانها . ولا يجب فحسب أن يقوم جهاز أوتوماتيكى ، حتى ولو ابتكره الانسان ، بالعمل

(١) المواد البسيطة التى جلب بها بنجامين فرانكلين (١٧٠٦ - ١٧٩٠) الكهرباء من السحب وبهذا كشف عن طبيعة البرق . وقد ذكر لورد برغام (١٧٧٨ - ١٨٦٨) حتما كان بحث على مراعاة الاقتصاد الشديد فى الاتفاق على معاهد الميكانيكا فى أوائل القرن التاسع عشر جهاز فرانكلين القليل التكاليف .

الآلى ، اذ غالبا ما تحتاج الأبحاث الحالية فريقا من العاملين ، كل فى اختصاصه .

٢ - الظواهر السطحية

انه يبدو غريبا لأول وهلة أن تكون دراسات عالم الفيزياء لفقاعات الصابون وللأغلفة السائلة ذات عون للخزاف فى حرفته التى استمرت ابد الأبدین . ولكن حلقة الاتصال هى دراسة الشد أو التوتر السطحي كما يسمى ، وهو الذى يجعل فقاعة الصابون تتماسك . وبنفس الطريقة يغلف اناء الفخار الذى ألقى حديثا فى دولاى الخزاف بطبقة رقيقة جدا تجعله يحتفظ بشكله . وتتكون هذه الطبقة الرقيقة من جسيمات منتهية فى الصفر ، او مخلوط فروى كما يسمى . والاحتفاظ بشكل مثل هذا الاناء الخزفى وجفائه مسائل تتعلق بالتوتر السطحي . وعلاوة على ذلك فقد تبين أن الخاصية المميزة للخزف التى يمكن تشكيله بها تتوقف على حجم الجسيمات الغروية . ولقد تعرض العلم لهذا بإبتكار طرق لمعرفة عدد الجسيمات فى المخلوط الغروى فى الخزف . وقد تسبب عن هذا درجة من الرقابة على المنتجات التى تم صنعها أكبر مما تسمح به الطرق التقليدية لهذه الحرفة .

ولدراسة الفقائيع والرقائق علاقات هامة بطريقة مستعملة فى عزل خامات المعادن . وتعتمد تلك الطريقة على الاختلافات فى التوتر السطحي لمواد مختلفة فى الخام المسحوق حينما يكون ملامسا لسائل . ويمكننا مقارنة هذه العملية بعملية المطهرات الحديثة التى تحرص ربة البيت حرصا شديدا على شرائها . ان الماء ينزلق على أية مادة شحمية كما ينزلق على سطح بطة ، ولكن المطهر يزيد من قوة بلل الماء . وبمعنى آخر ينقص من التوتر السطحي . وينجم عن ذلك أن تتبلل الملابس التى تفصل بسرعة ، وتطفو القذارة بعيدا عنها . وكذلك فحينما يضاف عامل مناسب محدثا رغوة الى خام مختلط بماء ويحرك المخلوط كله تحريكا تاما ، فان بعض الجسيمات تتجمع حول الفقاعات وترتفع الى السطح ، بينما تتبلل الأخرى وتنفص الى أسفل . ان العلم يمدنا بالعوامل الرقوية ، وقد ثبت أن هذه الطريقة طريقة اقتصادية بدرجة كبيرة بالنسبة لعدد كبير من الخامات .

ولفحص الأغلفة الرقيقة الأخرى - أى تلك الأغلفة التى على سطوح المعادن - علاقة بمشاكل اقتصادية خطيرة ، مشاكل الصدأ والتآكل (١) .

(١) قدر المرحوم السير روبرت هادفيلد الحسارة السنوية الناتجة مما يحدثه الصدأ فقط فى العالم من اتلاف بحوالى ستمائة مليون جنيه .

ونأخذ مثل هذه العمليات مجراها دون أن تظهر للعيان بدرجة أنه قد يتسبب عمود محرك متآكل فى بطء حركة سفينة ، أو حتى تتسبب دعامة صلبة صدئة فى انهيار جدار . لقد أدركت خطورة المشكلة منذ زمن طويل . وقد أوحى مشاهدة التآكل غالبا بجوار الشقوق ، والوصلات البرشمة ، والوصلات الملحومة ، وعند نقط اتصال المعادن المختلفة بأن السبب ربما يكون كيمائيا كهربيا فى نشأته .

وقد أيد البحث العلمى هذا ، وأبان أن ميل معدن للتآكل يمكن التعبير عنه باعداد ذات علاقة بالحالة الكهربية بين المعدن والهواء أو المحلول المتصل به . وعلاوة على ذلك فقد ثبت أن سطوح المعادن التى تتعرض للهواء الجاف تكتسب بغلاف رقيق سمكه سمك طبقة أو طبقتين من جزئيات المادة . وهذا الغلاف الرقيق جدا يصبح وقاية ضد التآكل ، وبذلك يكتسب المعدن ما يسمى بالحالة السلبية . وبصرف النظر عن الفائدة الجوهرية لمثل هذه الدراسات ، فإنها قد أدت الى عدد من الطرق يمكن منع التآكل بواسطتها . وتتلخص احدى هذه الطرق التى قد نطلق عليها الهجوم الكيمائى الكهربى المباشر فى ايجاد رسوب تحليلى كهربى مضاد تماما فى أثره للرسوب الذى قد ينتج عن التآكل . وهذا فى المبدأ شبيه بتكوين خلية فولتية يوقف الرسوب فيها تيار خارجى ، وكذلك ما ينتج عن ذلك من تآكل أحد الأقطاب .

وتتلخص طرق أخرى فى اعداد معادن تقاوم التآكل مثل الزنك الصلب للسفن تحتوى على ١٦٪ من النحاس ، ٧٥٪ من النيكل تقاوم اثر ماء البحر أكثر من الألواح الأخرى . ويمكن اعداد الأغلفة المعدنية الواقية لبعض الأغراض بواسطة الزنك أو الألمنيوم على هيئة منسحق ملامس للسطح المصنوع من الحديد أو الصلب . وبهذه الطريقة يدخل المعدن الواقى الى الشقوق . وقد ثبت أن هناك أنواعا معينة من التآكل الذى يتم تحت سطح الأرض لأنابيب المياه والأنابيب الأخرى ناتجة عن بكتيريا تواصل أوجه نشاطها المهلك فى أنواع التربة الطفيلية التى تزرع بها بريطانيا العظمى . وعلى الرغم من أنه قد أمكن معرفة هذه البكتيريا بواسطة المجهر الالكترونى (١) ، إلا أنه لم تكتشف للآن طرق فعالة لمحاربته .

أن فحص أنواع التربة تحت المجهر وقياس الأغلفة الرقيقة التى توجد على سطح المعادن قد يتلهم بذكرها المتفرج العابر . ولكن النتائج

(١) جهاز مقنن تنجيم بواسطته حزمة الكترونية فى بؤرة بواسطة منطيسات كهربية، يعطى تكبيرا أكبر بكثير من تكبير أعظم الميكروسكوبات البصرية قوة .

التي توصل الانسان اليها ذات اثر بعيد المدى في حل المشاكل الاقتصادية ، وكذلك في ايجاد طرق جديدة للبحث . والحقيقة ان كثيرا من الأعمال الحديثة تتميز بدراسات دقيقة وبالفحص الدقيق للانحرافات عن القواعد المسلم بها عامة . ويتضح هذا على الأخص في الدراسات الحديثة المتعلقة بعلم الفضاء ، تلك الدراسات التي سنتحدث عن بعضها في الصفحات التالية .

٣ - التوطين النفاث

ان التقدم الذي أحرزه الطيران منذ أول رحلات طيران قام بها الاخوان رايت منذ خمسين عاما أدى الى النجاح المتعدد النواحي الذي أحرزته الطائرات الضخمة النفاثة ذات المحركات الأربعة ، الكوميت دي هافيلاند ، انما هو سجل لجهود مضمّنة لتصميم آلة ذات شكل ومادة مناسبة مع المراجعة اللائقة لميكانيكا السيارات . انه سجل تميز بكثير من التجارب ، وكثير من مرات عدم التوفيق ، دعمه استقصاء علمي دقيق ، وعصديته روح مخاطرة لا تقهر .

ولقد ظل اكتساب القدرة على الطيران أمنية الانسان ردحا طويلا من الزمن . وعلى الرغم من ذلك فان صاحب المزامير (١) لم يكن في وسعه الا أن يتنهد أسفا لعله يعار أجنحة يمامة يطير بها . وهلك إيكاروس (٢) نتيجة مطامحه . وقد نجحت أول رحلات طيران ناجحة من الالام بمقاومة الهواء من جهة ، ومن جهة نتيجة الالام بقوة الرفع الى أعلى وما نجم عن ذلك من بناء طائرة ذات شكل وقفل وقوة مناسبة .

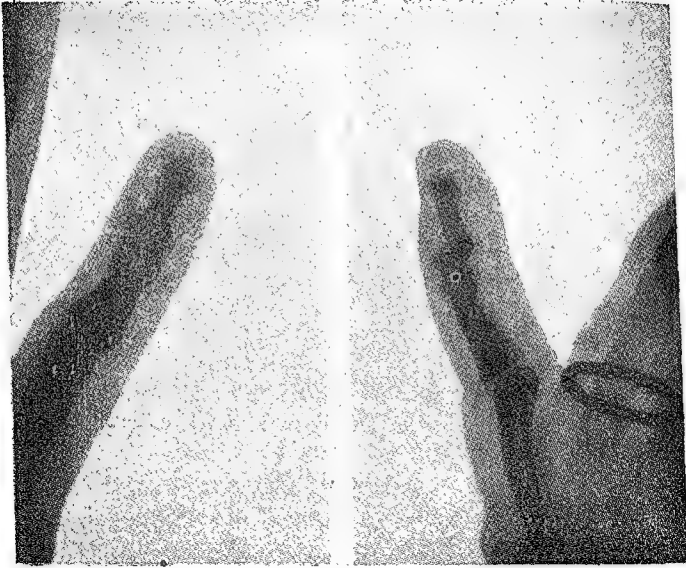
ان قوة الجو الرافعة لسطح مستو يتحرك أفقيا قد استعملت بالطبع بواسطة أجيال من الصبية حينما كانوا يدفعون بطائراتهم الورقية لتسبح في الهواء . وقد تأيد مبدأ الرفع هذا بواسطة بيرنولي (١٧٠٠ - ١٧٨٢) الذي خلد اسمه بواسطة مبدئه المشهور - الذي يتلخص في انه حينما تزداد سرعة تيار سيال في أية نقطة ، فان الضغط عند تلك النقطة يكون أقل من الضغط في اتجاه انسياب التيار . وقد عرف بيرنولي أن الهواء يقاوم الأشياء التي تتحرك خلاله ، ولكنه كان يعتقد

(١) داود عليه السلام (المترجم)

(٢) إيكاروس حسب الاساطير الاغريقية هو ابن دادلوس الذي كان صائنا تميز بالدهاء طار هو ونجله إيكاروس بواسطة أجنحة ثبتت في اكتافهما بشمع من كريت الى ايطاليا . لقد وصل دادلوس سالما ، ولكن إيكاروس طار حتى صار على مقربة من الشمس التي اذابت الشمع فسقط الى البحر . (المترجم)



استخدام الأشعة السينية في فحص صورة - رأس انسان للفنان انتونيللو! مسينا (حوالى ١٤٦٠ - ١٤٧٩) في القموء العادى وتحت الأشعة السينية •
ويلاحظ ان كلتا العينين في الصورة قد غيرتا • وتدل البقعة البيضاء في الجبهة على تصليح • وتظهر تجزئة اللوح الخشبى اذا كان الاشعاع رقيقا جدا
(معاد تصويرها بعد اذن كريم من المشرفين على صالة العرض القومية ، لندن)



صور أشعة سينية لأصبع انسان أمامية خلفية وجانبية
تبين الصورة اليمنى وهي الصورة أنجانبية كسراً قديماً في المفصل الأعلى

أن جسميات الهواء حرة أن تتحرك بين بعضها البعض بدرجة أن إحدى الطبقات لا تستطيع اعاقبة طبقة مجاورة عن الحركة . وبمعنى آخر اعتقد أن الهواء لا لزوجة له .

وعلى الرغم من أنه عرف اليوم أن هذا الفرض فرض غير صحيح ، إلا أنه لم يكن مصدر خطأ خطير حتى حلت أيام الطيران عبر الفضاء . ولكن حينما بدأ المهندسون يخفضون الهواء بمحركات طائراتهم ، تحتمت دراسة لزوجة الهواء . لقد تحقق عندئذ أن لزوجة انسيات الهواء هو الذى يجعل طيران الطائرة ممكنا . وهذا الانسياب الناتج عن ضغوط فى طبقة الهواء المحيطة بالطائرة من جهة ، ومن جهة إلى الدوامات الهوائية التى تتكون فى أثر التيار المنساب فوق الأجنحة يجب أن يكون ذا قدر يمكن السيطرة عليه لكى تكون هناك قوة رفع مناسبة بواسطة المحرك وأقل قدر من الهواء المطروح (شكل ٣٩) وقد وجه الكثير من الأبحاث التى تمت حديثا إلى تصميم سطح انسيابى تتوفر فيه هذه الشروط .

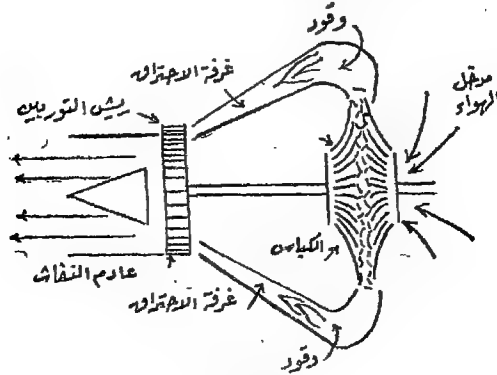
واتساء سنى الحرب (١٩٣٩ - ١٩٤٥) أثار نيا اختراع الطائرة النفائة المقاتلة التى تستخدم توربين غازيا مستغنية بذلك عن آلة الاحتراق الداخلى والمحرك اهتمام الرأى العام . ويرجع الفضل الأكبر فى نجاح المحرك النفائ كما يسمى الآن إلى جهود قائد الأسراب (الآن السير) فرانك هوتيل .

إننا نعرف من المعلومات التى استقينها (١) أن السير فرانك هوتيل خطرت فكرة استعمال توربين للتريك النفائ بباله ، وقام بتسجيل اختراعه بعد ذلك بعامين ، ولكنه حينما أراد اقارة اهتمام وزارة الطيران لم تلق فكرته تشجيعا . وفى عام ١٩٣٦ كونت شركة ، تدعى شركة القوى النفائة المساهمة ، برأس مال أساسى قدره ٢٠٠٠ جنيه للبء فى المحاولات التجريبية . وبعد ذلك بثلاثة أعوام اعترفت وزارة الطيران أن هوتيل قد وضع أسس آلة طيران عملية . وبعد ذلك لقى هذا المشروع تعسيذا رسميا ، وتم انتاج آلات مناسبة على مدى أوسع .

ويتكون التوربين الغازى فى جوهره من جزأين أحدهما ريش التوربين المحملة على عمود والآخر وحدة كبس محملة على نفس العمود ، ههنا بالإضافة إلى منافذ مناسبة لإدخال الوقود ، واسطوانات لاحتراقه

(١) من « التاريخ الاول لتوربين هوتيل الغازى للتريك النفائ » ، بواسطة قائد الأسراب ف . هوتيل ، من سجلات معهد المهندسين الميكانيكيين ، مارس ١٩٤٦ ، ص - ٤١٩ .

(شكل ٤٠) . وعند استعمال توربين الغاز في الطائرات النفاثة يؤخذ الهواء من الغلاف الجوي الى الداخل مارا خلال أنابيب في مقدمة جسم الطائرة ، وبعد ذلك يمر خضلال موزع الى الكباس ، حيث قد يرتفع الضغط من ١٥ رطلا على كل بوصة مربعة الى ٣٥ رطلا ، وبارتفاع مناسب في درجة حرارة ناتج عن المكبس . وبعد ذلك يمر الهواء المضغوط الى غرف الاحتراق حيث يغذى لهب زيت برفين دائم الاشتعال . وضغط الغازات الخارجة من غرف الاحتراق هذه هو ٥٨ رطل على البوصة المربعة ، ودرجة حرارتها ٨٠٠ مئوية ، وسرعتها تزيد عن ٥٥٠ قدم في الثانية . وتمر هذه الغازات السريعة الحركة خلال ريش دليلية الى ريش التوربين التي تحرك العمود المتحكم في الكباس . وتخرج الغازات الحارة بعد ذلك مارة خلال فونية في ذيل الطائرة مصممة تصميميا مناسباً بحيث تكون تياراً نفاثاً ذا سرعة عالية ، يتسبب عن رد الفعل لتحرك الطائرة .



« شكل ٤٠ »

وسم توضيحي لتصميم المحرك النفاث

والمبدأ المطبق في هذا بسيط مثله مثل أى اختراع آخر من الاختراعات الكثيرة . فنحن نعرف من قانون نيوتن الثالث أن الفعل ورد الفعل متساويان ، وعلى ذلك فإذا القى شيء من جسم حر في تحركه ، فإن ذلك الجسم يرد في الجهة المقابلة . ويمكن توضيح هذا بعمل ثقب دبوس في منطاد مستطيل الشكل من مناطق لعب الأطفال . أن هذا البالون يتحرك عندئذ في اتجاه مضاد للاتجاه الذى يسلكه الغاز النافذ . وفي حالة المحرك النفاث تكون سرعة الغازات عند خروجها سرعة هائلة ، ولكن صغيرة الكتلة ، بيد أن كتلة الطائرة كبيرة نسبياً

ونتيجة لذلك تكون سرعتها أقل ، وذلك لأن كمية تحرك الطائرة وكمية تحرك الغاز المنطلق متساويان طبقا لقانون نيوتن .

ولكن على الرغم من أن مبدأ رد الفعل معروف تماما ، فإن تطبيقه فى الطائرات لم يتطلب ذكاء خارقا فقط كذكاء هوتيل ، ولكنه يتطلب ايضا معونة الصناعة المعدنية الحديثة لاعداد سبيكة صلب تقاوم درجات الحرارة المرتفعة والضغط العظيمة التى تنشأ عند تشقيل التوربين . وعلى الرغم مما أحرز من نجاح ، فإن البحث مازال متواصلا بغية ادخال تحسينات على ذلك .

وكانت الطائرة النفاثة الوحيدة التى استخدمت فى حرب ١٩٣٩ - ١٩٤٥ هى الطائرة المطاردة النفاثة جلوستر . انها صنعت جميعها من المعدن ، وزودت بمحركين نفاثين (١) . ومنذ ذلك الوقت تم تقدم أكثر فى الآلات النفاثة ذات السرعة العالية ، وكذلك فى آلات الغاز التوربينية المستعملة فى تحريك المحركات والمسماة بالمحركات التوربينية . ويبدو ان المحرك النفاث أكثر ملاءمة للسرعات العالية جدا ، بينما المحركات التوربينية أكثر كفاءة فى السرعات المنخفضة نوعا ولكن لمسافات طيران اطول . وقد استعمل التوربين الغازى فعلا فى سويسرا فى القاطرات ، وفى توليد قوة كهربية للصناعة . وعلى الرغم من التكاليف الباهظة للوقود السائل فى بريطانيا ، فإن الخطط قائمة على قدم وساق لاستعمال توربينات الغاز كالمحركات الاولى فى محطات توليد الكهرباء .

٤ - المواد الانشائية

من المعترف به الآن أن الانسان أقل اعتمادا على المواد الخام التى يجدها حوله عما كان عليه فى الأيام السالفة ، وانه أكثر اقتسارا على صنع مواد ذات خواص يريدها . وليس هناك من مجال يظهر فيه هذا أكثر جلاء من مجال الصناعات المعدنية . لقد هيات الكيمياء الحديثة للانسان سيطرة على خواص الصلب تمكنه مثلا من صنع صلب ذى درجة صلابة خاصة وصلب من الممكن سحبه ، وآخر مقاوم للتفجيرات الكبيرة فى درجات الحرارة . ويمكن بمثل أنواع الصلب هذه صناعة التوربين الغازى ، والتوربين البخارى ، وآلة الاحتراق الداخلى ، وكل العدد وآلات القياس المستعملة فى الصناعة الحديثة .

(١) يجب أن تذكر أن ف ١ - او القنبلة الطائرة الألمانية - كانت عبارة عن طائرة نفاثة . كان الانفجار الناتج عن بنزين غير جيد النوع ينتج ضغطا هائلا ، وكانت الغازات المشتعلة تنطلق بسرعة عالية تسبب دفع الطائرة الى الامام .

وكان الصلب المستعمل فى صننع انصال السيوف فى دمشق القديمة يطرق باليد . وقد تلقن الناس خلال القرون هذه الطريقة على يد صناع مهرة ، ولكن الخطوة الأولى نحو انتاج الصلب على مسدى واسع لم تحدث حتى منتصف القرن التاسع عشر حينما أبان سمر هنرى بيسمر (١٨١٣ - ١٨٩٨) كيفية امكان انتاج الصلب بثمان رخص . وكانت عملياته تتكون من امرار تيار هواء تحت ضغط خلال الحديد الحام الغشيم الذائب ، يتحد بواسطته الكربون والسليكون - اللذان يكونان الشوائب الرئيسية - مع اكسجين الهواء . وقد رفع هذا التأكسد الذى حدث فى كتلة المعدن كلها درجة الحرارة بدرجة عظيمة ، ونج عن ذلك صلب بعد تيار استغرق فترة قصيرة جدا . وقد برهنت هذه العملية على بساطتها وقلة تكاليفها .

ومنذ ايام بيسمر اتسع انتاج الصلب اتساعا هائلا . وقد حدثت تعديلات فنية ، وأصبح من اليسور الآن الحصول على اصناف كثيرة من انواع الصلب للأغراض الخاصة . وقد انتج الصلب المشهور الذى لا يصدأ لأول مرة كسبيكة صلب بسيطة بها نسبة متوسطة من الكربون و ١٤ ٪ من النيكل ، و ١٨ ٪ كروم . وهذا النوع من السبائك يقاوم التآكل ، وهو أقل صلابة من الصلب المستعمل فى الآلات القاطعة ، ولكنه مناسب بدرجة عظيمة لصناعة أدوات مثل حوض الفسيل الحديث المصنوع من صلب لا يصدأ .

ولصناعة آلة قاطعة تعمل بسرعة عظيمة يتحتم وجود صلب على درجة خاصة من الصلابة وإضافة معدن التنجستون بنسبة تصل الى ١٨ ٪ ، وكروم بنسبة تصل الى ٤ ٪ تعطى صلبا يحتفظ بعده القاطع حتى حينما يعمل فى درجة الاحمرار الحارارى . وسبائك صلب ، نيمون ٨٠ ، التى تتطلبها صناعة الريش المتحركة لآلة التوربين النفاث، مقاومة للجرارة بدرجة خاصة . وهذه المواد هى نتيجة أبحاث معقدة فى الانشاءات المعدنية التى تتطلب تحليلا بواسطة الأشعة السينية وكل ما أبدعته الكيمياء الحديثة من وسائل .

ويستعمل صلب ذو نسبة كربون منخفضة أو «لين» لأغراض انشائية كثيرة - ألواح السفن والكممر ، والروافد ، وأطارات الصلب التى تشيد حولها المباني الكبيرة . ومع ذلك فان سبائك الألومنيوم معينة تحل الآن محل الصلب فى الانشاءات السقفية وأتاييب الصقالات التى تصنع من سبيكة ألومنيوم قوية بدرجة كافية ، ولكنها أخف من الصلب ومن شأن هذه الخفة ان تقلل بدرجة كبيرة من تكاليف النقل والبناء . ويهبر الألومنيوم لينا هو وسبائكه فى درجة حرارة تبلغ ٥٠٠° مئوية

حينما يدفع تحت ضغط خلال قالب (اسطمية) ، وهى عملية تعرف بعملية الاسقاط . وبهذه الطريقة يمكن بسهولة انتاج اجزاء بشكل مرغوب فيه ، وبهذا تكون ملائمة للبناء العاجل . وكانت تتكون كثير من المواد التى استعملت فى الانشاءات الزخرفية لمعرض بنك ساوث الذى اقيم سنة ١٩٥١ من سبائك المونبة .

والطائرة الحديثة بسطحها الاملس واجنحتها ذات الحوافى الحادة هى بالطبع فى ميسس الحاجة الى مواد خفيفة قوية . ويستعمل مهندس الطائرات احدى السبائك المسماة بالسبائك الخفيفة . واهم هذه السبائك سبيكة الدورالومين التى تتكون من ٩٥٪ ألومنيوم و ٤٪ نحاس ، و ٥٪ منجنيز ، و ٥٪ زنك . واحداث تغييرات فى تركيب هذه السبائك الخفيفة وفى معالجتها بالحرارة ينتج مواد ذات قوة عظيمة . والمنجنيز هو احد مكونات كثير من هذه السبائك . وانه لما يشير الاهتمام ان نلاحظ ان النقص فى كميات المنجنيز اثناء حرب ١٩٣٩ - ١٩٤٥ اضطر الكيميائيين الصناعيين فى بريطانيا العظمى الى ان يعودوا الى الطريقة البدائية لتبخير ماء البحر ليستخرجوا من ملح البحر الناتج العشرة فى المائة من كلوريد المنجنيز الذى يحتويه هذا الملح . وقد استعمل هذا حينئذ فى الحصول على منجنيز نقي . وكان لابد من تبخير ملايين الاطنان من ماء البحر ، ومع ذلك فقد ثبت نجاح هذه الطرق اقتصاديا .

وخلال الثلاثين سنة الاخيرة حلت الخرسانة المسلحة اى خرسانة من اسمنت بورتلاند مقواة بواسطة اسياخ من الصلب محل الحجر والاجر والخشب فى البناء . وتتكون الخرسانة من مزيج من حجارة صغيرة ورمل ، وماء ومادة اسمنتية مصنوعة من الجير والطفل . ويصب المخلوط وهو فى حالة لينة فى قوالب من خشب او صاج محتوية على اسياخ التسليح . ويساعد الصلب على تماسك الخرسانة بعضها من بعض ، ويتصلب المخلوط كه الى كتلة تشبه الصخر .

وتقاوم الخرسانة المسلحة الضغط وتستعمل فى انشاء الطرق ، والكبارى ، والاثاييب وانابيب المجارى ، وكذلك فى الاسقف والروافد والارضيات . وغالبا ما تباع مصبوبة بالفعل لروافد الابنية . والبناء بالخرسانة المسلحة قوى ، وضد الحريق . ولقد عود استعماله سكان المدن على العمارة التى تمتاز بالبساطة التامة . ويمكن المواد الحديثة الناس من البناء دون استعمال القوس التقليدى والاعمدة الرافعة التى كانت ضرورية ايام البناء بالحجر . ويميل المهندسون المعماريون الى ان يفكروا فحسب فى المواد الانشائية التى يستعملونها . وفى استعمال الاشكال الزخرفية التى يمكن صنعها فى قوالب مثل الخرسانة ذاتها ،

والتي لا تبدو أنها من عمسل أزميل النحات • وهو يستغنون عادة في حالة الإبتنية البسيطة عن الزخرفة تماما ويستخدمون طريقة معمارية من خطوط مستقيمة خالية من الأقواس ، وغير مثقلة بزخرفة لا لزوم لها •

٥ - اللدائن

لقد صاحبت الاتجاهات صوب قدر أعظم من البساطة في التصميم المعماري تعديلات في الأجهزة المنزلية ، وسهل إنجاز التصميمات الحديثة انتاج نوع جديد تمام الجودة من المواد سمي باللدائن (المواد البلاستيكية) وهذه المواد التي تتضمن المواد المستعملة في صناعة مقابض السكاكين ، والفناجين وإطباقها ، وأجهزة التليفون ، ومواد التنجيد ليست لدنة بمعنى أنه يمكن تشكيلها باليد كالخزف أو البلاط . ولكن على الرغم من ذلك ، فإن كثيرا منها في مرحلة من مراحل انتاجها تشكل بتأثير الحرارة أو الضغط أو السحب فيتكون منها خيوط رفيعة • ولذلك فمازال اسم اللدائن يطلق على الناتج النهائي •

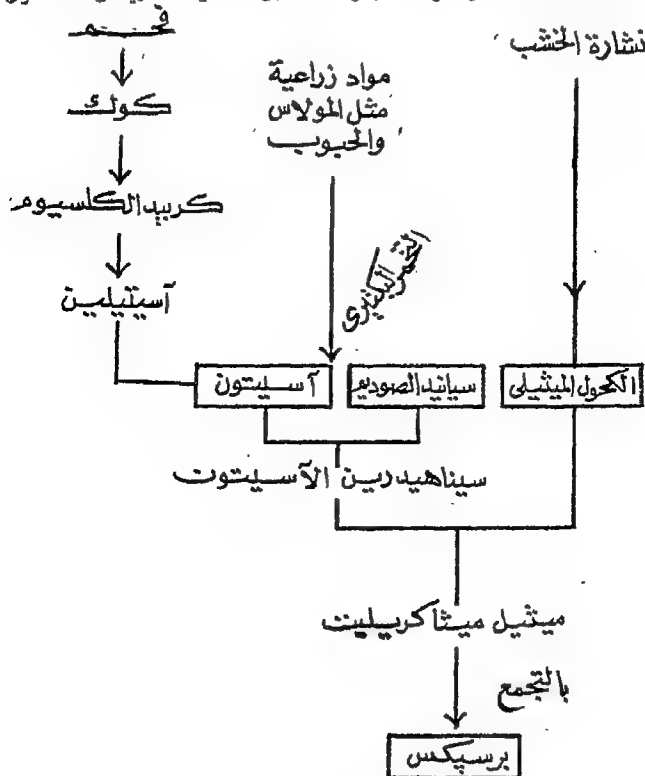
ويبلغ عدد اللدائن المدونة في سجلات الصناعة الآن عدة مئات ، شبه بعضها الراتينجات الطبيعية وبشبه بعضها المطاط ، ولكنها مدنية كلها بخواصها الخاصة الى اتحاد مركبات الكربون سوية مكونة بذلك سلسلة طويلة من مجموعات جزئية متشابهة تسمى البوليمارات • ويتكون السيلولوز مثلا وهو بوليمار طبيعي من سلسلة طويلة من وحدات الجلوكوز • ولو تصورنا جزيئات الجلوكوز مصطفة بجانب بعضها بعضا منع تفاعل مجموعات الأدروكسيل وإزالة الماء فأننا نحصل على صورة لسلسلة السيلولوز • واستعمل الكيميائيون السيلولوز أساسا لاشتقاق أعدادا كبيرة من المركبات الأخرى بإحلال مجموعات أخرى من الذرات محل الأدروكسيلات • وعلى ذلك فبادخال مجموعة نيتروجينية (ن ١) على جزيء سيلولوز ينتج النترو سيلولوز الذي عندما يعالج بالكافور والكحول يترك بعد التبخر كتلة قرنية تعرف باسم السيلولويد (١) وتستخدم هذه كبديل رخيص للعاج ، كما يصنع منه صحائف رقيقة تستخدم في صنع الأفلام السينمائية •

ويحتفظ السيلولوز بأهميته كمعدل أساسي في صناعة اللدائن • ولكن معرفة الكيميائيين بتركيبه السلسلي كانت حافزا لهم على البحث

(١) السيلولويد مادة صلبة شفافة من السيلولوز والكافور • وتصنع الأمشاط وأدوات الزينة والتصوير والأفلام غالبا من السيلولويد الأبيض أو الملون (المترجم) •

عن مواد ذات خواص مشابهة . وفي خلال العشرين سنة الأخيرة صنعت أعداد كبيرة من البوليمارات من إيدروكربونات بسيطة . واحد هذه البوليمارات الاصطناعية ، واسمه التجاري بوليثلين ، هو بوليمار أثيلين إيدروكاربوني ناتج عن تعرض الأثيلين لضغط عال مع وجود مادة حفازة ، أنه خفيف الوزن ، وعازل كهربى تام لا ينفذ الماء خلاله إطلاقاً .

ومثل آخر من أمثلة اللدائن الاصطناعية التامة ، يعرف بالاسم التجاري برسبيكس الذى يشمل قدراً كبيراً من المواد الشبيهة زجاجية . واحد اللدائن الهامة فى مجموعة البرسبيكس هو بوليمار ميثيل الميثاكريليت (شكل ٤١) المشتق من الأسيتون وميثيل الكحول . ويمكن الحصول



(شكل ٤١)
مصادر البرسبيكس

على هذه المواد على نطاق واسع من الموارد الطبيعية . ويشترك الأستيتون من الاستيتيلين المصنوع من التخمر البكتيرى للولاس أو من الفحم بطريق غير مباشر . وعلى الرغم من أن الكحول الميثيلى غالباً ماينتج صناعياً إلا أننا نحصل عليه من المواد العائمة للخشب كالنشارة مثلاً .

وبوليماز الميثيل ميثاكريليت ذو درجة شفافية عجيبة ، إذ يمكن رؤية الأشياء خلال شريحة منه سمكها ثلاثة أقدام . وله كذلك معامل انكسار عال بحيث أن الضوء المار خلال أنبوبة منه يعانى انعكاساً داخلياً بدرجة كبيرة حتى أن الضوء يتبع ، كما نقول ، فى مساره انحناء الأنبوبة . ولهذا السبب يستعمل الجراح أنابيب برسبكس بنور فى أحد أطرافها للكشف على جلق المريض ، أو أعضاء الجسم الشديدة التعمق فى الداخل . والبرسبكس غير موصل للحرارة أو الكهرباء ، ولذلك فليس هناك خطر فى زيادة سخونته الموضعية . واللدائن البرسبكسية متينة كذلك وغير قابلة للتفتت ، وهى ميزات تجعلها ذات قيمة كبيرة لنوافذ الطائرات وكصفائح موجهة للأضاءة السقفية .

وتباع كثير من اللدائن الراتنجية على هيئة مساحيق للصباغة تصنع عن طريق خلط المادة البلاستيكية بصبغة ومعجون حشو مثل نشارة الخشب ، أو الياف القطن والكتان المنقوعة أو الاسبستوس . ويدفأ المخلوط حتى يسميل ، ثم ينزلق على دوايب ويبرد ويهرس حتى يصبح مسحوقاً . وعندئذ يكون معداً لوضعه فى قالب . وبعد ضغط وتسخين لدرجة معينة يتكون جسم صلب متين يتخذ شكل القالب بالضبط . ونجد فى جميع الحالات أن السلسلة الطويلة المتماصة سوياً بواسطة الوصلات الكيماوية هى التى تعطى البلاستيك الخواص الميكانيكية كالصلابة ومقاومة الشد . وتجعله المادة الراتنجية الصلبة المعروفة بمادة الباكليت (١) يحتفظ بشكله بعد التسخين والضغط . وذلك لأن السلاسل الكربونية تنضم الى بعضها كتلة شديدة التماسك . وفى أنواع البلاستيك الأخرى مثل أنواع المطاط الصناعى الكثيرة العدد ، نجد السلاسل الكربونية أكثر تفككا ، ولذلك فعندما تمتلئ المادة فان الجزئيات تفك نفسها وتقع فى اتجاه الشد ، ثم تعود الى حالتها حينما يتوقف التمدد .

وقد أبانت الأدلة المستقاة من تحليل الأشعة السينية أن الألياف الطبيعية مثل الصوف والكتان والحبرير تقع جزئياتها الطويلة ملتصقة بعضها ببعض فى حزم ، أو أيونات غروية كما تسمى . وعلاوة على ذلك

(١) سميت باسم مكتشفها ل . ه . بيكيلاند (١٨٦٣ - ١٩٤٤) . وهى راتنج مصنع من الفينول والفورمالدهايد . (المترجم)

وجد أن الحرير الطبيعي الذى تنتجه دودة القز هو بروتين ذو طبيعة تتكون من وحدات فرعية من الذرات تقع فى أيونات غروية تتخذ أطرافها نفس الاتجاه . وكانت المشكلة التى واجهت الكيميائيين الذين كانوا يبحثون عن بديل للحرير تتلخص فى تخليق مادة بتركيب جزئى يشبه تركيب الحرير الطبيعى .

وبعد بحث طويل وجد أن مركب الكربون المتكون من ست مجموعات ميثيلين ومجموعتين من مجموعات الأمين المعروفة باسم سداسى ميثيلين ثنائى الأمين (١) باتحادها مع الحامض الدهنى وإزالة الماموهى عملية تعرف باسم التكثف تعطى مركبا ذا سلسلة طويلة بخواص شديدة الشبه بخواص الحرير . وقد نتج عن حل المشاكل الفنية للزل والنسيج مادة جديدة ، النيلون ، بمقاومة شد ضعف مقاومة شد الحرير الطبيعى تقريبا ، وبمتانة ومرونة لا تتأثر بالرطوبة فعلا . واستخدمت مزايا النيلون هذه فى صناعة الباراشوتات (المظلات الهابطة) وجبال المناطيد ، وفرش الأسنان ، وفى التدريزات الجراحية ، وصنع جوارب الجسم (٢) .

٦ - التليفزيون والرادار

يتميز عصرنا الحديث بالسهولة التى تتم بها الاتصالات دون تدخل بشرى ، والسهولة التى يقف بها جزء من العالم على ما يجرى فى غيره من الأماكن . ان استعادة تسجيل الصوت على فيلم أو تليفزيون ، وكذلك أجهزة الاشارات الأتوماتيكية فى السكك الحديدية والكهربية وفى تنظيمات المرور ظواهر مألوفة لنا فى حياتنا اليومية . ان كل هذه تعتمد على الخلية الضوئية التى تسمى ايجازا باسم الخلية الضوئية .

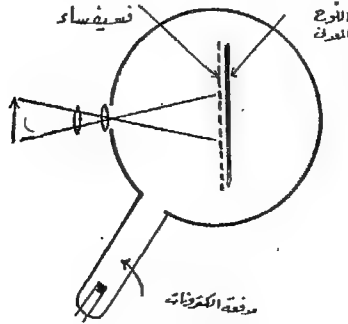
وفى مثل هذه الخلية يتسبب الضوء الساقط على سطح معد اعدادا مناسبة فى انبعاث الالكترونات منه تبدو كتيار كهربى . ومن الممكن تحويل أى اهتزاز فى شدة الضوء كالذى قد يتسبب فيه قطار مار ، أو لص يسطو على حجرة ، أو تحرك حزمة من المضاع على سبر نقل الى تيار كهربى متغير بواسطة الخلية الضوئية . ويمكن بسهولة جعل هذا التيار يندج جرسا ، أو يحرك أبرة جلفانومتر ، أو يدير أى جهاز اشارة آخر . وعلى ذلك ففوائد الخلية الضوئية متعددة النواحي لا بالنسبة لأجهزة الانذار

(١) أن المادتين ، الحامض الدهنى وسداسى ميثيلين ثنائى الأمين ، اللتين تتكاثفان غالبا ما تتفجان من الفينول الذى يعرف عادة باسم حامض الفينيك ، الذى هو نفسه مشتق من البنزين أحد المنتجات للقطرة من قطران الفحم .

(٢) النسيج الرقيق من الغزوة أو الشاش « (المترجم)

بالسطو أو بحدوث حريق وأجهزة الاشارة الأخرى فحسب ، بل أيضاً كوسيلة من وسائل العد الأوتوماتيكي فى المصانع ، وحتى كوسيلة كشف دقيقة لكمية الهيموجلوبين فى دم الانسان .

ومن الاستعمالات الممتعة للخلية الضوئية الكهربائية استعمالها فى التليفزيون الذى تستخدم فيه مئات الآلاف من خلايا أكسيد السيزيوم الدقيقة المترسبة على فضة • وحينما يذاع منظر بالتليفزيون كمنظر ممثلين يقومون بالتمثيل على مسرح ، أو حفلة تحية العلم ، تستعمل آلة تصوير خاصة تتركز بها الصورة لا فى بؤرة على لوحة تصوير أو على فيلم ، بل على ما يسمى فسيفساء مكونة من عناصر سيزيومية تتأثر بالضوء موجودة على أحد أوجه لوحة الميكا • أما الوجه الآخر فمتصل بنقط معدنى بحيث يصبح كل عنصر مكثفا كهربيا صغيرا (شكل ٤٢) •



(شكل ٤٢)

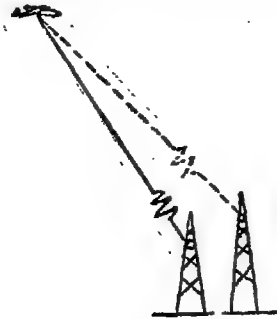
رسم كرومى لآلة التصوير التليفزيونى

ويسقط باستمرار أثناء اذاعة المنظر تليفزيونيا ضوء ذو شدة متغيرة على خلايا السيزيوم الصغيرة المختلفة ، التى تنبعث منها حينئذ الكترونات تتناسب مع شدة الضوء الواقع عليها • ويسمح أثناء ذلك لحزمة من الالكترونات بالمرور على الفسفساء أو مسحها ، وعلى ذلك فهناك سلسلة تغيرات فى الجهد الكهربى للالكترون المعدنى • وتكون هذه التغيرات التى تحدث بسرعة كبيرة اشارة الصورة التى يمكن تكبيرها ونقلها الى جهاز ارسال التليفزيون •

وهناك فى الطرف المستقبل هوائى يلتقط الموجات الكهرومغناطيسية ذات الذبذبة السريعة التى تتكون الاشارة منها ، وينقل الهوائى تلك الموجات على هيئة تيارات مترددة الى أحد ملفى أنبوبة الكاثود أو

الأوسلوجراف (١) كما تدعى . وينبعث من الكاثود الساخن في هذه الأنبوبة وإبل من الالكترونات تضغطها الألواح العاكسة الى حزمة رفيعة جدا موجهة اياها الى أسفل بحيث تقوم مقام مؤشر دقيق . وفي الامكان جعل هذه الحزمة تسمح الطرف البعيد للأنبوبة المغلفة بمادة متوهجة . وتجري عملية المسح بسرعة حتى أن الحزمة تسمح ٤٠٥ خطا في ١/٢٥ من الثانية . وتتسبب عن الاشارات الصادرة من الهوائي الذي يعمل هذه الحزم الماسحة بقع دقيقة مختلفة في شدة استضاءتها تصور للنساطر حركات الممثلين أو الحركات العسكرية أثناء استعراض خيالة الحرس .

ان مسجلة ذبذبات أشعة الكاثود (المهبط) جزء جوهري من أجزاء جهاز الرادار ، تلك الوسيلة من وسائل الاتصال التي ابتكرت أثناء الحرب العالمية الثانية والتي تتمكن بواسطته محطة أرضية من ارشاد طائرات القتال الى أهدافها ، ويمكن بواسطته أيضا الكشف عن طائرات العدو على بعد أميال وسط الظلام والسحاب والضباب .



(شكل ٤٣)
صدى الوداد

والمبدأ الأساسي للرادار هو التقاط صدى الموجات اللاسلكية المرتدة من طائرة أو من أرض وجهت هذه الموجات اليها . ويقدر بعد الشيء من الوقت الذي يأخذه الصدى في انتقاله من الجسم الى المشاهد (شكل ٤٣) . ويرجع الاسم بانعكاس الموجات اللاسلكية الى البحث الفيزيائي الأساسي الذي حدث أثناء عشرينيات هذا القرن ، ولكن تصميم الآلات لارسال حزمة لاسلكية قوية ، والكشف عن الأصداء بالوسائل البصرية تم نتيجة لطلبات الحرب الملحة .

(١) أو المسجلة ، تستعمل في تسجيل ذبذبة التيار (المترجم) +

وفى هذا الموضوع موضوع تسجيل الصدى وتمكين المشاهد من قراءة مقدار المسافة بينه وبين الشيء العاكس على مقياس ، برهنت مسجلة أشعة الكاثود للتذبذبات أنها ذات قيمة كبيرة . وتحرك هذه الالكترونات الرفيعة الصادرة من المسجلة بانتظام عبر شاشة الفلوريسنت كما يحدث فى جهاز الاستقبال التليفزيونى . ومع ذلك فى جهاز الرادار ينظم التوقيت بحيث يكون هناك خط مشاهد على شاشة الفلوريسنت ، وفى نفس الوقت يجعل التلامس الكهربى الذى يتسبب فى تحرك الحزمة الالكترونية جهاز الارسل يرسل نبضة من الموجات اللاسلكية ، ويظهر هذا بوضوح فى التواء فى خط الفلوريسنت . وتذهب النبضة بالطبع الى الفضاء ، وإذا قابلت طائرة أو أى جسم آخر يعترضها ، يرد صداها وترى كالتواء أو اعوجاج فى الخط . وتعتبر المسافة بين اللاتواين مقياسا للوقت الذى تأخذه النبضة فى الانتقال الى الطائرة وارتدادها ثانية . وعلى ذلك تتناسب مع المسافة بين الطائرة وجهاز ارسل الرادار . ولا يتكلف المشاهد سوى قراءة المسافة على مقياس أمامه (شكل ٤٤) .



(شكل ٤٤)
رسم مكررى مسجلة اشعة الكهف للتذبذبات

وما الصدى اللاسلكى الا جزء بسيط جدا من الطاقة الكهرو مغناطيسية الساقطة على الطائرة أو على أى جسم آخر يعترضها ، وهذه الطاقة كذلك ما هى الا جزء صغير من مجموع الطاقة التى يرسلها جهاز الارسل . لذلك كانت مشكلتنا تنحصر فى تصميم جهاز استقبال حساس جدا بدرجة تجعله يستجيب لأى دافع . وكانت المشكلة الأخرى هى صنع جهاز ارسل ذى أبعاد مناسبة يرسل حزمة ذات ذبذبة عالية ، وتكون بذلك ذات موجات

قصيرة • وقد أدت الأبحاث الدقيقة والمهارة الفنية إلى انتاج جهاز ارسال المخنطرون - يصدر موجات طولها أقل من عشرة سنتيمترات ، وحزمة يمكن تركيزها في بؤرة بعيدة عن الأرض ، ولذلك تكون قادرة على الكشف عن أية طائرات تطير على ارتفاع منخفض •

ويشير هذا الايضاح الشديد الايجاز الى ما يعرف الآن باسم الرادار الابتدائي - أى الصدى اللاسلكي من جسم لا يرسل اشعاعا من تلقاء ذاته - وفى خلال الأعوام الحديثة أثار نجاح الرادار الثانوى اهتماما بالغا ، ذلك الرادار الذى يوجد فيه ارسال مستقل عن الجسم بحيث يتميز الصدى بميزات جديدة تمكننا من التعرف على المصدر • وعلى ذلك فهناك فى ميرسيسيبه اليوم رادار ثانوى يعطى بواسطة جهاز ارسال تليفون لا سلكى معلومات دقيقة لأية سفينة عن موقع أية سفينة أخرى أو أية صوة (١) بحرية (شمندورة) فى بحر المانش كله ، وبذلك توفر انتظار أيام كثيرة وسط الظلام وضباب البحر • وما هذه الاحدى استعمالات الرادار الذى تعدد استعمالاته الآن من المستلزمات العادية لجميع أنواع الملاحة البحرية والجوية •

٧ - الطاقة الذرية

كان الانسان فى الواقع يستعمل الطاقة الذرية منذ أن تعلم كيف يوقد النار • وترجع الطاقة الحرارية لوقود مشتعل إلى تفاعل كيمائى بين الكربون وأيدروجين الخشب أو الفحم وأوكسجين الهواء • وتؤثر تغيرات الطاقة هذه التى تتضمن إعادة خلط الذرات فى طبقات الالكترونات المكونة للأجزاء الخارجية للذرة فقط • ومن المعتاد قصر لفظ الطاقة الذرية على تلك القوة الهائلة المنطلقة حينما تحدث التغيرات فى النواة الداخلية للذرة • وهذه الطاقة النووية هى المستعملة فى القنبلة الذرية التى قد تزود الانسان لو كان حكيما بمصدر جديد من مصادر القوة للأغراض السليمة •

وتتكون نواة الذرة من بروتينات تحمل شحنة موجبة ، ونيوترونات لا تحمل شحنة اطلاقا • والاستثناء الوحيد هو الأيدروجين العادى الذى تتكون نواته من بروتون واحد • وعدد البروتونات فى ذرة الأكسيجين ٨ وفى ذرة الكربون ٦ وفى ذرة الفضة ٤٧ وفى اليورانيوم ٩٢ • ويتقرر نوع النظير الخاص بكل مادة حسب عدد النيوترونات ، مثلاً يكون ٦٠ نيوترون و ٤٧ بروتون نظير الفضة ذات الوزن الذرى ١٠٧ ، بينما يكون ٦٢ نيوترون و ٤٧ بروتون النظير ذا الوزن الذرى ١٠٩ • ولمنصر

اليورانيوم نظيران رئيسيان ذوا وزن ذرى ٢٣٥ ، ٢٣٨ . وحيث أن عدد البروتونات هو ٩٢ ، فيجب أن تحتوى النظائر على ١٤٣ و ١٤٦ نيوترون بالتوالى .

وفي عام ١٩٣٨ اكتشف أنه حينما يتعرض نظير اليورانيوم ٢٣٥ الى هجوم من نيوترونات سريعة الحركة ، ينتج عن ذلك نظير عنصر الباريوم الذى يقرب وزنه الذرى من نصف وزن نظير اليورانيوم . وكانت هذه نتيجة مذهشة ، لأن ذلك كان معناه أن ذرة اليورانيوم قد انفلقت الى جزأين . وقد وجد أن الطاقة الناتجة عن هذا الانفلاق أو الانشطار تظهر على شكل سرعة عالية هائلة للجزأين . وسرعان ما أدرك رجال العلم فى العالم أن الانشطار النووى قد يمدنا بمصدر طاقة على مدى هائل ضخمة ، على شرط إيجاد الوسائل لانشطار عدد كاف من ذرات اليورانيوم فى تتابع سريع .

ويتلخص الحل فى إيجاد مناسب لكتلة اليورانيوم ، اذ تحقق انطلاق سراح النيوترونات عند انشطار ذرة اليورانيوم الى جزأين ، وأن هذه النيوترونات بدورها فى إمكانها إحداث انشطار فى ذرات يورانيوم أخرى مكونة بذلك ما يعرف باسم التفاعل التسلسلى . ويقال لكتلة اليورانيوم التى تحدث فيها مثل هذه العملية التسلسلية أنها ذات حجم حرج . وقد تحقق أنه لا يمكن أن يتم انتشار قطعيتين كل منهما أقل من الحجم الحرج . ولكن فى اللحظة التى تنضم فيها الكتلتان بعضهما الى بعض ، فإن الكتلة الناتجة منهما تزيد عن الحجم الحرج وينتج عن التفاعل التسلسلى السريع انفجار يسبب انبعاث جسيمات ذات سرعة عالية وتوليد درجة حرارة عالية بدرجة لا تصدق .

وكانت مثل هذه الاعتبارات معلومة بدرجة كافية لعلماء الفيزياء عند نشوب الحرب العالمية الثانية ولكن كانت كمية اليورانيوم ٢٣٥ الميسورة حتى ذلك الوقت جزءاً من الميجرام (١) وذلك فعلى الرغم من أن انطلاق الطاقة الذرية كان وشيكاً ، إلا أن الوسائل التى كان يمكن أن يتحقق بها هذا الانطلاق والتحكم فيه كانت ما زالت مشاكل لم تحل .

إن قصة العمل الجماعى الذى تضافرت فيه جهود علماء الفيزياء البريطانيين والأوروبيين والأمريكيين قد ذكرت فى التقارير الرسمية (٢)

(١) جزء من ألف من الجرام (المترجم)

(٢) الطاقة الذرية : القصة العامة لتطور طرق استعمال الطاقة الذرية للأغراض الحربية تمت رعاية حكومة الولايات المتحدة (الطبعة الاميرية الملكية ، لندن ، ١٩٤٥ ، الثمن شلنات و ٦ بنس) .

ولقد سردت الصحافة اليومية قصة تسخير الموارد الأمريكية ، وبناء مصانع هائلة فى كليفتون فى وادى التنيسى لانتاج اليورانيوم ٢٣٥ بكميات ملائمة . وقد أثار تدمير هيروشيما ، ونجازاكي الدخشة والرعب (١) ، كما ترك هذا التدمير وراءه عالما مضطربا أحاطت فيه الدول العظمى أسرارها بجو من الكتمان الشديد ، وأخذت تنظر الى بعضها البعض بعداوة مقنعة ، وعدم ثقة عميقة .

أما من جهة كون القنابل الذرية الأولى نشأت نتيجة للبحث الأساسى الذى تم بهدف تقدم العلم دون هدف آخر ، فلم يكن فى الاستطاعة قصر الأبحاث على أرض معينة . ولذلك تسربت فى السنين التى تلت الحرب مباشرة أنباء فحواها أنه قد يكون هناك مصدر آخر لقوة هائلة ناشئة لا عن انفلاق أو انشطار الذرة بل عن تكوين الذرة أو اندماجها . وقد أدرك رجال العلم من معلوماتهم عن بناء الذرة أنه لو أمكن تكوين الهليسيوم من العنصر الأخف الأيدروجين فإن ذلك ينتج طاقة هائلة . وقد عرف حقا أن التحول من الأيدروجين الى الهليوم قد ينتج عنه اقتقاد كتلة قد يظهر على شكل حرارة . ويمكن تعليل هذا التكافؤ بنظرية النسبية لانشطين التى أشرنا إليها بإيجاز شديد فى الفصل الثالث عشر . وعلاوة على ذلك فقد كان لدى علماء الفيزياء مبرر للاعتقاد أنه يوجد فى الحقيقة فى ظروف درجة الحرارة والضغط العاليتين الموجودة داخل الشمس تكوين مستمر للهليوم من الأيدروجين وانبعث طاقة حرارية . ولذلك فجنبنا الى جنب مع التنبؤات القائمة عن القوى التدميرية للقنبلة الأيدروجينية وجد الأمل أنه ما زال لدى الانسان وسيلة أخرى لاطلاق القوى الذرية والسيطرة على القوى الطبيعية الى مدى لم تصل اليه أحلامه حتى الآن .

وعلى الرغم من ذلك فإن الأبحاث العاجلة التى تمت خلال الأعوام التى أعقبت الحرب ، بينما كانت الأمم تختزن القنابل بكميات هائلة وتحدث عن السلم ، كانت موجهة صوب استخدام التفاعلات الناتجة لا عن الالتئام بل عن الانشطار . وهناك فى بريطانيا العظمى كما فى كل البلاد الصناعية حاجة صارخة لقوة متزايدة وعلى الأخص لطاقة كهربية ميسورة بدرجة أكثر سهولة . وتستعمل الآن محطات توليد الكهرباء العادية فى بريطانيا العظمى الفحم أو البترول كوقود ، وتحول غازات الأفران الحارة الماء الى بخار ذى ضغط عال لإدارة توربين المولد الكهربى . والهدف المباشر من استعمال الطاقة الذرية فى بلاد تعانى نقصا فى

(١) أنظر كتاب آثار القنبلة الذرية على هيروشيما ونجازاكي (إخراج المطبعة الأميرية الملكية ، لندن ، ١٩٤٦ ، وثمنه شلن وبسنتان) .

كميات الفحم والبتروول هو استخدام درجة الحرارة العالية الناتجة عن انشطار اليورانيوم فى توليد بخار للمولدات الكهربائية .

وقد تطلب هذا البحث تجارب كثيرة وجهودا شاقة من علماء الفيزياء والكيمياء ، والمهندسين المدنيين ، ورجال الطب . وقد استعمل اليورانيوم الطبيعى دون العزل الابتدائى لنظير اليورانيوم ٢٣٥ فى بعض المحاولات الاولى لتسخين الطاقة الذرية . أولجت قضبان من اليورانيوم فى كتلة من الجرافيت النقى يحتويها ما يسمى مفاعل بطيء أو (عمود) وكانت القضبان تحتوى بالطبع على نظير اليورانيوم ٢٣٨ الموجود بكثرة مع اليورانيوم النادر ٢٣٥ . واستخدم الجرافيت لابطاء سرعة النيوترونات لمدى يجعلها لا تمتص بواسطة ذرات اليورانيوم ٢٣٨ ، ولكن بواسطة اليورانيوم ٢٣٥ المنشطر فقط ، وتظهر الطاقة المتولدة عنه فى كتلة الجرافيت . وكان لزاما ايجاد طرق للسيطرة على انشطار اليورانيوم ، ولانزال درجات الحرارة العالية الى مستوى سلس لتكوين البخار .

ولقد صادف هذا الكفاح الذى ظل أعواما نجاحا تمثل فى افتتاح صاحبة الجلالة فى ١٧ من أكتوبر ١٩٥٦ أول محطة نووية فى العالم لتوليد الكهرباء على نطاق تام . وتدعى هذه المحطة محطة كولدر هول فى منطقة البحيرات . وفى يوم الافتتاح الذى لا ينسى غذيت الشبكة بالطاقة الكهربائية ، وبذلك بدأ عصر جديد فى استخدام القوة .

وكانت تتكون محطة توليد الكهرباء ، كولدر هول ، فى سنة ١٩٥٦ من مفاعلين نوويين يديران أربعة توربينات بخارية . وكان هناك وعاء ضغط قطره ٤٠ قدما تقريبا يحتوى على ألف طن من قضبان الجرافيت كملطقات . وكان قلب الجرافيت هذا به دوائر نقل كهربية رأسية من الممكن ايلاج قضبان اليورانيوم فيها . وكانت الحرارة المتولدة من الانشطار يبطل تأثيرها بواسطة غاز ثانى أكسيد الكربون تحت ضغط يعادل الضغط الجوى سبع مرات تقريبا . وكان ثانى أكسيد الكربون الساخن المار خلال مبادلات حرارية ينتج بخارا طبقا للضغط المطلوب . وكان من الضرورى اتخاذ احتياطات مناسبة ضد الأخطار الناتجة عن التلوث بالمواد الاشعاعية . وأحيطت مصادر الاشعاع كلها بواسطة جدران مسلحة سمكية ، واتخذت الحيلة لعدم لقاء المنتجات المهمة من المفاعل بطريقة تعرض الحياة البشرية للخطر .

وهناك مفاعل انشطار آخر قائم فى دورنراى فى اسكتلندا . ويسمى هذا عمودا مولدا . وهو يستعمل الثوريوم ، ويقوم بإنتاج مزيد من المادة النووية أثناء تشغيله . ويمهد مثل هذا المفاعل الطريق بدرجة كبيرة لإنتاج القوة النووية فى المستقبل بتكاليف أقل .

ومنذ أن بدأت كولدر هول ، ودورنراي ، وغيرها من المشروعات نشطت الأبحاث التي جرت تحت رعاية مؤسسة أبحاث الطاقة الذرية في هارويل ، ومؤسسة المملكة المتحدة للطاقة الذرية نشاطا كبيرا . وقد امتدت النتائج التي توصل إليها إلى ميدان الطب عن طريق ازدياد استعمال النظائر المشعة ، وإلى الزراعة عن طريق الأبحاث التي أجريت في فسيولوجيا النباتات . ومع ذلك فربما كان أعظم حدث درامي أثار الاهتمام العام هو ما أعلن عام ١٩٥٨ من أن التفاعلات الناتجة عن اندماج الذرات من المحتمل أنها قد تمت لأول مرة بحالة يمكن التحكم فيها ، وأن درجات الحرارة التي حصل عليها تتساوى مع درجات حرارة الشمس .

وحدث الاندماج المطلوب بين نويات نظير الأندروجين ، ديوتريوم ، الموضوع في أنبوبة تفريغ ضخمة حلقة الشكل تكون جزءا من جهاز هندسي معقد في هارويل يعرف باسم زيتا أو مجمع انعدام الطاقة النووية الحرارية . وأول صعوبة كان من الضروري التغلب عليها في زيتا كانت ناتجة من أن نويات اللدرة المحاطة بشحنة موجبة تنفر من بعضها البعض كما تفعل الشحنات المتماثلة دائما . ولذلك كان من الضروري تزويد النويات الذرية بسرعة عظيمة جدا - أي درجة حرارة عالية تبلغ حوالي مليون درجة - لاندماج نويات الديوتريوم . ولجعل الغازات في مثل هذه الدرجة من الحرارة في حالة تركيز كاف كان من الضروري استعمال مجالات مغناطية قوية ، والاحتفاظ بهذه الحالة مدة كافية لحدوث الاندماج .

وفى مجمع انعدام الطاقة النووية كانت درجة الحرارة العالية الضرورية تستغرق أجزاء الألف من الثانية فقط على فترات زمنية يبلغ طول كل منها عشر ثواني ، ولا يعرف على وجه التحديد هل كان يحدث الاندماج أم لا . ومع ذلك فإن هذا النوع من الأجهزة يبدو أنه يبشر بوسيلة جلييلة الشأن للحصول على الطاقة من أكثر المصادر جميعا وفرة للاندروجين الثقيل أو الديوتريوم ألا وهو البحر . ويبدو مثل هذا الأمل كأنه حصول على شيء دون مقابل ، حيث أن المحيطات في استطاعتها إمدادنا بمصدر وقود لا ينفذ تقريبا . وقد افترض في الحقيقة أن الاندماج النووي قد يمكن الإنسان من نبذ الوسائل الحالية القاصرة لتوليد البخار واستعمال التوربينات والمولدات ، وأنه سيأتي يوم تجعل فيه جرذلا مملوءا بالماء يمد بيتا صغيرا بالحرارة طيلة شهور الشتاء . ولكن هذا لن يكون إلا بعد مضي وقت طويل من الآن . ومن المحتمل أن تعمل المعامل ستين عديدة في حل مشاكل التفاعلات الاندماجية قبل أن تستعمل في الصناعة .

ومع ذلك فالشغف العلمي المباشر المجرد شديد ، ففي مؤتمر جنيف قدم علماء الفيزياء من الأمم المتحدة ما يقرب من ألفي بحث في خريف عام

١٩٥٨ • ولقد كشف النقباب عن كثير من الطرق المختلفة لمعالجة مشاكل الاندماج النووي • وقد أطلع الروسيون المؤتمر على نموذج لآلتهم أوجرا التي تطبق مبدأ مرآويا تعكس بمقتضاء جسيمات فى درجة حرارة عالية محفوظة فى مجال مغنطيسى حينما تنتقل الى مجال مغنطيسى أقوى • ويستعمل الجهاز الأمريكى المكافئ لهذه فى أوكل بریدج المبدأ المأروى أيضا • وهناك جهاز اندماج أمريكى آخر ، جهاز ستيلاريتور يحتفظ بالغاز فى مجال مغنطيسى ، ثم يسخنه بواسطة تفریفات كهربية وكذلك بواسطة تفاعل مغنطى • وتنبع جماعات الباحثين فى بريطانيا العظمى وغيرها من البلاد طرقا خاصة فى البحث وهناك نتائج جديدة متوقعة من يوم لیوم •

العالم والصحة

١ - أرض لزراعة احتياجات العالم من حاصلات

ان الصحافة والاذاعة تذكرنا اليوم باستمرار بأن عدد سكان العالم بزداد بمعدل عشرين مليوناً في السنة ، وأنه لن يكون هناك في القريب العاجل من الطعام ما يكفيهم . ان المستقبل لا يبشر بخير . ولقد ظل سكان البلاد الكثيفة السكان زمناً طويلاً يسدون النقص في الحاصلات الغذائية التي تنمو محلياً باستيراد تموينات من بلاد أخرى ، ولكن مثل تلك الموارد ليست بعيدة عن أن تستنفد ، وستزداد حاجة الفلاح الى المعونة العلمية باطراد .

هيا بنا لنلقي نظرة عابرة على ما تم فعلاً . ان مصدر المعونة ثلاث جهات رئيسية : الكيمياء التطبيقية التي تمد الفلاح بأسمدة للتربة وبمزيلات للأعشاب ومبيدات للحشرات ، والوسائل الآلية التي يدخل الانسان تحسينات عليها في شكل جرارات وآلات حصاد ، والأبحاث التي تجرى في تربية النباتات ورعاية الحيوانات .

وقد زاد فلاحو غرب أوروبا منذ العقود الوسطى للقرن الماضي ما تنتجه أرضهم من محاصيل بإضافة نترات الصودا وسلفات النشادر الى التربة . وكانت الرواسب الطبيعية للنترات الموجودة في شيلي والتي كانت تنقل على ظهور السفن الى بريطانيا العظمى المصدر الرئيسي فيما مضى لتزويد الأرض بالأسمدة في هذا البلد . ولكن الكيمايين الآن قد أبدنوا كيف يمكن تخليق النشادر من أيديروجين ونيتروجين الهواء النقيين . وعلى الرغم من أنه من الضروري الحصول على النتروجين بطريقة تبخير الهواء السائل المتوتية والحصول على الأيديروجين بتحليل الماء كهربياً ، الا أن التقدم في التكنولوجيا جعل مثل هذه العمليات أمراً عمليات على نطاق واسع ، وأصبح المعين الذي يستمد منه الآن النشادر بصفته أساس صناعة الأسمدة الأزوتية مؤكداً . ولا ينتج الانسان الآن هذه المغذيات الرئيسية للنبات فحسب ، بل ينتج أيضاً الكميات الصغيرة من المركبات

التي تمدنا بما يسمى المغذيات الدقيقة على شكل مواد لرش المحاصيل ،
بينما قام علماء النبات بتقدير الكميات المثلى التي يجب استعمالها في
أنواع معينة من التربة .

وعلى ذلك فبينما يقوم الكيميائي الزراعي بمد النبات بالمواد الغذائية
اللازمة ، فإن عالم الوراثة يحاول تطبيق المبادئ المعروفة في التهجين ،
وذلك لايجاد نبات جيد متين من الطراز الأول . وقد وضعت تجارب مندل
في تهجين السلسلة القصيرة والسلسلة الطويلة أسس الدراسات المفصلة
الحالية في الوراثة ، تلك الدراسات التي يمكن بواسطتها امداد الزراع
بأنواع قوية من القمح والشعير التي تجمع بين أجود صفات الحبة البريطانية
والأوروبية . ويمكن لعالم الوراثة أيضا أن ينبت أنواعا من القمح تقاوم
الصدا وتنتضج بسرعة ، وأنواعا أخرى ذات سيقان قصيرة تقاوم الجفاف
والصقيع .

ولكن مهما كان من جودة نوع الحبوب فإن المزارع في صراع دائم
ضد الأمراض التي تسببها الفطريات ، وضد الحشرات والأعشاب . وقد
خفف من الجهد الذي يبذله في اجتثاث الأعشاب استعماله سلاح محرات
مصمم تصميميا خاصا يتعمق الى درجة تكفي لتفتيت التربة وتغطية الأعشاب
والدريس في الوقت نفسه . وهناك وسائل أخرى لمحاربة الأعشاب عن
طريق استعمال مركبات لقتلها أو إيقاف نموها بحيث لا تكون مؤذية
إطلاقا للمحصول الرئيسي . وهذه المركبات المنتقاة التي تعرف باسم
قاتلات الأعشاب تشمل الميثوكسون وهو مشتق من حمض الخليك الذي
أبان علماء فسيولوجيا النبات أنه يعوق نمو الأعشاب العادية التي تنبت
وسط حقول القمح . ويهتم الناس بالميثوكسون اهتماما خاصا ، إذ يمكن
تصنيعه في معمل الكيمائي ، ومع ذلك فهو مطابق تماما للهرمون المنظم
لنمو الطبيعي الذي يقرر سرعة نمو النبات . وقد زودت أبحاث كيمياء
أخرى المزارعين بمركب د.د.٥٠ (١) المشهور والجاميكسين (٢) اللذين ثبت
مفعولهما ضد خنفسة الكورادو ، وآفات حشرية أخرى .

ولكن على الرغم من اضافة الانسان مواد مغذية الى التربة ، وعلى
الرغم من قضائه على كثير من الآفات التي تنتقض على محاصيله ، فالزاجب
أولا ان تكون لديه أرض كافية . ومع ذلك ففي أنحاء العالم كله يجرف
البحر التربة ، أو تعريها الرياح حاملة اياها الى مكان بعيد . وتحصد
هذه التعرية كما تسمى ببطء شديد لدرجة أن التلغ نادرا ما يلاحظ
حينما تهوى صخرة عالية الى البحر الا في الأقاليم الساحلية .

(١) د . د . د . هو الاسم الموجز لديكلورو - ديفيلين - تريكلورين - أحد مشتقات
البنزين .

(٢) الجاميكسين هو الاسم التجاري لمضاد سلسلي كلوريد البنزين الجيمي .

ان أضمن وقاية للتربة ضد التعرية هي النباتات النامية ، وذلك لان الجذور تمسك بالتربة ، وتقيها الأوراق المطر والرياح • اذن فالاحتفاظ بزراعة مستقرة هي احدى الطرق لتجنب التعرية • ان النباتات من شأنها حفظ التربة الخصبة ، ولكن عند فقد التربة العليا فان المطر يزيل الطبقات السفلى بسهولة وتتعري المناطق المتآكلة • ولذلك فحينما بدأت الولايات المتحدة في محاربة التعرية في طول البلاد وعرضها ، كان الهدف الأول لها منع جرف التربة العليا • وتم الكثير في هذا الشأن عن طريق جعل الأرض على شكل مصاطب متدرجة طبقا لخطوط المحاذاة الطبيعية • وقد أفادت مثل هذه الاجراءات فقط عند اتخاذها في مساحات واسعة بطريقة مخططة •

ومع ذلك فما زالت هناك أماننا مشاكل كبيرة • فمن المقرر أنه حتى في دنيانا الحالية المزدجة ما زال يوجد هناك لكل فرد من السكان خمسة أفدنة من الأرض صالحة لإنتاج الغذاء • ومع ذلك فالمنزوعة الآن فدان ونصف لكل نفس • ولذلك فالمسألة العاجلة فيما يختص بسكان العالم الآخذين في الازدياد هي كيف يمكن الاستفادة بالثلاثة أفدنة ونصف الباقية لكل رأس ؟ وتقوم الآن محاولات لتحويل الأرض المهملة الى مناطق رعى جيدة بادخال حشائش تقاوم الجفاف من استراليا وجنوب أفريقيا الى المناطق التي لا يوجد فيها مورد ماء طبيعي كاف • ولكن الاستفادة من المسافات الهائلة من الأرض غير المستعملة في المناطق الاستوائية الرطبة مازالت مشكلة لم تحل •

٢ - موارد الطعام

لقد تعرضنا حتى الآن الى بعض الطرق التي يساعد العلم بها على زراعة كميات أكثر من المواد الغذائية • ان انتاج هذه المواد لم يزد فحسب ، بل ان طرقا أفضل تبتكر الآن لحفظ هذه المواد ، ففي مخازن البضائع وعنابر السفن تقى الوسائل الكيماوية للتحكم في الآفات شحنات هائلة من البضائع ، كما تمكن الطرق الدقيقة للتبريد السريع وما يتبع ذلك من تجفيف في فراغ عال تلك الأطعمة كاللحم وعصارات الفاكهة من الاحتفاظ بها في حالة طازجة مددا طويلة • ومع ذلك فربما كان الأمر الأجدر بالملاحظة هي الطرق التي يساعد بها العلم على زيادة المواد الغذائية بطريقة غير مباشرة ، وذلك بتوفير علف للماشية من القش صالح للطعام، وطعام للإنسان من مواد لم تمس للآن • ويكفي أن نضرب مثلا واحدا لذلك سنتحدث عنه الا وهو المارجارين ذلك الطعام المفيد على الرغم من عدم استساغته البالغة •

ويتوقف هذا الناتج على مهارة الكيماوى فى تجميد الدهن السائل الذى يتكون منه زيت الحوت ، وجعله بذلك صالحا للاكل . وتعرف هذه العملية بعملية الأدرجة (١) . ويمرر الأيدروجين فى زيت الحوت المضغوط بغير تطهير مبدئى مع وجود مؤثر لمس مصنوع من النيكل . حينئذ يحدث تغير كيماوى ويصير الزيت ذا صلاحية شديدة . ثم بعد ذلك تخمض فيه دهون مشتقة من مصادر نباتية مثل فول الصويا ، والبطاطة وجوز الهند ، بالإضافة الى الكميات اللازمة من فيتامين د . ويضاف الى ذلك لبن ومركبات معينة تحفظ الماء فى حالة تشتت دقيق . وأخيرا تضاف احدى المكونات المعطرة للزبدة الطبيعية - الدياسيتيل - مع ملح ثم يعبا الناتج النهائى تعبئة تراعى فيها القواعد الصحية بواسطة الوسائل الميكانيكية ، ويباع فى عبوات أنيقة بثمن قدره نصف جنيه لكل منها .

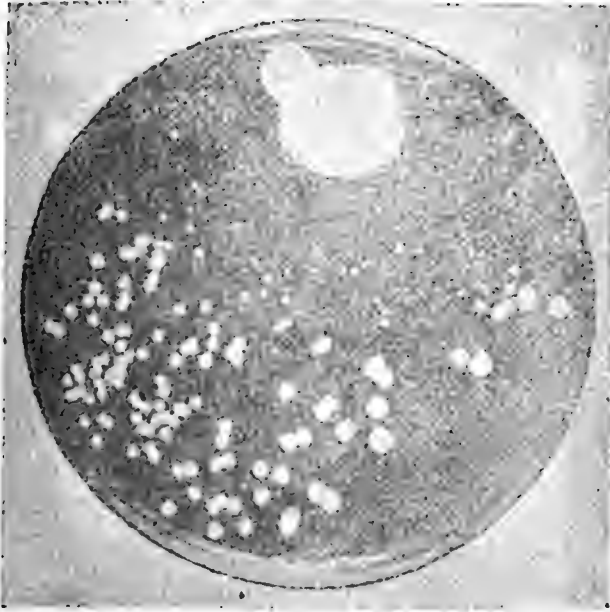
ومن الوسائل الهامة لزيادة التموينات الغذائية تجنب التبخير لا فى المواد ذاتها فحسب ، بل أيضا فى مكونات المواد التى تجعل لها قيمة غذائية . ويتمثل هذا فى العناية التى تبذل فى المراحل كلها ابتداء من غرس حبة القمح الى رغييف العيش فى المخبز . لابد أولا من تسخين الحب بحرص شديد اذا لم تكن قد جففته الشمس والهواء ، ثم يجب الاحتفاظ بالمكونات الغذائية الهامة للحب أثناء طحنه لا أن تهمل . ويجب اضافة أملاح الكالسيوم ، والفيتامينات الضرورية . وفى النهاية تضاف مادة ضد التعفن لضمان احتفاظ الخبز بطراجه .

ان العلم بالكيمياء والتغذية الذى تقوم الصناعة الحديثة للدقيق العادى وللمارجارين عليه قد يكون ذا أثر فى نفوس جبهة الناس الذين يشتهرون من حيث أذواقهم بالمحافظة الى درجة غير حميدة ، والذين يرتابون ارتيابا شديدا فى لعبت بطعامهم . ومع ذلك فلمحة عابرة الى التاريخ قد تعيد الطمأنينة الى نفوسهم ، اذ كان غش الطعام فى وقت ما أمرا مألوفا (٢) وقد تغلب الناس على هذا ببطء عن طريق التشريع فحسب . وتتخذ الاحتياطات اللازمة فى الوقت الحاضر فى بريطانيا العظمى وغيرها من البلاد الصناعية الأخرى ضد الغش وضد تلوث الطعام بالجملة .

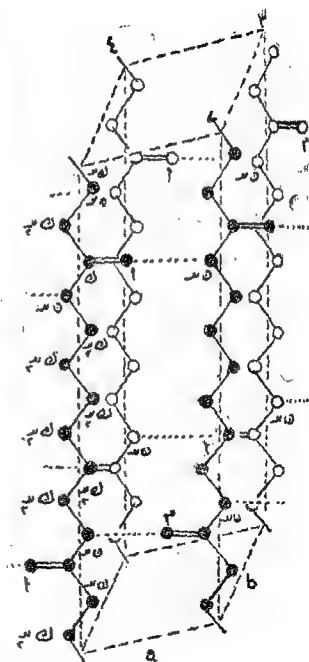
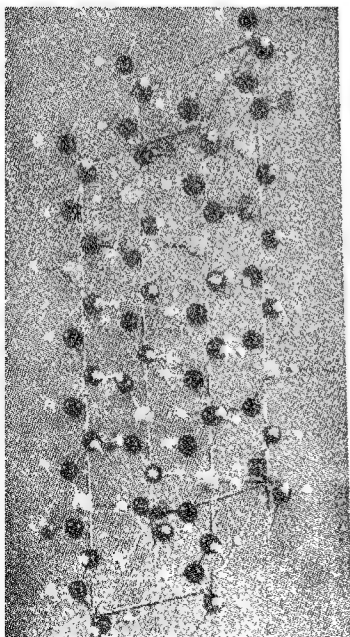
وتستعمل الآن طرق أحدث للمحافظة على الطعام . والهدف من هذا هو التخلص من التلوث عند المنبع بمهاجمة تلك الكائنات الحية المجهرية مثل الخمائر والعفن والبكتريا التى تسبب تحلل الطعام . ومن المعروف

(١) الإنحداد أو المزج بالأيدروجين أو المعالجة به . (المترجم)

(٢) كان الدقيق فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر يفتش بالنسب ، والطبايئير وفئات العظام ، وحتى احيانا بالرماس الأبيض .



طبق الزودع الأصلي الذي شوهد عليه أثر البنسليين
يمثل مسهورة بنسليام ، ونسيم ماولة ، ككربا سحجة متخالة ، مسهورة ككربا سحجة
عادية .



نموذج للتيلون البلوري

تتركب البوليمرات من جزئيات سلسلية طويلة تتكون من تكرار منتظم وحدة تكوينية بسيطة. وفي نيلون - ٦ تتخذ هذه الوحدة الصيغة الكيميائية الآتية: $(\text{C}_6\text{H}_{10}\text{O}_2)_n$ حيث يرمز للأيزوبروبيلين بـ C_6H_{10} وللتروجين بحرف N والأكسوجين بحرف O وفي المادة المستعملة لإنتاج الألياف تتعد ١٠٠ أو أكثر من هذه الوحدات بعضها مع بعض لتكوين الجسور ذات الفلبسة.

والصورة صورة النموذج بين ترتيب اللغات . والوصلات الطولية أي - الساعات بين مراكز الثرات المتحدة كما يلي - والزوايا بين الوصلات المختلفة مرسومة طبقا لمقياس مضبوط ، ولكن أحجام الكرات لا تمثل الأحجام الحقيقية للذرات ويشير الرسم التيساري المرافق للنموذج .

أن الأشعة السينية وأشعة جاما والعزم الإلكترونية تسبب ضومر الخلايا الحية ، وتؤدى أحيانا الى نتائج مدمرة تهدد الحياة البشرية • ومن جهة أخرى قد توقف جرعات محددة من مثل تلك الاشعاعات نمو الكائنات الحية الدقيقة ، ومع ذلك تترك الطعام فى حالة صالحة للاستهلاك البشرى -

ولكن الأمر فى حاجة الى كثير من الأبحاث ، وذلك لأنه حتى ولو صار الطعام نفسه غير مشع ، فإنه قد يكون قد اكتسب مذاقا أو رائحة غير مستساغة بدرجة بسيطة أثناء عملية التعرض للأشعة • وإذا كان الأمر كذلك ، فمهما كان من طول المدة التى قد تبقاها شريحة لحم فى حالة طازجة بالمعنى البكتريولوجى ، فقد ترفض ربة البيت شرائها • اذن فالأمر فى حاجة أيضا الى أبحاث فنية لايجاد طرق للتعرض للأشعة رخيصة بدرجة تكفى لجعل الشركات التجارية تتعهد هذه المهمة • ويبدو أن أحسن مجال مبشر بالخير هو معالجة الحبوب والبطاطس فى مخازنها ، اذ وجد أن الجرعات الضعيفة من التعرض للأشعة تمنع تناسل الخنافس التى تهاجم مخازن الحبوب ، وتخدم كذلك مفعول البراعم الثابتة فى ذرنة البطاطس • ويمكن بهذه الطريقة الاحتفاظ بطعام قيم بواسطة طريقة لا تبذير فيها •

ان أمامنا الكثير مما يجب علينا عمله لتوفير المواد الغذائية لسكان البلاد الصناعية الآخذين فى الإزدياد • لقد انقضت من عهد بعيد تلك الأيام التى كان يستطيع فيها كاتب من كتاب القرن الثامن عشر أن يقول : ان خبزى حلو ومغذ ، مصنوع من قمحى الخاص ومطحون فى طاحونتى الخاصة ومخبوز فى فرنى الخاص ، ولحوم صيدى طازجة من الأجمات ، وأسماك السلمون والاطروط قادمة تتلوى من الجدول • ولكن ولو أن الطعام اليوم غالبا ما يعلب ، ويبرد ويجمد أو حتى يتعرض للأشعة ، فإن نسبة أكبر بكثير من السكان تجد أنواعا متباينة من الطعام أكثر مما كان ذلك ممكنا فى الأيام السابقة للعصر الصناعى •

٣ - تقدم الصحة العامة

من المحقق الآن أن الناس فى البلاد المتصنعة أحسن صحة وأطول عمرا مما كانوا عليه حتى منذ خمسين عاما • وتثير الأرقام المستقاة من انجلترا وويلز الدهشة التامة فقد كان معدل وفيات الأطفال أثناء سنى ١٩٠١ - ١٩٠٥ ، ١٣٨ فى كل ألف من المولودين أحياء ، وبلغت هذه النسبة فى ١٩٤٨ - ٣٤ • وفى الخمسين سنة الأخيرة هبطت نسبة الوفيات الناتجة من الحميات الرئيسية والأمراض المعدية مثل التيفوس ، والتيفود والجدرى ، والحمى القرمزية ، والكوليرا ، والسعال الديكى ، والدفتريا

بنسبة ٩٤٪ ، وهبطت نسبة الوفاة بالسل ٧٤٪ (١) . وهذا التحسن العظيم فى الصحة الذى لم يكن يرجع فحسب الى نواحي التقدم فى العلاج بل كان يرجع أيضا الى ازالة الأحياء القذرة ، وتحسين الأسكان ، وتوفير طعام أفضل ورعاية صحية أكثر كفاءة وامدادات مائية أكثر وفرة ونظافة ، وأجور أعلى ، وأحوال عمل تتوفر فيها ظروف صحية أفضل .

والتقدم فى الأمور الصحية العامة فى بريطانيا العظمى مدين بدرجة كبيرة لحماس المصلحين من أمثال تشادويك (١٨٠٠ - ١٨٩٠) الذى لم يقنع السلطات بخطر الماء الملوث فحسب ، بل نبههم الى الحاجة لرعاية عامة من واجبات الاتجاه الى تحسين الحياة البشرية . وكان هناك وراء تشريعات الصحة العامة التى صدرت فى الأجيال الأخيرة شعور أكبر بالمسؤولية نحو العمال ، كما أعان انتشار التعليم على اتخاذ اجراءات للإصلاح الصحى من شأنها الوقاية من الأمراض الشائعة وبهذا الخصوص قامت الخدمة الطبية المدرسية فى إنجلترا وويلز بالكثير من تنوير الرأى العام ، ذلك العمل المتواصل الشاق ، وذلك تنفيذاً للقانون الصادر عام ١٩٠٧ .

وتبجت بعض التحسينات فى صحة العمال الصناعيين عن تطبيق الطرق العلمية بطريقة أكثر مباشرة فى الصناعة . وعلى ذلك ففى الأماكن التى حلت القوى الكهربائية فيها محل قوة البخار - بمجلاتها وسيورها - ورشها المتحركة - فى المصانع نجد هناك تقدماً هائلاً . ونجد المصنع نفسه أنظف وأقل ضجيجاً ولا يزدحم بعوارض يتراكم الغبار عليها . ويمكن بناء المصنع بسهولة اذ لا يحتاج لمقاومة للضغوط التى تنشأ عن نقل الحركة بالسيور . وينتج عن ذلك وجود فراغ أكثر لانشاء النوافذ ، وهذا مما يساعد بالإضافة الى استخدام تدفئة واضاءة جيدتين على راحة العمال ورفاهيتهم العامة .

وقد كشف التفتيش الصحى على المصانع الذى بدأ فى ختام القرن التاسع عشر عن كثير من الحقائق عن الحرف الخطرة ، وأبان التقسيم العلمى عن كيف يمكن تجنب البعض منها . ان فى مقدرة العمال الذين يستلزم عملهم معالجة الرصاص والزرنيخ والفسفور أن يتخذوا الآن احتياطات تقلل من الأخطار التى يتعرضون لها بدرجة كبيرة . وقد قضى تقريباً على نسبة الإصابة العالية المخزية بمرض اعتام عدسة العين بين عمال الزجاج . وقد أبانت الأبحاث الطبية للأحوال الصحية فى بعض الحرف كالبرادة وتجليخ المعادن خطر الغبار . وقل ما اتخذ من احتياطات

(١) هذه الأرقام مستقاة من كتاب الطب فى خمسين عاماً (الطبوع فى لندن سنة ١٩٥٠)
والذى نشرته نقابة الأطباء البريطانية ، ص ٢٥٣ - ٢٥٤ .

بيئة كرش الهواء بالماء وتهيئة تهوية جيدة من هذه الأخطار التي تتعرض لها أعداد كبيرة (١) .

وللعمال الصناعى مثله فى ذلك مثل غيره من أفراد المجتمع الحديث نصيب من تلك التطبيقات العلمية المباشرة التى تتمثل فى الطرق التى تمارس بها المستشفيات الحالية مهمتها فحينما يمرض فانه ينتفع بالمواد التخديرية والعقاقير المخففة للألام . وفى بريطانيا العظمى الآن مصلحة معامل الصحة العامة ، مهمتها معالجة مشاكل الأمراض الوبائية التى تستلزم أبحاثا بكتريولوجية فنية . وتساعد مثل هذه الخدمات على الاحتفاظ بمستوى عال من الصحة العامة بين الجميع . ويمكننا أن نضرب لذلك مثلا آخر ، ألا وهو مصلحة نقل الدم فى هذا البلد ، تلك المصلحة التى تنقذ الآن حياة كثير من الناس . وقد استمدت المعلومات الأساسية عن هذا الموضوع من سلسلة طويلة من الأبحاث التى بدأت فى قيينا عام ١٩٠٠ باكتشاف فصائل الدموية ، والتى استمرت عن طريق تقرير طرق اختبار الأفراد الروتينية لمعرفة نوع فصيلتهم ، ووصلت الى اتقان طرق تجميد بلازما الدم وحفظها عن طريق التبريد . وتساعد الاكتشافات التى تمت بخصوص فصائل الدم فى السنين العشر الأخيرة بالإضافة الى ما يقوم به رجال علم الوراثة على الوقاية من بعض أمراض الأطفال حديثي الولادة النادرة . وعلى ذلك فهى تقلل أيضا من نسبة وفيات الأطفال .

٤ - الوقاية ومنع العدوى

ربما كانت أكبر معونة مباشرة يقدمها العلم للوقاية من المرض هى تلك الوسائل التى يهينها للقضاء على الكائنات الحية الدقيقة التى تسبب الأمراض قبل ان تشرع فى هجماتها الضارة على الانسان . ان بسطورة اللبن ، وتعقيم الماء فى الحمامات العامة ، ومعالجة ماء الجارى بما يسبب القضاء على بكتيريا الأمراض انما هى طرق تعين على صيانة الصحة العامة ويمكن أن يزف سكان البلاد المتدلة الآن التهنئة لأنفسهم على أن الاجراءات الصحية التى اتخذت قد قضت تقريبا على الكوليرا ، والتيفود والجدرى ، والتيفوس . ومع ذلك فان سكان البلاد ذات الأجواء الأدفا

(١) أن السيليكونس وهو الاسم العام الذى يطلق على الحالات المعروفة بالسيل الذى يصيب عمال المناجم ، والربو الذى يصيب صانعى الخزف مازال خطرا يتعرض له كل العمال الذين يتعرضون لنياب دائم ، ويكون مشكلة عويصة لرجال الطب .

في خطر دائم من عدد الأمراض أكثرها انتشاراً المalarيا (١) ، ومع ذلك قد تسرب في هذه الأيام ، أيام السفر السريع بالجو ، الأنواع الخاصة من البعوض الذي يحمل المalarيا الى أي مكان في العالم . ويمكن السيطرة على المalarيا سيطرة فعالة بواسطة القضاء على البعوضة وهي يرقة . وقد حدث هذا في وقت ما بواسطة عملية المعالجة الشاقة للأراضي المغطاة بالمستنقعات بالبرافين أو زيت البترول ، تلك العملية التي كانت تقلل التوتر السطحي للماء لدرجة أن تفقد يرقات البعوض سطوتها على السطح الأسفل للماء ، وتموت لنقص الهواء . وهناك الآن طريقة أكثر فاعلية ، تتلخص في استعمال مبيد الحشرات القوى د.د.ت مسدداً في زيت مناسب ورشه على الأراضي باليد أو بطريقة أحسن من ذلك بواسطة الطائرات .

وهناك مبيد حشرات آخر قوى ، جاميكسين ، يستعمل أيضاً في مهاجمة البعوض في طور بلوغه وكذلك وهو ما زال يرقة ، وقد أمكن باستعمال كل من الجاميكسين ، و د.د.ت القضاء النهائي على الاصابات الناتجة عن البعوض في قبرص . وكذلك فإن نجاح د.د.ت في الوقاية من انتشار وباء التيفوس (٢) في نابلي في نهاية الحرب العالمية الثانية إنما هو مثل جلي على الخدمة التي يسديها عالم الكيمياء المضوية لمحاربة ذلك العدو للدود ، المرض .

لقد ذكرنا الى الآن امثلة قليلة لنجاح الوقاية من العدوى ، ومع ذلك فحينما تلج الكائنات الحية الدقيقة الجسم البشري ، فاننا نلجأ الى عقار يقضى على هذه الكائنات دون الحاق ضرر بالأنسجة . والسالفازان الذي انتج عام ١٩٠٩ لعلاج الزهري مثل مشهور لمثل هذا العقار ذي التأثير المباشر . وكان من شأن البحث الطويل الذي استلزم جهداً شاقاً جداً ، وادى في النهاية الى اكتشاف السالفازان ونجاحه في تخفيف ويلات مرض خطير تشجيع الأبحاث الأخرى عن مواد كيميائية ذات تأثير علاجي خاص . ولم تكتشف لمدة طويلة مركبات ذات تأثير فعال ضد العدوى البكتيرية العادية ، وبقي الحال كذلك حتى سنة ١٩٣٥ حينما أعلن علماء

(١) تقتضى المalarيا ضريبة باهظة من الآلام البشرية ، وقد قدر عدد من يموتون منها كل عام بثلاثة ملايين من الأنفس . ويماني سبع سكان العالم الأسمى من آثارها . وقد استعمل المركب الطبيعي كينين مدة طويلة لعلاج مرضى المalarيا . واثناء الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ - ١٩٤٥ كان هناك نقص خطير في الكينين الطبيعي ، و انتج الكيميائيون عقاراً ضد المalarيا هو بولودرين ، وهو عقار وقائي أشد من الكينين عشر مرات .

(٢) ينتقل التيفوس بواسطة القمل .

الأمراض فى ألمانيا ان صيغة حمراء تدعى البرونتوزيل ذات أثر فعال ضد عدد من الأمراض السيجية (١) . وقد وردت بعد ذلك مباشرة أنباء من معهد باستير فى باريس ان جزءا فقط من مركب البرونتوزيل ذو أثر فعال ضد البكتيريا ، وان العامل الحقيقى فى ذلك هو مركب أبسط ، السلفانيلايد . وبعد ذلك مباشرة قامت المحاولات المنظمة على قسدم وساق فى لندن ، وزودتنا الأبحاث العملية بالاضافة الى ما تفتقت عنه اذهان الكيميائيين الصناعيين بسلسلة من العقاقير المعروفة غالبا باسم مركبات السلفا ، وأحسن ما عرف منها م ، ب ٦٩٣ .

وقد وجد أن عقاقير السلفاناميد مأمونة الجانب بدرجة كبيرة وذات اثر فعال ضد سلسلة كبيرة من الأمراض السيجية المعدية مثل التهاب اللوز ، والالتهاب الصدرى ، وحمى النفاس ، والحمى الراجعة ، والتسمم الدموى . وقد هيّطت بالفعل نسبة الوفيات بين الأمهات الناتجة عن حمى النفاس الى رقم منخفض بالنسبة الى استعمال علاج أكثر تعقلا ، وأكثر مراعاة للصحة ومع ذلك فقد أصبحت نسبة الوفيات أقل بعد استعمال مركبات السلفا .

٥ - المضادات الحيوية

على الرغم من أن عقاقير السلفاناميد برهنت على أنها عقاقير قيمة ، الا انه وجد أنه من الضرورى بلل عناية كبيرة عند استعمالها ، حيث يتبع استعمالها أحيانا أعراض تسمية ، وبعبارة أخرى لا تهاجم هذه العقاقير البكتريا الحديثة للمرض فحسب ، بل قد تهاجم خلايا جسم الانسان التى تأوى هذه البكتريا كذلك . ولذلك فإن رجال الطب ظلت عيونهم الفاحصة مفتوحة لعلهم يهتدون الى عوامل أكثر انتقاء وربما أكثر فاعلية . ولم يذهب بحثهم دون طائل : ففى خلال الأيام الحديثة أوجدت فصيلة جديدة من المواد تدعى المضادات الحيوية .

وتختلف المضادات الحيوية عن غيرها من العوامل البكتيرية فى كونها يحصل عليها من العفن أو من كائنات حية دقيقة تنتجها فى مجرى حياتها العادى . ويتقدم العمل الآن فى تخليق المضادات معمليا . ان تأثير المضاد الحيوى هو جعل كائن مجهرى حساس غير قادر على مواصلة نواحي النشاط الكيماوية التى يحتاج اليها فى حياته . وقد وجد ان هناك مضادات حيوية تهاجم بهذه الطريقة انواعا عديدة من الكائنات المجهرية،

(١) السيجيات هى الاسم الذى اطلق على تلك البكتيريا التى تظهر تحت المجهر كسلاسل متغيرة .

ومع ذلك فليس لها فى الواقع آثار سيئة على قياسام الجسم البشرى بوظائفه . وربما كان أشهر هذه المضادات الحيوية هو البنسلين ذو الأثر الفعال ضد الكائنات المسببة للالتهاب الصدرى، وأمراض خطيرة أخرى . ومن بين المضادات الحيوية الأخرى المستعملة على نطاق واسع الاستربتوميسين والأوروميسين ، وكلاهما ذو أثر فعال ضد بعض البكتريا التى تقاوم البنسلين .

ان قصة اكتشاف البنسلين وانتاجه فيما بعد على نطاق واسع قصة مثيرة للاهتمام بدرجة أنه من الواجب تخصيص بعض الوقت لمناقشتها .

فى عام ١٩٢٨ كان الدكتور فليمنج الذى صار فيما بعد السير الكساندر فليمنج الذى كان يعمل فى مستشفى سانت ميرى فى لندن يقوم فى معمله بإجراء تجارب على زراعات من البكتيرى العنقودى ، وهو الكائن الذى يسبب الدمل على البشرة ، وقد لاحظ على احدى شرائح الزرع رقعة من عفن بسبب التلوث ، وتبدو من حوله مستعمرات البكتريا العنقودية كأنها تنكص الى الوراء . وقد أثار هذا حب استطلاعهم حالا . وعندما مضى أسبوع آخر وجد أن السائل الذى نما فيه هذا العفن لم يوقف نموالبكتريا العنقودية فحسب ، بل أوقف أيضا نمو كثير غيرها من بكتريا الأمراض الشائعة .

لقد كان هذا اكتشافا عجيبا ، اكتشافا كان الأطباء فى انتظاره منذ أيام اللورد ليستر . وعلى الرغم من أن الكثير قد تم منذ ذلك الوقت ، فقد أبانت أبحاث سير الكساندر فليمنج فى الجروح المتقيحة أثناء الحرب العالمية الأولى أن المواد المطهرة التى كانت مستعملة حينئذ غالبا ماكانت سامة لأنسجة الجسم كما كانت سامة للبكتريا المهاجمة . وقد وجد الآن مطهرا غير ضار بخلايا الجسم ، وحيث أن اسم العفن كان بنسيليوم نوتيتيم ، اقترح أن تسمى المادة المصفاة من الحساء الذى زرع فيه العفن بنسيلين ، وهذا هو اصل تلك الكلمة المألوفة .

وتنتقل قصتنا الآن لأوكسفورد عام ١٩٣٩ حيث كان السير هوارد فلورى وآخرون يبحثون عن مواد ضد البكتريا تنتجها الكائنات المجهرية . لقد خطط العمل أولا كدراسة أكاديمية محضة ، وأمدته مؤسسة روكفلر بالسنون المالى . وكانت اول مواد فحصت هى زراعات فليمنج من البنسلين نوتيتيم . وقد نجح فلورى فى الحصول منها على مسحوق أسمر قاتل للبكتريا أشد بكثير من مركبات السلفوناميد ، وقادر على إيقاف نمو البكتريا العنقودية فى محلول مخفف بنسبة ١ على ٥٠٠٠٠٠ . ومما أثار الغرابة بدرجة كبيرة أنه حينما تم عزل البنسلين على هيئة ملح صوديوم

تقى تحقق أن هذا المسحوق الأسمر يحتوى على ١٪ من البنسيلين، و٩٩٪ من الشوائب . ومع ذلك فإن الأبحاث الطبية الأولى فى اكسفورد اتى أجريت بالكميات الصغيرة من البنسيلين التى كانت ميسورة حينئذ كانت كافية لأن تبين أن مادة ضد البكتيريا لها قوة هائلة أصبحت حينئذ ذلك فى تناول اليد . ومع ذلك فقد كانت المشكلة هى إيجاد وسائل لإنتاجها بكميات كبيرة كافية .

وأول طريقة استعملت كانت نوعا من مضاعفة الطريقة العملية لزراعة العفن على سطح هلام مغذ . وكان هذا معناه إيجاد زراعات فى قوارير محفوظة فى درجة حرارة ثابتة يرعاها باحثون موفقون اتخذوا احتياطات محكمة لبقائها فى حالة خالية من الجراثيم ، إذ وجد أن نشاط البنسيلين سريعا ما يقضى عليه بواسطة الكائنات المجهرية التى تفروه من غبار الهواء . وبعد زيارة سير هووارد فلورى للولايات المتحدة فى ربيع عام ١٩٤١ ابتكرت طرق أحسن يمكن بها زراعة العفن لا على سطح المادة المغذية فحسب ، بل أيضا فى انحاء المادة بأكملها . وعلى ذلك يمكن أن يحل صهرج واحد معرض للهواء محل آلاف من القوارير التى ترمى فرادى . وهذه الطريقة التى مورست لأول مرة فى الولايات المتحدة هى الآن طريقة « الاستنبات العميق » لصناعة البنسيلين لتوزيعه على المستشفيات فى جميع أنحاء العالم .

وبينما كانت طرق الإنتاج على نطاق واسع تتحسن حتى تصل درجة الكمال ، كانت الأبحاث التفصيلية الدقيقة الى درجة متناهية مستمرة فى المعامل على كلا جانبي المحيط الاطلسي . وقد أبانت الأبحاث التى جرت بخصوص الطبيعة الكيماوية للبنسيلين أن هناك أربعة أو خمسة أنواع مختلفة من البنسيلين لها درجات مختلفة من الفاعلية فى داخل الجسم الحى . وأدت الملاحظات الدقيقة الى إيجاد طرق لإنتاج أعظم أنواع البنسيلين فاعلية فى العلاج المسمى مركب ج ، وحفظه دون أن يحدث هذا تغيرا فى حالته . واتخذت لهذا الغرض أيضا طريقة التجميد السريع بالتبريد والتجفيف فى فراغ (وهى الطريقة التى استعملت فى تحضير مصل الدم البشرى والبالزما أثناء الحرب العالمية الثانية) كمثال آخر للعلاقة الوثيقة بين الأساليب الهندسية ذات النطاق الواسع والأبحاث الأساسية .

ولم يمش على مضادات حيوية تهاجم الفيروسات الحقيقية دون مهاجمة خلايا جسم الإنسان الذى يأتى الفيروس ، والسبب فى ذلك هو أن الفيروسات الحقيقية تعيش فى ارتباط أشد وثوقا بكثير مع مضيفها من البكتيريا ، ولذلك فإن مركبا كيماويا يمزق أوصل حياة الفيروس من

المحتمل أن يقوم بذلك مع خلايا الشخص المضيف لهذا الفيروس أيضا . ومع ذلك فهناك فيروسات كبيرة هي وسط في نوعها بين البكتيريا والفيروسات الحقيقية في كونها مستقلة استقلالاً نسبياً عن المضيف . وقد ثبت أن بعضاً من هذه حساس بالنسبة للمضادات الحيوية . ومن أمثلة هذه فيروس مرض البقاع (الذى يصيب البقاعات) ، والكائن الشبيه بالفيروس الذى يسبب حمى النفاس .

وهناك أمر آخر يحد من مفعول المضادات الحيوية ، وهو أن بعض البكتريا التى تسبب الأمراض ثبتت قدرتها على ملازمة نفسها مع البيئة الجديدة بايجاد سلالات تقاوم المضادات الحيوية . وكلما زاد استعمال تلك المضادات الحيوية كلما زاد تولد تلك السلالات المقاومة . ونتيجة لذلك لا يصف رجال الطب تلك العقاقير العجيبة، إلا مع الحطة المناسبة . ومع ذلك فإن المضادات الحيوية تحتفظ بكونها إضافة على جانب كبير من الأهمية لما لدينا من أسلحة من المواد الكيماوية المبيدة للبكتيريا .

٦ - الصحة العقلية

من المعترف به الآن أن بعض الأمراض التى يرثها الانسان لا ترجع فى أصلها الى غزو الجسم بواسطة جراثيم مسببة للأمراض ، ولكن الى عدم قدرة الشخص نفسه على التلاؤم مع الاجهاد العاطفى الذى يعانیه . - أن الحد الفاصل بين الجسم والعقل - اذا تجاسرنا فى الحقيقة على أن نفل على هذا التفريق القديم - حد غامض جداً . ويسعدو أن علاج بعض الأمراض الآن يكون فى الترويح عن العقل الحزين . ومازلنا نذكر ماطلبه ماكبث (١) من طبيبه قائلاً :

الا يمكنك أن تمد يد العون لعقل مريض
وتنتزع من الذاكرة حزناً ثابت الجذور
وتستأصل القلائل المنقوشة فى الدهن ؟

وهنا أجاب الطبيب : فى هذه الحالة لابد للمريض أن يمد يد العون لنفسه .

ومازال هذه اليوم هي الاجابة التى يعطيها الطبيب كملجأ أخير ، ولكنه يساعد الطبيب على أن يساعد نفسه . وهذه هي كل مهمة التحليل

(١) أحد أبطال رواية من روايات شكسبير أكبر شعراء الإنجليز . استضاف الملك الذى أحسن إليه وقتله . وقد عاش ماكبث بعد استيلائه على العرش فى جحيم نفسى ، وانتهت حياته نهاية مريضة (المترجم) .

النفسى الذى نشأ نتيجة للعمل الرائد الذى قام به سيجموند فرويد (١٨٥٦ - ١٩٣٩) . وقد أدت دراسة الاحلام وأمراض العصبان بفرويد الى ان يبحث قواعد الصراع العقلى الذى ينشأ عن تحطيم الطفولة . وقد قاسى فرويد كثيره من العظاء من انحرافات المشهرين . وان كثيرا من البيانات التى لا تمت بصلة ما الى مواضيع حديثهم فى كتبائهم الصغيرة ومجالاتهم البراقة لتعطى صورة خاطئة تماما عن الرجل . ومع ذلك نجد ان رجال الطب فى العالم لديهم اليوم كنتيجة عامة لما قام به فرويد فهم أفضل لما تقاسيه البشرية من ويلات . وان لدينا الآن فكرة اشد تواضعا نوعا عن سلوكنا اليومى ، وذلك حينما ندرك ان كثيرا منه غير معقول ، وأنه متاصل فى دوافع لا ندرك لها كنها .

ولأت المعونة ايضا للمرضى عقليا من نواحى التقسدم التى تمت فى فسيولوجيا المخ ، وقد أسعفت عملية الليكوتوميا وهى عملية تجرى فى الفصوص الامامية للمخ اولئك الذين يعانون من هوم ثقيلة . ونتيجة لذلك يعيش امثال هؤلاء الناس عيشة هادئة ولكنها خاملة نوعا ، ولكنهم فى استطاعتهم اقامة اودهم الى حد كبير . وغالبا ما تنتج طرق طبيعية محضة مثل العلاج بالصدمات الكهربائية فى التفريع عن الدهن المكروب . وزيادة على ذلك فقد أصبح الاتجاه العام من ناحية المرض العقلى أكثر تسامحا ورحمة . ولذلك فمن الأجدر لأولئك المازومين نفسيا ان يبحثوا عن علاج ، اذ قد أعاد الأمل فى الشفاء مع طرق العلاج الوظيفى المعقولة كثيرا من المرضى الى حياتهم العادية المألوفة . وقد يأتى التقدم فى مجال رد الاعتبار من مصادر عدة : من علم النفس ، والطب ، ومن تعليم مستنير ، ومن اجراءات المحافظة على الصحة العامة . وبالصبط كما ان الكوليرا قد امكن السيطرة عليها فى أوربا فى القرن التاسع عشر ، وكذلك قد تستسلم فى القرن العشرين الاختلالات العقلية الحادة مثل مرض انشطار الشخصية للجهود المشتركة فى الأبحاث العلمية وللقيادة الحكيمة للصحة العامة .

ان الصحة العقلية تعنى بالطبع شيئا أكثر من عدم وجود مرض . ويحتاج المجتمع القوى الى أفراد يواجهون الحياة بجنان ثابت . وكما ان المسكنات والأقراص المنبهة تضر أكثر مما تنفع ، كذلك فان العلاج الوقائى المفرط للأمراض العقلية الصغرى قد يعتصر مرونة الانسان الطبيعية . ان هناك أمرا واحدا مؤكدا هو ان المعرفة العلمية نفسها تقف فى العلاقات الانسانية موقف الحياد . انها قد تستعمل لصالح الانسان أو للقضاء عليه . وقد تستعمل دراسة تفاعلات الانسان تحت تأثير الاجهاد لتدمير كرامته كما يظهر فى تلك الصورة المرعبة لقوة الاخ

الكبير فى عام ١٩٨٤ . ويمكن أن ينحرف علاج لاعتلال خطير الى طريقة
لأحداث تلك الحالة . ولقد رأينا ما يكفى من آثار أشد علوم النفس
التطبيقية ارتجالاً فى دكتاتوريات الحرب العالمية الثانية . ولذلك فيجب
علينا أن نتذكر أن مجرد ازدياد المعرفة بالعقل البشرى لا يستلزم جعل
الناس فى حالة أفضل ، وأن كل تقدم علمى يضع مع ذلك مسؤولية أكبر
على عاتق العقل البشرى من جهة استعمال هذا التقدم الاستعمال
الصحيح .

الفصل السادس عشر

الحل أين نحن زاهبون؟

١- التحرك الذاتى

لقد رأينا فى الفصل السادس كيف أن استعمال آلة وات البخارية كمصدر من مصادر القوة فى المناجم والمصانع ، واستعمال القوة البخارية فى تسير القاطرة نتج عنه استخدام سلسلة كاملة من نواجر . التقدم الفنية ذات الأثر الفعال التى ساهمت فى أحداث التغييرات الاجتماعية التى عرفت بالثورة الصناعية . وتتغير طرق حياتنا اليوم فى العقود الوسطى للقرن العشرين بسرعة كبيرة حتى أننا حقاً نعيش فى ثورة صناعية جديدة ، ثورة تقوم فيها الآلات الدقيقة والأجهزة الحاسبة بمهام معقدة دون تدخل بشرى . وتندرج مثل هذه العمليات تحت أسم التحرك الذاتى الذى نقرأ عنه الكثير جداً فى الصحافة اليومية .

ان المكونات الأساسية لكثير من الدوائر الكهربائية المستعملة فى عمليات التحرك الذاتى هى الصمام الثرميونى والخلية الضوئية . ومع ذلك يستعاض عن الصمام الثرميونى فى بعض الحالات بجهاز يعتمد على الخواص القريبة للمواد التى ليست بموصلات جيدة ولا بمواد عازلة ، تلك المواد التى تعرف باسم مواد نصف موصلة . وقد أعلن عام ١٩٤٨ عن تقدم ملحوظ فى استعمال تلك المواد بواسطة علماء الفيزياء الثامنين بأبحاث خاصة بمعامل تليفون بل . لقد اخترعوا الصمام البلورى المعروف الآن عادة باسم الترانزستور . وقد تكون هذا الجهاز من صحيفة رقيقة جداً من الجيرمانيوم ووصلتى شارب القط . ويحدث مثل هذا الجهاز تياراً متردداً يتخذ اتجاهها واحداً ، ويتسبب أيضاً فى أحداث تيار متزايد عند تشغيله . وبمعنى آخر فإن الصمام البلورى أو الترانزستور جهاز تصفية وجهاز تكبير إلى الوقت ذاته . وعلى ذلك فإنه يقوم بمهام الصمام الثرميونى . ومن مزايا أجهزة الترانزستور العظمى أنها أكثر احكاماً وأنه لا حاجة فيها إلى تيار منفصل كما هى الحالة فى الصمام

العادى . وهى لهذا السبب غالبا ما تستعمل فى التجهيزات الكهربائية المتنقلة اللازمة فى كثير من عمليات التحرك الذاتى .

وتعشش بعض مظاهر التحرك الذاتى نتيجة طبيعية لتحسينات التى ادخلت على الأجهزة الميكانيكية لتوفير الجهد فى المؤسسات الصناعية والتجارية والورش . وتواجه نواحي التقدم هذه حاجتنا الى مزيد من الإنتاج والى مزيد من توفير الوقت . ولكن استعمال الآلة الحاسبة الإلكترونية الذاتية الحركة التى تعرف غالبا باسم المخ الإلكتروني أنسب هو شئ جديد على عصرنا الحالى ، ويفتح الطريق لاستعمال أكثر فاعلية بكثير عما عرف من قبل لكل من الموارد المادية والبشرية . وليس هناك بالطبع افتراض قط بأن المخ البشرى لن يعود فى حاجة اليه . ان نواحي التقدم التى تمت فى ميدان التحرك الذاتى انما هى فى الحقيقة من الحوافز التى تستدعى قدرة أعظم على الابتكار ، ومهارة أكثر ، ودرجة عظيمة من التلاؤم مع الظروف الجديدة .

وهناك نوع من الآلات الحاسبة يعرف بالحاسبة الرقمية . وهونوع على درجة كبيرة من التعقيد . ويرجع المبدأ الأساسى الذى تقوم عليه هذه الآلات الى العداد ، أو اطار العد ، والى تالية (١) ذلك المبدأ فى المكنات الحاسبة الأولى التى ابتكرها شارلز باباج (١٨٩٢ - ١٨٧١) وهناك بعض أجزاء من آلاته محفوظة فى متحف العلوم فى سوئ كينسينجتون . والحاسبة الرقمية مصممة بحيث تعد أو تلفظ أشياء متباينة فى أنواعها ، سواء كانت رقوبا فى بطاقات أو نبضات كهربية أحادية - وفى الحقيقة يمكن التعبير عن أى شئ بالأرقام ، ثم بعد ذلك . وهذا هو الميدان الذى يستعمل فيه الصمام الثرميونى أو الترانزستور ، إذ أنه يسمح بمرور تيار كهربى أو يمنع تيارا من المرور . ولذلك فهناك مادة مناسبة ذات طبيعة متباينة تستسلم للحساب الرقعى . ويجب التعبير عن الأعداد طبقا للمقياس الثنائى بدلا من المقياس العشرى العادى ، وبعد ذلك يمكن معالجتها بواسطة الحاسبة . ان نفس طبيعة الاشارات الكهربائية كوحداث ، وانعدام وزنها ، وسرعتها ، تجعل الحاسبة الرقمية الحديثة مختلفة اختلافا شاسعا عن الآلات الحاسبة الأولى التى كانت تعتمد على الحركات الآلية لروافع صغيرة كانت احيانا ما تخطئ وفى حاجة دائمة الى التشحيم .

وهناك نوع آخر من الأجهزة الإلكترونية مستعمل فى عمليات التحرك الذاتى وهو الحاسبة القياسية . وتمثل الأعداد فى هذه الآلة لا بمقادير متغيرة بل بمقادير مستمرة . وعلى هذا فكما ان الطول فى المسطرة

الحاسبة يمثل لوغاريتم عدد من الأعداد ، فكذلك تمثل الأعداد فى الحاسبة القياسية بالأطوال أو بزوايا الدوران أو بالفولتات . وتتجمع فى الحاسبة القياسية دوائر الكترونية متعددة بحيث تشابه تتابعات سلوكها سلوك الجهاز الآلى الذى تسجله أو تتحكم فيه . ويعمل الجهازان الكهربى والآلى فى الحقيقة وفقاً لنفس مجموعة العلاقات الرياضية التى تعبر عنها مجموعة من المعادلات المتماثلة . ولذلك فمهمة العقل البشرى المتحكم فى الحاسبة تجزئة المسألة المراد حلها الى أجزائها التى تتكون منها بحيث يمكن التعبير عنها كمعادلة . ومهما استعمل أى نوع من الحاسبات ، فإن العمل المبدئى من تخطيط أو وضع برامج ، كما يدعى ، إنما يقع على عاتق مجموعة من علماء الرياضيات والخبراء فى العمل الخاص الذى يقام به . وبعد ذلك يتولى العمل جماعة التشغيل وفنيو الصناعة .

وتستعمل الحاسبات القياسية بنجاح فى آلة تسنين الكامات (١) وذلك فى الصناعات الكهربائية والموسيقية فى بريطانيا العظمى . ويتم التحكم فى هذه الآلة بواسطة شريط مثقوب ، ويتكون التخطيط البرنامجى من مجموعة من الأحداثيات تطابق الأوضاع اللازمة لسكين التفريز . ويوضع فى نوع آخر من آلات التفريز التى تدار الكترونياً نموذج للشكل المراد نسخه فى وضع يمكن به تتبع سطحه الكلى بواسطة آلة حساسة تسجل الاختلافات البسيطة فى الضغط بواسطة اشارات كهربية . وتحرك هذه بواسطة ما يسمى بالتحكم الآلى البعيد سكين التفريز الذى يلمس النموذج لمسا بسيطاً . وبهذه الطريقة يمكن القيام بنسخ معقد ذى ثلاثة أبعاد بطريقة دقيقة .

ولا تستعمل الحاسبات الالكترونية فحسب لإدارة عدد الآلات ، بل أيضاً فى العمل المصلحى لتقليل الجهد الى الحد الأدنى ولضمان دقة التسجيل . ونذكر على سبيل المثال لذلك الجهاز الذى ابتكره ج . ليونز وشركاه . ويسمى هذا الجهاز جهاز ليو ، وهو اختصار ملائم لمكتب ليونز الالكترونى (٢) ، ويحسب هذا الجهاز مرتب عشرة آلاف موظف اقى حوالى أربع ساعات . ويعالج ليو أيضاً طلبات محلات شأى ليونز من المخازن ، ويقوم بما يتطلبه هذا من تدوين لكل ما يختص بتعبئة ونقل الكعك والفطائر ، ويقوم فى الوقت نفسه بعمل الميزانية . وهناك جهاز الكترونى آخر معقد ذو أهمية خاصة لحامل السندات ذات الاقساط وهو الجهاز الالكترونى لبيان الأعداد بطريقة عشوائية ، واسمه الدارج

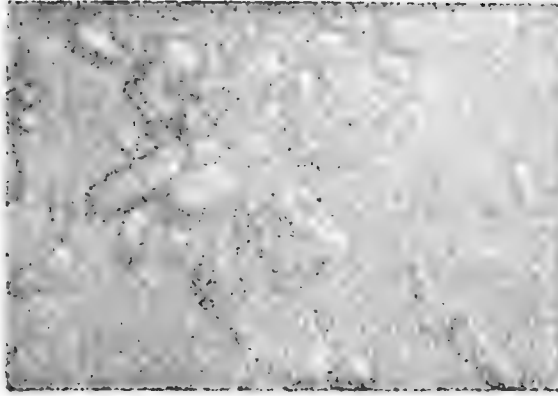
(١) أى أقراص التنظيم المحولة (المترجم) .

(٢) كان المثال النمطى لذلك هو الجهاز الحاسب الكبير ، وادساك ، المصمم فى كيمبردج .

المعروف به هو أرني . وهو مصمم بحيث يسجل صدمات الالكترونات التي تحدث صدفة في انبوية تفريغ ، وبذلك يعطي نخبة من الأعداد جزافا وتطبع أجهزة الحساب اللازمة الأعداد المطلوبة انوماتيكيا .

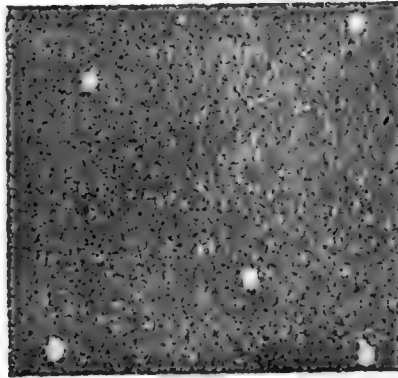
وتظهر بوضوح طرق التحرك الذاتي المستعملة في مشاكل الإدارة وكذلك في أساليب الإنتاج في صناعة البترول . وتشكل ظروف التوليد الكهربائي والنقل الجوي والمائي على أعلى مستوى تخطيطي في الصناعات المعدنية مجموعة معقدة من المتنوعات لابد من إيجاد أفضل الطرق لاستعمال مواردها . وأحيانا ما تستسلم هذه المشاكل لتخطيط البرامج واستخدام الحاسبات . وكذلك فإن استعمال الحاسبات الالكترونية في المقادير الهائلة من البيانات التي تتطلبها العمليات المختلفة في مصنع فني هائل من شأنه تيسير وسائل الاتصالات داخل هذا المصنع . وتباشر في معمل تكرير البترول نفسه إدارة كثير من العمليات الكيماوية من حجرة المراقبة المركزية ، ويمكن للنظر ان يقرأ بالضبط من آلات مختلفة وهو جالس في مكتبه كيف تعمل بعض الآلات الميكانيكية في مختلف اجزاء المصنع . وتسجل القياسات الطبيعية مثل الضغط والزوجة وتجرى طبقا لذلك التعديلات بالنسبة لوضع آلات القيادة . وتقع مهمة وضع تخطيط برنامج معمل التكرير على عاتق اخصائي في الرياضات . انه يفرز البيانات ويكون المعادلات التي لابد من حلها بواسطة حاسبة الكترونية . ويستسلم جيم فقير من المشاكل الأخرى الخاصة بمصادر التمويل وتسويق الناتج النهائي للحساب الالكتروني .

وتعتبر الحاسبة الالكترونية في الأمثلة التي أوردناها امتدادا لقوى الانسان الحسابية ، كما اعتبرت الآلة امتدادا لليد البشرية ، والمجهر امتدادا للعين الانسانية . ولكن الأجهزة الالكترونية في استطاعتها أيضا اختزان البيانات ، وبذلك تعتبر امتدادا للذاكرة الانسانية . وبإسقاط طريقة هي تسجيل علامات على شريط أو قرص مدرج . ويمكن اختزان مثل هذه العلاقات لمدى غير محدود ، وتتكون منها ذاكرة الحاسبة . ويمكن كذلك جعل الحاسبة تستجيب لعلامات من حجم معين ، وتنبذ كل ماعداها . وهي بذلك تمارس نوعا بدائيا من التمييز ، وتشكل بذلك امتدادا آخر لقوى الانسان . ومما لا شك فيه أن ما تم من تقدم في الأجهزة الحاسبة الالكترونية يقع في دائرة النظام الجديد لعلم الأعصاب الالكترونية ، ذلك العلم الذي يختص بأجهزة التحكم والقيادة في البشر والآلات .

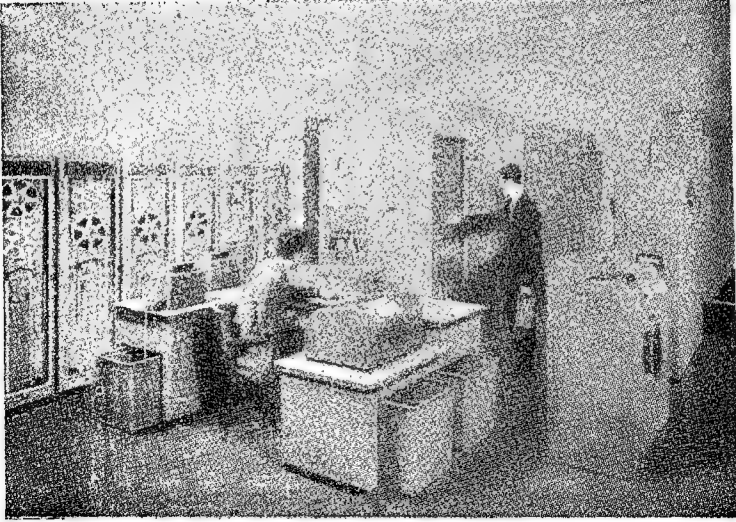


بلورات من هذا الفيروس تحتوى كل بلورة ملايين من الدقائق الفيروسية منفردة تنضيدا
عنديا دليقا بجانب بعضها البعض

التهاب المادة السنجابية فى النخاع الشوكى



هذه الكرات الزغبية المظهر انما هى عبارة عن دلائل من اول نوع من فيروسات التهاب المادة
السنجابية فى النخاع الشوكى من خلال مجهر الكترونى



جهاز فيرانتى بيرسيس لتنسيق البيانات فى الوسط الحاسبة الاساسية . وفى الخلف على اليسار جهاز التشغيل . وفى الخلف على اليمين وحدات الاشرطة المفتطة والبطاقات المثقوبة . وترى وحدات الاشرطة المفتطة فى واجهة الصورة الامامية من اليسار ، ووحدات قراءات البطاقات المثقوبة فى واجهة الصورة الامامية من اليمين .

٢ - أبحاث الفضاء

ان تقدم العلم الخاص بطبقات الجو العليا يتوقف أولا على تصميم صاروخ مناسب يصل الى الطبقات العليا المراد ارتيادها ، ويمكنه حمل آلات التسجيل الضرورية . والصواريخ الخاصة بهذا النوع من الأبحاث انما هى فى الحقيقة قذائف ينبعث منها تيار نفاث ذو سرعة عالية فور انطلاقها . ويحمل رد فعل هذا التيار النفاث الصاروخ فى المرحلة الأولى من انطلاقه . وهذا المبدأ مماثل لذلك المبدأ الذى تسير الطائرات النفاثة بمقتضاه ، الا وهو تساوى كمية الحركة كما هو مبين فى قانون نيوتن الثالث . ولكن على الرغم من بساطة المبدأ ، فقد تطلب الأمر قدرا كبيرا من الجهد لبناء صاروخ يكون ذا فائدة فى أعمال الارتياح . ان الصاروخ ف ٢ ثبت أنه باهظ التكاليف . وكان وقوده الأوكسجين السائل والكحول المشتعل بسرعة هائلة ، كما كان الأمر يحتاج الى ثلاثين رجلا لاطلاقه . وابتكر الأمريكيون بعد ذلك صاروخا اقل تكاليفا ، الراكون ، الذى أطلق من مناطق بلاستيكية من ارتفاعات تبلغ خمسة عشر ميلا . ويمثل هذه الوسائل استطاعوا الحصول على عينات من الهواء من الطبقات العليا ومن قياس سرعة الرياح على ارتفاعات عالية متفاوتة .

ومن الضرورى فى كثير من أمثال تلك التجارب الامام بموقع الصاروخ اثناء سباحته فى الفضاء وتحقيقا لهذا الغرض يجهز موقع الإطلاق بالآلات بصرية تسجل ارتفاع الصاروخ المنطلق بالنسبة للأفق وهناك أيضا أجهزة رادار يمكن بواسطتها مشاهدة موقع الصاروخ على شاشة . ويحمل الصاروخ نفسه آلة تصوير الأراضى ، وآلات لتسجيل التغيرات فى مجال الأرض المغنطيسى . وقد أبانت التجارب الصاروخية بالفعل أن الشمس ينبعث منها لا الضوء المرئى فحسب ، بل أيضا أشعة سينية لطيفة - أى ضوء غير منظور - وقد يوضح المزيد من الجهد تآلق الهواء الغريب نهارا وليلا ويزيد معلوماتنا عن الطيف الضوئى للشمس وعن الأشعة الكونية والشهب .

وربما كان أعظم حدث أثار الاهتمام فى أبحاث الفضاء هو نجاح الروس فى إطلاق أقمار صناعية ثقيلة الى الفضاء اتخذت لها مدارات حول الأرض وكان قمرهم الصناعى الثانى اقل ست مرات من القمر الاول ، ومزودا لا بالآلات فحسب ، بل بمسجل حى - الا وهو الكلب . ومع ذلك فليست هناك الى الآن وقائع كافية لتقدير قيمة الأقمار الصناعية . ولكن رد الفعل الاول الذى أحدثه هذا كان إعجابا بالعمل الفنى العظيم الذى أبداه الروس ان كون الأقمار الصناعية قد استمرت ابقى مدارها حول الأرض ، وإرسال أجهزة الإرسال اللاسلكية التى تحملها اشارات تنبئ من قبل بدبذبتها

بعد ألتصاراً فى ذاته . ومع أن جهاز أرسال القمر أنصاعى الروسى الثانى كان سريعاً فوق العادة ، إلا أن رجال الارصاد فى كيمبردج وفى محطة جودرول باند بجامعة منشستر تبعوا تحركه فى مداره .

وهنا نجد حلقة اتصال هامة مع العاملين فى ميادين أخرى . انه من المعروف الآن أن النجوم لا ينبعث منها نور منظور فحسب ، بل أيضاً اشعاعات أخرى لا يمكن كشفها بواسطة تلسكوب بصرى . وبعض هذه الاشعاعات طول موجاتها أقصر من طول موجات الضوء ، وبعضها ذات موجات أطول من موجات الضوء من نوع موجات اللاسلكى . ونشأ عن دراسة هذه الموجات الأطول ما يعتبر فى الواقع علماً جديداً ، ألا وهو الفلك اللاسلكى . ومع ذلك فإن الغلاف الجوى يقف حائلاً دون جميع الاشعاعات الصادرة من النجوم عدا الضوء وموجات اللاسلكى القصيرة ولذلك لابد من القيام بدراسات للاشعاعات الأخرى من فوق الغلاف الجوى ومن المتوقع فى هذا الميدان أن يلعب القمر الصناعى دوراً هاماً لا فى جعل الدراسات الفلكية اللاسلكية تمتد الى الموجات الطويلة ، بل الى ارتياد ميادين الأشعة دون الحمراء ، وفوق البنفسجية ، والأشعة السينية ، وأشعة جاما .

وقد أطلق الروس أول قمر صناعى فى أكتوبر ١٩٥٧ . وأرسل الأمريكيون فى السنة التالية صاروخاً ، سُمى باسم رائد ، سقط بعد أن وصل الى ارتفاع هائل بلغ ٧٩.٠٠ ميل الى الغلاف الجوى ثانية وتفكك . وفى أوائل عام ١٩٥٩ أرسل الروس الصاروخ لونيك الذى قالوا انه مر على بعد ٥.٠٠ ميل من القمر . وأحرز العلماء الروس فى نفس العام بعد ذلك نجاحاً مبهيناً بإطلاق صاروخ هبط على القمر فى الوقت المتنبأ به بالضبط تقريباً .

وتبدو الرحلات الى القمر كرحلات جيولز فيرن وبعض كتابات هـ . ج ويلز ، ولذلك فمن المستحسن أن نوجه السؤال الآتى : انتج شيء ذو قيمة عن أبحاث الفضاء التى تمت الى الآن ؟ هل الاعداد للزبد من الرحلات الفضائية أمر يستحق العناية ؟ ان هذين السؤالين لثما اثناء نقاشى دار تحت رعاية الجمعية الملكية فى نوفمبر ١٩٥٨ . ويبدو انه قد تحققت بالفعل نتائج مؤكدة ، فقد زدنا استقصاءات الصواريخ والاقمار الصناعية بحقائق عن درجة حرارة الغلاف الجوى للأرض وكثافتة . كما صححت التقديرات السابقة لابعاد الأرض . ويبدو الآن انه يوجد فى الأيونوسفير تلك المنطقة ذات الغازات الثابتة التى تحيط بالأرض تدرج شديد فى درجات الحرارة مما يشير الى مصدر هائل من مصادر الطاقة ربما كان صادراً من الجو الخارجى للشمس . وكذلك فان البيانات

المستقاة من الأقمار الصناعية الاستكشافية للولايات المتحدة تبين وجود طبقة من الإشعاعات حول الأرض ناتجة عن الشمس لا عن الأشعة الكونية وتبلغ إشعاعات هذه المنطقة أقصى درجات شدتها في منطقة تبعد عنا قدر نصف قطر الأرض مرتين ، وتمتد الى بعد يبلغ ثمانية أمثال نصف قطر الأرض ، وقد سمي هذا الحزام باسم حزام إشعاع فان الـ .

وقد انصب كثير من النقاش الذي دار في الجمعية الملكية على نوع المشاكل التي يمكن لأبحاث الفضاء أن تتناولها بالفحص . وعلى ذلك فإن الأقمار التي رجعت سالمة الى الأرض قد تكون قد حملت معها معلومات عن الأشعة الكونية . ومن الممكن تجهيز الصواريخ التي تدور حول القمر بأجهزة تليفزيونية تستكشف سطح القمر . ويمكن استقصاء الأحوال السائدة في المريخ بالآلات يمكن بها الكشف عن أنواع من الحياة قد توجد هناك . وقد تفتح التلسكوبات التي تقوم بعملها من فوق الغلاف الجوي ميدانا جديدا كل الجدة . ويبتكر علماء الفيزياء الآن بالفعل آلات دقيقة لمشاهدة سفن الفضاء من الأرض ، وسيسجل نوع جديد من التلسكوب اللاسلكي الذي أقيم في مؤسسة الرادار في مالفيرن مواقع الأقمار الصناعية بدقة أعظم مما هو ممكن بواسطة الأجهزة الموجودة .

أن مثل تلك الأفكار ذات أهمية لنا جميعا ، وقد يتمخض المستقبل من اكتشافات مذهمة . وليرادونا الأمل انه في ارتياد الفضاء الخارجي حيث لا يمكن للدول أن تخاطر بادعاء ملكيته سيكون هناك تنسيق للجهود والتنسيق الذي بدأ أثناء الثمانية عشر شهرا للسنة الجيوفيزيائية الدولية . وقد أسهمت أثناء ذلك الوقت أكثر من ستين دولة في تجميع مجموعة من البيانات التي ستحتل بعد تحليلها وتمحيصها مكانا في الهيكل العام للمعرفة العلمية التي لا تعرف حدودا . وعلاوة على ذلك فإن الاخلاص الذي تجلي بين الشرق والغرب خلال ما يد من نشاط أثناء السنة الجيوفيزيائية الدولية قد تردد صداه في المجلس الأوروبي للأبحاث النووية في جينيف . وجهاز سنكروسا بكترون الجبار وهو جهاز مصمم لانتاج جسيمات نووية ذات طاقة عالية هو ذاته إحدى نتائج التعاون بين الأمم ، وقد صنعت أجزاءه الرئيسية في فرنسا وألمانيا وسويسرا وبلجيكا والسويد وهولندا والدانيمرك . ويمكن لعلماء الفيزياء من مختلف الممالك اغتنام فرصة وجودهم في جينيف للاطلاع على هذا الجهاز وتنسيق ما وصلوا اليه من نتائج . وعلى ذلك يمكن لممثلي البلاد الذين كانوا يوما ما أعداء الداء في الحرب أن يتقابلوا على أرض محايدة لأغراض السلام .

٣ - أثر العلم

إن لنا أن نسأل أنفسنا وقد وصلنا إلى هذه المرحلة : ما تأثير العلم التطبيقى الحديث على الشخص ذى التفكير العادى من رجل أو امرأة ؟ وما هى المشاعر التى تثور فى نفوسهم حينما يقرأون عن صواريخ الفضاء والقذائف والقوة النووية ؟ لقد وضعت هذه المسألة على بساط البحث بواسطة جماعة للبحث كونتها منظمة الصحة العالمية ، إذ أنها مشكلة ملحة فى حياتنا المتغيرة اليوم .

وقد أظهرت جميع التقارير الواردة من ممالك متعددة ومن الآراء الرسائل التى تلقاها الصحافة أن الخوف منتشر انتشارا واسعا لدى خشية أن تنطلق القوة النووية التى استعملت مرة لالقاء قنبلة على هيروشىما من عقالها بطريقة مدمرة أشد بكثير فتدمر قارة بأكملها ، وعندئذ يهلك الغزاة مع فرائسهم فى بيءاء مملوءة بالرمضاء . وليس هناك رعب من مثل تلك الحرب فحسب ، بل هناك أيضا ذلك الخوف البدائى من المجهول ، إذ يخشى الناس أن أى عبث بقوى الطبيعة قد يعنى تائيرا عكسيا ، وذلك منذ اكتشاف نواة الذرة والتنبؤ بأن مكنوزات لا حد لها من الطاقة من الممكن انطلاقها من الذرة . وهذا شبيه بالخوف الذى كان أجدادنا يشعرون به حينما كانوا يبصرون مدنبا يتألق عبر السماء أو يسمعون زعمرة العاصفة المزعجة . وهناك أيضا من يقول أن العلم تجاوز حده ، وأن الإنسان قد ملأه الغرور بما أتم من انجازات ، وأن عجزه تسرع به إلى الهاوية . وهناك أيضا تلك الأفكار الزاخرة بالأمل وما يدور فى خلد الناس من أن العلم يزداد يوما عن يوم مزدهرا باطراد - وأن القوة النووية ستدير آلات العالم كلها وتجعل الناس يجلسون هادئين يستمتعون بحياتهم . وهناك أيضا من يصور رجل العلم كإخصائى منقطع الصلة بالناس لا يحس بما فى الحياة الثقافية من مقومات بديعة ومختص بالقياسات فحسب . ويرى بعض الناس كما يرى كيتس (١) أن العلم :

سيفتح مفالق الأسرار كلها بدقة

ويظهر الأجواء الموبوءة ويخرج الكنوز المخبوءة

ولكن لا داعى للوجل ، فالعلم لا يختص بأمور خارجة عن ميدانه .

(١) هو الشاعر الانجليزى العظيم (١٧٩٥ - ١٨٢١) الذى نظم على الرغم من موهبه البكر فى سن الخامسة والعشرين عددا من القصائد لافتقها قصائد أخرى فى غزارة الخيال وجمل الفكرة
(المترجم)

ويتأبع الإنسان أبحاثه فى مختلف ميادين النشاط البشرى العظيمة الأخرى من دين وفلسفة وفنون بطرق مختلفة .

٤ - حدود العلم

ترجع العداوة تجاه العلم الى نظرة خاطئة عن مداه ومهامه . أن الانسان محب دائما لاستطلاع الدنيا التى تكتنفه ، وقد دفع به هذا الحافز الى احتقار مباحث الحياة والى أن يقضى أياما كادحا باحثا عن الحقيقة . ويزخر سجله بالفشل كما يزخر بالأعمال المجيدة وبين تاريخ الثلاثمائة عام الأخيرة أن البناء الحقيقى للعلم انما بدأ فحسب حينما تعلم الناس قصر استقصاءاتهم على موضوع جلى واحد . ونحكم الآن نتيجة لهذا التحديد الدقيق على النتائج التى يصل اليها العلم طبقا لمقدار تناسقها ضمن مجالها الخاص . وتستعمل تلك المبادئ العامة المستقاة من الخبرة التى تتكون منها قوانين علمية كوسيلة للمزيد من الأبحاث ، وتنبذ عند ظهور عدم جدواها . انه لا يوجد هناك اطلاقا أى قول بأن هناك مبدأ قاطعا ، ولا أى ادعاء بوجود حق مطلق .

وفى الحقيقة أن ما يعلنه العلم من نظريات يتحدد طبقا لمدى الخبرة الخاص بالموضوع المعالج . وتقتصر أقواله فى بعض الأحيان على مجرد افتراضات : اذا حدث هذا وهذا ، اذن ينتج هذا هذا . وفى داخل دورة من مثل هذه الافتراضات يمكن لمختلف الباحثين أن يتعاونوا ويوثقوا بالتنبؤات التى يكونونها . وبمعنى آخر فإن العلم ما هو الا وصف للخبرات أكثر منه تفسير لها . وزيادة على ذلك فهو وصف داخل مجال محدود ، لامجال فيه لاى تقييم للمقاييس الأخلاقية والجمالية .

وفى تدبيجه لمثل هذا الوصف يستخدم العالم مفاهيمها كمفاهيم الكتلة والطاقة والالكترون والنوترون التى تستخدم كنوع من الاختزال لتوثيق الترابط بين الظواهر المشاهدة . وقد تبرهن تلك المفاهيم التى يستعين بها العالم على نقصها ، ولكنها مع ذلك تؤدي غرضا نافعا . فلقد رأينا فى الفصل العاشر كيف أن نظرية السيل الحرارى ادت خدمة قيمة لبلادك وغيره من العاملين فى القرن الثامن عشر ، ولكن النظرية نبذت حينما تكشفت معلومات أخرى . وكانت الكهرباء أيضا معتبرة كسيل واحد وأحيانا كساليين . وقد استخدمت نظرية السيل الكهربى لوصف الظواهر التى كانت معروفة حينئذ . وعلى الرغم من أن مثل تلك النظرية غريبة علينا اليوم ، الا أنها لم تمنع بويسطلى من صنع آلات كهربية مفيدة ، كما لم تمنع فرانكلين من اجتذاب برق السحاب .

وأنا لنجد في الحقيقة أن تقدم العلم قد تضمن دائما مثل هذا التغيير من نظريات تهمل الى تطبيقات صناعية تدمر وتحلل من جديد . ومع ذلك فالعلم لا يتكون من قروض من هذا القبيل ولا من قوانين غير مترابطة ، إذ أن العالم يعمل وهو مؤمن بأن وراءه ما سماه هوبتهد سنة الطبيعة . وهذا الايمان القائم على تلك المبادئ العامة المنفصلة عن تجاربنا وتجارب زملائنا إنما هو شيء خارج عن دائرة العلم خاص بالفلسفة . ومع ذلك فبصفته ايمانا ليس شيئا حقيقيا فحسب بل أنه نور يهتدى به كثير من العاملين العلماء الذين يدركون أنه على الرغم من الانجازات الفذة لهذا الفصل التي لم يسبق مثيل لها ، فانهم مازالوا في ميدان القوانين الرئيسية يتحسسون طريقهم في الظلام .

٥ - ما أماننا من عمل

لقد اعتاد نقاد حياتنا اليوم أن يقولوا انه بما أن العلم قد ادى الى التحرك الذاتي والى صناعة البضائع المادية بتكاليف قليلة وبكميات هائلة ، فان الحياة ستصبح هيئة مريحة . انهم يقولون ان الانسان مستجف ينابيع جهوده وسينحل نتيجة لهذا الضمور في قواه . قد يكون الامر كذلك ، ولكن أولئك الذين ينظرون بعين الحنين الى الماضي يجب أن يتذكروا أنه مقابل صانع ماهر واحد سعيد الحظ كان يتقن عمله كان هناك مئات من المتسولين المصابين بالدرن الذين لا يجدون عملا قط ، وانه حول كل بلاط في القرن الثامن عشر حيث كان الأمير أو الدوق الحاكم يرعى الفنون وينشئ بطانة من رجال العلم الظرفاء كان الجزء الأعظم من الرعاية يقضون حياتهم في كفاح من أجل الحصول على قوتهم اليومي .

أما اليوم فالصورة مختلفة : هناك فقر مدقع أقل ، وامتيازات أقل ومساواة أكثر - وهناك بعض الخسائر كما هناك بعض الأرباح . ومع ذلك فمن المحتم أن يعترف أدق النقاد أن العلم التطبيقي قد خفف من أعباء الكثيرين وهيا فرصا واسعة للاستفادة من وقت الفراغ ، كما لم يعد ميزة للقلة من الناس . وقد انتشرت مثل هذه التغيرات بسرعة عظيمة في كثير من البلاد الصناعية حتى أصبحت الكتب الآن في متناول الجميع واصبحت السيارة والراديو والتلفزيون في متناول العامل الذي يتناول أجره أسبوعيا ، وحتى أصبح قضاء الأجازات في الخارج وسيلة عادية للترويح عما يشعرون به من إرهاق وملل .

ان نفس وجود وسائل اللهو في كل مكان على نطاق واسع له تأثير سييء ، فعلى الرغم من أن الانسان حر في استعمال وقت فراغه كما

بشء ، إلا أنه كائن ذو عادات ويميل الى التفكير والتصرف كما يفعل زملاؤه . ولذلك فمن المحتمل أن يتقبل أفكارا يستقيها من الصحف والراديو والتليفزيون والسينما ، أفكارا قد يرفضها وهو فى لحظاته الهادئة . وقد لا تكون مثل هذه الأفكار ذات ضرر مباشر ، ولكن التكرار المتواصل قد يثلم نصل قواه الناقدة الحادة .

وقد تحدث بعض التأثيرات من ذات طبيعة العمل الذى تتطلبه الصناعة الحديثة . والآن وقد ازاح التحرك الدائم عن كاهل الانسان عبء كثير من مسك الدفاتر ورعاية الآلات ، تلك الأعمال المملة ، فان هذا قد لا يستلزم استعماله وقت فراغه الاضافى بحكمة . انه قد يشعر بتقليل مسؤوليته عن البضاعة المصنوعة التى تخرج فى النهاية بعد مرورها بين صف من العمال والآلات ، ويقدر مجهوده فقط على أساس الندر الذى يتقاضاه مقابل انتاجه .

ولكن أفى مقنونا أن نرجع عقارب الساعة الى الوراء ؟ أن تالية العمل ، والوحدات الادارية الكبيرة فى الصناعة والحكومة كذلك ، يبدو أنها وجدت لتبقى . وسيكون الأمر أمر إيجاد توازن معقول بين حاجة الفرد الى المسؤولية مع شعور بأنه ذو قيمة فى العمل الذى يقوم به ، وبين القدر الضرورى من الرقابة المنظمة التى تتطلبها ادارة مصنع أو مصلحة أو عمل تجارى - انه لا بد من إيجاد حل اذا كان من المحتم الا يلغى التحرر من الفاقة والكد المفرط بواسطة فقدان حرية الجهد الانسانى الثمينة .

أسيقوم الانسان بهذا من تلقاء نفسه؟ لقد قال باسكال (١) منذ ثلاثة قرون أن الثورات تغير كل شيء الا قلب الانسان . هل لنا أن نتفق معه ونتوقع أن يكون الانسان أنانيا دائما متصفا بالروح العدوانية ، مستعدا أن يكون أمة يجرى وراء آلهة كاذبة ؟ أفى استطاعة الانسان أن يتعلم بعض السيطرة على نفس تلك النظم التى تشكل حياته ؟ ان علم النفس الاجتماعى فى أولى مراحلها فقط ، ولا تتطلب الأبحاث الخاصة بعلاقات الانسان برمائه أمانة الطريقة العلمية التامة فحسب ، بل تتطلب الحكمة المكتنزة لفلاسفة الماضى العظام أيضا .

(١) الفيلسوف الفرنسى الشهير (١٦٢٣ - ١٦٦٢) ، الذى كان عالم رياضيات ممتاز ، وابتكر آلة حسابية تدل على عبقريته كما قام بتجارب علمية فى علم استاتيكا السوائل وعلم الموائع المرنة (المترجم) .

أن الأمل يأتي من العلم ذاته الذي يأمُرنا أن نلقى نظرة فحص طويلة على الزمن . انه من المقدر أن الإنسان قد أخذ يستقر في مجتمعات زراعية ثابتة بعد ما يقرب من ستة آلاف سنة من تعلمه استخدام العدد والآلات . ولذلك فمدينتنا الحالية التي تعتمد بدرجة كبيرة على العلم الذي نشأ خلال الثلثمائة سنة الأخيرة إنما هي طور حديث من أطوار تاريخنا . ان لدينا الكثير مما يدعونا الى تأنيب أنفسنا لاستغلال علمنا التطبيقي في الحروب المهلكة ، وللأحقاد والشكوك الدولية ولا نصياعنا لمشيئة مستبد ظالم . ولكن اذا تجنب الإنسان حرباً نووية فقد يتحسّن طريقه الى قدر من الاستقرار ، ويتعلم كيف يعيش في سلام مع زملائه . قد يستغرق هذا وقتاً طويلاً اذا حكمنا على ذلك بمقتضى سرعة أجدادنا الغابرين . وسيكون الثمن لذلك ، كمن الحرية ، اليقظة الدائمة ، وذلك لأنه مهما حقق أطفال أطفالنا ، فإنهم سيفعلون ذلك فحسب على هدى البور الذي يتلقونه منا .

محتويات الكتاب

الصفحة	الموضوع	الفصل
٣	تقديم	
٥	مقدمة	
٦	مقدمة الطبعة الثانية	
٦	مقدمة الطبعة الثالثة	
	الفصل الأول - النظر الى الوراء	
٧	١ - بعض مميزات التفكير فى القرون الوسطى	
١٠	٢ - الكيمياء القديمة	
١٥	٣ - روجر بيكون	
١٥	٤ - أول كتب مطبوعة	
١٧	٥ - الدنيا الجديدة	
١٩	٦ - حركة احياء العلوم	
	الفصل الثانى - نشأة العلم الحديث	
٢٢	١ - ليوناردو دافنشى	
٢٣	٢ - نشأة علم التشريح الحديث	
٢٦	٣ - بواذر علم فلك جديد	
٣١	٤ - أفكار جديدة عن الكون	
٣٣	٥ - أساس الفلك القائم على أعمال الرصد	
٣٥	٦ - قوانين كيبلر	
	الفصل الثالث - عمل جاليليو	
٣٨	١ - ياكورة اعماله	
٣٨	٢ - تجاربه على الاجسام الساقطة	
٤٠	٣ - أول قانون من قوانين الحركة	
٤٢	٤ - بادوا	
٤٢	٥ - تجارب بالتلسكوب	
٤٧	٦ - أمجد أعمال جاليليو	

الفصل الرابع - افتتاح عصر التجربة

- ١ - أسس علم المغنطيسية ٥٠
- ٢ - اكتشاف الدورة الدموية ٥٥
- ٣ - اكتشافات المجهر ٦٠
- ٤ - فيزياء الغلاف الجوى ٦٣
- ٥ - مبادئ الكيمياء القائمة على أساس علمى ... ٦٨
- ٦ - فرائيس بيكون والكشف العلمى ٧٣
- ٧ - الأكاديميات العلمية ٧٤

الفصل الخامس - عصر نيوتن

- ١ - طرق رياضية جديدة ٨١
- ٢ - مشكلة الجاذبية ٨٣
- ٣ - محاولة نيوتن الأولى لحل المشكلة ٨٥
- ٤ - نظرية نيوتن فى الجاذبية ٨٧
- ٥ - بعض نواحي التقدم فى دراسة الضوء ٨٩
- ٦ - ما قام به نيوتن فى علم البصريات ٩٤
- ٧ - انتشار فلسفة نيوتن ٩٧
- ٨ - القانون العلمى ٩٨

الفصل السادس - العلم فى الثورة الصناعية

- ١ - الحديد والصلب ١٠٢
- ٢ - الآلة البخارية ١٠٦
- ٣ - القارب البخارى والقاطرة البخارية ١٠٩
- ٤ - القوة الآلية وصناعة المنسرجات ١١٤

الفصل السابع - العلم كعامل فى التغير الاجتماعى

- ١ - الانتاج المصنعى ١١٧
- ٢ - تغيرات فى الزراعة ١١٨
- ٣ - الاندفاع صوب المدن ١١٩
- ٤ - أفكار اجتماعية جديدة ١٢١
- ٥ - نشأة سياسة الصحة العامة ١٢٣
- ٦ - التقدم فى علاج المرضى ١٢٦

الفصل الثامن - أسس الكيمياء

- ١ - طبيعة الهواء والماء ١٣١
- ٢ - عمل لافوازييه فى الاحتراق ١٣٦
- ٣ - نظرية دالتون الذرية ١٣٨
- ٤ - تقدم النظرية الذرية ١٤٠
- ٥ - استقرار الكيمياء الحديثة ١٤٢

الفصل التاسع - أسس عصر الكهرباء

- ١ - الاهتداء إلى التيار الكهربى ١٤٨
- ٢ - الكهرومغناطيسية ١٥١
- ٣ - أول قانون خاص بالتيار الكهربى ١٥٤
- ٤ - اكتشاف الحث الكهرومغناطيسى ١٥٦
- ٥ - إنتاج الكهرباء على نطاق واسع ١٦١
- ٦ - الابراق البعيدة المدى ١٦٣
- ٧ - مراحل الاسلكى الاولى ١٦٥

الفصل العاشر - الطاقة والقوة

- ١ - قانون الطاقة ١٦٩
- ٢ - بعض تطبيقات مبدأ الطاقة ١٧٢
- ٣ - تحول الحرارة الى شغل ١٧٤
- ٤ - تحولات الطاقة ١٧٥
- ٥ - آلة الاحتراق الداخلى ١٧٦
- ٦ - الصناعة والنقل ١٧٨

الفصل الحادى عشر - دراسة الأشياء الحية

- ١ - الدراسات المقارنة ١٨٠
- ٢ - التغيرات الكيميائية فى الكائنات الحية ١٨٥
- ٣ - الخلية ١٨٧
- ٤ - النظرية الجرثومية للمرض ١٩٢
- ٥ - بعض نتائج النظرية الجرثومية ١٩٤
- ٦ - الحرب المستمرة ضد المرض ١٩٦

الفصل الثانى عشر - مفهوم النشوء والارتقاء

- ١ - الحياة فى المصور العابرة ٢٠٠
- ٢ - مفهوم التطور ٢٠٣
- ٣ - نظرية الانتخاب الطبيعى ٢٠٥
- ٤ - الوراثة ٢٠٩
- ٥ - بعض نتائج نظرية دارون ومندل ٢١١

الفصل الثالث عشر - الخطوات التى أدت الى العصر العلمى الحديث

- ١ - مطلع القرن التاسع عشر ٢١٤
- ٢ - اكتشاف الألكترون ٢١٤
- ٣ - الأشعة السينية ٢١٧
- ٤ - النشاط الإشعاعى ٢١٩
- ٥ - الضوء والإشعاع ٢٢١
- ٦ - وجهة نظر جديدة فى العلم ٢٢٤

الفصل الرابع عشر - قوى جديدة ومواد جديدة

- ١ - مظاهر العلم الحديث ٢٢٠
- ٢ - الظواهر السطحية ٢٣١
- ٣ - التوربين النفاث ٢٣٣
- ٤ - المواد الانشائية ٢٣٨
- ٥ - اللدائن ٢٤١
- ٦ - التليفزيون والرادار ٢٤٤
- ٧ - الطاقة الذرية ٢٤٨

الفصل الخامس عشر - العلم والصحة

- ١ - أرض لزراعة احتياجات العالم من حاصلات ٢٥٤
- ٢ - موارد الطعام ٢٥٦
- ٣ - تقدم الصحة العامة ٢٦٠
- ٤ - الوقاية ومنع العدوى ٢٦٢
- ٥ - المضادات الحيوية ٢٦٤
- ٦ - الصحة العقلية ٢٦٧

الفصل السادس عشر - الى أين نحن ذاهبون

٢٧٠	١ - التحرك الذاتي
٢٧٦	٢ - ابحاث الفضاء
٢٧٩	٣ - أثر العلم
٢٨٠	٤ - حدود العلم
٢٨١	٥ - ما أماننا من عمل

توضيحات

١ - لوحات

رقم	موضوع اللوحة	صفحة
١	صفحة من انجيل قديم مطبوع	٩
٢	رسم الاطراف من مذكرات ليوناردو	٢٤
٣	رسم قلب مشروح لليوناردو	٢٧
٤	صفحة عنوان كتاب فيساليس التعليم المطبوع عام ١٤٥٢	٢٨
٥	تشریح الجسم من كتاب تركيب الجسم البشرى	٤٣
٦	رسم توضيحي لفهوم الكون فى العصور الوسطى	٤٤
٧	تجارب هارفى على سواعد أناس أحياء مربوطة بسماعات	٥٧
٨	مجهر هوك	٥٨
٩	أشكال رسمها هوك لكائن حى كاس عشبى بحريا ، ورقة دزمار	
	وقطعة قماش حسب ما رآه تحت المجهر	٦٤
١٠	نصفاً كرة ماجنديبيرج	٦٥
١١	تجارب بويل بالبارومتر	٦٩
١٢	صفحة عنوان الطبعة اللاتينية لكتاب بويل « الكيمياء الارتفاع »	
	عام ١٦٦٨	٧٠
١٣	أقدم صورة لاجتماع جمعية العلماء	٧٩
١٤	ديكارت على مكتبه	٨٠
١٥	صهبر الحديد	١٠٤
١٦	آلة بخارية قديمة لرفع الماء	١٠٥
١٧	قطار قديم للركاب ١٨٢٩	١١٢
١٨	آلات ميكانيكية قديمة للفزل	١١٣
١٩	منزل ديلنى على نمط الاحوال المسائدة قبل الثورة الصناعية	١٢٣
٢٠	معمل لافوازييه	١٣٤
٢١	معمل كيميائى	١٤٧
٢٢	التجارب الاولى على التيار الكهربى	١٤٩
٢٣	دالتون يجمع غاز المستنقعات	١٨٢
٢٤	رسم توضيحي قديم وطبعى جدا لنبات	١٨٢

رقم	موضوع اللوحة	صفحة
٢٥	(أ) شريحتان لفضلة انسان و جلد دودة ارضية تحت المجهر	١٨٩
	(ب) الخلية البقيعية لتوقع	١٨٩
٢٦	(أ) خلايا دم الانسان	١٩٠
	(ب) البكتير العنقودي « السبحى »	١٩٠
٢٧	استخدام الاشعة السينية فى فحص صورة	٢٣٤
٢٨	صورة اشعة سينية لاصبع انسان	٢٣٥
٢٩	طبق الزرع الاصلى الذى شوهد عليه أثر البنسلين	٢٥٨
٣٠	نموذج للثيلون البلورى	٢٥٩
٣١	التهاب السنجابية: التهاب المادة السنجابية فى النخاع الشوكى	٢٧٤
٣٢	جهاز فيرانتى بيرسيس لتنسيق البيانات	٢٧٥

ب - أشكال توضيحية

الشكل	موضوعه	الصفحة
١	الكيميائيون القدامى فى عملهم	١٤
٢	آلة طباعة	١٧
٣	نظام الكون طبقا لكوبرنيكس	٢١
٤	أجهزة استعملها تاكوبراهى	٢٤
٥	توضيح أول قانون ليكبلر	٢٦
٦	توضيح قانون جاليليو للأجسام الساقطة	٤٥
٧	مسار قذيفة مدفع منطلقة أفقيا	٤٦
٨	رسم توضيحي قديم لكرة	٤٢
٩	مبدأ تلسكوب جاليليو	٤٥
١٠	توضيح تجربة جيلبرت بالمغنطيس الكروى	٥٢
١١	زاوية الانحراف	٥٢
١٢	تصوير جيلبرت لعداد يعمل على سندانه	٥٤
١٣	كيف تسمح الصمامات فى الإوردة للدم بالانسياب فى اتجاه واحد فقط	٥٦
١٤	الدورة الدموية أثناء مرورها فى القلب	٥٩
١٥	المصورة التى رسمها مالبينى لتطور جنين النقف	٦١
١٦	تجربة تورشيللى	٦٦
١٧	أحد أنواع مضخات الهواء التى استعملها بويل	٦٧
١٨	جذب الأرض لكرة الكريكت	٨٤
١٩	حساب سرعة كرة كريكت دائرة حول الأرض	٨٥
٢٠	جذب الأرض للقمر	٨٦
٢١	جهاز نيوتن لاعتراض أجزاء من الطيف وإعادة تكوين الباقى	٩٥
٢٢	جهاز نيوتن لإعادة تجميع ألوان الطيف	٩٦
٢٣	تلسكوب نيوتن العاكس	٩٦
٢٤	آلة نيوكومن	١٠٧
٢٥	مسخة وات المفردة الاتجاه ١٧٨٨ - ١٨٠٠	١٠٨
٢٦	رسوم تبيانية لأنواع قديمة من الفطريات نشرت عام ١٨٣٤	١١٠
٢٧	أنواع فطريات ظهرت فيما بعد، من رسوم توضيحية نشرت عام ١٨٣٤	١١١
٢٨	نوع الرموز التى استعملها دالتون	١٤٠
٢٩	عمود فولتا ، أو البطارية	١٥٠

الشكل	موضوعه	الصفحة
٣٠	تجسرية أورستيد	١٥٢
٣١	مبدأ كهرومغنطيس حثوة الفرس	١٥٢
٣٢	مبدأ الزناد والجرس الكهربى	١٥٢
٣٣	جهاز دلال به فارادى على الدورات الكهرومغنطيسية	١٥٧
٣٤	تجربة فارادى التى بين بها التيارات الحثة	١٦٠
٣٥	أبسط أنواع الدينامو أو الجزء المكمل له ، الموتور	١٦١
٣٦	أبسط أنواع التليفونات ، المرسل أو المستقبل	١٦٢
٣٧	توضيح احدى الطرق التى استعملها جول فى تقدير المكافئ الميكانيكى للحرارة	١٧١
٣٨	قنينة باستير	١٩٢
٣٩	القوى العاملة فى الطائرة	٢١٨
٤٠	رسم توضيحي لتصميم المحرك النفث	٢٣٧
٤١	مصادر اليرسيكى	٢٤٢
٤٢	رسم كروكى لآلة التصوير التليفزيونى	٢٤٥
٤٣	صدى الرادار	٢٤٦
٤٤	رسم كروكى لمسجلة أشعة المهبط للتذبذبات	٢٤٧

ملف التوزيع في الجمهورية العربية المتحدة وجميع أنحاء العالم الشركة القومية للتوزيع

مكتبات الشركة بالجمهورية العربية المتحدة

القاهرة ٤٠١٢	٣٦ شارع شريف	١ - فرع شريف
القاهرة ٥٥٠٣٢	١٩ شارع ٢٦ يوليو	٢ - فرع ٢٦ يوليو
القاهرة ٤٣٨٣	٥ ميدان عرابي	٣ - فرع ميدان عرابي
القاهرة ٢١١٨٧	١٣ شارع محمد طه العرب	٤ - فرع المنشآت
القاهرة ٩١٠٧٤٢	٢٢ شارع الجمهورية	٥ - فرع الجمهورية
القاهرة ١١٤٢٣٢	١٤ شارع الجمهورية	٦ - فرع مابدين
القاهرة ٨٨٨٣١١	ميدان الحسين	٧ - فرع الحسين
اسوان ٢٩٣٠	١ ميدان العيزة	٨ - فرع البصرة
الاسكندرية ٢٥٤٣٥	السوق السياسي	٩ - فرع أسوان
منشأ ٢٥٤١	٤٩ في ميدان الساعة	١٠ - فرع الاسكندرية
المنصورة	ميدان الساعة	١١ - فرع طنطا
أسيوط	ميدان الحلة	١٢ - فرع المنصورة
	شارع الجمهورية	١٣ - فرع أسيوط

فرانك دولان الشركة خارج الجمهورية العربية المتحدة

الجزائر	شارع بن مهيدي البري رقم ١١ ستر	١ - مركز توزيع الجزائر
بيروت	شارع دمشق	٢ - مركز توزيع لبنان
بغداد	ميدان التحرير	٣ - مركز توزيع العراق
سوريا	شارع ٢٩ أيار - دمشق	٤ - عبد الرحمن الكيالي
لبنان	ص.ب رقم ٢٢٨ بيروت	٥ - الشركة العربية للتوزيع
لبنان	مكتبة النقي - بشار	٦ - قاسم الرجب
لأردن	وكالة التوزيع - عمان	٧ - رجا العيسى
الكويت	منار للتوزيع ص.ب ١٥٧١	٨ - عبد الويز العيسى
السكوت	الكويت	٩ - وكالة للطبوعات
بنغازي	شارع عمرو بن العاص - ليبيا	١٠ - مكتب الوحدة العربية
طرابلس	٥٢ شارع عمرو بن العاص	١١ - محمد شبيب القزالي
تونس	شارع الرشيد	١٢ - الشركة الوطنية للتوزيع
عدين	للخمة - الطابع العربي	١٣ - وكالة الأهرام
البحرين	ص.ب ٤٢ و ٦٤	١٤ - المكتبة الوطنية
الدوحة	المكتبة الاقليمية ص.ب ٢٦١	١٥ - مكتبة العروبة
دبي/عجمان	ص.ب ٣٧	١٦ - عبد الله حسين الرستاق
مسقط	المكتبة الوطنية ص.ب ٢٥	١٧ - المكتبة الحديثة
الكلاب	شارع عبد النبي ميدان التحرير	١٨ - أحمد سعيد حماد
عمان	ص.ب ٨٢	١٩ - مكتبة دار القلم
امسرة	ص.ب ١٧١٤	٢٠ - علي إبراهيم بشير
الربيع ليبيا	ص.ب ٩٣١	٢١ - عبد الله قاسم الحارثي
مقدونيتر	ص.ب ٨١٥	٢٢ - مكتبة سستر
ميسا	لندن	٢٣ - عبد الله غانم محمد
لندن	٢١ في كينغرام ص.ب ٢٢٠٥	٢٤ - مكتب توزيع المطبوعات العربية
ستافورد		٢٥ - المكتب التجاري الشرقي
الفرطيم		٢٦ - مكتبة مصر
واي مدني		٢٧ - مكتبة البحر
الفرطيم		٢٨ - زكريا جرجيس بطليموس
بور سولان		٢٩ - ابراهيم عبد القويوم
عطيرة		٣٠ - عيسى الله منصور ديميرة
واي مدني		٣١ - عيسى عبد الله
كوست		٣٢ - مصطفى صالح

استاد البيع للجمهور في الدول العربية

سوريا ١٠٠ قرش سوري - لبنان ١٠٠ قرش لبياني - الأردن ١٠٠ فلس - العراق ١٠٠ فلس -
السكوت ١٢٥ فلس - السودان ١٠٠ مليم - ليبيا ١٠٠ مليم - قطر ١٥٠ درهم - البحرين ١٥٠ فلس -
عمان ٣٠٠ فلس - اديس ابابا ١٠٠ سنت - اسرة ١٠٠ سنت - الجزائر ١٥٠ سنتيم

هذا الكتاب

يبين هذا الكتاب كيف نمت بعض نواحي معرفتنا العلمية الحالية بعد أن وصل العلم الى أبعد الحدود في تشكيل حياة الناس وأفكارهم اليوم . ويفرض هذا علينا أن نهىء له مكانا خاصا في استعراضنا لتاريخ الحضارة .

وترى مؤلفة الكتاب أن ذلك سيساعد على تزويد غير العلماء بشيء من الإدراك للعلم ، كما سيكون تدريبا مفيدا لأولئك الذين يميلون الى الاستهانة بإنجازات الماضي الجيدة .

دار الكتاب الشرق للطباعة والنشر

بالمشاهرة
فرع الصحافة

Bibliotheca Alexandrina

0590432

الشمس